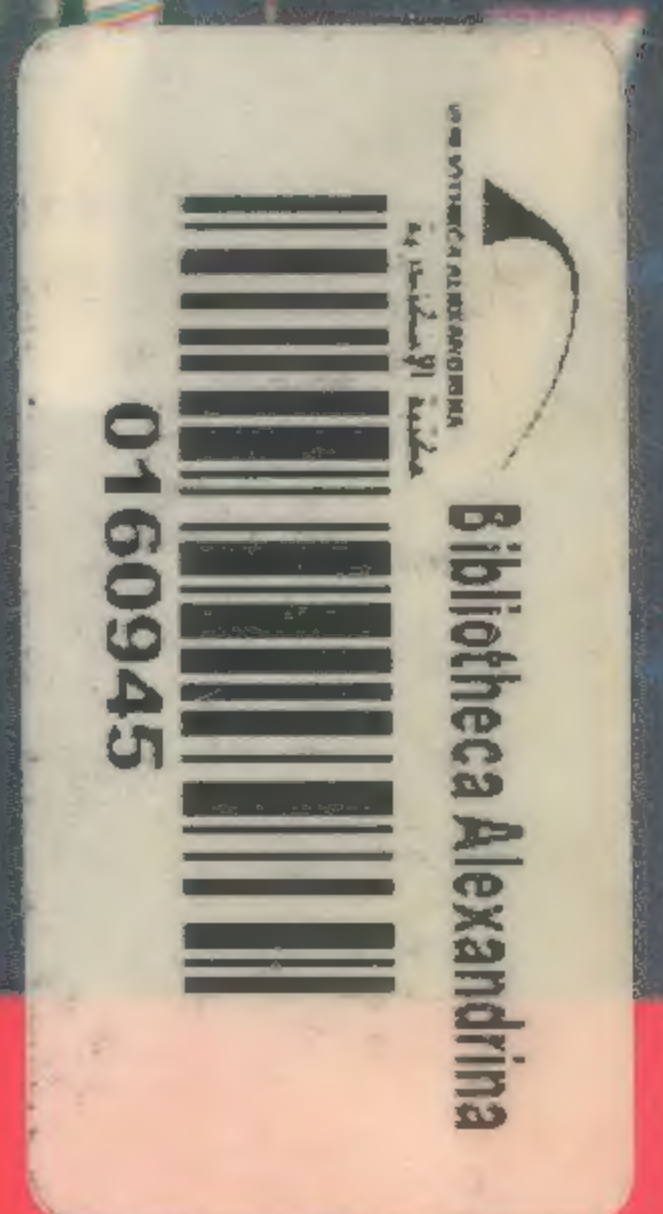


الحرب العالمية الرابعة

دبلوماسية وتجسس
في عمر الارهاب

كونت دي مارنشير
دانيرا . اندليمان



مكتبة مدبولي
القاهرة

الحرب العالمية الرابعة



دبلوماسية

وتجسس في عصر الإرهاب

تأليف: كونت دي مارينشز

و

ديفيد أ. أندلمان

١٩٩٣

يطلب الكتاب مباشرة من

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

مكتبة مذبول

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ, Tel: 756421

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٧	- الإهداء
٩	الشكر
١١	الفصل الأول: أداة المعطف الفضفاض
٤٧	الفصل الثانى : الرجل داخل المعطف
٨٥	الفصل الثالث: مهمة مستحيلة
١٢١	الفصل الرابع: الألف طبقة
١٦٥	الفصل الخامس: مسرح العمليات.. أو الاحلام
٢٠١	الفصل السادس: ذكريات وسياسات
٢١٣	الفصل السابع: خدمة سيدين
٢٣٣	الفصل الثامن: الإرهابيون وغيرهم من الرومانسيين
٢٦١	الفصل التاسع: حقول الغام فى الشرق الأوسط
٣٠٧	الفصل العاشر: حقول ألام العقل
٣٣٣	الفصل الحادى عشر: التنظيم ضد الكشف
٣٦٥	الفصل الثانى عشر: من العدو إلى الصديق ومن الصديق إلى الحليف
٤٠٣	الخاتمة: منتدى القوم المحترمين.

الإهداء

من أجل ليليان

وتذكارا لابنتنا أنسيلم ANSELME

هارينشر

لأجل والدي ووالدتي، سول وسلما SAUL AND SELMA وابني فيليب....

آخر جيل عرف الحرب، والتالية... قد لا يعرفها على الإطلاق.

أندلمان

الشكر

إلى ديفيد أندلمان الذى ساعد صبره ونفاد بصيرته على مولد هذا الكتاب.
والى ابنة الخال العزيزة تيريز دى سان- فالدراوس بدونها ما كان هذا الكتاب
فى حيز الوجود، مع ودى.

مارينشز

باريس

من هذا الجانب على الأطلنطى، إن الدين مماثل لشريكى المؤلف ألكسندر
الذى لولا أنه عاش فى كل حدث من أحداث هذا الكتاب، ما كان هناك كتاب.
ولابنة خاله تيريز دى سان فالدراوس التى كانت فطنة بمقدار كاف لأن
تتعرف فى داخل هذا الخادم المتواضع على فرد كان ملتزما بحياة الكونت
دى مارينشز.

إلى روييز ليشير الذى لم يكف عن الإيمان بى، والذى فعل ما يمكن أن
يفعله أفضل العملاء فقط كان مؤيدا وفردا يعتمد عليه.

وطبعاً، إلى المحررين فى مؤسسة وليام مورو وشركاه، خاصة كوني
روزفيلت الذى بدأ الرحلة معى وإليزابيتيرنى التى قامت بالتمحيص بمهارة
بالغة حتى إثمار الكتاب، ومساعدتها الدءوبة كاترين بويل. وأخيراً بطل لم
يتغن به الشعراء فى أغلب الظروف، المحرر شديد التدقيق بالتفاصيل ديفيد
فولك الذى يقوم بفحص المطبوعات فى خلوة لا بد وأنه وثق فى كل التناغمات
وفى عدم الأخطاء فى هذا العمل.

وهناك دين خاص جلا، أيضاً، إلى أولئك الذين ساعدوا بالنصح والتشجيع،

لا زال البعض منهم يعمل سرا لأجل بلدهم، وقد لا يتم ذكر أسمائهم قط.
وكارين م. ، قبل كل شيء،، التي إلى هذه اللحظة لم يذكر اسمها، والتي
علمتني الدرس الأساسي جدا- وهو أن الذكاء الحقيقي يأتي من القلب كما
يأتي من العقل أيضا.

أندلمان

نيويورك سيتي

الفصل الاول

اولا المعطف الغضاض

التقيت مع ريجان فى كاليفورنيا بعد انتخابه رئيسا فترة قصيرة ، بل وقبل أن يتولى مقاليد الحكم فى نهاية ١٩٨٠ حيث كان يقوم بالاعداد لتولى الرئاسة. قام العديد من أصدقاء ومستشارى الرئيس المنتخب باخباره بأنه لو كان هناك أورى يتوجب عليه أن يراه قبل تولى مهام الحكم ، فإنه يكون الكونت دى مارينشز، وهذه مبالغة لا تتسنى لغير الامريكيين. كنت آنذاك أبلغ نهاية ما يربو على العقد فى الخدمة كرئيس للمخابرات الفرنسية- وكانت أطول مدة بالنسبة لأى رئيس مخابرات فى تاريخ فرنسا. كانت أيضا ذروة انشغالى الكامل طيلة حياتى بالطريقة التى انتهجها العالم ومدى تعنيف الرجال الذين استخدموها.

كان للرئيس المنتخب بعض الاهتمامات المباشرة، فكان مشغولا بحدثين حرجين يلقيان ظلا على يوم توليه السلطة بعد شهر أو نحو ذلك- تخليص الرهائن الامريكيين فى إيران والغزو السوفيتى الاخير لافغانستان، وهذا انعكاس لاهتمامه الكبير بالعداء العنيد للامبراطورية السوفيتية والخطر الذى تشكله.

لم تزل تلك الاهتمامات مجرد ظل خافت لسلسلة متتابعة واسعة جدا من الاحداث التى تكشف بالفعل وما من شك لا الرئيس ولا أى من مستشاريه الأساسيين خامره شعور بوجود شىء فى ذاك الوقت.

إن ريجان والذين اختارهم كمستشارين أساسيين للأمن القومى كانوا يستهلون القيام بإتمام لعبة الختام للحرب العالمية الثالثة- أو الحرب الباردة التى صارت معروفة بهذه التسمية. لقد تم وصفهم بمثابة -«محاربى الباردة» واستمروا فى دوائر كثيرة فى الولايات المتحدة وفى الخارج لينفذوا ما وسموا به.

إلا ان الحرب الباردة التى يخوضونها كانت جزءا يشبه كثيرا معركة عالمية كالحرب العالمية الثانية التى فيها أول ما تعلمته هو خدعة الحرب والجاسوسية والدبلوماسية، أو الحرب العالمية الأولى حيث نال فيها والدى جائزته وكان الضابط الفرنسى المرافق للجنرال بيرشنج، - كان الرئيس المنتخب فى تلك اللحظة - يبذل قصارى جهده ليتعلم كل ما يستطيع عن أعدائه وحلفائه ونوع المعركة العالمية التى يخوضونها. ولم يكن قد بدأ حتى فى التفكير فى الحرب العالمية التالية التى من شأنها أن تلقى بالظلال تماما على السنوات النهائية من رئاسته - حرب الشمال والجنوب، والحرب العالمية الرابعة- مع أنها قد تثبت أنها أهلك الحروب على الإطلاق.

تم لقاءنا فى منزل ممتد فى لوس أنجيلوس يمتلكه ألفريد بلو منجدال أقدم وأقرب صديق للرئيس المنتخب، لكن مضيفنا لم يشترك فى اللقاء. جلسنا على كراسى مريحة فى غرفة جلوس واسعة، الرئيس المنتخب وأنا وصديقى القديم أرنود دى بورجريف الذى حضر جزءا من الوقت وهو الذى ساعد فى ترتيب الموعد الأول مع مستر ريجان، واستمرت المحادثة لأكثر من ثلاث ساعات.

عندما تم تقديمنا إلى الرئيس المنتخب ابتسم ابتسامة عريضة وشد على يدي.
صاح ريجان قائلاً لي : « آه، ها هو الرجل الذي قال إن الروس قادمون إلى
أفغانستان في الساعة واليوم المناسبين ! ».

كان بورجريف المراسل الأجنبي الأساسي لمجلة نيوزويك عندما وصل باريس
في ديسمبر ١٩٧٩ عشية الغزو السوفيتي. أكمل مهمة صحفية وقبل أن
يشرع في الثانية قام بزيارتي كما كان يفعل أحياناً - وسألني بعدما فرغنا من
الغداء عن المكان الذي أعتقد أنه سيتوجه إليه بعد ذلك. قلت إنني أظن إنه
أفغانستان التي قد تبدو شيقة. كانت لدينا إخبارية جيدة جداً بأن السوفييت
قد يثيرون القلاقل هناك.

عاد بورجريف إلى فندقه دون إخباري - وهو لا نكستر، يبعد عن
الشانزليزية بقليل - وحزم حقائبه، واتجه إلى كابول. وحط هناك بعد ثلاثة أيام
في وقت متأخر من الليل منهكا بعد رحلة حول نصف العالم. تم إيقاظه في
الصباح التالي على صوت حاملات الجنود السوفيتية الهابطة في مطار كابول.
كان الصحفي الدولي الوحيد المتواجد ليشهد الغزو السوفيتي مباشرة. ولم
يدعني أنسى سبب اللغز.

لذا لم تكن المقدمات التي طرحت مثار دهشة لتحول حديثنا أولاً إلى أفغانستان.
بات واضحاً منذ البداية أنه بينما قام الرئيس بقدر كبير من التفكير في
المشكلة إلا أنه لم يكن لديه الفهم الأساسي لخصومه ولا أي خطة
لأجل التعامل معهم.

أحضرت معي ثمانى خرائط كبيرة للعالم من باريس وبسطتهم على المنضدة.

قمنا بجولة حول العالم لمدة ثلاث ساعات تالية. تحدثنا عن قوة وضعف تكتلات القوى- الشرق والغرب والشمال والجنوب. وأوضحنا أنه من بين الثمانية معادن الاستراتيجية الضرورية لبناء ترسانة قوى كبرى أربعة لدى الأمريكيين داخل حدودهم، بينما الروس لديهم الثمانية كلها. وتناولنا ضغوط السكان والدين والسياسات والقوة. وسأل الرئيس في ختام الاجتماع إذا كان يمكن الاحتفاظ بالخرائط التي أحضرتها. وافقت على أن يحتفظ بها.

كان هذا الاجتماع في كاليفورنيا مجرد الأول في سلسلة اللقاءات مع مستر ريجان عبر سنوات رئاسته. إلا أنه ربما كان أكثر اللقاءات جدارة بالذكر هو اللقاء الثاني عقب توليه مهام منصبه بفترة قصيرة. تقابلنا آنذاك في المكتب البيضاوي وكانت أفغانستان هي شاغلنا الأول.

بدأت بعد بعض المزاح قائلاً: « سيدى الرئيس، هناك عدة طرق لخوض هذا النوع من الحرب.

هناك طريقة ضخمة وطريقة الذكاء. وحيث إننا لا نستطيع إرسال قوة كحملة قوامها مليون رجل إلى أفغانستان، ربما لاقتراح أن نبدأ ما سأسميها عملية البعوضة؟»

سأل الرئيس: « لماذا البعوضة؟»

«لأن البعوضة لا تستطيع قتل دب، إلا أنها تستطيع أن تزعج الدب، وبذلك لن ينام بعد الآن، ويذهله الطنين كله. لا أحد رأى دبا يقتل بعوضة على الإطلاق. لذا يمكن أن تكون البعوضة عدواً خطيراً جداً. إن ما أقوله الآن أنه لو استطعنا استخدام الخيال والذكاء فربما نستطيع أن نفعل شيئاً في أفغانستان».

سأل الرئيس: « لذلك، ماذا يفعله الشيء الذكي؟ »

لا نحتاج الآن أيا من الخرائط التي قد أحضرتها في أول حديث لنا في كاليفورنيا. كنا نتحدث عن ميادين القتال الخاصة بالعقل.

استطردت قائلاً: إن خدمتي قامت بتحليل قوات عدونا. لديه جيش مبنى على أساس الطراز القديم المتعلق بالنظافة والأناقة تعلقاً مفرطاً، لذا يجب علينا أن نهاجم الجانب الانضباطي.

فأعرف مجموعة من الشباب في باريس، على سبيل المثال، شبان، لا مورد لهم على الإطلاق.

فهم يقومون بطبع الأناجيل الروسية بالأبجدية السلافية القديمة يدويًا. هم فنانون صغار. إلا إنهم يعرفون ما يقومون به على نطاق صغير جداً بالطبع. أقاموا سوقاً سوداء صغيرة للأناجيل فيما بين جنود الجيش الأحمر الموجودين في أفغانستان - تخيل مدى الضربة التي سيوجها هذا الأمر إلى الجيش السوفيتي هناك على نطاق كبير - يجب أن نرسل أناجيل بالروسية إلى القوات في أفغانستان.

ويجب أن نملأ bazars كابل بها حتى الإفاضة. علاوة على ذلك، سيقوم الجنود بدورهم بتهريب الأناجيل إلى روسيا الأم. إنك لا تستطيع أن تحارب أفكاراً بالدبابات والطائرات.

وإنه في هذا العمل وهو الذكاء، الذي أسميه بالذكاء النشط، يجب أن تحارب الأفكار بالأفكار والكلمات بالكلمات، وأحياناً حتى الأكاذيب بالأكاذيب. دع القوات الجوية تحارب الطائرات بالطائرات والجيش يحارب القوات بقوات

والبحرية تحارب السفن بالسفن. فمن المفروض أن نكون أذكاء، لذا يجب أن نستخدم الخيال».

كان الرئيس يبتسم وحثنى على الاستمرار.

وأردفت قائلاً: «إن الجزء الثانى من خطتى بسيط على حد سواء. فلدينا مجموعة من الصحفيين الشبان فى باريس قاموا بعمل نسخة مطابقة لصحيفة الجيش السوفيتى. [النجم الأحمر]. نفس الصحيفة، نفس الشكل، نفس الأسلوب إلا أنها مدمرة. ولها نفس المظهر لصحيفة النجم الأحمر لكنها ليست صحيفة النجم الأحمر.

المقالات تروى الحقيقة عن الجيش الأحمر وعن فشله فى أفغانستان وفى أى مكان آخر فى العالم. وهى من الممكن أن تكون محور سالى أو زهرة طواكيو للحرب الأفغانية. يجب علينا أن نطبعها ونوزعها على الجنود الروس هناك. إضافة إلى إنه يمكنك بيع تلك الأناجيل وتلك الصحف فى السوق السوداء بثلاثة آلاف بالمائة من سعر الإنتاج، وذلك عندما تقوم بتهريبها إلى الداخل. ولذا تصفى نفسها بنفسها وستساعد فى تدمير النظام ومعنويات الجيش السوفيتى.»

كان الرئيس فى هذا الوقت يبتسم- وأحب الأمر.

« والعنصر الثالث، يسيادة الرئيس، ربما يكون أكثر العناصر وحشية- وتساءلت: ماذا ستفعلون بكل المخدرات التى ضبطتها إدارة المخدرات وحرس الحدود والمباحث الفيدرالية والجمارك؟ »

« حسن، لا أعرف. من المفترض أننا ندمرها، أجب الرئيس

فقلت: « ذلك خطأ. وعلينا أن نوزعها مجاناً ».

وتحدث الرئيس بصوت منخفض قائلاً: « آه ! يا الاهی، یا سلام ».

واستمريت، لأنى استطعت أن أرى أنه صدم. « إنها بالضبط نفس الشئ الذى فعله القيتناميون الشماليون فى قيتنام فى رجالكم، حيث قاموا بتدبير ذلك الأمر. فإذا فلح هذا الأمر فإنكم ستقلقون الروس، وسيكون هناك ضغط هائل عليهم ليحزموا أمتعتهم ويعودوا إلى بلادهم تجنباً للتحطم الأخلاقى والجسدى. ذلك هو ماتدور حوله عملية البعوضة ذلك هو الذكاء وذلك هو من أجله صممت الخطة خوض الحروب دون إطلاق رصاصة واحدة فى غضب. »

ترىثت لأجل التأثير. « إضافة الى ذلك، فإن العملية يمكن تدبيرها برمتها بمليون دولار لا أكثر وبقليل من الناس الموثوق بهم. وإذا زاد المبلغ على المليون دولار فإن العملية لن تنجح. وأنتم تعلمون ما يتوجب عليكم عمله فى هذا الأمر- عليكم أن تأخذوا عقلكم وتعصرونه مثلما تعصرون الليمونة ».

صاح الرئيس « هذا عظيم. لم يخبرنى أحد على الإطلاق بأى شئ مثل ذلك ». التقط سماعة تليفون الأمن بقوة وطلب وليام كاسى فى وكالة المخابرات المركزية. كان كاسى قد تولى منصب مدير الوكالة منذ فترة وجيزة. إلا أنه كان أكثر من هذا- كان صديقاً والموثوق به الذى يعتمد عليه ريجان اعتماداً عميقاً لأجل النصيحة حيال أشد المشروعات حساسية وتعقيداً للغاية، والمشروعات المحفوفة بالمخاطر بدرجة كبيرة التى تحتل الصعود والهبوط. ريجان أطلع كاسى على ما كنا نناقشه وأخبره أنه عليه أن يرانى.

ذهبت لرؤية كاسى بعد يومين وكررت الخطوط الرئيسية لعملية البعوضة عليه. وأحبها كاسى. ونهض من كرسيه وأخذ يضرب يقبضتيه فى الهواء.

قلت: « دعنا نقوم بالعملية. ولكن لا تؤاخذنى يا بل (BIU) لأن أقول لو إنك قمت بها ستفشل لأنك سوف تضع خمسة آلاف رجل للقيام بها بيد أنك تحتاج إلى خمسة فقط» صمت لمدة دقيقة وسأل ببطء: « أتود القيام بها يا ألكس؟ »

قلت: « نعم ». ولكن دون أمريكيين. يمكنك رؤيتهم على بعد ميل. ولدى أيضا عدد من المشاكل مع قدرة وكالة المخابرات المركزية على حفظ السر. فلا تستطيع الاحتفاظ بالسر. لقد كنت سادس مدير لوكالة المخابرات المركزية على حفظ السر. أتعامل معه طوال الإحدى عشرة سنة التى قضيتها فى المخابرات الفرنسية.

قال لى رئيس المخابرات المركزية فى باريس فى مرات عديدة: « من فضلك لا تكمل جملتك. إذا أعددت تقريراً عما أنت على وشك إخبارى به، فلا أضمن أنه سيبقى سرا. »

كان كاس مذهبولا بوضوح لكونه محامياً وسياسياً محترف بدون خبرة أساسية فى المخابرات منذ خدمته فى الحرب العالمية الثانية فى (Oss). « ما الخطأ؟ »

أجبت قائلاً: انظر. إن الثمانين أو التسعين بالمائة من العملية التى تقوم بها سرا، فلتقم بها علناً. والعشرة بالمائة التى تفعلها سرا، فلتفعلها فى سرية حقيقية. »

لكن عملية البعوضة مختلفة. سيكون عنده مشاكل خطيرة ليشرحها
للكونجرس إذا ما طلب منه- لا يزال كاسى يريد بشدة القيام بالعملية.

لذا قال: « كيف نقوم بالعملية؟ »

فكرت عليه: « لا أمريكيون، لأنكم لا تستطيعون كتمان السر. إننا
نحتاج إلى الباكستانيين. »

وطرت مباشرة إلى باكستان وأجريت اتصالا مع الباكس مثلما يسمى، بل
كاسى الباكستانيين. « وإن الأمر بسيط جداً، أخبر بذلك.

وقلت: « إن كل ما أطلبه منكم هو أنه عندما أكون فى ذلك اليوم وفى تلك
الساعة وفى ذلك المكان أن تشيخوا بنظركم عنى وتنظروا فى الاتجاه الآخر. »
إننا لا نريد أن نخرجهم- وافقوا على ذلك. وعدت بعد قليل إلى
واشنطن وبيل كاسى.

وبدأت القول: « يا بل، سوف نحتاج إلى قليل من المال. »

« آه، حصلنا على كثير من المال. » أجابنى بل « . ولكن كيف يتسنى لنا
توصيله إليك؟

وإن السبيل الوحيد الذى يمكننا انتهاجه هو إعطاء المال للباكس وسيقومون
بتمويل عملية البعوضة. »

استعددتنا فى النهاية. جددنا الباكستانيين الذين يقومون بعمليتنا والمدافعين
الأفغان عن حرية أفغانستان الذين سيكونون مسئولين عن التسلل إلى داخل
البلد بالبضائع المهربة، المخدرات أو الدعاية. تم إقامة عملية الطباعة فى

باريس فى أحد الجراجات المهجورة، حيث كان المقر والمخبأ، وكانت بانتظار التمويل وإشارة البدء. كان الصحفيون بمساعدة بعض محللينا من وكالة المخابرات يرتكنون إلى أفغانستان الإنتاج صحيفة دعاية مضادة جديدة بالتصديق.

أخيرا، كان كل شىء فى موضعه، لذا صرت قلقا بدرجة متزايدة من تزايد عدد الامريكيين الذين كانوا على علم بالعملية. حدث لأرى كاسى فى واشنطن ومعى أمر تحذير نهائى لدفع أى سوء تفاهم.

بدأت القول: «إننا كلنا مجموعة. لكنى لدى شرط آخر».

سألنى بعناية: «وماذا عسى أن يكون؟»

قلت: «هل يمكنك أن تضمن لى أن صورتى فى نهاية هذا الأمر لن تكون بالصفحة الأولى لصحيفة واشنطن بوش أو نيويورك تايمز؟»
قال برزانه: لا أستطيع ضمان ذلك».

قلت: «حينئذ يابل انس الموضوع. فلن أقوم به».

كانت تلك هى نهاية عملية البعوضة. وإلى أى مدى ستذهب أمريكا تحت رئاسة رونالد ريجان فى خوض هذه الحرب العالمية الرابعة الجديدة التى قد بدأت بوضوح. لم نشرح فى الأمر بقدر ما استعددنا له حقيقة، ومضى الوقت بعد الوقت. وإنه بعد التجربة خلال الحرب العالمية الثالثة بالنسبة لخدمات المخابرات الغربية التى فى رأى عجزها مرارا تحفظ أمريكا على التصرف، لم يعد يتسنى لنا القدرة على تدبير أى حدود حقيقية لخوض غمار الحرب العالمية

الرابعة وإلا سنخمرها. وإن الحضارة الغربية كما سنرى تكون فى مخاطرة حقيقية.

امتلكت سلطة كبيرة فى يدى إلا إنها كانت فى سرية تامة لمدة إحدى عشرة سنة مدهشة. لم تكن سلطة للحياة أو للموت، ولو أنه كانت هناك فرص أيضا لدى إزاء ذلك. لم تكن القوة قوة تدمير نووية لكوكبنا، التى يقبض عليها بذكاء عدد صغير من قادتنا الوطنيين بقبضتهم بطريقة أو بأخرى لفترات قصيرة الأمد. امتلكت فى الواقع قوة المعرفة بالفعل - قوة معرفه كل شىء ممكنه عن معظم الموضوعات الهامة فى العالم، وكيفية تحويل الأحداث إلى ميزة لبلدى ولحلفائنا. إن أولئك الذين هناك سيفهمون بصدق مدى ما يمكن أن تكون عليه هذه القوة من ذكاء. نحن رؤساء أضخم هيئات تجسس فى العالم عبارة عن ناد صغير منتخب.

ولأننا كونا روابط صداقة وثقة متبادلة فإن هذه القوة لن تتوقف تماما عندما نسلم بطاقات هويتنا.

ذات مرة، هناك عضو من النادى ظل متعطشا للمعرفة ولفهم الأحداث طيلة حياته، وآخر يحتفظ أيضا بوسائل الوفاء بها إن البديل للمشورة الذى نستطيع أن نقترحه لأولئك الذين يقبضون الآن على هذه القوة هو الحكمة التى جمعناها خلال الأزمات والتحديات التى لاحصر لها إزاء أمن ورخاء عالمنا الحر. هذه القوة لا تزال تلطفها قوة أخرى فترة كبيرة من حياتى، ألا وهى ميثاق قوى.

هو نظام السرية. وهو عميق بقدر عمق ولاء الدم الذى يقسم به شيخ القبيلة. وإنه مع حياة ومصير الأمم المحفوفين بالمخاطر فإن المعرفة والسلطة

اللتين يستحوز عليهما أولئك الذين هم فى مهنتى المختارة تصاحبهما الحاجة إلى حماية الجواهر التى فى تاجنا فى سرية بالغة العمق.

إن السبب الذى لدى لكسر الصمت الآن هو سبب بسيط - فإننى أريد أن أطبع ما كنت أقوله بصفة خاصة فى معظم حياتى. أعتقد أننا فى حرب. وقد يظهر هذا أمر غريب إلى حد ما، أعطى تقارباً لم يسبق له مثيل بين الشرق والغرب، والديمقراطية التى أقيمت حديثاً فى بعض دول أوروبا الشرقية. وموقف عطف حسب الظاهر من جانب الإمبراطورية السوفيتية السابقة. إلا أن عدونا على مدى ثلاثة أرباع قرن حل محله أعداء جدد، أكثر ثروياً، وربما أكثر الأعداء خطورة بصفة أساسية يتوجب علينا فهم أن أردنا التعامل معهم. فبالنسبة لديمقراطيات الغرب، وبالنسبة لديمقراطيات الشرق التى ظهرت حديثاً، حتى بالنسبة للإمبراطورية السوفيتية نفسها قد بدأت الحرب العالمية الرابعة بالفعل، وإن أعداءنا والمتعصبين من شتى بقاع العالم وأولئك الذين يسيطرون عليهم ويستخدمونهم هم حولنا وبيننا. وإذا نجحوا فى غزواتهم فإن أول ضحاياهم ربما يكون المعتدلون جداً من المسلمين الذين هم الآن أصدقاءنا وحلفاؤنا.

إن هؤلاء المتعصبين أياً كان اقتناعهم الدينى هم إرهابيون يقوضون مؤسساتنا الديمقراطية.

المستبدون الذين افترسوا برؤساء العالم الثالث كالإشباح مصاصة الدماء وحولهم ضد حضارتنا تجار المخدرات الذين يتسللون إلى مدنتنا وتحت قناع إيجاد مهرب من غواية المخدرات يقومون ببيع بذور تدميرنا إلى أولئك الشبان

الصغار جدا أو إلى الأبرياء أو إلى الحمقى للتحقق من أنهم يدمرون مستقبلهم ومستقبلنا مثلهم فى ذلك كمثلى أى طابور خامس فعال تماما .

العالم اليوم مختلف بعض الشئ ، من الذى أمضيت فيه الكثير من إيجارى السريع . وتغيرت هيئة الصفات .

يجب علينا فى هذا العالم الجديد أن نتعلم خوض نوع جديد من الحرب - نوع من العمليات كعملية البعوضة - تكون أساسا للقتال . إنها حرب يكون للذكاء والخيال أهمية أكبر بكثير من القوة ، وفيها تكون للثقة أهمية أكثر من التهديدات ، وفيها يعتمد بقاؤنا على قيد الحياة على خفة حركتنا على الرغم من الاستخدام الحكيم للقوة العسكرية الرائعة التى فى حوزة الدول النامية . نحن فى لحظة - حرجة من التاريخ - التى عندها تكون دلائل مناوشات استهلالية للحرب العالمية الرابعة ، حرب الشمال والجنوب - وقتما نحتاج إلى إعادة التفكير فى مفاهيمنا الأساسية جدا للذكاء والدفاع ، وإلى الضروريات التى ترشد التفكير الاستراتيجى منذ بداية الحرب العالمية الثالثة ، الحرب الباردة . لقد شرعنا حقا فيما قد تكون حربا مميتة للغاية أكثر من أى حرب تم خوضها فى زمن قياسى - وهى حرب ، أكثر مما يبشر به الإعصار النووى الذى تعرضه الحرب العالمية الثالثة ، تنذر بإنهاء الحضارة ، الحضارة الغربية على الأقل ، ، كما نعرفها - ولطالما هناك أسلحة نووية وجراثومية وكيميائية على الأرض فإن هناك إمكانية انقراض الحياة البشرية كلها ، كلها حقيقة سوى الأشكال البدائية جدا .

إن الحرب العالمية الرابعة من الممكن أن تكون معركة تخويف ، بنسب هائلة

حقاً ، باستخدام أسلحة الإرهاب التى لم يتم رؤيتها فى المعارك السابقة. سيكون الكثير منها أسلحة تم إيجادها للمعارك السابقة إلا أنها تغيرت بطريقة غريبة تحت سيطرة أفراد لا يقيمون لضوابط أى حضارة وزنا، وهى الضوابط التى نعرفها ونفهمها.

إن العدو الرئيسى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين كان من بيننا - أوروبيون أمثال هتلر وموسوليني ربما كانت أهدافهما أهدافاً نفسية إلا أن نزعتيهما كانتا غريبة وشمالية بصفة أساسية. كان الكره (البغض) والسلطة وكسب الأرض هم دوافعهما.

كانت الحرب العالمية الثالثة - الحرب الباردة - معركة بين الشرق والغرب - كانت حرب الأنظمة السياسية المتنافسة - معسكراً، حرية، وفى الآخر أخلاقى وثقافى واستعباد جسدى - حيث يتنكر خصومنا فى أوقات كخصوم لهم دين جديد ليس له إله مثلما صورت الشيوعية نفسها. كان قادة الجانبين، مثل نظرائهم الأوائل - رجالاً ونساءً بعقلية شمالية وأوروبية أيضاً.

كان هدفى أثناء الكثير من مدة عملى هو فهم أعدائنا فى الحرب العالمية الثالثة وفهم ما هو الأفضل فى التعامل معهم.

إن الجهود التى بذلتها فى محاربة هذا العدو الوحيد، الامبراطورية السوفيتية، ربما بدت عند هذه المرحلة جدية بأن يتم إرسالها إلى صندوق قمامة التاريخ. إن مصطلح «الامبراطورية السوفيتية».

وكل ما يتضمنه يدل على حقيقة ربما تكون ذكرى يوماً ما. لكن حرفة المخابرات - الحاجة إلى مدى فهم العدو بعمق - أمر حيوى فى التعامل مع

أعدائنا الجدد فى محيط الشمال والجنوب للحرب العالمية الرابعة: كمثل التعامل مع خصومنا فى محيط الشرق والغرب للحرب العالمية الثالثة.

علاوة على أنه بقدر ما هو مفيد فى فهم أصدقاء وحلفاء إنسان فهو أيضا مفيد فى فهم أعدائه- خاصة وأن حليفا معينا أو على الأقل صديقا كان عدوا لدودا له منذ فترة وجيزة. كما هو الأمر مع ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية لو نتعلم هذه الدروس من التاريخ سنكون فى طريقنا الصحيح فى تحويل الامبراطورية السوفيتية التى كانت متراصة ومتناغمة ذات مرة إلى شبكة الأصدقاء والحلفاء حيث تقف معنا كتفا إلى كتف عند تحركنا إلى أكثر معارك الحرب العالمية الرابعة هلاكا - فلنأمل ألا يكون هذا حلما.

أثناء السنوات التى كان فيها لدى مصادر رحية من المخابرات الفرنسية، وبعض البيانات ومصادر أجهزة المخابرات فى كثير من العالم الغربى تحت أمرى، قمت بتطوير قليل من المبادئ، حيال هؤلاء الأصدقاء الجدد.

بات واضحا أن الامبراطورية السوفيتية كانت آخر نظام لليمين المتطرف- آخر الانظمة الاستعمارية من الطراز القديم الذى يجب على الأوروبيين فهمه فهما عميقا للغاية، إلا إنهم لم يفعلوا ذلك.

كانت امبراطورية عتيقة بالمعنى الكلاسيكى، تحاول الإبقاء على مائة وثلاثين شخصا مختلفا أو قبيلة تحت حكم قبيلة روسية عليا من سلالة عرقية أوروبية بيضاء يدينون بدين الدولة وهو الشيوعية. قبل أن تتبدد الامبراطورية نهائيا كان من السهل فى أوقات أن تنسى أن هذه الامبراطورية- جزء من قارة ممتدة من المحيط الأطلنطى إلى جبال الأورال- كان يديرها

أوروبيون، إلا إنهم أوروبيون يعيشون قرنا أو يزيد فى الماضى. الجانب الآخر من الأورال، المناطق الآسيوية من الاتحاد السوفيتى الممتد إلى المحيط الباسفيكى تتشكل من أكبر مساحة فى العالم مما يجعل الدول برمتها بما فى ذلك الولايات المتحدة وكندا أقزما بجوارها.

حتى النهاية ذاتها دافع الروس بحرص- حقا وبدون جدل لا زالوا يضمرون ذلك- عن أحلام السيطرة على العالم التى تخيلنا عنها. كان حلمهم مستلهما من اعتقاد جاء به لينين أنه ليست هناك دولة موثوق بها فى السياسات الدولية وعلى أى دولة الإبقاء على ديناميكية التوسع أو تبدأ على الفور فى الضمور أو التفتت. قال لينين: «إن العنف هو الداية للتاريخ». هذا من الواضح هو جزء من الديناميكية التى أدت إلى نهاية الامبراطورية السوفيتية، ونهاية الحرب العالمية الثالثة أيضا.

حيث ان النظام السوفيتى انهار واصبح التهديد العسكرى أقل تجاه أعدائه التقليديين رغم أنه لا يزال قوة عسكرية هائلة. إن دول أوروبا الشرقية الشيوعية كانت أول من ترك الامبراطورية. وماذا بعد ذلك؟ تفتت الاتحاد السوفيتى ذاته. إن كل دولة من هذه الدول المائة وزيادة العرقية اللغات لا بد أن تتذكر أنها اندمجت فى الامبراطورية بعد إراقة دماء رهيبة.

إن مبدئى الثانى فى التعامل مع الامبراطورية السوفيتية كان الاعتراف بأن الروس نجحوا لعشرات السنين لأنهم انتهجوا حقيقة واضحة للحياة التى تعرف جيدا اليوم ليس لهم فقط، بل لأعدائنا الجدد الذين ربما هم أكثر هلاكا كذلك: الحقيقة هى أنه ليس بالضرورة أن تقهر أرضا لتمتلك الشعب- بل يكفى أن تغزو العقل والروح. وستأتى الأرض أوتوماتيكيا.

يجب علينا فى الغرب بدء اللعب على ساحات قتال العقل هذه. ظللناها لمدة طويلة جدا جديرين بالاحترام. أنا مؤيد لكل القواعد التى رسمها مركز كوينزبرى ولكنك إذا ذهبت إلى الحلبة مرتديا قفازات الملاكمة وملتقى مع رفيق معه مدفع رشاش، فإنك هالك. ربما تبدو نبيلًا وعظيمًا لمدة عشر ثوان، لكن نغيك سينعتك بطلا.

يجب أن نبدأ فى اتخاذ إجراء لخصومنا فى الطرف الأقصى. إننا نقاتل حرب العقل اليوم على جبهات كبيرة ضد أعداء كثيرة. وقبل أن نستطيع هزيمتهم أو انتفاؤهم يجب علينا أن نفهمهم.

إن درس عملية البعوضة المقترحة لم تذهب عبثًا بالنسبة لوليام كاسى-فهم قيمة العمل حيال عقول وقلوب خصومنا وليس مجرد هجوم على دفاعهم الجسدى. لكنه رغم أن كاسى المهيب قد وعى ذلك الدرس إلا أنه لم يكن قادرًا على تطبيقه فى السنوات التالية. وأنا مقتنع أن جورج بوش أيضا أثناء توليه إدارة المخابرات المركزية فيما سبق فهم أبعاد المشكلة. إلا أن مستر بوش أثناء بقائه كان غير قادر على تغيير طرق وكالة المخابرات المركزية. حاول بكل تأكيد ووصف لى مرات المسافات التى تحركها بالنسبة لهذه البيروقراطية الهائلة- وذلك فى اتجاه من شأنه أن أوجد جهاز مخابرات أكثر فعالية.

كان لديه عديد من الافكار القيمة. لكن ذلك استغرق سنوات أكثر من الوقت المعطى لوضعها موضع التنفيذ.

نحن على المحافة الأطلنطية- أوروبيون وأمريكان- نفكر فى أكثر المصطلحات التقليدية للحرب والسلام، السياسات والدبلوماسية سواء كنا نتعامل مع قادة سوفيت من الكرملين أو إرهابيين فى الشرق الأوسط انظمرت

عقولهم بشدة فى القرن الثانى عشر، جهنم القرون الوسطى من صنعهم هم. ربما يكون هذا أكبر فشلنا. إن أفضل محترف للمخابرات هو الذى يستطيع وضع نفسه فى موضع أعدائه-- يفهم كيف يفكرون، وكيف يدركون الحرية، وكيف يتم تحريضهم.

إن المبدأ الثالث والنهائى الذى تعلمته خلال سنوات دراستى لبنائى الامبراطورية السوفيتية كان ذلك الذى بخصوص قواهم الكبيرة- التى يتقاسمونها مع الأنظمة الإرهابية فى الشرق الأوسط. التى يساعدونها فى التنظيم- وليس لديهم مفهومنا الشخص عن الزمن. لم يكن لديهم ساعة ولا موعد أخير. وهذا يفسر جزئيا تأخرهم الاقتصادى. إن التقدم الاقتصادى له خطوة موجهة ولا سبيل لاجتنابه. لكنه من وجهة النظر التاريخية أنه من الأهمية جدا عدم النظر فى الساعة. فلدينا فى الغرب إطارات زمنية أبعد من أن يتم ضغطها- وإننا نتعامل فى أسابيع أو شهور وليس فى حقب زمنية. ومع ذلك فإنه ضعف آخر يجب أن نتعلمه لنسيطر عليه.

تعودنا القيام بالعباب متنوعة من ألعاب الحرب، هذا فى مكتب مدير عام المخابرات الفرنسية. إننا نقوم فى إحداها بالاصطفاف على جوانب مختلفة من الحجرة أمام خرائط ضخمة معلقة على الجدران وهى خرائط.

للعالم- التكتلات الرئيسية للقوات المسلحة لمختلف الامبراطوريات يتم وضع علامات دالة عليها عبارة عن أعلام صغيرة ملونة- مع افتراض أدوار الأمم المختلفة. كان جانبا أو آخر فى كثير من الأوقات يتخذ دور أعدائنا السوفيت. وإنه اعتمادا على طبيعة وفورية الأحداث يقوم فريق آخر فى

أوقات أخرى باتخاذ دور أمم أخرى من الشرق الأوسط- ربما إيران أو العراق
اوسوريا أو ليبيا- كان دور اللعب وللأسف نادرا ما كان يتوقع أحداث الشهور
والسنوات الأخيرة.

إننا من المؤكد آعتقدنا أن إنهاء الامبراطورية كان أمرا حتميا، وأدركنا أن
حريقا هائلا بالشرق الأوسط. كانت تحليلاتنا ببساطة بعيدة عن إطار الزمن.
ظننا أن الحريق الهائل سيأتى فى وقت ما فى بداية القرن التالى، ربما فى
المستقبل البعيد حيث كان جديرا قليلا بانتباه الاستراتيجيين المشغولين
بالأحداث والأزمات الفورية كانت تحليلات مشابهة جارية فى غرفات الحرب فى
كل وكالة مخابرات بداية من لانجلى وفرجينيا إلى ميدان ،وزرزينسكى فى
موسكو- والكل أخفق فى توقع الأحداث التى هم قاموا بها بالفعل.

كنا على الطريق المستهدف للحرب العالمية الرابعة، ولم ندركها فى الوقت
المضبوط. تلك المعركة التى اشتركنا فيها الآن هى شىء آخر حقا. وهى فى
معانيها المطلقة معركة الجنوب ضد الشمال، الأمم الفقيرة غير المنظمة ضد
الغنية المنظمة. سيكون هناك سريعا أكثر من أربعة مليارات من الناس فى تلك
الأمم فى الجنوب، ومليار فى افريقيا وحدها ضد مليار فى كل الشمال كله-
فمن سيكون حلفاؤها الجدد، ومن سيكون أعداؤنا الجدد فى الحرب العالمية
الرابعة هذه، وماذا سيكون أكبر التحديات لأجهزتنا المخابراتية والتحليلية؟
سيكون هناك القليل من نفس المبادئ من أى مناوشة ومن أى سلسلة أحداث،
إلى ما يلى ذلك- وهذا هو مركز المشكلة. يعيش أعداؤنا وسيستمرون فى
الوجود فى الاشكال المستمر فى التحرك- موضحا منظرا طبيعيا حيث يكون
من الصعب أن تفرق بين الشباب الطيبين وغير الطيبين.

إن كل ما نستطيع عمله لتحديدهم هو محاولة فهم موقع الحدود بين الجنوب والشمال، لذا سنتعرف على الأقل فى أى اتجاه النظر قدما من لحظة لأخرى.

إن حلفاءنا التقليديين الناتو NAT من أوروبا الغربية وكندا يضمهم ما نسميه بالشمال ودول العالم النامى كذلك مثل تلك القوة الاقتصادية الكبرى، اليابان. إلا أنه سيكون هناك حلفاء جدد أيضا بجانبنا فى الحرب العالمية الرابعة: هذه التى نبدأ فهمها فهما ضعيفا.

إننا نأمل أن تكون روسيا الأولى منهم دون مستعمراتها. ويجب على استراتيجيتنا السياسية أن تساعد فى تحرير الأوكرانيين عقب استقلال دول البلطيق لأنه على الحدود الشرقية من أوروبا ليس لدينا ثلاثمائة مليون شخص، بل مجرد عملاق من مائتى مليون شخص فقط. وأن الأمة الروسية المنهكة من الممكن أن تكون حليفا هاما.

إن السنوات والجهد التى بذلناها طوال عملى فى المخابرات محاولا فهم العدو. وأخبرت الرئيس ريجان فى أول محادثة معه إن هدفنا لمدة سنوات كان احتواء الامبراطورية السوفيتية لأننا عرفنا أن عدم كفاءاته ستؤدى إلى انفجارها من الداخل انفجارا ضمنيا وانتهيارها تماما. كسبنا الحرب العالمية الثالثة فعلا خلال سنوات الاحتواء تلك. وكنا نجمع فى نفس الوقت مجموعة المعرفة أو المهارات لأجل اكتساب المعرفة التى سنحتاجها لنربح الحرب العالمية الرابعة.

إنى مقتنع بشدة أنه بالإعداد للدفاع ضد القوات الجديدة للجنوب المصطافة ضدنا، لن نكون بمفردنا لأن هناك حبا قليلا ضائعا بين أشد المكونات السياسية

والعسكرية لما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي والعالم الجنوبي. إيران تقبع مباشرة على الحدود الجنوبية المكشوفة السوفيتية مدفوعة بدينها الشيوعي الراديكالي. نتيجة لذلك فهم الكرملين لسنوات الحاجة إلى التسلل إلى صفوف رجال الدين الشيوعي - حوالي خمسة وثمانين ألف رجل قوي. إن المعلومات التي طورناها تشير إلى نجاحهم نجاحاً هائلاً.

يخشى الكرملين آيات الله الإيرانيين أكثر من خوفنا، منذ محاولات الروس المتقدمة «لتنظيم» الصفوف. الدنيا من رجال الدين الشيعة في محاولة لاختيارهم كاصدقاء جدد. ظل أولئك القادة الدينيون الشيعة مصدر دعاية قويا وعدم استقرار مناطق سريعة التقلب بالنسبة للاتحاد السوفيتي، جمهورياته الجنوبية المسلحة. ويقال إن أول التمردات المسلحة الخطيرة ضد الحكم السوفيتي بدأ في تلك المناطق - أذربيجان وأوزبكستان - كنتاج للتعصب الديني والإحباط. فهم كل من القيادة السوفيتية والروسية التعصب الديني أفضل من فهمنا. كانت الدولة الشيوعية قد تأسست على الأيديولوجية الدينية ظاهريا برغم كل شيء. خشى الشيوعيون السوفيت من أي اعتقاد أصولي يختلف عن اعتقادهم. فهموا القوة إلا أنهم خشوا من اتجاهاتها الامبريالية.

غالبا ما قال لينين إنه من الأفضل دخول الحصن حاملا علماً أبيض من البقاء خارجه حاملا علماً أحمر. إنه أفضل من الكثير من سبقوه من السوفيت، من المؤكد أفضل من كل نظرائه تقريبا في الغرب، فقد قبل لينين قيمة فهم أعدائه وحلفائه - واختيارهم لأجل أن يستغلهم.

إن الكثير من الدول الإسلامية الأصولية المعاصرة، والكثير من تلك التي

تتصرف لحسابها تشارك الأهداف والعقلية التي يرجع تاريخها لثمانمائة سنة. لا نستطيع التعامل معها، إذا ما حكمنا عليها بمثابة خصومنا في النصف الثاني من القرن العشرين. يجب أن نضع أنفسنا في موضع أوروبي القرن الحادي عشر أو الثاني عشر. حينئذ فكرت في أننا قد نفهم افضل ما يدور في إيران والشرق الأوسط.

دعنا لا ننسى بعض الدول التي استقلت جديدا وكانت عبدا للاتحاد السوفيتي. أن مصطلح «اتحاد» اليوم هو ذاته تسمية خطأ مهما كان الاتحاد سائدا منذ الأيام الأولى للينين وستالين، وهابطا إيبان خروشوف وبريجنيف ومن خلفهم فإنه كان مدفوعا من جانب المخابرات الروسية والجيش الأحمر كممثل الحزب الشيوعي الذي لا حول له ولا قوة الآن. إن تفتت الامبراطورية السوفيتية يمثل الخطوة النهائية في عملية قد تسمى بعملية التخلص من الاستعمار. فقد الفرنسيون والبريطانيون مستعمراتهما في أوائل هذا القرن، مثلما فعل البلجيكيون والهولنديون واليابانيون وحتى الأمريكيون.

إن موجة التخلص من الاستعمار الآن وصلت إلى الامبراطورية السوفيتية. أولا مستعمراتها في أوروبا الشرقية بولندا، المجر، تشيكوسلوفاكيا، رومانيا، والمانيا الشرقية وبلغاريا وهما أكثر المستعمرات. التي كانت تعول عليهما - بدأت تنشق. ومستعمرات الاتحاد السوفيتي ذاته الآن - جمهوريات البلطيق والأسبوية - ابتعدت وانفصلت - وهو تنبؤ ثوري عميق من منظور الكرملين كما لو كانت كاليفورنيا قررت فجأة أنها تستحق لأن تكون دولة مستقلة.

نحن الأمم الغربية تم تركنا باقتصاديات دول أوروبا الشرقية في حاجة إلى كمية من المساعدة.

بولندا ورومانيا وبلغاريا ، والمجر وتشيكوسلوفاكيا إلى حد ما ستجهد مواردنا إلى الحد الأقصى. إلا أنه يجب علينا مساعدتهم خاصة ولو كانوا سيتخلصون بصدق عن مفاهيم الشيوعية التي كانت مغروسة بعمق جدا.

إن ما نناقشه حقيقة هنا هو شكل أوروبا الجديد. الحقائق الجديدة للقوة ميكيات والدينا الجديدة لأوروبا سوف تؤثر بعمق في تفاعل القوات، وفي القدرة وفي رغبة تلك الأمم في التعاون لأجل الصالح المشترك. كانت خريطة أوروبا الوسطى سيعاد رسمها للمرة الثالثة في قرننا.

وإننى كضابط اتصال فرنسى شاب كنت الشاهد القريب فى أيامى بجانب شارل ديغول وقادة الحلفاء الآخرين فى نهاية الحرب العالمية الثانية حتى إعادة رسمها الأخير. لكننا الآن ندخل فترة ما بعد الـ **POST- YALTA** بميزان جديد للقوى على القارة- هناك ميناء جديد لأوروبا على سبيل المثال- المانيا. اليوم، الأمة التى تم تقسيمها لمدة نصف قرن صارت دولة مرة ثانية ، بلدا واحدا ، بلغة واحدة، وثقافة واحدة، وشعباً واحدا يسوقه نفس العمل الأخلاقى. إنها بيت لثمانين مليون ألمانى، وصارت قوة رئيسية تتركز فى قلب أوروبا. ولو أضفت كل المتحدثين بالألمانية والشعب ذا الفكر الألمانى حول تلك البلدان كلها ، بما فيهم من فى الدول السوقية ، فإنه يكون لديك تسعون مليوناً.

عندما كانت تأتى نتائج كل أولمبياد إلى مكتبى اعتدت على اضافة عدد من الميداليات الذهبية والفضية والبرونزية فازت بها المانيا الغربية وألمانيا الشرقية- فهما معاً دائماً يفوزان بأغلب الميداليات أكثر من الولايات المتحدة أو

الاتحاد السوفيتى. تلك علامه وعلامة هامة جدا على البراعة الألمانية الفائقة. وتصطف على الجانب الآخر فى الحرب العالمية الرابعة قوات الجنوب المهلكة- مهلكة بمعنى العنف الذى هم على استعداد لأن يطلقونه، عند أوقات فى يأس مفض للتهور، ومهلكة أيضا بمعنى ضروريات السكان، والجوع والفقر اللذين يدفعانهم. . إنها دول يحكمها ويسوقها مستبدون، ليست تلك الدول الجنوبية، أصدقاءنا وحلفاءنا الذين يعتقدون أن الاستقرار هو أفضل السبل لتحقيق رخاء شعوبها، ما عدا دولا مثل إيران والعراق وليبيا، على سبيل المثال. قادة تلك الدول يقومون بتسخير شعوبهم وعائدات بترولهم لدعم برامج أعمالهم ويعارضون بصورة أساسية أعداءهم الشماليين. وإنه على هذا الجانب من الخط سيكون هناك جيل جديد من القوى الكبرى فى الجنوب- قوتهم كقوة قوى الشمال العظمى القديمة التقليدية.

توجد فى كل تلك الدول الجنوبية قوات فعالة- ضغوط السكان والجوع ومعتقدات دينية يائسة وتوصيات تاريخية وضمائم- لم تمارسها فى الحقيقة أبدا فى التعامل مع أعدائنا فى الحروب الأولى والثانية والثالثة. إنها قوات نابذة قد تؤثر فى قدرة هذه الأمم لشن حرب ضد الشمال بعمق كما أن الخلافات السياسية الداخلية فيما بين الأمم الديمقراطية للغرب أثرت فى قدرتنا لشن حرب ضد أعدائنا فى المعارك الدولية الماضية. إن تلك القوات النابذة فى الجنوب الجديد سوف تؤثر فى التعريف الكلى لمصطلحات الاشتباك.

لكنه يوجد المزيد هنا قيد النقاش، وهو أكثر من تغيير شكل استبدادى بأخر- لدينا ببساطة ومن نواح أخرى سلسلة متصلة، صورة غير متشقة من

مرحلة من مراحل الحرب العالمية الثالثة لما بعد ذلك. إن الجوهر الحقيقي للعدو يتضمن شكلا جديدا الآن- الذى يجعل الحرب العالمية الرابعة أكثر هلاكا ويأسا بدرجة كبيرة. إن عدونا الآن هو عدو متعصب دينيا. ذلك المتعصب لن يكون سعيدا طالما أن هناك عضوا من المعارضة البغيضة على قيد الحياة- هذا هو الحال فى لبنان حيث الطوائف الإسلامية ثائرة ضد المسيحيين. سيكون المتعصبون غير سعداء أبدا طالما بقى مسيحى فى أرضهم. ويأتى اليهود بعد المسيحيين. تريد الطوائف الإسلامية أن يتم طرد كل دين آخر من كل جزء لهم من العالم. هذه التعصبية هى قلب الحرب الأهلية فى لبنان، والنزاع الإسرائيلى- الفلسطينى، وقلب النزاعات الحدودية المتزايدة، حيث ان معارك الحرب العالمية الرابعة مستمرة وتنتشر. إنها آخر أعمال الحملات الصليبية فى العصور الوسطى.

إن الجنوب اليوم يقوم بصنع قائد يعوزه التفكير السليم لسنا معتادين على التعامل معه.

نيكيتا خروشوف تمكن من خلع حذائه فى وسط اجتماع الجمعية العامة للأمم للأمم المتحدة وضرب به على المنضدة وصرح قائلاً: « سوف ندفنكم ». ومن التهكم أن الروس بدون مساعدة مكثفة من الغرب سيدفنون أنفسهم.

كان ذلك تمثيلا مسرحيا. لعبت بخروشوف وكل سابقيه ولاحقيه القوانين لعبا أساسيا حتى اننا كنا قادرين على فهمه. كانت القوانين قوانين أوروبية- قوانين شمالية. وليست القوانين الجنوبية نفس خطوط العرض على نفس طول موجة العقل، لكنها ليست نفس خطوط الطول.

إنه مع أعدائنا الجدد تأتي مجموعة من القوانين الجديدة تماما للعبة التي فرضتها تلك الدول التي بصدد شن الحرب العالمية الرابعة من الجنوب إننا نقوم بتحديد العودة لماضيينا البربرى للغاية فى أوجه عديدة- إلى وقت قبل الديمقراطية عندما كان حكم القوة المفهوم الوحيد للحكومة مفهوما عالميا. لم يكن هناك مفهوم الصواب ضد الخطأ. لم يكن هناك حد أخلاقى حقيقى.

إن كل افتراضاتنا القديمة للاستقرار والأمن- طريقة قيامنا بالحرب وضمن السلام- تخرج من النافذة على أساس يومى حيث ندفع بسرعة بالغة الهرج والمرج تجاه القرن الحادى والعشرين.

وأنه لم يكن ممكنا أبدا عبر تاريخ الصراع الرد بأسلحة جديدة مع قديمة. وقت أن تم اختراع القوس والسهم كسلاح كانت عضلات الإنسان تقدم القوة النارية. ثم قام إيطالى مجهول ومغمور باختراع ما يسمى بالقوس والنشاب (المنجنيق)- آله لم تعد تعتمد على ذراع الرامى ولكنها تعتمد على آله ميكانيكية. وكان يعتقد فى منتصف القرن الخامس عشر أن هذه الآله- سلاح أساسى.

ولأول مرة اخترق السهم الدرع. كان أولئك الذين استخدموا القوس والنشاب أمرت الكنيسة بحرمانه كنسيا. أن مجلس لاتيران LATERAN عام ١١٣٩ حقيقة جرم استخدام ضد المسيحيين رغم هذا كان حتميا أن يسود فى النهاية ذلك السلاح. وأعلن عنه فى شكل جديد من الصراع. كل ثورة جديدة فى التسليح لها تأثير بركانى على الاستقرار للنظام العالمى.

إن الارهاب آخر تلك النوع من السلاح فى الصراع الجنوبى- الشمالى للحرب

العالمية الرابعة: إنه يحل الأسلحة النووية، ويمكن استخدامه بطريق مخيفة جديدة، التي كانت آخر الأسلحة في الحرب العالمية الثالثة.

كان أمننا يتم حمايته لمدة الأربعين سنة الماضية عن طريق ما أصبح الآن مفهوماً قديماً يسمى الدمار التبادلي المضمون (MAI). كان هذا الدمار بناءً بسيطاً في شكله الأساسي يوازن الرعب النووي. إذا قام جانب بإطلاق أسلحته النووية لأي سبب ما فإن الجانب المضاد سيكون لديه أسلحة كافية مدمرة بعد إطلاق الانفجار الفجائي صواريخه النووية ويدمر الآخر. أو العدو من الممكن أن يتصرف (يرد) بسرعة كافية ليطلق صواريخه بيد أن صواريخ العدو في الهواء. إن الرد يرجع إلى الرئيس تماماً الذي لديه اختيار كامل. إذا أطلقوا أسلحتهم فإنه يضغط على الزر. وليس عليه أن يذهب إلى الكونغرس وإلى لجان الاشراف في المخابرات لأجل الاذن بالضغط على الزر.

إنه فعل هذا. كان لديه أحد الأمور الذي يستغرق ثوانى، ودقائق على أحسن تقدير قبل أن تضرب الصواريخ. كان النظام عنيداً لا يرحم وكان لا يقبل الجدل. نجاح بدرجة كبيرة لأنه ما من جانب كان راغباً في اختيار افتراضاته. ونجح لأنه كان بين الأمم التي تشاطر نفس الاحترام للقيمة الضرورية لحياة الفرد الإنسان. ونجحت الثقة. علاوة على أنها نجحت لأن العواقب كانت وخيمة جداً.

إن المواجهة وجها لوجه للحرب العالمية الثالثة: ، أزمة الصواريخ الكوبية كانت لعبة تافهة جداً في الحقيقة وهي لعبة الغميضة التي يعصب فيها عينا لاعب يود أن يمسك الآخر. لا يعتقد أى أحد في الحقيقة أن السوفييت سوف

يشير السوفييت نصف العالم باسقاط قنبلة لا يمكنك إطلاق إشارة خطر كاذبة تحت ما يسمى الدمار التبادلي المضمون MAD : فإنك إما أن تضغط على الزر أو لاتضغط.

إن الدمار التبادلي المضمون MAB اليوم فى العصر النووى يجب أن يفسح الطريق أمام مفهوم جديد للعصر ما بعد النووى. حقا إن القرار الفردى من جانب إدارة بوش فى سبتمبر عام ١٩٩١ للتخلص من القوات النووية قصيرة المدى يحدد الاعتراف الرسمى بأن الدمار التبادلي المضمون قد تم إحالته إلى قمامة التاريخ. وإن الذى خلق الدمار التبادلي المضمون MAD بالنسبة لوقتنا ربما يسمى ببساطة « دمارا مؤكدا ». وماذا سيستغرق انزال الرعب فى قلوب أولئك الذين يستخدمون أسلحة الارهاب الجسدية والثقافية دون خوف من الرد بسبب الفشل الجماعى للارادة من جانب الاعداء؟ حقا، إن ما يحدث فى الحرب العالمية الرابعة إذا استغل الإرهابيون أو أبطالهم الوطنيون الأسلحة الذرية والبيولوجية أو الكيماوية التى ستجعل أى معركة تنتهى قبل ظلال الحرب.

لذا فإنه يتوجب علينا لتوضيح أن الاستراتيجية الجديدة التى تحكم الحرب العالمية الرابعة هى التدمير المؤكد. إن تجاوزت الحدود بمسافة ملليمتر واحد ، وهى الحدود المقبولة، ستجد نفسك مدمرا بكل تأكيد- تماما وكاملا دون تردد. لم يتسن النجاح لهذا النظام حتى الآن. إن مفهوم الدمار المؤكد فى عالم مسلح تسليحا تقليديا يتم اختباره بالفعل بصفة متكررة. وقد فشل فى التأكيد على دمار أولئك الذين يستخدمون الإرهاب كسلاح. وإذا فرض أن الإرهابيين دمروا

الطائرة بان أميركان رحلة ١٠٣ فوق لوكيربي باسكتلندا فإنه لم يكن هناك قصف انتقامي لقصر الرئاسة لمعر القذافي في طرابلس. وذلك يكون رد الفعل الذى خولته سياسة الدمار المؤكد.

إن فكرة الدمار الشامل من بعض الوجوه هى فكرة متعلقة بالكتاب المقدس بنسب منه- والعودة عودة كاملة إلى مفهوم «العين بالعين». إن الحرب العالمية الرابعة تشكل فى طرق عديدة حقيقة العودة إلى أصولنا البدائية الأولى. إن عقلية القرون الوسطى لأى من آيات الله الإيرانيين تحدد حقيقة المفاهيم الاستراتيجية للقرن الحادى والعشرين. يجب علينا أن نكون مستفيدين مستعدين كاملا لتقبل هذه القواعد الجديدة، للوصول إلى ميزان قوى جديد، أو الرعب، لتأكيد السلام- وللتأكيد على الدمار المؤكد يلى الدمار التبادلى المضمون حيث ان المفهوم الاستراتيجى يمنع دمار الكرة الأرضية من الحرب العالمية الرابعة.

إن الصراع الذى سيتكشف كحرب عالمية رابعة قد لا يتضمن عملا جماعيا من أى نوع. ربما تشتمل المعارك على تحركات جماعية مكثفة للقوات مثل عملية عاصفة الصحراء. إلا أن القتال ستخوضه دون شك أيضا وحدات مميّنة جدا وصغيرة من الإرهابيين الموجودين فعلا فى مكان تم تمويهه بعناية فيما بين الشعوب المهاجرة من الأمم الجنوبية ويعيشون بالفعل فى كل من عواصمنا الشمالية. هذا هو السبب فى أن المخابرات وهيئات المخابرات العالمية الرائدة ستلعب دورا حرجا للغاية فى هذه الحرب أكثر مما قامت به فى نزاعات الكرة الأرضية التى سبقت هذا الأمر فى هذا القرن.

إن هيئات المخابرات تلك تدرك الحاجة إلى التسلل وتدرّك قيمته- وهو سلاح أساسي في ترسانة الإرهابى. ويفهمون كيفية استخدامه ومواجهته. استغل الحلفاء هذا السلاح عبر الكثير من أوروبا في الحرب العالمية الثانية. وكان حجر الزاوية لحركة المقاومة ، في أوروبا المحتلة . إنه في نهاية ذلك النزاع عندما خبت الحرب العالمية الثالثة بهدوء حرك ستالين التسلل إلى هضبة عالية ، كشف رائد من المخابرات السوفيتية KGB هرب إلى الغرب عن اجتماع تم عقده في الكرملين برئاسة ستالين ، حيث قرر ستالين التخلص من حوالى ثلاثة ملايين يهودى فى الاتحاد السوفيتى " بالسماح " لهم بالهجرة ، أمر ستالين بأنه يجب أن يكون من بين الثلاثة ملايين عشرين ألف عميل للمخابرات السوفيتية تقريبا أخبرنا الضابط بأن تلك السياسة استمرت منذ ذلك الحين.

وعملية الخروج تمثلهم حتى اليوم، وهى آخر موجه للهجرة اليهودية إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتى .

إلا أنه فى الحرب العالمية الرابعة لم يكن المتسللون مجرد عملاء للتجمع الاستخبارى بل إنهم بالأحرى سيصبحون آلات الدمار وآلات المعركة كذلك . ستكون الحرب العالمية الرابعة حربا إرهابية .

ستكون هناك دول معينة من الجنوب وستستخدم الإرهاب بفعالية أكثر وبمزيد من التأكيد على أنه آله حرب عسكرية أو سياسة دول ، أكثر من استخدام دول أخرى له . ويتضح اليوم أن ليبيا وسوريا وإيران والعراق، على سبيل المثال ، هم المساندون الأساسيون لهذا النوع من الحرب . علاوة على أن هناك تقاليد معينة فى كل منها ، قوات غامضة فى تاريخهم مما يجعلهم أكثر

احتمالا عن الآخرين بأنهم يعودون للإرهاب كسلاح المعركة ضد الشمال .

كانت هناك مجموعة تسمى هاشيشيم HASHISHIM - السفاكون - أعضاء نيرازى إسماعيلية ، وطائفة دينية سياسية إسلامية تعتبر قتل أعدائها هو واجب دينى ، و ذلك أثناء الخلافة عندما كان التركى الأكبر يحكم الكثير من العالم الإسلامى من القسطنطينية . كما هؤلاء الاعضاء من المنطقة التى تسمى الآن الشمال العراقى وكانوا أول من استخدم الارهاب وان كان بشكل بدائى كسلاح حرب . عاد ماركو بولو بقصص عن شبان قد تم اختيارهم لحرفة الاغتيال . كما يتم إعطاؤهم حشيشاً ويتم أخذهم إلى الطرف الافقى من قلعة الجبل . وهناك يجدون أنفسهم فى حديقة ساحرة ، تحيط بها حقول رائعة . وقيل لهم إنها جنة الله . كانت هناك طيور مغردة ، وأشجار موردة جميلة ونساء فاتنات . كان يتم ترك الشبان يتجولون لمدة خلال تلك الجنة ويتذوقون فاكهتها ويجربون أفراحها وسرورها .

ثم بعد ذلك يتم أخذهم بعيداً ويقال لهم : " الآن رأيتم عينة من الجنة " . ويتم إعطاء كل واحد خنجراً صغيراً ، وهو سلاح سراى السلطان المرعب ، و سلاح الخلافة . كما أنه تم إخبارهم أيضاً : " إنكم قتلة . قد يتوجب عليكم الموت خلال واجباتكم . لكن لو متم ستذهبون إلى الجنة مباشرة . وتسنت لكم لمحة عن الجنة . » إن فيلقهم من الإرهابيين المخلصين الذين كانوا يعملون من حصون خلال فارس والعراق أعلن عن ضحايا لاحصر لهم فيما بين جنرالات ورجال دولة فى الخلافة العباسية وبعض الخلفاء ذاتهم كذلك . كان السفاكون قوة مخيفة لمدة قرنين حتى الغزو المنغولى . علاوة على أنه حتى اليوم تزعم الطائفة

عن اتباع لها متناثرين عبر سوريا وفارس وآسيا الوسطى. ويتخلل إرثهم طرقات السلطنة.

وان الأسلحة الإرهابية اليوم هى نسخ معدله أكثر هلاكا من خنجر القاتل، ولو أنها غادرة وأشد خطرا عن ذى قبل. حدث غالبا أثناء الحملات الصليبية أن الأعداء تلاقوا على مآدب طعام أو فى أعياد قبل أو بعد المعارك. فإنه فى إحدى تلك المناسبات استقبل صلاح الدين، أعظم قادة المسلمين. بعض الزعماء الأوروبيين. كان ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا من بينهم، وكان رجلا عظيما وقويا قاتل بسيف بيديه بضراوة. وقال الملك ريتشارد: «هكذا كيف نخوض الحرب.» وأخذ السيف ووضع خوذة حديدية على المنضدة وسدد إليها ضربة هائلة محدثا بها انبعاجاً.

والتفت إلى صلاح الدين وصاح: «الآن دعنا نرى كيف تخوضونها!». أجاب صلاح الدين: «إن كلا منا له طريقه الخاصة.» وأخذ وشاحه الحريرى الذى كان يرتديه واسقطه على سيف الموقوف وحيد الحد والحاد مثل الموس. انقطع الشاح إلى نصفين. وابتسم صلاح الدين ابتسامة خفيفة وقال: «هذه طريقة أخرى من طرق الحرب». إن أنواع المعارك التى سيتم خوضها فى الحرب العالمية الرابعة ستتم عن طريق أنواع من الأمم التى ورثت عباءة الخلافة والامبراطورية العثمانية. إننا بدأنا بالفعل حملات صليبية جديدة. فقد الشمال آخر الحملات الصليبية منذ ألف عام مضت. لا يجب علينا، ولا نستطيع أن نفقد الحملات التى شرعنا فيها الآن. إن الحملات الصليبية القديمة كانت أعمال غزو لأجل الغرب. ستكون الحملات الصليبية القادمة ستكون أعمال دفاع عن النفس.

لا يجب علينا أيضا أن نسمح لأنفسنا أن ننسى أن الحملات الصليبية الجديدة هذه التي نسميها الحرب العالمية الرابعة ربما تقع بعيدا عن شواطئنا مثلما فعل أسلافنا في القرون الوسطى وبدأوها ليفوزوا فيها. وربما يكونون قريبين مثل منعطف السينما.

يتوجب علينا أن نكون مستعدين لنضحى بأنفسنا في كل مكان. إن أعداءنا الذين حولنا مستعدون للتضحية بأنفسهم. وعلى استعداد للموت لأجل معتقداتهم. إن معتقداتنا راسخة بعمق أيضا على السعادة المادية.

إن الانظمة الإرهابية في الشرق الأوسط يدركون مواطن الضعف فينا. يلجأون إلى الابتزاز والاغتيال والإفلات من العقوبة. إنهم يبحثون عن المواطن المكشوفة وقد وجدوها. إنهم لا يعرفون الصفح في طريقتهم مثل السوفييت الذين ظلوا أعداء في أذهاننا لعشرات السنين الماضية، إلا أنهم من الممكن فهمهم بدرجة قليلة إلى حد بعيد. يجب علينا السعى إلى فهمهم. فهما عميقا. ذاك هو أحد الأدوار الرئيسية للمخابرات اليوم.

لقد بدأنا في فترة الشك الرهيب في الشرق الأوسط، وأوجدنا نافذة لفرصة عظيمة. حان الوقت للضغط على أعدائنا - ضغطا سيفهمه أعداؤنا، ضغطا على علاقاتهم - بينما نقوم ببناء أصدقاءنا. إن الهدف النهائي لمخابراتنا سيكون تقديم صورة كاملة غير متميزة للعالم لقادة بلداتنا لكي يتسنى لهم التصرف بحكمة وفهم. هذا هو رأيي دائما. يالأسف لم يشاركني فيه معظم القادة الأمريكيين المعاصرين.

إن النظام الأمريكى مختلف جدا عن النظام الأوروبي. يتجاهل الأمريكيون

«شأن الدولة» الذى يجب استخدامه فى عالم المخابرات كحجة لتبرير أكثر الأعمال حرباً فقط. يعتقدون أنه ليس له مكان فى السياسة الأمريكية. إلا أن اعتقادى العميق أنه لابد وأن يكون متاحاً بدون تهاترات أو انتقام. أخبرت الرئيس ريجان ذات مرة كم أعتقد بشدة فى «شأن الدولة» الذى قد يفوق أى فضيلة تقليدية - وزنا. إنه شئ فهمناه نحن الأوروبيون لقرون.

لكنه لو أن هناك حاجة إلى شأن الدولة فإنه لمحاربة أولئك الأعداء عديمى الرحمة للغاية - وهم دول الجنوب الإرهابية. ولأنهم بدون أى قدر ضئيل من الأخلاق تماماً التى تخدم فى السيطرة على تصرفاتنا فى الأوقات المتحضرة فإنه يجب أن نكون مستعدين لإسقاط رداء كياستنا نقاتلهم. فعلاً فى مجالاتهم.

إن هذا العمل هو محاولة بمعنى إعادة كتابة تاريخنا المشترك أو على الأقل الكشف عن الركن الذى يتوانى فى غموض. إنه بدون فهم بعض ديناميكيات الحروب الثلاث الأولى فى هذا القرن سندخل الحرب العالمية الرابعة نصف عمى ونصف طرش.

حيث إننى أطول مدة كرئيس مخابرات بين رؤساء المخابرات الغربية فإننى علمت أن هناك نوعين من التاريخ. يوجد تاريخ نراه ونسمعه، التاريخ الرسمى، ويوجد تاريخ سرى - الأشياء التى تحدث خلف الكواليس، فى الظلام، تتخبط فى الليل. عندما يكون للواحد رؤية دولية حقيقية فإنه يصبح الإثنان مُدرَكَيْن. كلاهما ضروريان. واننى كلاعب فى الأول ومناور فى الثانى حاولت أن أجلب لعملى نوعاً من فهم وجهى التاريخ الحيوى لو كنا قادرين على توظيفه فى عالم تسيطر عليه بتزايد قوى خبيثة تسعى إلى تقويض قيمنا الأساسية الكبرى ومؤسساتنا الأساسية.

إننا ، قبل كل شيء ، نحتاج إلى موقف تقييم هادئ . وأن وجدت أى رسالة فى هذا الكتاب فهى أنه خلال الحروب العالمية الثلاث يوجد شىء ثابت أكد انتصارنا - وهو التقييم الهادئ لطبيعة العدوان .

ما من أعدائنا فى الحرب العالمية الرابعة أقل جدارة بمثل ذلك التقييم الهادئ من أعدائنا فى الحروب العالمية الثلاث التى حدثت من قبل . إنه لم يكن من المناسب فقط بل ومن الضرورى أيضا فى كل حالة أن نسخر فى سبيلها الجهود وخبرة الحياة الطويلة من القطع الصغيرة التى لا حصر لها والمنتقاه من المعلومات كما لو كانت فى معضلة ضخمة حيث يتم تجسيع القطع إلى نماذج تعطى معنى . إن الآراء حول عللنا المشتركة التى تتجزأ ونوضحها فى هذه الصفحات هى غالبا تلك التى لدى الممارس العام أكثر من الأخصائى . لكنها جديرة بالدراسة .

الفصل الثانى

الرجل داخل المعطف

إننى أنتمى إلى عائلة عتيذة دفعت غالبا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية. فوالدى أصيب بجرح خطير فى الحرب العالمية الأولى. وقتل شقيقه هنرى عام ١٩١٨. وماتت عمى عام ١٩٤٥ فى معسكر الاعتقال النازى رافنسبروك . RAVENSBRUSEK

إن فنون الحرب وفنون الجاسوسية فى المصلحة الوطنية تتصف بهم هذه العائلة بعمق. فإنه من جانب والدى تعود جذورنا إلى سفوح الجبال فى القرن الثالث عشر، إلى أملاك النبيل فى عام ١٤٥٢. عملنا فى جمع النبيل فى برغندى فى فرنسا، وفى مجلس النمسا، بعدما غزا لويس الرابع عشر سفوح الجبال وفرنسا نفسها. كانت والدتى من نسب بروتستانتى فرنسى. رحل أجدادها عن العالم القديم إلى سانتو دومينجو (سميت بعد ذلك أسبانيا) بعدما وقع لويس الرابع عشر إلغاء رسوم الحيازات عام ١٦٨٥، منهيًا بذلك الحقوق التى كان يتمتع بها البروتستانت، والبروتستانتون الفرنسيون فى فرنسا، ورحل حوالى مائتى ألف. هربت عالتها ثانية إلى الولايات المتحدة فيما بعد وقت ثورة العبيد عام ١٧٩٤ فى عيد كل القديسين. وصلوا هناك على سفينة هولندية شاءت الظروف أن تحمل بضائع فى ميناء بورت - أو - برنس، ووافقت على أخذهم على متنها - شاهدت خطابات من أجدادنا الأوائل إلى أولاد عموماتهم الفرنسيين الذين ظلوا فى منطقة بيريجور فى فرنسا، يصفون معاركهم للبقاء فى الطرف الجنوبى الذى تم تسميته فيما بعد بنىويورك سیتی

والآن وول ستريت وكان ذلك هو المستوى، مثيرا مثل معاركى، بعد قرنين فى نزاعات الكرة الأرضية لأوروبا فى القرن العشرين.

« ثانية، الليلة الماضية » قرأت أحد الخطابات، « هاجمنا الهنود بسهام مشتعله من أسفل الجدران واصطدمت السهام بالجدران الخشبية لمنازلنا التى اشتعلت. كنا طوال الليل نمرر جرادل الماء. وبمساعدة الرب ومجموعة جرادل الماء التى قمنا بتمريرها ولأننا أختبأنا خلف الجدار، فقد أفلحنا، وشكرا لله فنحن آمنون هذا الصباح وقت قيامى بكتابة هذا الخطاب لكم ».

قد يقول الواحد إن هذه كانت تجربة عائلتى الأولى مع شكل حرب الرعب البدائية. علمنا بوضوح كيفية البقاء منذ القدم فى ذلك العالم.

وُلدت أمى فى نيويورك. جاءت لتزور فرنسا فى صيف عام ١٩١٧ عند بداية اشتراك الأمريكيين فى الحرب العالمية الأولى. كانت أمى مهتمة ببلد أسلافها. وكان هناك شعور رومانسى كبير أيضا تجاه فرنسا عند قرن التغيير فى أمريكا. علاوة على أنها تحولت إلى الكاثوليكية.

كانت صاحبته فى فرنسا مركيزة سالىنا - فينسلو SALIGNAC - FENELON التى كانت من عائلة فرنسية كبيرة. عندما وصلت إلى فرنسا أنشأ الجنرال « بلاك جاك » بيرشينج قيادته فى فرنسا الشرقية عند « شاتو دى سينى » قصر سينى حيث عاش فولتير فى وقت ما، والذي كان ذات مرة منزل أسلاف المركيزه. قام الجنرال فى نهاية أحد الأسابيع بدعوة بعض الضيوف من المستعمرة الأمريكية فى باريس إلى حفل عشاء وكانت والدتى، التى كانت وقتذاك أرملة شابه جميلة وكانت من قبل متزوجه من دالاس موناهان رجل

أعمال بشركة أميركان ستاندارد ، من بين المدعوين - كان الجنرال بيرشينج يصاحبه الكولونيل جورج مارشال رئيس مكتبه الخاص، وكان الملازم أول جورج باتون ياوره. الجنرال بيرشينج قابل باتون في حملة في ميكسيكو ضد بانكو فيلا PANCHO VILLA عام ١٩١٦. وتم تخصيص باتون للجنرال لأنه كان من الفرسان وكانت هناك فرقة من الفرسان الأمريكية في أول قوة حملة أمريكية في أوروبا - وكانت نفس الوحدة التي خدم فيها جورج واشنطن. وكانت حملة رسمية. وقد درس أيضا باتون في صومير SAUMUR الأكاديمية العسكرية الفرنسية.

كانت والدتي، كما كان والدي - آنذاك ضابطى اتصال وباور الفرنسيين للجنرال بيرشينج في القيادة العليا - حيث أنهم التقوا في حفل عشاء.

مات والدي عندما كنت في الحادية عشرة تاركا فجوة رهيبة في حياتي؛ كان رجلا مدهشا - وجيها، طويلا، قويا وشجاعا ومهذبا ومتواضعا. عندما كان صبيا كان تلميذا على يد هنرى والد شارل ديجول الذى كان رئيسا للدراسات في كلية الطهارة (وكبل بلادنس) في شارع دى فوجيرارد في باريس. قابل والدي شارل ديجول بعد بضع سنين في آراس ARRAS حيث كانا إخوة سلاح (ضباطا) في مشاة آراس الثالثة والثلاثين بقيادة المارشال بيتان وأصيب والدي بجرح خطير في دينان على الحدود البلجيكية؛ وتم منحه وسام ليجيون للشرف من الطبقة الأولى للحرب العالمية الأولى.

تقابل وديجول ثانية في معركة بيرى - أو - باك عام ١٩١٦، حيث أصيب والدي ثانية بجرح وتم أسر ديجول. وحيث ان والدي بعد ذلك لم يعد لائقاً

للخدمة الفعلية فقد تم تعيينه فى هيئة الجنرال بيرشينج، الذى قاد القوات الأمريكية على الجبهة الفرنسية. كان من بين المتطوعين الذين قام بتدريبهم هو الشباب جورج مارشال، وجورج باتون، وعمر برادلى، ودوجلاس ماكارثر. قام «شبان بيرشينج» بعد ثلاثين عاما بقيادة قوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، ولأنى ابن أخ فى السلاح سابقا فكثيرا ما استفدت من روابطى معهم. وإنه يبدو أنهم وثقوا من أن فهم فن الحرب قد نجح إلى حد ما فى الانتقال إلى ابن رجل كان قادرا على تدريبهم.

وإننى كطفل أتكلم ثلاث لغات تقديرا لأصلى الفرنسى، ولربيتى الألمانية، وداداتى (مربياتى) الايرلندية والإنجليزية. كنا عائلة متحفظة فى الإفصاح عن مشاعرها. وكانت إحدى ذكريات طفولتى تدور حول همس مربيتى أن والدتى كانت قادمة لتطبع على جبينى قبلة المساء. واندلعت سيدة جميلة إلى حجرة نومى مرتدية عقدا من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ. وانحنت على قائلة: «إلى اللقاء! وأغلق الباب. وانطلقت السيارة. قد ذهبت والدتى لتناول العشاء..

تعلمت أولا فى لى روش، مدرسة مشهورة فى نورماندى، ثم أمضيت بضع سنين فى سويسرا فى فريبورج. إلا أننى منذ أن ذهبت إلى الحرب فى الثامنة عشرة قمت بتثقيف نفسى بنفسى بدرجة كبيرة. لست مفكرا بكل تأكيد. إن كل ما طلبته عائلتى كلها هو أن يكون أطفالها حساسين، يعرفون كيف يعبرون عن أنفسهم، ويكونون قادرين على ركوب الخيل باعتدال.

والدتى وخالتى، مدام هنرى داون، وهى شخصية بارزة فى المستعمرة الأمريكية فى باريس تمتلك منازل المدينة المجاورة.

وانه بسبب علاقات عائلة والدتي صارت عائلتنا من العائلات الهامة فى تلك المستعمرة بباريس فى تلك الأيام وكان لنا زوار كثيرون. تعلمت من أولئك الأفراد طرق الدبلوماسية والمخابرات والاستراتيجية العسكرية والسياسات، وكل التشابك فى مُشكالى معقد المتغير كنتيجة للطرق المتنوعة التى تربط الأمم ببعضها البعض وبتاريخهم الخاص وبتقاليدهم الخاصة بهم.

كان أحد زوارنا المنتظمين فى تلك السنوات الأولى هو شاب مدهش ولطيف يدعى روبيرت مورفى الذى صار بعد ذلك السكرتير الثالث فى السفارة الأمريكية. أحببناه كلنا وصار مرتبطا جدا بنا. وإنه وقتما توجد حفلات فى منزل الخالة إيثيل كان دائما تتم دعوة وليام بوليت السفير الأمريكى صديق عائلة العم هنرى والخالة إيثيل وكان دائما معه مورفى. وصار بعد ذلك شخصية ذات أهمية غير عادية لحرب الحلفاء برمتها فى جهدهم فى الحرب العالمية الثانية كمبعوث دبلوماسى شخصى للرئيس فيلت روز فى أوروبا. ولعب بطريق الصدفة دورا هاما فى حياتى.

علاقات الأسرة علاوة على الانطباعات التى تكونت فى سنوات حياتى الأولى بمقابلة بعض الناس الذين شكلوا تاريخ أزماننا، لعبوا أدوارا هامة فى حرفتى المستقبلية. كان المارشال فوشى يضعنى على ركبتيه. المارشال بيتان شهد على عقد زواج والدى. وكانت إحدى ذكرياتى خاصة باللواء بيرشينج عندما جاء إلى منزلنا فى نورماندى فى طعام غداء نهاية الأسبوع، وكان المنزل على بعد ثمانين كيلو مترا من باريس حيث وصل بعربة ضخمة سوداء اللون. وأمسك بيدي بعد الظهر وركبنا سيارته وتوجهنا إلى الجبانة فى نورماندى

ووقفنا أمام قبر والدي. وأخبرني في طريق عودتنا الكثير عن والدي، وكم كان ضبابيا رائعا ورجلا لطيفا، وكم كثيرا ساعد الجهد الأمريكي في الحرب العالمية الأولى.

لن أنسى الثالث من سبتمبر عام ١٩٣٩. هذا التاريخ محفور في ذاكرتي بصفة مستمرة. حدثت لي هزة عنيفة عندما كنت في المدرسة في فريبورج بسويسرا عندما أذيعت أنباء إعلان الحرب لقصف الرعد. عدت فورا إلى فرنسا وإلى الخدمة العسكرية. وكانت أول تجربة بتكتيك الحرب الذي يسمى الحرب الخاطفة أو حرب الصاعقة، هجوم شامل من جانب طوابير المركبات المتحركة بسرعة التي فاجأت ثم سيطرت على القوات المرافعة والتي أثبتت أنها التكتيك الوحيد الأكثر تميزا للحرب العالمية الثانية عن أي حرب من الحروب الثلاث العالمية في القرن العشرين. تم سحق الجيش الفرنسي في أقل من شهر في التقدم الصاعق للقوات الألمانية. إن الدرع الساحر خط ماجينو - تحصينات خراسانية ثقيلة عتيقة تطوق الشمال الفرنسي، مصممة لحماية الأمة من كل الغزاة المعادين، والتي كان من المعتقد غير ممكن احتراقها - الذي لم يحدث به صدع في الحقيقة. إلا أنه ببساطة قد تجاهله الغزاة سريعو الحركة والتنقل السريع الذي لا علاقة له بالخطر وطاقوا حوله تاركينه لتذكاري يرثي له للتقدير العسكري السيئ ولعدم القدرة وعدم الرغبة في فهم عدونا والتكيف بالحقائق الاستراتيجية الجديدة. وإن تلك التحصينات كانت آثار فترة الحرب كسابقة؛ خندقا ثابتاً للقتال يميز الحرب العالمية الأولى حيث صار مهما إزاء الأسلحة والتكتيكات التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية. نظرا للإعداد السيئ والغباء ونقص التنظيم والشلل من جراء التآمر السياسي لم تستطع القيادة

الفرنسية العليا مواجهة الحقائق العسكرية الجديدة للحرب العالمية الثانية. وحيث إن منظورهم التاريخي أعماهم عن عدم قدرتهم على فهم الحكمة التقليدية الماضية فقد تجاهلوا التحذيرات المبكرة من المخابرات كتكتيكات جديدة مما كشفوا عن أنفسهم في غزو تشيكوسلوفاكيا وبولندا - تلك الضربات السريعة في قلب وشرق أوروبا التي أثبتت أنها مجرد فتح شهية قبل الحملة في الغرب. ونظرا لعماهم عن الحقيقة والذي شلهم واجهت العسكرية الفرنسية قوة متفوقة كاسحة مدفوعه بحسن التنظيم الأفضل مع قوة الدفع للمباغته خلفها.

كانت الحرب الخاطفة الألمانية ضد فرنسا أولى تجربتي مع الفشل المطلق للمخابرات الحربية والتخطيط المدني. وحيث كنت حديث العهد بالجيش الفرنسي آنذاك، رأيت طرقا ملبئة باللاجئين في عربات يجرها الخيول فارة لاتدرى إلى أين، ومنطلقة بسرعة محدثين فوضى في الطريق، ومكافحة لأجل أن تجد مكانا لها في مؤخرة حرس قواتنا في ذعر فوضى مماثل - كان الحرس الألماني في ملاحقتهم وهم مرتدون معاطفهم الرمادية غالبا يمتطون موتوسيكلات بصناديق ومجهزة تماما مندفعة بحافز كبير.

اتخذت طريقى في الحقيقة إلى ضيعة عائلى في نورماندى حيث كان الحديث فيما بين أصدقائي وجيرانى يدور حول دعوة الجنرال ديغول للقتال. رفض الجنرال الفرنسى الشاب أن يتوقع في الهدنة التي تم توقيعها بسرعة وبجبن من جانب المارشال بيتان. هرب ديغول إلى لندن حيث أطلق في الثامن عشر من يونيو عام ١٩٤٠ دعوته المعلنة لحمل السلاح والمقاومة. حقيقة،

وقعت عقدا باستمرار الحرب واستمعت لكلمات دييجول واستنتجت أن الحرب قد انتهت على الإطلاق بالنسبة لى بسبب الاحتلال الألماني. وبينما كان القتال مستمرا صممت على الاشتراك فيه وكان الأمر سهلاً.

كانت لدى فرصة لأصعد على سفينة بولندية وأسافر إلى انجلترا حيث قد أنضم مع الجنرال دييجول والكثير من أهل وطنى. إلا أنه قبل أن أفكر فى العودة لاستئناف المعركة كان يجب على أن أقوم بترتيب شئونى الخاصة. مزارعى فى نورماندى أتلّفها التقدم الألمانى مما صارت مهجورة. كافح رجالى الفلاحون والجيران ثانية وتدريبيا فى عرباتهم التى تجرها الخيول. ولم يكن هناك مكان آخر ليذهبوا إليه. ورغم أن منزلى قد سلّبتة القوات المتقدمة إلا ان الكثير من الدواب كان باقيا. أدرك الألمان بوضوح إنهم سيحتاجون إليها فى سنوات الاحتلال القادمة. لم يكن هناك تليفون وكهرباء. كنت أملك ألف فدان من الأرض الصالحة للزراعة ومرعى صالحة لتربية الماشية من أفضل الأنواع لعمل لحوم البولوبيف. علاوة على أنه كان لى مائة وعشرون رأس ماشية. ذلك الأمر سبب لنا كمية من القلق، حيث انها كانت الأهداف الأساسية لجيش الاحتلال الألماني.

فرنسا قد انقسمت إلى اثنين. النصف الشمالى، الذى تضمن منزلى فى نورماندى احتلته الحكومة الألمانية وتديره مباشرة أيضا الإدارة العسكرية الموجودة فى باريس. لم يكن هناك أى مظهر على أن هذه لم تزل فرنسا. أما النصف الجنوبى ظل أرضا فرنسية ظاهريا تديره حكومة فرنسية فى فيشى لكن ذلك كله كان عارا. كانت حكومة فيشى مجرد دمية للمحتلين الألمان.

وكانت ميزاتها الوحيدة هي أنها سمحت للأمريكيين الإبقاء على سفارة فيما يسمى حقيقة بأرض ألمانية - وأصبحت السفارة مركزاً نموذجياً للتجسس ضد النازي ومساعدة المقاومة الفرنسية. لقد استغلّيت هذا استغلالاً جيداً ومئات من زملائي هذه النافذة الصغيرة المطلة على ماترك من العالم الحر.

لم يكن لدى ما هو ضد الشعب الألماني، إلا أنني لا أحبذ فكرة مجيء دولة إلى منزلك دون توجيه دعوة إليها. خلال إقامتي في نورماندي عندما بدأت خدمتي السرية مع المقاومة في الأرض المحتلة عام ١٩٤٠، حاولت أن أتعرّف كنموذج قديم ظاهرياً - كأول قاعدة لعميل مخبرات يعمل خلف خطوط العدو، إلا أنه يمكن تعلمه فقط عن طريق أخطر المحاولات والخطأ. لذا رفضت الاشتراك في السوق السوداء، ونجحت بطريق أو بآخر في أن أجد إطارات دراجة (التي كانت نادرة تماماً) وأحذية شتوية عالية الساق. لم يكن لدى أي اتصال شخصي واجتماعي مع الألمان ولأنني أتكلّم الألمانية غالباً ما كان يتم طلبى لتمثيل قريتنا الصغيرة أمام السلطات المحتلة.

اعدت أن أقول للألمان في مناسبات عندما يدعونني لزيارة رسمية: «لن اطلب منكم الجلوس لأنه لو انعكست مواقفنا فلا أعتقد أنكم ستطلبون مني الجلوس».

صودر منزلي من البداية. وانتقلت إلى آخر، أكثر صفراً بجدران شملها بارده. وإنه في يوم أحد صباحاً توقفت خارج المنزل وانفجرت إطاراتها مما جعل الخادمة تهرع إلى أعلى الدرج وتقول: «إن الألمان هنا!»

إنني مع صديقي جورج «الذي كان يهودياً، أمضيت معظم الليلة السابقة

أنظف مخبأ الأسلحة التي كنا نخبئها فيه لأجل المقاومة تحت كوفه من البطاطس
فى عش قديم للحمام.

ظناً منا أننا سنفرغ من العمل المساء التالى فقد تركناها مكدسة فى دولاى
فى حجرتى فى الضابق الأول فى منزلى الصغير.

أطلعنى الضابط الألمانى، ورقة فولسكاب مطوية. حيث قال بحده: «إنه
بموجب هذا الخطاب من مجهول إنكم تخبئون أسلحة هنا».

كانت لحظة مرعبة - «هل تدرك ما سيحدث لو وجدنا تلك الأسلحة؟، سوف
تعدم رميا بالرصاص».

فأجبت قائلاً ومن المؤكد أننى سأفعل المثل لو كنت مكانك».

وأضاف: «بإذنكم الآن، سنقوم بالتفتيش الدقيق». دون أن ينبذ بأى نبرة تنم
عن أن إذنى أمر يعول عليه كثيراً. أبديت عذرى الخاص. وكانت الفكره أبعد
من أن تكون أمراً مسلياً خاصة وفى سن العشرين، حيث وجدت من الصعب
ألا أرتعد أو يتغير لوني وحاولت ألا أظهر أى مشاعر على الإطلاق - قدرة
وجدتها مفيدة للغاية مرات عديدة فى حرفتى كضابط مخبرات.

قاموا طول اليوم بتفتيش القصر (شاتو) القريب من المنزل، وفتشوا فى
البحيرة ظللت طول اليوم أقول لنفسى ربما يعودون ويفتشون منزلى. وتخيلت
أنهم إذا وجدوا أسلحة فى القصر لم أضعها هناك.

ماذا يجب على قوله حينئذ؟ «البندقية الرشاشة (المدفع الرشاش) لاهلاقة
لى به؟» لم يجدوا شيئاً بالطبع فى القصر، حيث أنهم تعبوا من بحثهم غير

المثمر وبفضل معجزة أخيرة لم يقوموا بالبحث فى منزلى الصغير غير مكترئين بذلك. ولم يعودا أبدا. ولحسن الحظ أيضا إنهم كانوا ضباطا نظاميين فتصرفوا بصورة صحيحة. أما إذا كان الأمر يتعلق بالجستابو فإنه يكون الخوف والبوليس السرى البغيض.

قلما كان تباغتنى قوات الاحتلال طوال مدة الحرب - فكانوا يتصرفون كما يتوقع المرء أن يتصرفوا فى بلد غريب وأرض معادية، وينتهزون كل فرصة يقدمها أولاد بلدى.

ذات مرة، بعد وقت قصير من تلك الحادثة، تم سجن عامل أكبر منى سنا من قريتى وذلك لمخالفة كبيرة. وذهبت إلى الحكمدار المحلى للاحتجاج. كان الألمانى ضابط فرسان مسناً، فتحدثنا فى أول الأمر عن الخيول ثم عن موقفه (وضعه) الذى من الواضح لم يستسيغه.

واشتكى قائلاً: «إنهم لم يرسلونى إلى روسيا بسبب كبر سنى، واننى أقوم بعمل بغيض هنا. والأبغض منه هو سبل الخطابات المجهولة التى يرسلها لى أبناء بلدك يبلغون عن أصدقائهم وجيرانهم. أنظر هنا!»

فتح دولابا مكدسا بربطات من الورق كل منها مكونة من مائة ورقة «خطابات مجهولة» قال ذلك، وأضاف: «مارأيك فيها».

حيث أننى أحد هؤلاء الضحايا من تلك الخطابات فمن الصعبه أن أعترف بالمفاجأة التامة - إن ما أدهشنى هو النفاق الفظيع من جانب الكثيرين جدا من أبناء بلدى. عند عودتى إلى فرنسا فى نهاية الحرب سأكتشف الإثنين والأربعين نسمة، حقيقة التعداد الكلى لسكان فرنسا آنذاك، والذين «ناضلوا لأجل

المقاومة». وبدأ فى نورماندى أن أبطال المقاومة هؤلاء كانوا على استعداد للخدمة كأعوان للجستابو حتى نهاية الحرب تقريبا عندما استنتجوا أن الحلفاء ربما ينتصرون حقا.

بينما أرعى ممتلكاتى وأراقب قصرى واتعامل مع السلطات الألمانية المحلية بانتظار فرصتى فى دور كامل فى الحرب فعلت ما استطيعه لمساعدة المقاومة فى هذا الركن الصغير من فرنسا. وإنى مع أصدقاء آخرين فى المنطقة المحتلة قمت بعمل اسكتشات للمواقع العسكرية وسلمتها للحلفاء فى السفارات أو فى مكاتب أخرى التى أقيمت بجانب الحكومة الفرنسية الدمية فى فيشى. إضافة إلى أننى عرفت اثنين من الأمريكين فى مواقع دبلوماسية عالية، الأدميرال وليام ليهى، على سبيل المثال. الذى أصبح بعد ذلك رئيس هيئة الرئيس روزفيلت فى البيت الأبيض؛ وصحفيين مثل رالف فورت رئيس مكتب يونيتدبرس فى مدريد لسنوات عديدة الذى عمل أيضا كمستشار خاص لارنست هيمنجواى بالنسبة لسلسلة مصارعة الثيران فى روايته «لن تدق الأجراس».

نجحت بمساعدتهم القيام برحلات ناجحة بين قاعدتى للعمليات فى نورماندى وفيشى. خدمت كجاسوس بصفة أساسية. كنت ألاحظ والتقط صورا للمطارات العسكرية الألمانية التى تم بناؤها فى نورماندى وأحضرت تلك المستندات إلى السفارة الأمريكية فى فيشى أو إلى صديقى رالف هينزن، صحفى أمريكى مقره فى فيشى. وكانت هذه مقدمة ممتعة للجاسوسية لأن تلك المستندات كان لابد من حملها عبر حدود عليها حراسة مشددة - بينما كان الترحال يتم على

الأقدام غالبا فى ظروف جوية صعبة - من الأرض المحتلة إلى فيشى حيث يمكن للحلفاء التقاطها فى سفاراتهم لنقلها فيما وراء البحار. وبالتحرك فى الليل البهيم على امتداد طرق البلد والالتقاء بمجموعات المقاومة المتعددة طوال الطريق تعلمت دروسا قيمة فى المناورات العملية والمخابرات. وأقيمت فى نفس الوقت شبكة فى إير التى استمرت حتى اللحظة التى اتخذت فيها قرارا بالهرب عبر برنيس.

بدأت اتحقق فى تلك اللحظة أن المخابرات مكونة من آلاف المفاتيح الصغيرة، مثل قطع أحجبة الصور المقطوعة. إن وظائف المخابرات للمقاومة تتكون بصفة أساسية من تجميع المعلومات الروتينية عن العمليات الحربية الألمانية الحيوية لتعقب وكشف مواقع القوات النازية إذا ما حدث غزو الحلفاء. كان ذلك التحرى من المخابرات فى نفس الوقت لاغنى عنه لقوات المقاومة التى تقوم بمهام تخريبية التى تجعل قوات الاحتلال غير متيقظين للحراسة بصفة مستمرة.

وكلما أمكن جعل نظام الاحتلال يفقد اتزانه زادت الموارد التى يحتاجها للعمل الدفاعى البحت وكلما قلت فاعليته فى السيطرة على الشعب الفرنسى. ولهذا سيكون من المحتمل الشك فى كل فرنسى والاقبال من تكوين صداقات وحلفاء من أبناء بلدى. وباختصار تعلمت أن المخابرات والأعمال التى تنبع من تلك المعلومات يمكن أن تلعب دورا حيويا فى كسب الحرب مثل أى هجوم مباشر.

أخيرا عندما وصلت الحادى والعشرين من العبر قررت مغادرة فرنسا واستئناف عملى العسكرى الفعلى مع الفرنسيين الأحرار أو وحدة التحالف.

كانت هناك شبكة للتجسس قد أقمتها جيدا وتعمل فى الأراضى المحتلة بكفاءة وبوسائل اتصال منتظمة مع الحلفاء فى فيشى. مستخدما نفس تلك الشبكة انتقل من مزرعة إلى مزرعة أفلحت فى عبور برنيس إلى أسبانيا طريق شمال إفريقيا. وبالتظاهر كأمرىكى حيث أنه لم يكن من الصعب ذلك لاتقانى اللغة الانجليزية، وبعد مدة قصيرة فى السجن فى أسبانيا لدخولى البلاد بطريقة غير شرعية متنكرا كمواطن أمريكى بدون أوراق، تم السماح لى بدخول جبل طارق. كان أول ما شاهدته هناك جندياً من البحرية الملكية ببزته العسكرية يقوم بحراسة حاجز عبور الحدود. كان بالنسبة لى بمثابة رمز لكل شئ نحارب من أجله، العالم الحر برمته.

وصلت أخيرا إلى الجزائر بعد رحلة قصيرة عبد البحر الأبيض المتوسط، حيث انضمت إلى الفرقة الثانية من الفرسان الجزائريين - الجيش الجزائرى الوطنى الذى كان يقاتل مع الفرنسيين الأحرار فى شمال إفريقيا. كانوا جنودا محترفين بنظام من حديد وبدأت أتعلم المهنة العسكرية التى خدمتنى جيدا فيما بعد.

عسكرنا فى حدود الريف فى تليمسن قاعدة أمامية بها خليط غير عادى من البتاش الفرنسى وسحر هوليوود - الشمس الساطعة، الألوان الزاهية، الخيول، النساء الجميلات؛ كان حقيقة أسلوبا أجنبيا - لكنى سرعان ما علمت أننا نخوض حربا بأى معنى كلاسيكى. ليست هناك عمليات بكل بساطة ضد القوات الألمانية التى تبعد ألف ميل تقريبا عن قاعدة الفرسان والجزائريين.

طلبت إعادتى إلى الجزائر ثانية بعد بضعة شهور تقريبا. إن الفرنسيين الجزائريين الذين نسميهم الآن الملونين كانوا جاهزين للقتال تحت قيادة الجنرال

الفرنسى جوين الذى صار أعظم قائد فرنسى فى الحرب العالمية الثانية، وكان يلى ديجول حيث كان ضابط الاتصال الأساسى مع الأمريكيين والأركان العامة للحلفاء. قام ديجول بنفسه بترقيته فيما بعد إلى رتبة المارشال. كان جوين يقوم بتجميع قوات الفرنسيين الأحرار فى شمال إفريقيا فى نفس الوقت الذى بدأ الحلفاء بإبرار قواتهم الخاصة بهم. الأستراليون والنيوزيلانديون والأفارقة من جنوب إفريقيا والكنديون - الذين جاءوا من كل جزء من الامبراطورية البريطانية. وكان بالطبع يوجد أمريكيون.

وإن محاولة دمج كل تلك العناصر فى قوة قتال موحدة كانت مهمة رهيبة. بدأ الجنرال جوين ونظيره البريطانى اللواء سيرجون أندرسون الاضطلاع بقيادة هذه العملية. وبدأ فى تصوير العملية ببراعة منذ البداية - عندما بدأ الجيش البريطانى الأول أولا بدفع نفسه ضد روميل وأجبر المارشال الألمانى على الانسحاب المحكوم عبر صحراء شمال إفريقيا. كان جوين فى نفس الوقت يتولى قيادة الجيش التونسى الذى حارب إلى جانب قوات سيرجون البريطانية. كان جوين مقاتلا أولا وأخيرا وليس جنديا سياسيا. وكان كل قائد يكن احتراماً هائلا للآخر وعلاقتهم العملية تحولت إلى ضحك وشاركاً خبرات ميدان القتال. كانت صداقة كان لها تأثير كبير على اتصالى العمل مع نظرائى من الحلفاء طوال عملى. بدأت استوعب الحاجة إلى فهم واحترام عقلية وحساسيات أصدقائنا وأعدائنا كذلك، وهو شئ نسيه حتى ديجول من وقت لآخر فى لهيب المعركة لأجل أوروبا وأثناء السلام ما بعد الحرب.

أتذكر بصفة خاصة قصة عشاء فى عيد الميلاد فى شمال إفريقيا عام ١٩٤٢

كمثال لكيفية صديقين وثيقين بدءا يفهمان كلامهما جيدا. جوين وسيرجون كانا يتناولان طعام العشاء معاً في مقر القيادة البريطانية قبل الاجازة ببضعة أيام.

فقال سيرجون: « عيد الميلاد أت ، فدع كلامنا يعطى الآخر هدايا. ماذا تقترح؟ ».

وأجابته جوين: « في هذه الظروف ، أعتقد أننا يجب أن نعطي الهدايا النافعة فقط.

وافق الجنرال البريطاني قائلاً « فكرة طيبة ».

أرسل سيرجون ليلة عيد الميلاد هديته - قافلة صغيرة من المركبات. تقابلها مركبة في الاتجاه المعاكس - هدية جوين إلى سيرجون. إنه أمر مسلٍ ورقيق وجليل بدرجة كبيرة، يذكر بعضها البعض بالقدرات المتصلة بقواتهما عند تلك النقطة من الحرب.

إن إحدى صفات جوين العظيمة كانت حسن الفهم والتقدير، التي نجح في الحفاظ عليها حتى في أحلك أيام الحرب. ذات مرة بعد تناول العشاء مع رفاق المائدة وهم بريطانيون أرسل إلى سيرجون طعاما فرنسيا.

ظللت في موقعي في إفريقيا خلال الأيام الأولى من استعادة أوروبا في عام ١٩٤٤، بينما أقامت قوات الحلفاء موقعها المتقدم في جنوب إيطاليا وبدأت تتحرك إلى شبه الجزيرة. عندما علم أصدقاء جوين ذات مرة تاريخ عائلتى وعملى في المقاومة الفرنسية، وشغفى بعمل اتصال مع القائد الفرنسي العظيم الذي بدأ آنذاك إلى إيطاليا لقيادة القوات الفرنسية للتقدم نحو شبه الجزيرة، طلب منى هؤلاء الأصدقاء تسليم خطاب إليه في نابلس.

قمت بالرحلة الخطيرة عبر البحر الأبيض المتوسط وقدمت نفسي لقيادة قوة حملة الحلفاء فى نابلس. فوجئت وسررت عندما أخبرونى بأن الجنرال يريد رؤيتى شخصيا. كان حدثا تماما بالنسبة لضابط صغير يستقبله بطل فرنسى كبير، بطل الحرب العالمية الأولى. قابلته فى مقر قيادته. مقرر عبارة عن مقطورة تربض شمال نابلس. كان رجلا مدهشا يرتدى البدلة العسكرية الصيفية يُحىي بذراعه الأيسر حيث أُتلف ذراعه الأيمن فى الحرب العالمية الأولى.

أمسك المكتب بأصابعه وقال: «حينئذ أتيت من الجزائر، أيها الشاب؟ وماذا يدور هناك؟».

عرفت إسمه الكودى وكان هانيبال، وكنت أفكر فى الحروب القرطاجية التى شنها هانيبال التى أثرت فى روما القديمة تجاه قرطاجه حيث أيامه الأخيرة كانت فى إيطاليا وشمال إفريقيا (خاصة الجزائر وتونس) على التوالى. كنت ابحث عن مجاز مناسب يلخص تعقيد ونموذجية المكاييد الفرنسية الجارية فى الجزائر حيث قامت قوات الاحتلال بدفع الألمان إلى الخارج وكانت تنوى إقامة حكومة فرنسية حرة خاصة بهم. كان جوين لحسن الحظ غائبا عن كل هذا، مشغولا بإعادة غزو الجنوب الأوروبى.

فبدأت: «باختصار ياسيدى، إنها حالة من حالات هانو الأكبر وشيوخ قرطاجه». هانو كان قرطاجيا ارسقراطيا مسالما معارضا تماما لغزو هانيبال للامبراطورية الرومانية.

انفجر جوين ضاحكا، وعرفت أن تفكيرنا متشابه كثيرا جدا. اهتم بى جوين منذ هذه اللحظة، وتغيرت حياتى برمتها فجأة. كنت فى قلب المواجهة العسكرية مع قوى المحور.

وإنه بسبب اعتيادى على فنون القتال الإفريقية انشمالية، وكنتيجة للوقت الذى أمضيته مع الفرسان الجزائريين وقوات الاحتلال الفرنسية العاملة فى شمال إفريقيا قام جوين بتعيينى كضابط فى وحدة قوات الصاعقة المغربية فى مرتفعات أبروزى ونسبىنى تماما لمدة. إلا أنه لتطورى الشخصى ثبت أن ذلك أمر أكبر التحديات البدنية للحرب، ربما تحديات لعملى تماما. كثير من جرحانا تجمدوا حتى الموت لأن درجة الحرارة وصلت الى عشر درجات فهرنهايت وأقل من ذلك. فقدنا ثلاثة أرباع المقاتلين فى الاشتباكات التالية. كان الضباط دائما يتقدمون الجنود الإفريقيين كقدوة للقوات. وأصبحت بجرح خطير أثناء القتال ومنحنى الجنرال مارك كلارك قائد الجيش الخامس الأمريكى النجمة البرونزية. كان الاشتباك جزءاً من معركة كازينو، التى سماها الألمان ستالينجراد الغرب.

إنه فى أخرج فترات الحملة الإيطالية قابلت المرأة التى صارت زوجتى. كانت الظروف رومانسية كما كانت تراجيدية. كانت ليليان فى السابعة عشرة من عمرها. تم تدريبها كمرضة فى الصليب الأحمر، مع والديها لازالت تعيش فى المغرب، وأوكلت إلى سيدة غير عادية، كونتسية لوارث التى جمعت وقادت وحدة الجراحة رقم (١) أولى وحدات ماش الشهيرة للحروب الأخيرة.

إن مدام دى لوارث، ابنة جنرال من الفرسان الروسية، زوجة صاحب أراض كبير فى وادى سارت أقامت بمفردها ما يشبه وحدة المستشفيات الميدانية التى قادتها إلى أخطر مناطق المعارك فى الحملة الإيطالية. تعيش فى خيمة قريبة جدا من الجبهة محاطة بالوحل والدم ورجال جروحهم بالغة، اتبعت ليليان وحذت حذو مثل وصيتها - العمل بهدوء وبشجاعة، وغافلة تماما جمالها الخلاب. قدم جوين بنفسه إليها وسام صليب الحرب فى نهاية الحملة الإيطالية.

حدث لى بسرعة ميل إلى ليليان. كانت المرأة الوحيدة التى رفضت آنذاك الخروج معى - مما جعلنى انجذب إليها وأصعق.

نجحت مثابرتى فى نهاية الحرب، ولحسن الحظ غيرت رأيها ووافقت على طلبى الزواج منها. وبينما النساء الأخريات تبتهج لتمضى أمسية أو نهاية الأسبوع معى. إلا أنها رفضت. وصرنا معا على الدوام.

ولم تترك الحملة الايطالية سوى الوقت القليل لغزو قلب ليليان . وكانت سلسلة الاشتباكات بطيئة ومؤلمة ومكلفة . إن قوة الحملة الفرنسية مع أربع فرق ونصف خدمت كعنصر للعمود الاساسى للجيش الأمريكى الخامس تحت قيادة اللواء مارك كلارك . كان جناحنا الأيمن للجيش الثامن بقيادة امشير لورد مونتجومرى فيما سبق الذى انتصر فى حرب الصحراء ضد روميل. إن كلا الجانبين الآن تحت قيادة مشتركة للورد الكسندر فى تونس، أفضل الجنود البريطانيين . وكان هناك أيضاً الكنديون الشجعان والبولنديون تحت قيادة الجنرال فيلاديسلاف آندرز .

لم يكن بوسعنا ملاحقة حملتنا دون المساعدة الأمريكية . تم استنزاف بريطانيا العظمى . كنا نعتمد كلنا على الولايات المتحدة فى كل شئ كان مطلوباً - الطعام، العتاد، الاسلحة، الذخائر - لتلقى بأنفسنا ضد الإيطاليين وحلفائهم الألمان على الجانب الجنوبى لأوروبا. كان علينا فى كل الاوقات أن نعطى انطباعاً جيداً للأمريكان ولممثليهم. وحيث إننا معتمدون على دولة أخرى جداً كان الامر ضربة كافية لكبريائنا. كان ذلك دافعاً لنا لنزيل العار لهزيمتنا فى الحرب الخاطفة الالمانية عام ١٩٤٠ - وكان من الضرورى لأسباب

نفسية واخلاقية ولاسباب عسكرية ودبلوماسية على المدى الطويل الهام كذلك .
ولقد أرسينا بالفعل الاساسى للهيكل التحالفى المنصف فى حقبة ما بعد الحرب
العالمية الثانية والتي تسبق فترة الحرب العالمية الثالثة، والحرب العالمية الرابعة
فى النهاية حيث تضطلع فرنسا واوروبا الغربية الموحدة بالعبء مشاركة مع
الولايات المتحدة. إلا أنه فى خضم الحملة الايطالية عام ١٩٤٤ فإن تلك
المساواة لا يزال من الواجب استحقاقها على الجبهة الدبلوماسية
والعسكرية كذلك .

إن الرجل الذى اختاره الرئيس روزفلت ليمثله فى إيطاليا والذى سينقل
موقفنا بفعالية للغاية للرئيس وللشعب الأمريكى ، كان واحداً من أبرز
دبلوماسىة الحرب العالمية الثانية - الرجل الذى يثق فيه الرئيس ثقة كاملة
والذى أمضى وقتاً هائلاً فى باريس - وهو روبرت مورفى

روبرت مورفى الذى كان سكرتيراً ثالثاً فى السفارة الأمريكية وهو شاب ،
كان ضيفاً مستمراً فى حفلات السواريه التى كانت خالتي إيفيل تقيمها بصفة
مستمرة عندما كنت أزدا نمواً .

إنه فى أوج الحملة الإيطالية وبعد فترة هائلة بعد أول لقاء لى مع الجنرال
جوين قام السفير مورفى بزيارة القائد الفرنسى . بعدما ناقشاً شئونهما لاحظ
المندوب الأمريكى قائلاً : " لكم أحد أصدقائى العظماء فى قوة حملتكم " .

اندهش جوين فى نمط فرنسى . " ماذا " ؟ سأل الجنرال مندهشاً . " هنا ؟ صديق
ممثل روزفلت الشخصى ؟ من يكون هذا الشخص الهام ؟ . ولإيضاح النقطة .
من هو هذا الشخص الهام الذى لم يستطع جوين تذكره .

وألح مورفي . " إنه الكسندردى مارينشز " .

وحملق فيه چوين كما فعل كل من بالحجرة ، حتى ضرب پاور الجنرال جبهته
" أوه، نعم ، مارينشز ، أنت تعرفه ، يا سيدى " .

" أحضره الى هنا على الفور " . حيث رد چوين .

تم العثور على وارتديت الزى الرسمى نظيفا قبل صعودى إلى السيارة
الچيب التى أسرعت إلى قلعة إيطالية قديمة بجوار البحر كانت تستخدم كمقر
القيادة العامة لتقدم چوين صوب شبه الجزيرة الايطالية.

ودخلت إلى مكان الجنرال ووقفت وقفة انتباه. وأدبت التحية. ولم يتحرك أى
ممن فى المكان.

فجأة رأنى بوب مورفي لأول مرة منذ زيارته إلى منزل خالتى فى باريس.
الآن، قفز من كرسيه وحضنتى صائحا « كيف حالك يا صديقى الشاب؟ إنه من
دواعى السرور الكبير أن أراك ثانية! » وأجبتته بنفس الكيفية.

اندهش كل واحد تماما. وبقيت من الطبيعى حتى العشاء، ولكن كضابط
صغير على المنضدة. عنفنى چوين بعد ذلك لعدم إخباره إننى أعرف الذى وثق
فيه روزقلت.

« لكن يا سيدى، أجبت قائلا: « لم تسألنى على الإطلاق » .

كانت تلك الليلة نقطة تحول فى حياتى - كل نقطة هامة كمثل الخطاب الذى
أحضرنى أول الأمر إلى چوين وإلى الحملة الإيطالية، وهامة كرحلتى عبر
بيرنيس وإدراجنى فى قائمة القوات الفرنسية الحرة فى شمال إفريقيا. كانت تلك

الأمسية الفتحة التي سمحت لي ومكنتني من الوصول إلى الفكر. الاستراتيجية القيادي للحرب العالمية الثانية ولكل صراعات العالم التي تلت في هذا القرن. إنها كانت بادرة في مدرسة فريدة أساتذتها هم أولئك الذين وضعوا أولوياتنا الدولية وأرسوا قتال معاركنا.

جعلني الجنرال چوين بعد تلك الأمسية قريباً منه. وقلما كنا نفترق. وصار بمثابة والد بأي شكل كان- رجلاً ذا شجاعة وشرف، علمني نبالة الحرب وحيوية السلام. كان رقيق القلب ومسلماً كما كان جاداً ومتبصراً، وإنه بعد سنوات عديدة فيما بعد كنت أنا الذي رسمت شارة الصليب عليه ابتهاجاً وتضرعاً وهو في كفنه.

ظللت في هيئة چوين الخاصة به طوال الحملة الإيطالية، حتى لما ما تبقى من الحرب حقيقه.

أثناء تلك الفترة من الحرب قابلت أولاً الجنرال ديجول. غالباً ما كان ديجول يدعو چوين- كان چوين في الحقيقة الشخص الوحيد الذي سمعته يتكلم مع القائد الكبير للشعب الفرنسي بالضمير العادي، أنت TU. وإنه بعد تحرير باريس، في غرفة الحرب التي أقامها الحلفاء لإدارة الحرب في أوروبا، بعيداً عن مقر تريانون في فيرساي، تعرفت حقيقة على ديجول. كان چوين وأنا من بين أول موجة من القوات الفرنسية التي وصلت إلى العاصمة للتحرير. كانت وجهتنا فندق كونتيننتال الذي كان أثناء الاحتلال مصادر للأغراض العسكرية وذلك لخدمة مقر القيادة النازية في فرنسا. وأعدنا أنفسنا عندما قيل لنا إننا علينا الاستعداد لوصول الجنرال چورچ مارشال- بعد روزفلت الذي كان أهم فرد

مسئول عن إنزال الهزيمة بآلية الحرب النارية. كان مارشال وليس أيزنهاور الوحيد الذى قاد حقيقة عمليات الحلفاء. إلا إن مارشال كان لاغنى عنه جدا بالنسبة لروزفلت، فإن الرئيس لم يدعه يرحل ويذهب إلى أوروبا ليضطلع بالقيادة شخصيا. لذا كون مارشال هيئة عليا للقيادة بما فى ذلك ايزنهاور الذى كان ملتزما بالنظام ومطيعا للأوامر إلا أنه لم يدخل حربا. إن كل ما يحتاجه مارشال حقيقة كان منسقا غير محتمل أن يتحدى استراتيجية مارشال الأساسية. وشغل أيك IKE الدور بإتقان دورا مقعدا بكل تأكيد، لا يؤدي المزيد منه، ولا دوراً أكثر مما تم تعيينه له.

عرفنا كلنا أن السلطة الحقيقية تابعة مع مارشال. وكان على وشك آنذاك أن يصل إلى باريس وفكر شخص فى آخر لحظة أن يستفسر إذا كان بوسعه أن يتكلم الفرنسية من عدمه.

وجاء الرد: « لا يتكلم الفرنسية جيدا جداً. سوف تحتاجون إلى مترجم. لم يكن لدينا مترجم رسمى فى تلك الأيام بالطبع، وقمنا بذلك. وكانت هذه فرصة هامة جدا حيث كنا نحتاج إلى أحد لبدأ العمل.

قام والدى منذ ثلاثين عاما فى قيادة الحرب العالمية الأولى للجنرال جورج بيرشنج بتدريب ضباط شبان أمريكيين- مارشال وجورج باتون وعمر برادلى ودوجلاس مكارثر. وأصبحوا أصدقاء العائلة.

وتطوعت قائلاً: « أعرف الجنرال مارشال، وستسرنى المساعدة. »

وأجاب جوين للمرة الثانية فى علاقتنا. « ربما قلت ذلك من قبل! »

« لم تسألنى يا سيدى » حيث رددت .

سمعنا على التو سارينات ركب المارشال ودخل جناح الفندق الذى كان بمثابة مكاتب جوين.

ونظر إلى مباشرة.

صاح قائلاً: « الكسندر! » والتفت إلى جوين وشرح كيف أنه وبيرشنج يعرفاننى عندما كنت صغيرا.

وبدأت ترجمة محادثتهم. وقال مارشال فى النهاية: « هناك مهمة اتصال فرنسية تتبع القيادة العليا ، قوات الحملة للحلفاء - ألم تكن فكرة جيدة لو كان لك ضابط اتصال شخصى مع الجنرال نهاورأيز، لذا يمكنك التعامل معه مباشرة ؟ »

قال جوين: « سوف نجد أحد الجنرالات. ولدهشة جوين ولدهشتى أيضا أجاب مارشال: حسن، لما لانستخدم الكسندر هنا؟ إن له فهماً فريداً للشئون الدولية. إنه ابن صديقى العظيم، وهو الشخص الذى اعتقد بحق أنه يمكننا الوثوق فيه تمام الثقة. »

هز جوين كتفيه. ووجد بوضوح ذلك صعبا أن لم يكن مستحيلا لقبول أى أحد أقل من جنرال ليقوم بعمل حساس. تسلسل الطبقات، الرتبة، حتى المولد لا يزال يقول عليهم أكثر من التعويل على الجدارة فى المجتمع الفرنسى.

إلا أن أكبر جنرال للحلفاء اتخذ قرارا فورا. واستمر فى القول: بتركى هنا سأتوجه مباشرة إلى أيزنهاور فى فيرساي. سأخذ الكسندر معى وأقدمه إلى

أيك LKE . كانت تلك هي المرة الاولى أسمع فيها إسم لقب أيزنهاور. لم تكن هذه المرة هي الأخيرة بكل تأكيد- غادرنا فندق كونتيننتال على الفور في سيارة هيئة الجنرال متوجهين إلى فندق قصر تريانون في فيرساي. قرر أيزنهاور إقامة مقر القيادة بعيدا عن باريس إلى حدما ليضمن المسافة بين إثارة العاصمة الفرنسية بأي منظور.

كان يحرر أوروبا قبل كل شيء، وليس فرنسا وحدها. ويقع الفندق نفسه في حديقة كبيرة ليست بعيدة عن قصر فيرساي، القصر الصيفي للملوك الفرنسيين. وإن صالة الاستقبال الكبيرة تحولت إلى غرفة حرب أيزنهاور.

وهنا اجتمع أيزنهاور وتشرشل وياتون وبراڤلي وچوين والمشير مونتجومري وكل قادة الحلفاء كشركاء في مظلة القيادة وعرفت بالقيادات العليا لقوات الحلفاء SHAEF لتخطيط التكتيكات والاستراتيجيات للحرب ضد ألمانيا النارية.

هناك مذكرة (تذييل) تهكمية بخصوص الحجرة. بعد مرور حقبة زمنية عقب سقوط شاه إيران وموته بعد زمن قصير من السرطان، ابنه الذي حاول أن يرتدى عباءته حضر أيضا إلى قصر تريانون إلى نفس الحجرة التي استخدمها أيزنهاور ذات مرة لتحرير أوروبا. واصطف أفراد حاشيته على الجانبين وجلس على منصة مرتفعه قليلا خلف مكتب في أحد الأطراف مستقبلا ضيوفه الذين مروا بين صفوف اتباعه.

هذا العرش البديل الذي صنع في الحجرة كان تناقضا حزينا لغرفة الحرب المنتصرة ور لأيزنهاور وديجول وتشرشل. حجرة الحرب ذاتها لم تكن بعيدة عن

مكتب القائد الأعلى للحلفاء . كانت توجد فتحة واحدة فى الغرفة- الباب.

كل الفتحات الاخرى تمت كسوتها بألواح بعناية لكى تكون من أضمن قيادات العالم أمتنا. كان يوجد على جدار واحد خرائط ضخمة للعمليات فى أوروبا والباسيفيك، وعلى جدار آخر لوحات عمليات القوات الجوية بما فى ذلك الأهداف الخاصة بالغارات الجوية التالية، كما كانت هناك لوحة أخرى توضح مواقع القوافل الأطلنطية الكبيرة كلها وتواريخ رحيلها ووصولها وما كانت تحمل. وإذا ما تسنى لأحد أن يصور الحجرة لكان له كل أعمال سير الحرب برمتها.

كان الأمن مشددا وصارما للغاية. كان بها اثنان من الميكرفونات. ويتولى حراستهما ضابطان لعدة ساعات، ثم يتم وضعهما فى حجز البوليس الحربى لمدة أيام حتى لا يتسنى إمكانية التسريب. كنت الفرنسى الوحيد خلافا لديجول وچوين بجواز مرور مستديم. لازال جواز المرور معى- بطاقة صغيرة الحجم خضراء اللون عليها صورتى فى زاوية منها . أتذكر جيدا مناسبة عندما كان الجنرال ريتمان يمثل القوات المسلحة البريطانية وتم منعه من متابعة رؤساء الحلفاء الى داخل غرفة الحرب وكان عليه أن يجوس الطرقات فى الخارج بينما أنا الملازم أول المسكين أسير بجوار كبار الجنرالات.

عندما وصلت والمارشال الى هناك فى أول صباح كان أيزنهاور واقفا على الأرض الخضراء لمدة نصف ساعة بانتظار وصول المارشال. وقف انتباها. وذهبنا إلى مكتب أيك Ike مباشرة حيث توقفت على المدخل. التفت المارشال ونادى علىّ.

وبدا يقدمنى قائلا: آيك، هذا هو الكسندر، وهو ياور جوين، صديقنا
چوين، جندى عظيم. ويعمل كضابط اتصال بينك وبين چوين. وأريدك أن
تكون لديك ثقة فى الكسندر الذى كان الجنرال بيرشنج فى محل والده».

ابتسم آيك. هذا ما فى الأمر.

كانت وظيفتى الأساسية قد تتم فى الاجتماعات على أعلى مستوى فى
تريانون أترجم. للجنرال ديجول أفكاره من الفرنسية إلى الانجليزية لباقى
الحلفاء من القادة الذين يديرون شئونهم بلا انجليزية، ويترجم أفكارهم خاصة
أفكار أيزنهاور من الإنجليزية إلى الفرنسية. كان يتكلم كل واحد فى نفس
الوقت تقريبا، لذا كان من المستحيل ترجمة كلمة. وإنه من المربك أيضا أنهم
غالبا لا يتكلمون مباشرة إلى الشخص الذى يوجهون إليه الحديث. غالبا ما
كنت أجد نفسى الخص ما قيل منتقيا أهم النقاط للغاية.

وقال لى ديجول: « مارينشز اشرح للجنرال موقفى وهو ما أريده..

كان العمل صعبا ودقيقا. رغم أننى نادرا ما أدرك ذلك وقتذاك، إلا أنه تحول
إلى أفضل تدريب لحرفتى على أعلى مستوى من المخابرات- مجال يجب فى
كل الأوقات أن يربط الاحساس بفروق سياسيات العالم مع الانتباه إلى أفضل
بيانات سلوك الإنسان. تصببت عرقا باردا فى أوقات مفكرا فى المسئولية
الجسيمة على عائقى . إن منهج الحرب ، ومصير آلاف المقاتلين كان
يتم بتقريرهما.

كنت أحيانا أسألهم أن يكرروا الجملة. ولم يتسن لى المخاطرة بسوء الفهم.
كان الأمر جد خطير.

إن أصعب ما يتم إبلاغه كان سخط أيزنهاور من ديجول الذى لم يشرح فى الحقيقة من هذه المقابلات أبدا. كان ديجول دائما أكثر خشونة وتكبرا تجاه الآخرين. إن ما فهمته وخشيت من ألا يفهمه الأمريكيون كان ببساطة هو سلوكه.

غالبا ما كان يخبرنى بصفة خاصة قائلا: «إذا كان الواحد ضئيلا وضعيفا لا بد وأن يكون أكثر شدة عن أى وقت مضى». كانت تلك هى طريقته فى الحفاظ على الإحساس بالكرامة وكرامة بلده الذى هزمه الألمان فى بداية الحرب. كان الآخرون فى نظره «الانجلوساكسون». ولا يزالوا كلهم أصدقاء ودائما ما ينادى كل منهم الآخر باسمه.

الكل ذلك ما عدا تشرشل. كان كل واحد يناديه بيا "سيدى". ولو أن تشرشل كان طبيعياً أكثر من أى من القادة. كان فى الزى برتبة عقيد طبيعياً ما عدا حذاءه فقد شذ عن التعليمات. فلم يكن يطبق أربطة الحذاء واستبدالها بوسطة. أول مرة أرى فيها تشرشل كانت عندما دخلت مكتب أيك ووجدت خرائط منشورة على الأرضية. وقفت ساكناً وباحترام فى جانب الحجرة. سرعان ما نهض تشرشل من كرسيه وسقط على ركبتيه ليفحص الخرائط عن قرب وبدأ يزحف على السجادة على رجليه ويديه ودخان سيجاره المعتاد يهب على وجهه. وأخيراً عاد وسلمنى السيجار لاهتمامه المتزايد بالمشروع، وقد أمسكت بالسيجار بالاحترام الذى يستحقه. لم يكن يدخن السيجار حتى الطرف (النهاية) وإنما كان يشعله ويأخذ عدة مرات منه فقط. لاشك أنه استمتع بذلك لكنه عرف أن ذلك الأمر أصبح جزءاً مكماً لشخصيته العامة.

بعد اجتماع حجرة الحرب عدت الى باريس وقدمت تقريراً الى چوين بكل ما سمعته وحيث انه ما من مذكرات تغادر الغرفة شديدة التأمين كان يتوجب على حفظ الحوار عن ظهر قلب. ساعد هذا التمرين في تحسين ذكراتي - وثبت النظام الذي لا يقدر بقيمة لأجل مهنتي فيما بعد رغم أن ضباط المخابرات المحترفين يسمون الذاكرة " ذكاء الأحمق " ، حيث إنها غالباً تخدعك. أخذني چوين معه بعدما سمع تقريرى وسعى الى ديجول لتفسير ما قد تم تقريره، طبيعة المناقشات، وأسئله " لماذا ولذلك " .

ولما كان ديجول لا يملك الصبر لمثل تلك التفاصيل أنهى مقابلة چوين ببساطة قائلاً: "حسن، مارينشز سوف يخبرك بكل ذلك " .

أثناء تلك المناقشات، كانت هناك صداقات خطيرة فيما بين الشخصيات الضخمة،الأنا الضخمة حول مائدة المؤتمر فى قصر تريانون. كان وقتاً عصيباً وقل نومي قلقاً بشأن ما سمعته فى تلك الحجرة. تذكرت ذات مرة أن البريطانيين رفضوا إطاعة القائد الاعلى. أرادوا الانسحاب الى انتورب Antwerp لحماية المصالح البريطانية عندما قام المشير چيرو ثون روندستين بهجومه الكبير والاخير خلال شتاء عام ١٩٤٤ فى معركة بالج Bulge . انتورب، فى بلجيكا، كانت مرفأ . كان البريطانيون من خلاله يعيدون إمداد معظم قواتهم فى القارة - والكثير من قوات الحلفاء الاخرى كذلك. لكن إيزنهاور رأى أن هناك حاجة للتركيز على كل قوة ممكنة لأجل معركة بالج، لمنع الاختراق الالمانى الكبير بواسطة ثون راندستين الذى ربما يعود عند تلك النقطة أو يحدث تغيير على الاقل لسير الحرب المباشر. بفوز أيرنهاور وقفت قوات

الحلفاء ضد الالمان الذين لم يكونوا قادرين ثانية أبدأعلى تجميع هجوم مضاد كبير.

كان الجنرال بيدل سميث پاور أيزنهاور الاساسى هو قلب وروح عملية أيزنهاور تماماً وبينما كان استراتيجياً عسكرياً كان عمله الاساسى تحت قيادة أيزنهاور وهو جعل الامريكيين والبريطانيين يعملون معاً خاصة المشير مونتجومرى الذى لم يكن يريد سوى التأكد من أن الساحل البريطانى تتم حمايته من أى هجمات نارية . وإن بيدل سميث الذى أمضى الكثير من وقته يتصل تليفونياً بكل واحد ويحافظ على السلام فيما بين الحلفاء وصل حقيقة الى بغض مونتجومرى وعجرفته مع أننى كان لدى إحساس قوى بأنه عليه أن يكون رابط الجأش بالنسبة لديجول كذلك.

كان أيزنهاور يرى الفرنسيين على أنهم غرباء همجيون، و كان دائماً قليل الشك فى اللاتينيين بصفة عامة .

كان الامريكيون الموثوق فيهم جداً بالنسبة له مع قليل من البريطانيين المنضمين لأجل إجراء جيد. لم يثق فى الفرنسيين أبداً. إلا أن مشكلة أيزنهاور الاساسية كانت أنه يفضل تأمين الوضع الراهن. وإنه ككاتب أساسى للمارشال يحد عن الاتجاه الاستراتيجى منذ إقامته .

واكتشفت أن جذور الصدامات فى غرفة الحرب- بين الفرنسيين من ناحية والامريكيين والبريطانيين من ناحية أخرى- ترجع الى مدة طويلة قبل تحرير باريس. يبدو أن ديغول لم يغفر أبداً الخيانة- غزو المغرب والجزائر توسيع فى نوفمبر ١٩٤٢، وعندما شعر الحلفاء أن المصادر يجب أن تتركز على إعادة

وتحرير فرنسا، وإنه فى كل خطوة على الطريق، فإن الخلاف بشأن الأولويات أدى الى نزاع ومرارة. وإنه فى عام ١٩٤٢ عندما أراد الحلفاء وضع الجنرال هنرى جيرود فى قيادة القوات الإفريقية الشمالية، على سبيل المثال، استنفد بوب مورفى التكتيك الدبلوماسى لإقناع دييجول وجيرود بالمصافحة بالأيدي لأجل المصورين. كان دييجول يفضل أن يراه فى مقدمة القوات التى تقوم بالإبرار فى مارسيليا.

إنه عبر الفترة عندما استعاد الحلفاء فرنسا كان يوجد احتكاك مستمر بين خطط دييجول وخطط ايزنهاور. وإضافة إلى عملى كضابط اتصال بقيادة الحلفاء العليا تورطت بعمق فى شغل جوين كرئيس قوات دفاع فرنسا. كانت محاولتنا الفرنسية يهيمن عليها جوين ونفذها الجنرال جان مارى دى لاتردى تاسينى الذى حرر فرنسا من سانت ترويز إلى الزاك قبل التحرك إلى ألمانيا وتمت الموافقة فى النهاية بصورة رسمية بالنسبة لفرنسا على قبول استسلام الجيوش الألمانية فى برلين؟ وإن جنرال فيليب لكليرك الذى ساعد فى قيادة القوات الفرنسية فى الإبرار فى نورماندى ولعب دورا رئيسيا فى تحرير باريس. وكان الجنرال وولتر بيرل سميث المساعد الأساسى وكاتم أسرار ايزنهاور قد قام بتنفيذ الاستراتيجية الأمريكية. لعب البريطانيون لعبتهم - حيث لعبوا مباراة مع الفرنسيين والأمريكيين فى محاولة لانزال قواتهم حسبما يرونه مناسبا.

كانت هناك دائما فرص للملاكمة الوهمية حيث ان القوات الفرنسية تحركت خارج باريس وفى الجنوب لاسترجاع قلب فرنسا. كان الألمان جزءا فقط من مشكلتنا. إن الفرنسيين الشيوعيين المتعاطفين كانوا يشكلون لنا القلق بالفعل

فى كل مناسبة. إن قطعا كبيرة من الأرض جنوب اللوار وغرب الرون قد أفلتت من سيطرة دولة فرنسا الحرة المولودة حديثا. كان دييجول يخشى من حركة المقاومة الشيوعية من أن تخلق فى هذه المنطقة الأساسية من قلب فرنسا عصيانا مسلحا وتقيم حكومة مستقلة لتتحدى زعامته التى تتمركز فى باريس. إن الحكومة الديجولية أرسلت نصف دسته مسئولين إلى ليموج وتم القبض عليهم الواحد تلو الآخر وأودعوا السجن عن طريق «السوفييت» المحليين.

كان هناك لعب داخلى معقد للأساسيات السياسية والاحتياجات العسكرية وإلى العواطف الإنسانية التى يتم الاحتياج إليها باستمرار وذلك لاختبارها والقيام بحلها. إن المهارات فى ذلك الشأن التى تعلمناها أثناء تلك الفترة الصعبة أثبتت ضرورتها فى تقييم التداخل المعقد للقوات اليائسة وهى قوات دين وسياسات، واستخدام الأسلحة التى نستخدمها الآن فى المراحل المفتوحة فى الحرب العالمية الرابعة.

أما فى حالة دييجول وأيزنهاور فقد فشل كل منهما فى تسوية الخلاف والتفاهم إزاء احتياجات ورغبات كل منهما. سأل دييجول أيزنهاور هل يستخدم فرقة أو فرقتين فرنسيتين للمساعدة فى إعادة النظام فى فرنسا وللتأكيد على سيادته على حركة المقاومة الشيوعية الفرنسية وقواتها التى يسيطر عليها الحزب الشيوعى الفرنسى. لكن أيزنهاور لم يكن يريد أى دور من أى نوع من أنواع المشاكل السياسية الداخلية فى الأراضى التى يقوم الحلفاء باسترجاعها. كانت سياسة عاقلة بدرجة كبيرة بالنسبة للأولوية قصيرة المدى فى هزيمة الألمان،

لكن الواحد تجاهل حقائق ما بعد الحرب تماما التى بدأت فى الظهور بالفعل.

وأجاب أيزنهاور على توسلات ديغول بأن قال: «مستحيل!»، «تلك القوات هى تحت أوامرى وأنوى الاحتفاظ بها. لدى عدد واحد فقط - الفوهرر. إن ذلك قتال حتى الموت مع الفوهرر ولا أستطيع أن أحول انتباهى عن مهمتنا الأولى».

كان الأمر غير مجد كالجدال معه، والحقيقة أن أيزنهاور لم تكن له صورة واحدة للظلال السياسية للحرب التى يخوضها فى أى جزء من أوروبا. وأثناء معركة أردين، فى اليوم الأول كان هناك ضباب رهيب مما سمح للألمان بالاختباء، لذا لم نعرف إذا كانوا دون ذخيرة من عدمه. يبدو أننا كنا أكثر عددا وعلى وشك السيطرة. قرر أيزنهاور التحريك المحفوف بالمخاطر حقا - إخراج كل قوات الحلفاء من الزاك لمساعدة قوات الحلفاء فى أردين. كتب ديغول آنذاك خطابا إلى أيزنهاور الذى حملته بأمر نهائى، حيث وجهه لى ديغول قائلا: «لا بد أن تقول لأيزنهاور إذا فعلت هذا، إذا حركت قوات الحلفاء من الزاك فسوف تشين قضية الحلفاء». وعندما فرغ أيزنهاور من قراءة الخطاب، أخبرته بهذا.

أنفجر قائلا: «كيف تجرؤ على أن تكلمنى بتلك الطريقة؟» شرحت بعض تاريخ المنطقة. كانت الزاك جزءاً لا يتجزأ من المانيا، قلت ذلك، إقليم كالألمان فى طريقة معيشتهم كالساكسونيين. فإذا تم اخلاؤها فإن الألمان سوف يذبحون السكان كمتعاونين أو أسوأ من ذلك. لم يفهم أيزنهاور ذلك لأن الالزاكيين أمامهم أسابيع قبل أن ترحب بالحلفاء كأبطال عائدين، ولسوف يكون

موقعهم فى خطر مميت بإجلاء جيوش الحلفاء. والأهم من ذلك، سيكون ذلك انتصارا دعائيا وماديا كبيرا بالنسبة للرايخ، مما يعكس الكثير من التقدم الذى تم احرازه فى الشهور السابقة، وذلك إلى الاتجاه المعاكس. لم أكن متأكدا من أن ايزنهاور كان مقتنعا. كان محاربا حقيقة وليس سياسيا.

أعتقد حقيقة أن الزاك تم إنقاذها عندما تحولت مصائر الحلفاء فى أردين فجأة.

كان الأمر متروكا لديجول ليفوز افتقاد أيزنهاور للحنكة السياسية. إن البراعة السياسية التى يضطلع بها ديغول لمدة طويلة يقوض افتقاره إلى القوة النيرانية. أما بالنسبة لانصار المقاومة الموالية للسوفييت التى تسيطر على الوسط الجنوبى لفرنسا، قرر ديغول التعامل مباشرة مع موريس طوريز. كان طوريز الزعيم الشيوعى الفرنسى الذى هجر الجيش الفرنسى بناء على أوامر الشيوعية العالمية وهرب إلى موسكو عام ١٩٣٩ فى الوقت الذى كان يعمل هتلر وستالين يدا بيد. وبعد عامين فى يونيو ١٩٤١ عاد هتلر فجأة وقام بغزو روسيا ودفع بستالين إلى أسلحة الحلفاء إلا أن طوريز بقيت فى الاتحاد السوفيتى.

طار ديغول فى ديسمبر ١٩٤١ إلى موسكو مصطحبا معه الجنرال جوين لاجراء سلسلة لقاءات مع ستالين. لسوء الحظ مرضت وكنت غير قادر على مرافقتهم إلا أن جوين أعطانى تقريرا كاملا عند عودته إلى باريس. كان انطباعه الأول عن ستالين أنه يبدو رجلا بتركيز قليل. أثناء المحادثات ظل يعبث بورقة دون أن يرفع بصره بينما كان ديغول يصف نيته بإعطاء طوريز تأشيرة وعفواً عاماً ويسمح للزعيم الشيوعى الفرنسى بالعودة إلى فرنسا.

قام ستالين بإعادة بعض أتباعه المنفيين أو المسجونين من الخارج اعتقاداً بأن التأثيرات الأجنبية أفسدتهم أو غير صالحين، وغالباً ما بعث بهم إلى معسكرات الاعتقال - أو إلى ما أسوأ منه.. ابتهج ستالين أن طوريز ذلك الرمز للشيوعية الفرنسية التي أسسها ستالين سيتم السماح له بالعودة إلى باريس والتفت ستالين إلى مترجمه ذى المظهر المرعب وقال : « اسأل الجنرال متى سيعدمه ».

عاد طوريز فعلاً إلى (باريس) فرنسا، واحضره فى النهاية ديجول فى أول حكومة له فى عام ١٩٤٥ كوزير دولة مسئول عن الخدمة المدنية. كانت تلك إشارة ذكية لها نتيجة دقيقة تبصر بها ديجول - كانت نهاية غير دموية لما قد تكون حرباً مدنية غير سارة.

عاد ديجول وجوين إلى باريس من روسيا. وتعددت المشاكل بالنسبة للحلفاء والفرنسيين. كان الجيش الالماني فى نزعه الأخير. وحيث بدأ الحلفاء الزحف نحو وسط أوروبا، بدأوا اكتشاف رعب معسكرات الاعتقال. وإن المفاوضات الصعبة حول مستقبل برلين المنقسمة جارية حيث كان الروس تسابقوا ليكونوا أول من يحتل العاصمة الألمانية.

إن كثيراً من القرارات التكتيكية الكبيرة فى الأيام الأخيرة من الحرب تم اتخاذها فى الحال وتحت ظروف غريبة. كان هناك توقيت، على سبيل المثال، للانعقاد عبر الراين. كنا نتناول طعام العشاء فى قصر نامور فى بلجيكا فى اليوم السابق لعبور الحلفاء للراين فى الثانى والعشرين من مارس ١٩٤٥. وحضر العشاء الجنرال برادلى الذى قاد مجموعة الجيش فى الشمال بما فى ذلك القوات الأمريكية والجيش البريطانى تحت قيادة المشير مونتجومرى. كان باتون

هناك كذلك وكان هناك التناقض بين برادلى الهادئ المتواضع وباتون الحاذق المتوهج. أمضى باتون الكثير من وقت العشاء يروي قصص الحرب وكنت مجبرا على الترجمة بصفة مستمرة.

وقال لى: «يا ألكس، أخبر الجنرال....»

«صباح أمس أحضروا إلى مقر قيادتي جنرالا ألمانيا كسجين. وكان نازيا. دخل إلى مكتبي ضاربا الأرض بكعبيه صائحا «هايل هتلر». ولذا لکمتة فى أنفه. فوقع على الأرض. والتفت إلى مساعدي وقلت «خذ ذلك الرجل بعيدا. وأخذه إلى معسكر سجناء الحرب. وأحضروا لى جنرالا آخر بعد الغداء..، لكن هذا الجنرال مختلف تماما. واستطعت أن أرى أنه كان من الفرسان. كان رجلا كيسا. مثلى. ودعوته إلى طعام الغداء، وبعد ذلك أعطيته سيارتي الكاديلاك. لآخذه إلى معسكر سجناء الحرب. وانفجر ضاحكا.

إنه نحو نهاية العشاء بدأ شرب النخب. وقف باتون والتفت إلى جوين وإلى ورفع كأسه.

وقال إلى جوين: «ياذنك يا جنرال . . أود أن أشرب نخب ذكرى والد الكسندر».

وأجاب جوين: «إنه هو الذى علمك الحرب».

وقال باتون: «نعم».

غمز جوين قائلا: «والحب»

فصاح باتون قائلا: أو، لا. أعرفه بالفعل!

جلس باتون، وانتقل جوين إلى توقيت عبور الراين. «هل ستدعهم يطاردون

الطيور دون اعتبار لك؟» هذا ما قاله جوين.

انتفض باتون من كرسیه، وصاح: «يا لهی، لا !» واندفع إلى الهاتف وأمر الجيش الثالث بالهجوم فوراً.

وعودة إلى فرنسا، حان الوقت لإقامة نظام جديد. لم يكن هناك الكثير من أعضاء المقاومة الحقيقيين. وفي نهاية الحرب مات معظمهم أو تم ترحيلهم. وكان لشقيق أحد زملائي الضباط مصنع صغير لطبع الأقمشة. وأنه بعد ستة شهور بعد تحرير جنوب غرب فرنسا تسلم أمرا بستين ألف ربطة ذراع عمل حروف من شارة الشرف للقوات الفرنسية الداخلية، أكثر أبطال المقاومة الفرنسية. صارت الشارة الآن شارة شرف سواء تم الحصول عليها أو غير ذلك .

لكن هناك جانباً مظلماً لتلك الفترة عقب التحرير - فترة البلاغات والاعتقالات. علمت في غضون شهور قليلة الكثير عن أبناء بلدي أكثر مما كنت أريد معرفته. الحقيقة المؤسفة (المحزنة) هي أن الغيرة هي رذيلتنا الوطنية (القومية)، حيث انها ازدهرت في هذه الفترة تماماً. وإنه في أظلم (أحلك) اللحظات في هذه الفترة من الاحتلال كان يوجد من المؤكد متعاونون وهذه حقيقة الحياة. كانت عمتي، كونتيسة جاناي ضحية «المتعاونين» نظمت شبكة تهريب من المعسكرات الألمانية إلى أسبانيا والحرية. اتهمها الفرنسيون وقبضوا عليها وقام بتعذيبها الجستابو الفرنسي الشرير قبل القيام بنقلها الى ريفينسبروك حيث لقيت حتفها بشجاعة. إن أولئك الذين باعوا هذه المرأة الشجاعة وآخرين لاحصر لهم ربما يستحقون مثل ذلك المصير في نهاية الحرب، إلا أن هناك أيضاً أولئك الذين اشتهاوا زوجة جارهم أو أخذوا إطارات دراجة غيرهم. الآن حان الوقت ليتم الثأر منهم على نطاق واسع وتراجيدى - سواء كان

حقيقياً أو خيالياً.

كنت أحد أولئك الذين اعتقدوا عام ١٩٤٤ بأنه من الأهمية الكبرى تحقيق المصالحة الوطنية أكثر من البحث فى الماضى - التى نحتاجها لإنهاء خصوماتنا ونلقى بالحرب خلقنا بكل عواطفنا المميزة لكى نعد أنفسنا لنجارب الحرب التالية، الحرب العالمية الثالثة، ونتقدم إلى الأمام.

إن فشل الفرنسيين الكبير هو افتقاد الوحدة فيما بين قبائل الجول. إلا إنه فى أواخر ١٩٤٤ أستطيع أن أقترح بعض خطوات قد تسهل من عودتنا إلى الوحدة فى حياتنا الوطنية.

إن أحد الاقتراحات التى قدمتها إلى جاستون بالفسكى رئيس وزراء ديجول وهو متميز وهو المارشال فيليب بيتان، الرجل الذى سلم فرنسا للألمان ثم رأس الحكومة الدمية فى فيشى، يروح ضحية حادث. ذلك الحادث من الممكن بسهولة أن يكون قد دبرها بعض قوات أمتنا، وقد وفرت عليه وعلى فرنسا المزيد من الإذلال والنزاع - وتدليل الجرح بالملح الذى يكاد يندمل حتى اليوم. لقد قمنا بتبرير الكثير من حوادث مماثلة فى الشهور التالية لنهاية الحرب. لذا وضعت الفكرة أمام بالفسكى.

وأجاب قائلاً: «لقد فات الأوان بالفعل.» لقد قرر ديجول محاكمة علنية التى لم ينبت بيتان بكلمة خلالها، حيث أدين وحكم عليه بالإعدام ثم تم تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة - حيث مات فى السجن بعد ستة أعوام.

بدأت فرنسا بعد ذلك لتضع الحرب وأهوالها خلف ظهرها. مثلى. إلا إن سياسات الحرب قد بدأت بالفعل لإرساء الأساس لسياسات السلام.

الفصل الثالث

مهمة مستحيلة

كان لكل من الحلفاء أولوياته الخاصة به فى نهاية الحرب العالمية الثانية. فالفرنسيون احتاجوا إلى المجد والشخصية المسيطرة للجنرال ديغول لأجل محو عارهم. البريطانيون عام ١٩٤٥ تم استنفادهم. والأمريكيون الذين لم يكونوا عسكريين تقليديين، على الأقل فى أى مفهوم أوروبى، كانت لديهم فكرة واحدة فقط فى ١٩٤٥ - تسريح الجيش فى أسرع وقت ممكن. «إعادة الأولاد إلى الوطن!» صار مطلب الأمة الأمريكية والهدف الأول لأيزنهاور الذى قاد الأمة كرئيس فى النهاية. مامن أحد بين الحلفاء، بعيدا عن بعض المفكرين المعزولين ومنظورهم الاستراتيجى، يعير بداية الحرب العالمية الثالثة انتباها ولو كان أدنى انتباه.

ذلك الجو من التقهقر إلى الانعزالية كان أوضح سمة فى الصورة الطبيعية الأمريكية التى اكتشفتها عندما وصلت إلى أمريكا فى مايو عام ١٩٤٥. كنت مصاحبا للجنرال جوين إلى البنتاجون للعمل مع الجنرال جورج سى. مارشال بشأن الميثاق المستقبلى للأمم المتحدة. قابلت هناك أيضا ثلاثة أشخاص مهمين آخرين - الرئيس ترومان، الأدميرال ليهى، ووالدتى.

لم تكن تلك هى رحلتى الأولى إلى الجانب الآخر من الأطلنطى - حيث كانت الأولى عندما كنت فى الخامسة من عمري فى صيف ١٩٢٥. وإن ذكرياتى من تلك الأيام الأولى قد لونت كل ردود أفعالى تجاه أمريكا والأمريكيين لبقية حياتى. كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هنا. كانت - السفينة فى الأيام

لأولى. لذا كانت صورتى الأولى عن الولايات المتحدة من ميناء نيويورك عربات تحمل الأمتعة من السفن. كانت البغال تجرها حيث إننى أرى الحمير والخيل ولم أر بغلاً من قبل على الإطلاق. إن تلك الحيوانات التى تبدو كبيرة مثل الخيول لكن أذنيها طويلة مثل أذن الحمير قد بدت لى غريبة جداً. والذكرى الثانية كانت استئصال اللوزتين لى، حيث تم ذلك فى نيويورك. وجدت ذلك الأمر رائعها بعد فقد اللوزتين حيث كان يجب على الواحد تناول كمية من الآيس كريم. إن الآيس كريم الأمريكى هو الأحسن فى العالم، وأصبحت بسرعة مدمناً له. كانت ذاكرتى النهائية هى إقامتى فى واشنطن مع الأصدقاء الذين كان لهم منزل فخم بحديقة فى المدينة. والحدائقى (الجنائنى) الذى كان يعتنى أيضاً بوضع الفحم فى الفرن كان ملونا (أسود اللون) من الجنوب. كنت أجلس على ركبتيه ويروى لى القصص عن الجنوب القديم بينما يشعل البايب. كانت بعض القصص تبدأ بـ «عندما كنت عبداً». كان رجلاً مسناً رائعاً. حركتنى ذكرياته للغاية.

لم أر والدتى منذ صيف ١٩٤٠ عندما هربت إلى فرنسا أمام القوى الألمانية الزاحفة. وأمضت الحرب فى الولايات المتحدة آمنة من كل الأهوال التى حلت بوطنها. كان العبء كبيراً على كاهلى خلال تلك السنين كلها إلا أنه أزيح عني عندما عرفت أن والدتى بعيدة عن الضرر (الأذى) على الأقل. كانت تقيم فى مكان رائع فى واشنطن يسمى فيرفاكس فندق إيواء حيث تنزل فى شقة تصاحبها وصيفتها هنرييت - أنت منخرطة فى عمل الإغاثة بطريقة كبيرة جداً أثناء الحرب بإرسالها طرود إلى الجنود - كانت تجربة مثيرة تماماً لأن أرى والدتى مرة ثانية بعد كل تلك السنوات.

لقد رحلت عندما كنت فى الحقيقة شابا ، وحتى عندما كنت صبيا ، وعندما شاهدتها ثانية كنت ضابطا مخلفا الحرب برمتها خلفى وكنت ياورا للجنرال جوين الذى صار ماريشال فرنسا.

كانت رحلتى الجوية طويلة وصعبة - من فرنسا إلى اسكتلندا ثم إلى أيسلنده ، فالى نيوفونلاند وأخيرا إلى نيويورك فواشنطن. ففى نيوفونلاند هبت علينا عاصفة ثلجية وامضيت حوالى أربعة أيام فى ثكنات القوات الجوية الملكية الكندية بانتظار هدوء (سكون) العاصفة.

لقد تعاملت مع كثير من الأمريكين أثناء سنوات الحرب وفى فترة ما بعد الحرب مباشرة. إلا أنه القليل فى الحقيقة الذى هيانى لأجل تذوقى المباشر الأول للولايات المتحدة بينما شرعت فى التحول من توطيد العزم الذى به حاربت أكثر حروب العالم تدميرا إلى (حتى) عقلية «الحرب الباردة». كانت الولايات المتحدة قبل كل شئ الأمة التى اضطلعت بقيادة العالم لانزال الهزيمة بأعداء الديمقراطية اللدودين. ولو أنها لم تكن الأمة أو القيادة التى وجدتتها عندما وصلت أخيرا إلى واشنطن مع الجنرال جوين. امتلك الأمريكيون وحدهم القنبلة الذرية، وهذا من المحتمل، مما أعطاهم فرصة فريدة لأن يستخدموا قوة غير عادية التى لوحوا بها لبسط زعامة العالم الحر التى طالبوا به حقيقة أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت زعامة أقرها بقية العالم الحر، وليس الأمريكيون أنفسهم - ليس بعد - وإذا أرادوا، فإنهم فى موقع لفرض ايقونة السلام الأمريكان التى دامت قرنا أو يزيد - قرنا من الرضاء والسلام. وإنه بالاضطلاع بدور ريادى فى تقسيم ألمانيا، وإقامة قدرة نووية فى القارة الأوروبية فى أول

فرصة، فرض وجود سوفيتى صغير إلى حد بعيد فى أوروبا الشرقية، إرساء قانون دون بنود وغير واضحة بشأن السيطرة الروسية للبلاد المفترض أنها حرة مثل تشيكو سلوفاكيا (على الرغم من اتفاقيات يالتا المقسمة لأوروبا، شرق وغرب) ربما تغاضى عنها الأمريكيون أو على الأقل خففت الحرب العالمية الثالثة. إن ميزان القوة فى العالم من المؤكد تحول الصالح الغرب تحولا جوهريا - فشل الأمريكيون من خلال نقص الرؤية التاريخية التى ظلت مشكلتهم الأساسية لمعظم القرن العشرين فى الإمساك بالعزم.

كان جزء من المشكلة هو قصص الجنود الأمريكيين الشبان التى عادوا بها من غزو أوروبا. ولو أنهم انقذوا القارة فلا يزال بالنسبة لهم مكانا غريبا وعجيبا - حيث وصل القليل قبل وصولهم على رأس طابور ميكانيكى. لقد مزقتهم مشاعر عاطفية عميقة لأجل هؤلاء الناس الذين قاموا بانقاذهم وأصبحوا مثل أطفالهم حيث يتوجب حمايتهم وحراستهم، هذا من ناحية. وقد شهدوا من ناحية أخرى، أعمالا شرعية من المbaughت تقترب من البربرية دون ذكر فظاعة معسكرات الاعتقال. قصص أهوال تلك المعسكرات التى حرروها كانت تبدأ من قليل فى التسرب إلى الوطن مع روايات معاملة الفرنسيين للمتعاونين سواء كانوا متعاونين مع قوات الاحتلال حقيقة أو تصورا بأنهم كذلك. كانت روايات لما أتى به بعض الأوروبيين مع الأوروبيين الآخرين، وكان هناك شعور منتشر بازدياد بأنه ربما لم يوجد أنواع من الناس لا تريد الولايات المتحدة أن يتم استنزافها بالدفاع فى سيتو لأجل مستقبل غامض.

إن الوجه الآخر لهذه العملة كان شعورا يتملك أصغر عنصر من السكان

استحوذ على الولايات المتحدة لمدة حقبة زمنية فيما بعد. ومع أنه كان الإدراك الحسى بأنه رغم ان الحرب ضد النازيين قد انتهت إلا أنها أفسحت المجال على الفور ودون توقف أمام الحرب ضد عدو خطير وماكر - الشيوعيين السوفيت - حرب تسمى حقيقة الحرب العالمية الثالثة. إن بعض الأمريكيين المتأملين تعرفوا على الأخطار هنا تماما مثلما عرفها ديجول وجوين وأنا شخصيا. وإنه فى وقت من الأوقات قبل نهاية الحرب بقليل تصادم جوين وأنا مع رئيس أركان أيك وهو جنرال بيدل سميث عندما كنا ذاهبين إلى قيادة الحلفاء التى بعد ذلك صارت فى ريمز بدا بيرك سميث خطيرا بشكل واضح، واستفسر جوين عن السبب. بدا الانتصار فى قبضتنا والطريق مفتوح إلى برلين.

قال بيدل سميث بصرامه: «الأسوأ هو ماسياتى». ولم يوضح ذلك.

إلا أنه بعد قليل (فترة قصيرة) بعد نهاية الحرب أمرنى ديجول أن أصف لأيزنهاور تقارير كنا نتسلمها من خلال مصادر الحزب الشيوعى الفرنسى وكان عما يدور فى المنطقة الروسية.

فبدأت وقلت: «إن ملايين الروس تلتف حول المنطقة الأمريكية وتم إرسالهم بقطار خاص إلى المنطقة الروسية حيث تم إعدامهم الواحد تلو الآخر وذلك عند وصولهم.»

قاطعنى أيك وقال مقتضبا مبديا بعض الدهشة (الحيرة): أعرف لكن ما من شئ نستطيع عمله، هذا جزء من الاتفاق مع حليفنا.

لذا، مع وعى أيك بالتهديد السوفيتى البازخ جديدا وبداية التفكير الاستراتيجى ليكتنف الفكر الجماعى حيال هذا التحدى العسكرى الجديد، لم

يكن من المفاجأة أن الكثير من الحديث حول البنتاجون خلال شهور إقامتى هناك لم يعد هناك اهتمام بالسباق ضد الروس إلى برلين ولكن السباق كان على العقول الفذة للغاية وموهبة الرايخ الثالث. كان هناك فى ذاك الوقت بضعة خبراء حقيقيون فى النظام الشيوعى؛ وكان أكثر الأذكىاء للغاية النازيون الذين حاربوا الروس لسنوات. كان يندفع كل واحد بجنون لاحتضار هؤلاء الألمان إلى حظيرته. كان من الطبيعى أثناء الحرب تجنيد عملاء آخرين يعرفون العدو. ولذا فالمخابرات الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا، حقيقى كل أوروبا الغربية، قد بدأت فى تجنيد نازيين سابقين ممن كانوا ينتمون إلى الجستابو أو القوات المسلحة رجال مثل كلاوس باربى «جزار ليون» - وأبرز علماء الصواريخ كذلك. كان من بين النازيين حثالة الانسانية. وكان هناك أيضا بعض الأفراد غير العاديين. عندما توليت رئاسة المخابرات الفرنسية بمدة طويلة كان لدى زميل ملازما للجنرال جيرهارت فيزل قائد نازى للجبهة الشرقية. صار أحد أصدقائى المقربين. لم يكن أحد أعضاء الحزب الاشتراكى الوطنى. كان جنديا - ومحترفا.

أما على الجانب السوفيتى، كان آلاف النازيين سيئ السمعة تم ابتلاعهم فى الشرطة والقوات المسلحة للكتلة الشرقية حيث كان يتم النظر إليهم (النازيين) بمواهب أخرى - القمع والمخابرات المحلية. كان من السهل تماما التنقل من نظام الديكتاتورية إلى نظام آخر. بدا أن السوفييت كأن لديهم شكوك أقل من الأمريكين ناهيك عن ميزة أخذ صورة كبيرة ومدتها كبيرة عن سياسات العالم. حتى ان الأمريكين أرادوا إغفال السياسات السابقة لأولئك الألمان

الذين امتلكوا الخبرة الاستثنائية خاصة أولئك الذين لديهم الخبرة الفنية التي من المتعذر الاستعاضة عنها.

كان يتم العثور عليهم خاصة بين المجموعة العلمية الألمانية غير العادية، خاصة البارعين مثل بينموند على امتداد ساحل البلطيق حيث يوجد الباحثون الكيميائيون الألمان والباحثون في الطبيعيات ممن عملوا في الصواريخ . لذا فالجانبان - الحلفاء والقوات الروسية - زحفوا إلى هذا الموقع في نفس الوقت تقريبا في الأسابيع النهائية للحرب. ذلك كان كيفية تعلق الأمريكان بالعالم فيرنر فون براون الذي اخترع وكان يعمل في V2 وساعد فيما بعد الولايات المتحدة في الصعود إلى الفضاء. وهناك من الناحية أخرى عدد من زملائه وجدوا طريقهم إلى روسيا حيث ساعدوا السوفييت ليصبحوا أول دولة تطلق قمرا صناعيا إلى الفضاء. وتم تسميته سبيوتنيك الذي أصاب نجاحه كل الغرب بالذعر - كان دعاية كبيرة ان لم تكن عسكرية فهو انتصار للسوفييت، والأول في الحرب العالمية الثالثة.

وأنه في نهاية الحرب العالمية الثانية كان اهتمامنا الأساسي بالروس غير مباشر حتى ولو أن صورة الحرب العالمية الثالثة توضح الشرق ضد الغرب إلا أن أطرافها لازالت غير واضحة تماما. إن المهمة التي قمنا بها إلى واشنطن كانت في الحقيقة لمناقشة دفاع أوروبا الغربية الآن والحرب العالمية الثانية قد انتهت والكثير من القوات الأمريكية عائدة إلى الوطن. إن عملنا أرسى الأساس لحلف شمال الأطلسي. وإنه باستعادة الماضي كان بالصدفة المحضة أننا نجحنا في إقامة بناء (صرح) مكننا كلنا أن نخوض الحرب العالمية الثالثة إلى نهاية

ناجحة. إن كل يوم نصل فيه إلى غرف تخطيط وزارة الدفاع كانت هناك خرائط ضخمة مفرودة وكنا نرسم عليها لاكتشاف الوضع السياسى والاستراتيجى القائم فى أوروبا.

أمضينا الكثير من الوقت مع الجنرال مارشال ومساعديه. كنا حلفاء وأصدقاء. علاوة على أن جوين كان له وضع (هيئة) هائل نتيجة لدوره فى الحملة الإيطالية وتكتيكاته الذكية ضد الإيطاليين والنازيين. لكن الأمريكين كانوا مهتمين بقدرتنا العسكرية وبدور جوين فى الحملات العسكرية ويبدو أن مارشال كان أحد الأفراد ذى الحساسية غير العادية. كان جوين كذلك. كان من الضرورى أن يأتى الرجلان إن ليشاهدا كل منهما كل جانب حيث كان الرجلان وخاصة، مارشال عليهما تأدية أدوار عريضة فيما بعد استعادة أوروبا تماما.

صرت ومساعد الجنرال مارشال العقيد جورج أصدقاء جدا أثناء إقامتى فى البنتاجون، وكان العقيد جورج ظل مساعدا للجنرال مارشال لمدة تربو على الثلاثين عاما - وكان مساعدا مخلصا لاغنى عنه. ذات يوم تنحينا جانبا وقدم لى اقتراحا بأنه صباح اليوم التالى أبلغ جوين أن:

«انت تعرف هؤلاء الأمريكان أنهم منظمون جدا كمحاربين إضافة إلى أنهم عاطفيون جدا، لذلك لو استطعت أن اقترح قبل بداية اليوم الرسمى حوالى الثامنة أو الثامنة والنصف بأنه يجب أن نتسلل من الفندق حوالى السابعة والنصف لنزور قبر الجنرال بيرشنج».

يبدو أن بيرشنج قد عنى الكثير لمارشال أكثر من أى رجل قد عرفه. كان محاربا فاهما عمق طبيعة القتال - التى تعلمها جيدا والتى تدرب عليها فى

الحرب العالمية الأولى حيث كان الجنرال مارشال وزملاؤه يتدربون فى الحرب العالمية الثانية وكما أن من تلاهم يتدربون فى الحربين الثالثة والرابعة.

كان الجنرال مارشال يذهب كل أسبوعين، خلال الحرب العالمية الثانية، إلى مستشفى وولتر ريد ليحضر خرائط للمسارح الأوروبية والباسيفكية. كان الجنرال بيرشنج ملازما الفراش، مريضاً للغاية (مات قبل مدة قصيرة من نهاية الحرب). أحيانا خلال تلك الزيارات لم يكن يدرى ما كان يدور إلا أنه كان يفيق من آن لآخر.

كان مارشال يقف كل مرة عند باب حجرة المستشفى ويقول: «الجنرال مارشال يقدم تقريراً عن العمليات، يا جنرال.»

ثم يجلس بجوار بيرشنج ويشرح حالة العمليات. كان بيرشنج يسأل أحيانا أسئلة، وكان المحارب القديم أحيانا يكون هناك ليتابع عن قرب، وأحيانا لا يتابع. وأخيراً يقف مارشال وقفة انتباه ويؤدى التحية ويلف على كعبيه ثم ينصرف. لا يعلم أحد شيئاً عن هذه الزيارات سوى العقيد جورج وجرنال مارشال وجرنال بيرشنج. ورويت هذه القصة لجوين، وتحرك إزاء هذا بعمق. وعندما افترضت بأننا نزور قبر الجنرال بيرشنج لذا أدرك لماذا كان هذا الأمر هاماً جداً.

وفعلنا مثلما اقترحت - بهدوء ودون الإعلان عنه وتسليت من غرفة الفندق قبل السابعة والنصف ثم بعد الزيارة تمت العودة إلى الفندق لنبدأ يومنا الرسمى.

كانت هناك مأدبة غداء كبيرة فى البنتاجون بعد ثلاثة أيام أقامها الجنرال مارشال.. حضرها كل رؤساء الأركان، وسكرتيرا الحرب والبحرية كذلك. نهض

الجنرال مارشال وبدأ خطبة صغيرة. كانت مؤثره جدا. قال ملتفتا لجوين: «إنكم تعلمون إن مخبراتنا جيدة جدا. وعلمنا ما فعلتموه صباح أمس فإنك لست بجندى عظيم فقط وإنما رجل له عواطف عظيمة».

إن هذا التفاهم هو الذى يشترك فيه الأمريكيون والأوروبيون من حيث القيم الأساسية التى أدت إلى الاقتراح الذى قدمه الجنرال مارشال حيال خطة مارشال فى شأن إعادة تعمير أوروبا، وهو عنصر أساسى فى إقامة قارة تكون قادرة للدفاع عن نفسها فى الحرب العالمية الثالثة. إن مارشال وزملاءه ساعدوا فرنسا بصفة خاصة، ومكنونا من الجلوس إلى المائدة مع القوى الكبرى الأخرى بعدما تمت هزيمتنا المخزية عام ١٩٤٠. كان لهؤلاء الرجال رؤية حيال فرنسا وليس حيال ١٩٤٠، وإنما حيال ١٩١٨ فى لحظة انتصارنا عندما ساعدنا فى إلحاق الهزيمة بألمانيا القيصر ودون رفع علم أبيض للاستسلام. شارك الجنرال مارشال فى النصر وكان من خلال جهوده مما جعل فرنسا قادرة على النهوض ثانية. أسس مارشال والآخرون فرنسا وأوروبا كخطوط جبهة قوية فى الحروب التالية التى فرضت علينا بالفعل. وحيث أن الجنرال مارشال والذين حوله قريبون من الوطن فإن تماسكهم صار نموذجا فى حياتى ووضع المستويات لكيفية قيامى بالعمل أثناء فترتى فى أعلى خدمة لبلدى.

وان كثيرا من تاريخ أوروبا لما بعد الحرب العالمية الثانية تم تحديده فى تلك الاجتماعات التى عُقدت فى البنتاجون فى نهاية العداءات فى عام ١٩٤٥. كانت الاجتماعات مختصرة نسبيا وأمضيت وقتا قصيرا فقط فى واشنطن حينئذ ثم عدت مع الجنرال جوين إلى باريس.

قررت بالفعل أن أترك الجيش. وسألنى جوين إذا كان يتسنى لى الاستمرار فى عمل الاتصال مع الحكومة الفرنسية المؤقتة والجمعية الدستورية، وقد وافقت. كان ذلك أول اختبار للأعمال الداخلية للسياسات الحزبية. وقد وجدت لها بغيضة للغاية.

وإنه عند نهاية تلك السنة من الخدمة المدنية المؤقتة وصلت الخامسة والعشرين ولمدة سبع سنوات منذ سن الثامنة عشرة كنت أخوض الحرب. لذا كنت مستعدا بإجابة عندما استدعانى الجنرال ديجول إلى منزله المطل على غابة بولونيا. وإنه لبق من المزاح المتقطع الذى لم يمكن هذا أسلوبه فى الحقيقة اتى ديجول إلى صلب الموضوع مباشرة.

بدأ ديجول قائلاً: «ماذا تنوى القيام به الآن يامارينشز؟ هل ستشارك فى السياسات؟ سيكون ذلك الأمر انتخاباً حاسماً - إن كل ما عليك هو تسجيل اسمك. وسيتم انتخابك ويمكنك أن تكون نائباً.

فأجابته: «لا، شكراً ياسيدى». «لقد حضرت إلى هنا لأقاتل. والآن قضى الأمر. أما بالنسبة للسياسات، فلا، أشكركم كثيراً جداً. والآن أعود إلى منزلى».

إن مارأيته بالفعل من السياسات من الصعب أن يغير من صلابة ذهنى. السياسات والحرب، والسياسات والمخابرات، والسياسات والعلاقات بين الأمم حقا لم تمتزج امتزاجاً جيداً. فإنه من الصعب المحافظة على استقلالية الرأى الضرورية لمقاتلة عدو خارجى من أى طراز عندما تكون غارقاً بعمق فى مشاجرات داخلية وقضايا محدودة لوطنك.

أثار ديجول هذه المسألة من السياسات معى ثانية، بعد وقت قصير ذات مرة، عندما سأل إذا تسنى لى اعتبار أننى رئيس لجنة مالية لحزبه السياسى. وافقت على دراسة العرض ، إلاأننى لم احب ما وجدته عند امتحان دقيق. كانت هناك المكيدة فى كل مكان فى تلك الأيام. وبقيت شابا ساذجا وقررت أن كل تلك المكاييد لم تكن ببساطة بمثابة فنجان شاي . وأنى كنت بعيداً عن العملية السياسية فإن ذلك يثبت أوراق اعتمادى الضرورية عندما طلب منى لأرأس المخابرات الفرنسية التى صارت متوسطة فى المكائد السياسية المحلية.

لذلك عدت إلى منزل عائلتى فى نورماندى. كانت ممتلكاتى مهمة. وبعد أن قمت بتصحيح الأمر حيال ذلك، دخلت الحياة المدنية ثانية بانتقام ومع بضعة أصدقاء من أصدقاء الحرب حيث افتتحت جهازا تجاريا يسمى بالشركة الحرارية العامة. كنا نقوم بتصنيع الآلات البخارية معظمها يتم تصنيعها فى مصنع بالضاحية الصناعية خارج باريس، علمتنى التجربة الأعمال وطبيعة العمال - شعور بالمنظمة وحساسية تجاه احتياجات أولئك الذين يقومون بالشئ الحيوى، تفاصيل يوما بيوم عن الأعمال التى تجعل عملية المجمع تسير بيسر. كانت الدروس قيمة بالنسبة لضابط مخابرات.

أمضيت الخمس عشرة سنة التالية فى صناعة خاصة التى سمحت لى تدريجيا بالاستقلال المالى لأفعل ما أرغبه فيما بعد. خاصة بعد أن اشترينا شركة ضخمة حيث قمت بتطوير شئونى التجارية بالسفر وتنفيذ المهام التى وكلتنى بها الحكومات الفرنسية المتتالية ورؤساؤهما - أحيانا بصفة مدنية وأحيانا كضابط احتياط. وكانت الواجبات سرية وذات طبيعة حساسة.

لقد استغلوا مهاراتي في الانجليزية وفهمي للعقلية الأمريكية والنظام الاجتماعي والسياسي للولايات المتحدة - كيف يكون رد فعل قادتها وكيف يشعر الشعب تجاههم.

عندما عاد الجنرال أيزنهاور في يناير ١٩٥٠ للولايات المتحدة طلب الرئيس ترومان منه العودة إلى أوروبا لتنظيم حلف شمال الأطلسي - الذي هو رسميا منظمة معاهدة الشمال الأطلسي أو الناتو قام بالسفر لمدة أسبوع خلالها فرنسا ليقرر ما إذا تكون فرنسا وأوروبا دفاعية في الحقيقة أثناء الحرب العالمية الثالثة حيث أدرك أيزنهاور وترومان أنهما على وشك الاشتراك. قبل وصول أيزنهاور في يناير ١٩٥٠ بفترة قصيرة استدعاني وزير الدفاع رينيه بليفن وقال: « أنت ضابط احتياط - وبعد ترقيات عديدة صرت مقدما - هل ستعود وتكون مساعدا لأيزنهاور أثناء وجوده في فرنسا؟ » بالطبع، وافقت.

سألني ايزنهاور بتكرار اثناء ترحالي معه في فرنسا: « رسم لي صورة لفرنسا. سألني بعدما غادرنا البرلمان: « كم عدد الأحزاب السياسية هناك، على سبيل المثال؟ » أجبت: « حسن، حوالي اثنين واربعين مليوناً، ياسيدي. » فابتسم قائلاً: « أعلم ذلك. الشعب الفرنسي. وهذا تخميني. ».

فضحكت.

إن زيارة أيك (أيزنهاور) وانطباعه عن الضباط العسكريين الفرنسيين الموالين الذين تحدث معهم، وحمله معه، كان ضروريا لاستنتاجه أن فرنسا وأوروبا ملتزمتان بدفاعهما وتستخدمان كشركاء فعليين في أي محاولة عسكرية أمريكية. كان ذلك تناقضا حادا لإحساس الجنرال في واشنطن بأن

أوروبا كانت ببساطة مجموعة من الدول الضعيفة الكسلانة فى انتظار الجيوش الأمريكية للدفاع عنهم ضد كل القادمين.

تم إرسالى إلى واشنطن ثانية بعد عام فى يناير ١٩٥١ وإلى البنتاجون فى مهمة هامة من المنظور الفرنسى. كانت فرنسا آنذاك فى مستنقع عميق مما ثبت لنا أنه عميق ومربك مثلهم فى ذلك الأمريكيون بعد عشرين عاما - الهند الصينية. علاوة على أن عسكريتنا تعلمت درسا بسرعة أن نظراءهم الأمريكيين يستغرقون مدة أطول لتعلمه - لايتسنى لهم كسب الحرب ضد المتمردين الشيوعيين على الأرض وفى الأدغال. إننا نحتاج بشدة أن نجلب تكنولوجيا المتطورة لتكئ عليها فى المعركة. كان ذلك هو السبيل الوحيد الذى نأمله لأجل أى ميزة.

إن أول كل شئ، كانت تلك التكنولوجيا محمولة جوا. إن الفيتناميين الشيوعيين، الذين لم يكن قد تم إمدادهم بأنواع متفوقة من الاسلحة التى تلقوها مؤخرا من الحلفاء السوفييت، ظلوا يقاتلون بأسلحة بدائية - دفاعية وهجومية. إن أول شئ هو أن قدرتهم أرض - جو كانت غير موجودة تقريبا مما ترك الأجواء مكشوفة أمام سيطرة القوات الفرنسية. للأسف القوات الجوية الفرنسية أنهكتها الحرب فى أوروبا علاوة على اشتراكنا الصغير فى الحرب فى الباسيفيك. لذا طلب منى رينيه بلقان الذى صار فيما بعد رئيس وزراء الارهاب إلى البنتاجون لالتماس طائرات أكثر تطورا لكى تستخدمها قواتنا فى الهند الصينية.

ونجحت للغاية وسرعان ما لعبت الطائرات العمودية الأمريكية (الهليكوبتر)

والمقاتلات دورا مساندا هاما لقواتنا فى الهند الصينية. كان ذلك أول تعاون أوروبى أمريكى حقيقى فى أول مناوشة فى الحرب العالمية الثالثة - معركة شرقية - غربية فى الطرف البعيد من العالم.

إلا أن أكثر المهمات تحديا جاءت فى أكتوبر ١٩٥٠. استدعانى بلفان رئيس الوزراء إلى مكتبه وشرح فى مناقشة عريضة عن الوضع (الموقف) العالمى خاصة تورط فرنسا فى الهند الصينية.

وقلت: «إن مستقبل العالم فى الباسيفيك.»

فسأل: «وماهى قوى الباسيفيك الكبرى؟»

«لاكتشاف قوى الباسيفيك الكبرى يجب أن نبدأ بالغرب - بمعنى أن الروس والصينيين، اليابانيين والاندونيسيين فى يوم من الأيام. إلا أنه على الجانب الآخر، لا يجب نسيان وجود الأمريكان والكنديين. إنهم قوى باسيفيكية كالآخرين هؤلاء.»

ركز بلفان على التصريح الأخير وسأل: «ماذا ستكون السياسات الأمريكية عليه فى الباسيفيك؟»

وأجبت: «هذا سؤال جيد جدا وأظن أننا يجب محاولة إيجاد إجابة. وسيكون الأمر ممتعا.»

أجاب بلفان ببطء: «ليس هذا بالسؤال السهل للإجابة عنه. هل تحب أن تأخذ سؤالا مثل هذا؟ أتود القيام بمهمة فى الباسيفيك؟»

كانت هذه أول مهمة لى حقيقة فى المخابرات بمعنى أن تلك المهمة تتضمن

توليفة من المجال التفصيلي ومخابرات استراتيجية للغاية وتحمل معها أعرض الاستدلالات السياسية الطبيعية. وتتطلب نظرة داخلية في العقلية الأمريكية والأسبوية، علاوة على النظرة الداخلية في تاريخ وثقافة بعض المجتمعات المتفاوتة. كان ذلك تمرينا كلاسيكيا في مهنة المخابرات يتكون من تعلم واكتشاف وتخمين مايجري في السياسات الأمريكية وما ستكون عليه الاستراتيجية العسكرية والدبلوماسية للولايات المتحدة في الباسيفيك عبر الحقبة التاريخية التالية. إن نوع المعلومات المتقدمة ستكون هاماً لفهم ما هو نوع التزام الولايات المتحدة الذي تعده لدعم حلف شمال الاطلنطي في مناطق العالم التي بدون الناتو.

كانت أول محطة لي هي واشنطن حيث ناقشت التعيين مع الجنرال مارشال، رغم حقيقة مهمتي قد تعتبر تجسساً، الذي فهم قيمة معرفة فرنسا لأهداف أمريكا في منطقة الباسيفيك. قال المارشال الذي فهم احتياجي لتركيب وسياق التصريحات الخاصة بالسياسة.

«فإذا كنت فرنسياً أو أوروبياً، فإن كل واحد سينظر إليك ويعاملك بطريقة مختلفة وبينك وبينه مسافة. فما رأيك وأنت ضابط أمريكي؟»

لم يتردد في جعل هذا الأمر ممكناً. وتلك هي كيفية أن صرت العقيد ديفيد الكسندر. ظل معي مستند أعطاه لي لابد وأنه فريد - بطاقة صغيره بها صورتى الفوتوغرافيه تعطينى أولوية السماح لي بالسفر على كل الطائرات الأمريكية العابرة للباسيفيك.

غادرت واشنطن إلى نقاط الشرق والجنوب - هايتى؛ وبك، جوام؛ طوكيو،

إبان قيادة الجنرال دوجلاس مكارثر. حاولت اكتشاف عما ستكون عليه السياسة الأمريكية وما هو الدور الذى قد تلعبه فرنسا. كانت النتائج فى تقريرى مبنية على أساس شهور من اختبار المياه الإقليمية - الجو فى آسيا حيث يكون للولايات المتحدة وجود. كان يتم تحية الأمريكان فى بعض المناطق كابطال تحرير، أما فى مناطق أخرى (خاصة اليابان) كحكام عسكريين من أردأ الأنواع. لذا بدأ تقريرى بشئ من التاريخ. وأوضحت أن الرومان كانوا أقوياء لأنهم جعلوا البحر الأبيض المتوسط بحيرتهم الخاصة بهم الشافية من الأمراض. خطر لى وأنا أقوم بإعداد تقريرى وفكرت فى شهورى من التجوال فى الباسيفيك بأن هذا المحيط سوف يصبح البحر الشافى فى نهاية القرن. لكنه سيصبح ذلك لمن؟ اعتقد ولازلت أتمسك بهذا الاعتقاد بدرجة كبيرة بأن الباسيفيك يكون وسيكون دائما هو البحيرة الخاصة بأمريكا.

أخبرت رئيس الوزراء فى تقريرى: «كانت الحركة فى أمريكا دائما تجاه الباسيفيك. هذه الحقيقة، أكثر من غيرها، ربما تكون أكبر الحقائق خطرا بالنسبة لأوروبا. إن اهتمام الشعب الأمريكى بالالتفات ناحية أوروبا قليلا وقليلا، تلك الأرضى التى جاء منها آباؤهم وأجدادهم».

كان جزء من رحلاتى التجوال عبر كاليفورنيا. اكتشفت أنه حتى فى عام ١٩٥٠ كان كثير من الناس الذين ظلوا يعيشون هناك جاءوا حقيقة من جبال روكى فى عربات مقفلة فى شبابهم. أولئك الناس وخاصة سلالتهم لا يلتفتون إلى أوروبا. إن أوروبا فيما وراء الأطلنطى، والتى فيما وراء أمريكا، والتى فيما وراء جبال عبروها.. حيث إن مركز سكان أمريكا تحرك غربا فإن سكانها يتطلعون أمامهم. وكان الباسيفيك أمامهم.

يجب تذكر أن الخط الذي يفصل الجنوب من الشمال فى حرب الجنوب والشمال التى نخوضها الآن يلتف حول الكرة الأرضية. ويعبر الباسيفيك كما يعبر الأطلنطى بكل تأكيد وينصف البحر الأبيض المتوسط.

يلعب الباسيفيك دورا بأشكال مختلفة فى كل حرب خضناها فى هذا القرن. إن معركتى التراشق بالنيران اشتركت فيهما الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثالثة أثبتتا مدى مالى من بصيرة فى أول تقرير مخبرات أعده القائد فرنسى. إن تلك الحربين، دفاع شبة الجزيرة الكورية ضد الصينيين الشيوعيين وحلفائهم فى ١٩٥٠ - ١٩٥٢، ودفاع فيتنام الجنوبية فى الستينات وأوائل السبعينات، كانتا المعركتان حيث تم تبادل إطلاق النيران وخاضتهما الولايات المتحدة فيما كان يعتبر الحرب الباردة - الحرب العالمية الثالثة. حدثت المعركتان فى الشرق الأدنى. أنهى الفرنسيون اشتراك قوة عسكرية حقيقية فى مسعى الأمم المتحدة المشترك فى كوريا، وكان هذا التحرك قد وافقت عليه بشدة.

اعتقدت أنه كان من الضرورى آنذاك والآن مساندة الولايات المتحدة حيثما نشعر أين تكون مصالحنا كامنه - وخاصة فى أجزاء من العالم مثل آسيا، وحيثما تكون المصلحة أكبر مما نراها. علاوة على أن الولايات المتحدة هى القوى العالمية فى الشمال بقوة واستطاعة لتولى القيادة حيثما توجد المناوشات فى الحربين الثالثة والرابعة التى قادتنا فى الماضى وربما تأخذنا فى المستقبل مثلما رأينا مؤخرا جدا فى العراق.

ووضع طويلا أن الولايات المتحدة ستكرم قادتها فى الناتو إلا أنه رسميا فإن

التزامات الناتو تبدأ وتنتهى بالشمال الأطلنطى . حيث أن الأحداث فى الشرق الأوسط وخاصة فى الباسيفيك قد أثبتت أن الحرب العالمية الرابعة لا يبدو خوضها فى أبعد أو قرب من شمال الأطلنطى .

إنه خلال هذه الفترة قبل وبعد تقاعد الجنرال ديجول فى منزل قريته كولومبى - لى - ديز - إجليز، ظلت على اتصال معه وبعض أفراد عائلته. ولو أننى لا أنتمى أبدا لأى حزب سياسى ولا حتى حزبه إلا أن الجنرال استدعانى عدة مرات لأنفذ عدداً من المهام له. وكان يبعدنى بحرص عن حياته المتصلة بسياسات الحزب. السياسات والشئون الدولية كانت لتك التى تعينى. وأقر ديجول باستعدادى لأكثر المهام عالمية.

طلب منى ديجول فى يوليو ١٩٥٩ عندما عاد للرئاسة أن أعود إلى واشنطن وأزور الرئيس أيزنهاور. أرادنى أن أتحدث مع أيزنهاور عن القنبلة الذرية الفرنسية. كانت دولتان آنذاك تمتلكان القنبلة الذرية - الولايات المتحدة، التى استخدمتها لإنهاء الحرب فى الباسيفيك فى هيروشيما ونجازاكي؛ وبعد سنوات قصيرة كان الروس.

احتاجت فرنسا أيضا إلى القنبلة لتصبح قوة سياسية رئيسية فى أوروبا الغربية، وكافلة الاستقلال للعالم الحر، أو على الأقل لأوروبا الغربية عندما تغادر القوات الأمريكية من القارة (وكان ديجول يعتقد ذلك عاجلا قبل أجلا) . شعر بأن فرنسا احتاجت لأن تصبح القوة النووية الثالثة لتلعب دورا مركزيا فى الدفاع عن الغرب فى الحرب العالمية الثالثة - إلا أن ديجول أيضا أدرك أن العلماء الفرنسيين لا يتسنى لهم إنتاج بسرعة ويسر القنبلة من جانبهم

الخاص. ويجب دفعهم خلال عملية مملة من المحاولة والخطأ الذى أزعج محاولات أمريكا الأولى فى التقدم النووى. فرنسا احتاجت المساعدة الأمريكية.

لذا رحلت إلى الولايات المتحدة من جديد بهذه المهمة الأخيرة والدقيقة. وبقليل من الأمل والنجاح بصراحة.

وتم لقائنا فى المكتب البيضاوى حيث جلس الرئيس بمفرده. واستقبلنى بحرارة. بدأنا بالحديث عن الحرب العالمية الثانية، والموقف السياسى فى أوروبا وفرنسا، ثم عدت إلى سبب مهمتى.

«جنرال ، ياسيدى» : بدأت بذلك. ودائما أدعو أيك IKE «بجنرال» لم أكن قادراً أبدا على أن أظنه أى شئ آخر. أنا فى مهمة، مهمة شخصية للجنرال ديغول . إنه رجل تعرفه جيدا لسنوات عديدة. عملنا معا عن قرب ، وطلب منى أن أحضر وأتكلم معك عن موضوع غاية فى الدقة والحساسية». أوماً أيزنهاور ببطء وطلب منى الاستمرار فى الكلام.

«ياجنرال، إننا نحتاج مساعدتكم لبناء قنبلة ذرية فرنسية»

ضبط ايزنهاور رأسه على الفور وقال : مستحيلاً وتحدثنا باختصار لكنه من الواضح أنه لم يتحرك إزاء ذلك. كان هناك شعور متزايد من الخوف فى الولايات المتحدة بالفعل بشأن تزايد النفوذ الشيوعى فى أوروبا ، فسر ايزنهاور ذلك. إنى أعرف جيدا موقفه الداخلى الذى يتضمن الحملة الشيوعية ضد ذوى الآراء السياسية المعادية التى يقودها السيناتور جوزيف مكارثى. علاوة على أنه بالنسبة لموريس طوريز وأعضاء آخرين موالين للحزب الشيوعى الفرنسى الموالى لموسكو المشترك فى أول حكومة فرنسية بعد الحرب . الحزب الشيوعى

الفرنسى كان شرعيا وقوة قوية فى السياسات الفرنسية . والكثير فى الحكومة الأمريكية بما فى ذلك أيزنهاور كانوا على علم بالتسلل الشيوعى للأبحاث الذرية الفرنسية . إنهم حقا على صواب بالنسبة للتسلل الشيوعى كما أوضحت مخابراتنا المحلية. بعدما قام الألمان بغزو روسيا فى عام ١٩٤١ أصبح الشيوعيون الفرنسيون، الذين يأخذون توجيهاتهم من الاتحاد السوفيتى، عناصر قوية فى حركة المقاومة الفرنسية المقاتلة ضد الاحتلال النازى. وصار الحزب ذاته فى نهاية الحرب يجذب عددا ضخما من طبقة المثقنين الفرنسيين. وحتى تلك المجموعة من الصفوة تضمنت الكثير من كبار علماء الذرة كذلك . وإنه منذ قيام أعضاء النادى الذرى بإبطال أول قنبلة ذرية للروس بحلول عام ١٩٤٨ وحدث انفجار ذرى حرارى بالنسبة لهم فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٩٥٣ الأمر الذى تسبب فى الحملة الأمريكية ضد المنشقين خوفا من سرقة الأسرار الذرية الغربية بعد ست سنوات وكان أمرا غير منطقى البتة.

وإنه بالرغم من محادثاتى مع ايزنهاور ومع بعض مساعديه فيما بعد فى تلك الأيام الأولى من إداراته إلا أنها أدت إلى رفض مؤدب لكنه صارم للغاية.

عدت إلى فرنسا وقدمت تقريرا إلى ديجول . شرحت بعناية وجهة نظر أيزنهاور ووضعه السياسى الداخلى محاولا وضع قراره فى سياق كلام (أكثر مكونات التقرير أهمية لأى ضابط مخابرات) ، وكان ديجول ساخطا.

تقابلنا فى مكتبه بقصر الإليزيه فى باريس حيث أعددت تقريرى الكامل . صار ديجول ثائرا وهو يجوس المكان ذهابا وجيئة صائحا : «سأحصل على قبلى يا مارينشز ! هل تفهم؟ سأحصل على قبلى!»

أمر دييجول بمحاولات بناء قنبلة فرنسا الخاصة بها وأن تضاعف الجهود . ولم يكن الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٠ . بعدما فجر البريطانيون أول قنبلة نووية أوروبية . عندما اشتركت فرنسا بالنادى الذرى . أوجد رفض أيزنهاور شقاقا لم يندمل فى الحقيقة أبدا ، طالما بقى دييجول فى السلطة على الأقل . كان الأمر له تأثير هام على وحدة الحلف الأطلنطى مؤثرا فى الانسحاب النهائى لفرنسا من الجناح العسكرى للناتو NATO وإضعاف قدرة مجموعة المخابرات الأوروبية للعمل فى نموذج منسق خلال الكثير من الحرب العالمية الثالثة .

وإنه أثناء الخمس سنوات التالية عقب هذه الرحلة حينما قمت ببناء شركتى التجارية ، تقاعد دييجول وأمضى وقتا قلقا فى كولوجى . لينى . ديز إجلير يراقب من خلفوه وهم يتشاحنون مع بعضهم البعض بينما تتجه فرنسا إلى حالة إهمال فاحلة ميثوس منها . واستجاب دييجول عام ١٩٥٨ لنداء بلده وعاد للحياة السياسية النشطة كأول رئيس للجمهورية الخامسة . كانت الأمة فى خراب . استمرت الحرب فى الجزائر وكانت حربا مريرة . استدعانى دييجول بعد عودته للسلطة مباشرة وسألنى إذا كنت سأقبل مركزا رسميا . فرفضت كالمرات العديدة السابقة .

شرحت للجنرال « إن السياسات لم ولا تستهوينى على الإطلاق . ولا أشعر بارتياح بين السياسيين . لم يكونوا مسرحى . رتبت حياتى بطريقة أفهمها . أوافق دائما على خدمة بلدى ودول الحرية للإبقاء عليهم كجزء من العالم الحر . لكننى لا أريد مركزا رسمياً .

ظل دييجول يقاوم ويسألنى إذا كنت سأوافق على استئناف دورى كضابط

اتصال بين رفقائى فى الحرب وديجول والجنرال جوين وهم الآن فى حالة خصام
حيال حادثة موجعة فى تاريخ فرنسا الحديث . وهى الحرب المدنية المريرة فى
الجزائر . إن تلك المعركة تشابه كثيرا من صفات الحرب الأهلية الأمريكية وحرب
فيتنام . ففى حالتى الجزائر وفيتنام رأس الكثير فى فرنسا المعارك بمثابة جهود
لفرض إرادتنا السياسية على شعب متلهف لأن يتولى بنفسه مصيره .
فالمظاهرات والشعارات فى باريس وواشنطن منذ حقبة زمنية مسببة للشقاق
وتهدد استقرار ووحدة الحكومة والسكان على وجه العموم . عبر القرن السابق
وصل أكثر من نصف مليون فرنسى إلى الجزائر كمستعمرين . رواد فى الحقيقة
- يسعون إلى بناء حياة جديدة وأفضل لأنفسهم ولعائلاتهم . كان الكثير
موجودين هناك لأجيال حتى ١٩٥٤ . كانت الجزائر أكثر من حقيقة بالنسبة
لهم ، وذلك أكثر من فرنسا حيث يتمتعون بالمواطنة كاملة . إن أبناء وطنهم
الفرنسيين ينظرون إليهم بنظرة مختلفة - الملونين لأن الكثيرين تعودوا الذهاب
إلى اسوق حافىي القدمين وإلى صحارى الجزائر حتى تم تسميتهم « الحفّاة » .
وانتهى كل ذلك فى ليلة الحادى والثلاثين من اكتوبر عام ١٩٥٤ . ظهر تمرد
جماعى فيما بين الشعب الجزائرى يسعون إلى الاستقلال لبلدهم عن فرنسا .
بدت القوات الفرنسية العسكرية فى النقص بالذهاب إلى الحرب فى الهند
الصينية ، وكانت مضغوطة . وإنه مع تجمع الحفّاة لأجل القضية الفرنسية تم
الاشتراك فى المعركة واندلعت الحرب الأهلية . وبالعودة إلى الوطن ، فى مترو
بوليتان فرنسا ، بدأ الشعب فى اختيار الجوانب - قوات التحرير والتخلص من
الاستعمار اختارت جانب الثوار ، وقوات الوطنية (القومية) مع الملونين
(الحفّاة) . بدأت المعركة قبل مضى وقت طويل جدا بأن يكون لها تأثير سرطانى

واضح على الوحدة الداخلية الفرنسية وقدرتها وانتهاج سياسة خارجية قوية مستمرة. ومن هنا دخلت المسرح موافقا على طلب دييجول بالتوسط فى النزاع بينه وبين جوين.

كان من المؤسف بالنسبة لى أن أرى رفيقين قديمين فى مثل ذلك النزاع المرير. جوين، الذى ولد بالجزائر من عائلة فرنسية متواضعة رعى بثقله فى قضية مضمحلة - قضية الملونين لأجل الحفاظ على امبراطورية شمال افريقية الفرنسية . إضافة إلى أنها مسقط رأسه فإن ارتباط جوين بافريقيا كان له تاريخ طويل وعاطفى. وكان تعيينه بعد تخرجه من سان سير ST - CYRE ، فى الطرف الغربى الفرنسى، كان مع وحدة مشاة فى المغرب.

وظل عبر الأربعين سنة التالية فى عمله بين فرنسا وشمال إفريقيا. وإنه بعد عودتنا من واشنطن فى نهاية الحرب العالمية الثانية، تم إرسال جوين ثانية إلى شمال إفريقيا « كجنرال مقيم » لفرنسا فى شمال إفريقيا . ورغم أنه تقلد عددا من المراكز العالية الأخرى فى العسكرية الفرنسية وقيادة الحلفاء فى السنوات الأخيرة، لم يفقد أبدا اتصاله بكثير من ضباطه السابقين الذين حاربوا المتمردين فى الجزائر.

لم يشارك دييجول ارتباط جوين بالجزائر. فلم يكن فيلقياً ولا من الفرسان ولا جنديا إستعماريًا مثلما كان جوين. إن تجربة دييجول فى أماكن بعيدة كانت محدودة بأقصر مدة جدا فى الشرق الأوسط وزيارتين قصيرتين لافريقيا. بدأت وجهة نظره فى الشئون الدولية وانتهت بفرنسا، وغالبا فى عصر لويس الرابع عشر. ففى رأى دييجول كان لويس الرابع عشر الملك القوى للغاية والوحيد فى

التاريخ الفرنسى، الرجل الذى حكم فرنسا لمدة إثنى وسبعين سنة، باسطا قوتها ونفوذا، وكان رجلا يخشى منه ويقدسه شعبه، وكان لا يقبل سوى وجهة النظر الفرنسية المركزية عن العالم يرى ديغول فى كثير من الوجوه أنه هو وريث عقلية لويس الرابع عشر (رغم أنه سياسى بالغ الحساسية ولم يعترف بهذا قط)، وغالبا ما كان يسلك تبعا لذلك. وأنه بالنسبة للذين يعرفونه كان مثل والده ملكيا بصفة جوهرية.

إن الفترة المكوكة بين ديغول وجوين، الرجلين القويين وقد تبنيا آراء معارضة حيال مصلحة فرنسا التاريخية، كانت فترة غير سعيدة تماما. بدأ نزاعهما المرير فى عام ١٩٥٨ عندما بدأ ديغول يعول بشدة على صديقه الكبير جوين لجعل الجيش فى الشرق محايدا فى النزاع الجزائرى المتزايد. وصار واضحا أن ديغول يعول بشدة على صديقه الكبير جوين لجعل الجيش فى الشرق محايدا فى النزاع الجزائرى المتزايد. وصار واضحا أن ديغول لم يثق فى جوين بالنسبة لقضية الملونين (الحفاة) فى شمال إفريقيا. ولجأ جوين إلى أكبر المدافعين عنهم، واستعد لأن يوجه جيش الشرق إلى قوة تنحت أمام كل رغبة من رغباتهم، بينما كان ديغول يحاول حل النزاع بالتفاوض. واتضح لجوين أن ديغول كان مستعدا لبيع أبناء بلده الفرنسيين المحبوبين فى شمال إفريقيا باسم السلام مع الثوار الجزائريين. حاولت بناء على طلب ديغول التفاوض وجها لوجه مع إثنين من القادة العتاه وغير مرئيين. وأنه فى النهاية بعد رحلات مكوكية متكررة بين قيادة جوين فى الجزائر ومقر إقامة ديغول رتبت للمارشال جوين لأن يحضر إلى كولومبى فيما يثبت أنه مؤتمر قمة لحفظ ماء الوجه.

تقابل ديجول وجوين فى صالة ضيقة فى منزله الريفى. ثم دخلا مكتب ديجول الخاص وتوقفت استعدادا للبقاء مع العقيد الذى كان ياور ديجول. لكنه فجأة عاد إلى ديجول قائلا: «آه، لا، أنت تأتى معنا».

بدأ ديجول قوله إلى جوين: «لم يكن هذا اللقاء بناءً. يجب عليك أن تعد ترتيباتك معنا. إنها بتلك البساطة.»

احتج جوين إلا أن ديجول غاص فى كعبيه. لم يقتنع. تم فقد الجزائر. يجب أن يكون الملونون (الحفاة) مستعدين ليرحلوا عن بلدهم التى تبسوها أو يقوموا بالسلام مع الثوار. وبأختصار رأى القضية ببساطة تكمن فى مصطلح أسود - وأبيض سواء من ناحية اتفاقية السلام أو حرب وخرج غاضبا.

لم يكن مستعدا لأن يتخاصم علنا مع ديجول آنذاك. إلا أنه من الواضح لنا، لأى منا، وكان فى كولومبى فى ذلك اليوم، أنه لامجاملة ولامهادنة.

منذ اللحظة التى حدث فيها خصام رسمى من جانب جوين فى ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ مع رفيق السلاح السابق وتم إجباره على التقاعد من العسكرية التى أحبها، لم يعد يتعامل ثانية بود معا. ونادرا ما كانا يتعاملان مباشرة إطلاقا. وإننى كنت الوحيد الذى أجبر على قبول وطأة غضبها وذلك لأعمال بمثابة العصا المضیئة والمترجم للخصمين بالرغم من مساعى الحميدة والمواقف المتناقضة. فاز ديجول فى النهاية بالطبع. وحصلت الجزائر على استقلالها. وعاد كثير من الملونين (الحفاة) إلى وطنهم. كانت فرنسا قادمة على أمد تبدأ عملية تضييد الجروح التى حدثت اثناء هذه المعركة (النزاع)، واتخذت موقفا هاما، وهو قوة أوروبية موحدة. كان اشتراكى الشخصى فى نفس الوقت فى الحرب الجزائرية

أثبتت أنها مرحلة أخرى فى استعدادى لأكثر الأدورا دقة سأضطلع بها على الإطلاق - كرئيس للمخابرات الفرنسية.

حاولت طوال حياتى أن يكون البروفيل لى خفيا. ذلك هو السبب فى أنى أختار تجنب السياسات الانتخابية. رأيت كثيرا من الأصدقاء العظماء يتغيرون عندما ينخرطون فى ذلك الأمر. إن حزب السياسات يتطلب رغبة فى التسوية، الشئ الذى لن أقوم به. يعرف كل أصدقائى ذلك كما يفهمه معظم زملائى المقربين فى الحياة العامة.

كان فرانسوا كاستيكس أحد هؤلاء الذين يعرفوننى جيدا. صديق قديم وأخ ضابط تزوج شقيقة كلود بومبيدو وزوج جورج بومبيدو، كان فى رأى أحد رجال الدولة الحقيقيين القلائل فى فرنسا المعاصرة. كانه لديه كل مواصفات كل سياسى يتوجب أن تكون لديه إذا ما رغب أن يصبح رجل دولة - الحس الجيد، الذكاء، الحساسية، الظرف، والتواضع.

إفتقدت الاتصال مع جورج بومبيدو عندما أصبح رئيسا للوزراء. إلا أن كاستيكس سألنى يوما ما: «هل رأيت زوج اختى مؤخرا؟ كنا نتحدث عنك ذاك اليوم، ونود رؤيتك.»

تناولنا طعام العشاء ذات مساء، فى منزل فرانسوا كاستيكس. وجدت فى الحقيقة بومبيدو نفس الرجل الذى عرفته وأحببته لسنوات مضت. وانضم بعد الحرب مباشرة مع هيئة دييجول كمدنى وتذكرت ظروف وصوله. كان لديجول روح دعابة رائعة ولاذعة وأحيانا سيئة. وكانت له أيضا موهبة طبيعية للقدرة على الكتابه بفرنسية رائعة على الإطلاق (تماما). وكان بطريقة ما مثل معظم

الفرنسيين كالشخص النادر وغير العادى بمثابة أستاذ شرف. إن الاستاذية الشرفية هي أكثر الدرجات العلمية حدائه (تقدما) فى أى جامعة فرنسية - إنها الدرجة التى يتم منحها بعد عمل رهيب للغاية وكمية من العمل المكثف جدا.

التفت ديجول يوما ما إلى أحد مساعديه، رنيه برويه، وصاح مناديا «برويه !» أجاب قائلا : « نعم، سيدى الجنرال ». لأنك لم تقل ياسيدى الرئيس لديجول.

«برويه، أدركت حقيقتى كأستاذ شرف يعرف كيف يكتب فرنسية صحيحة. » برويه قدم جورج بومبيدو رجلا متعلما حقيقيا - أستاذ شرف يتحدث ويكتب فرنسيه ماهرة يقدرها ويفهمها ديجول.

تم عبور ممراتنا من قت لآخر فى السنوات التالية. جاء بعد الحرب إلى أحد كبار مديرى البنك روتشيلد. كان يدعونى لتناول الغداء فى سرسل امريكا اللاتينيه فى شارع سان جيرمان. وكان ينادى على الجرسون فى نهاية كل وجبة ويطلب سيجارا كبيرا ليشعلها ثم يغمز بعينه ولاحظ قائلا: «أنت تعرف أنى أحب تدخين سيجار ضخم، إلا أننى لا أدخنه فى الخارج لأنى أحب أن أبدو كرجل بنكى ثرى. » كانت لدينا روابط أخرى تربط بيننا. كانت الروابط موجودة أولا وإلى الأبد، وإن عائلة كاستيكس كانت ونحن أصدقاء مشتركون. كانت صديقتى العظيمة، آن - مارى دوى، عمدة كان. قابلتها أول مرة فى إيطاليا حيث كانت سائقة لعربة إسعاف فى معركة كازينو. وإنه مثلى وزوجتى خدمت تحت قيادة الجنرال جوين وأصبحت واحدة من أكثر سائقى سيارات الإسعاف

شهرة فى قوة الحملة الفرنسية فى إيطاليا. ولعب دورا هاما فيما بعد فى حكومة جورج بومبيدو بمثابة مدير مساعد فى قصر الإليزيه - أول سيدة وأعتقد انها السيدة الوحيدة التى تقلدت هذا المنصب. عرفتھا وزوجتى وأحببناھا لمدة أربعين عاما. وفهمت أنها كانت آن - مارى هى التى اقترحت أولا على بومبيدو لأن يجد وسيلة للاستفادة منى فى حكومته.

وبعد تناول عشاءنا بعد وقت قصير فى منزل فرانسوا كاستيكس، سألتنى بومبيدو أن أستدعيه إلى قصر الإليزيه. وإنه بمجرد أن جلست أمام مكتبه المزدان بدأ يعنفنى.

وقال: «لماذا لم تأت لرؤيتى طوال تلك المدة الطويلة؟»

واجبت بصدق: «لم يكن لدى شىء أطلبه منكم.»

وقال بعد صمت قصير: «إنك الوحيد فقط الذى لم يطلب شيئا.»

وبدأنا مناقشة عريضة للموقف الدولى قبل أن يتناول مشكلته المباشرة.

وقال: بعد ديجول يجب أن نبدأ فى إصلاح ما بيننا وبين الأمريكين. فما رأيك فى أن تصبح سفيرا فرنسا فى واشنطن؟.

شكرته وأخبرته عن مدى تأثير اقتراحه لدى. ولكننى لاحظت قائلا: إصلاح ما بيننا وبين الأمريكين ليس فى الحقيقة خط خبرتى.

أوما بومبيدو برأسه بأنه فهم، ولكن المناقشة لم تكن بحق مقنعه. لذا حاولت مسلكا آخر لعل يفهمه.

فبدأت قائلا: «تعرف ياسيدى، لقد أمضيت فترة هائلة من الوقت فى

واشنطن فى مهام متنوعة. وإنه فى كثير من تلك المناسبات كان لدى الحظ لتناول العشاء أو الغداء وحتى قضاء الليل فى مقر السفير. وكانت تقدم لى أفخم مأدبة وأفخم الخمر. وأنا بالطبع محب كبير للحياة الجيدة والطعام الجيد والخمر الجيد. وإذا أردت لى الموت فى عام ماعليك إلا أن تعطينى هذا المركز فى واشنطن. «

ابتسم بومبيدو. وتحدثنا المزيد. وقال أخيراً: «يوجد شىء آخر بالطبع، إلا أنه بكل أمانة يأتى تحت عنوان « مهمة مستحيلة » ولن أقترحه عليك لأنك صديق. «

وفجأة وجدت نفسى فى ورطة تقريبا. «إن ذلك ممتع، ولو أنها صعبة جدا أو مهمة مستحيلة إلا أننى مهتم بذلك. أخبرنى المزيد. «

وقال هو يغوص فى كرسيه: «حسن، إن المهمة عن المخابرات. أحتاج واحداً ليتولى إعادة بنائها. ماذا تعرف عن المخابرات؟»

اجبته بكل أمانة: «حسن، أعرف الأساسيات. ففى فرنسا المحتلة، اعتدت القيام ببعض التجسس خلال الاحتلال الألمانى. كنت أسافر إلى فيشى وازور صديقى الطبيب رالف هنزين الذى عمل بعد ذلك مع يونيتد برس، أو مع الناس فى السفارة الأمريكية، وأخبرتهم عن النشاطات المختلفة للألمان فى فرنسا المتحدة ونورماندى. ما المطارات التى قد يقومون ببنائها والتى يستخدمونها، شىء من هذا القبيل.

ثم كانت هناك دقتى بالطبع مع الجنرال جوين عندما تعاملت مع تقارير مخابرات الحلفاء وذلك من وجهة نظر هيئة الجنرال فى السنوات النهائية للحرب.

ولكننى أخشى أن أكون أعرف القليل جدا عن الأرض الرحبة للمخابرات. »

كنت أعنى بالطبع أن بومبيدو كانت لديه مشكلة حقيقية جدا بالنسبة لجهاز مخابراته برمته. الخدمة السرية كما يسميها - كان اسمها الحقيقى هيئة الامام بالمعلومات الخارجية ومكافحة التجسس - قد سقطت فى أوقات الشدة نظرا لعدد من حالات التدخل المفرط فى الشئون الداخلية للبلاد الأخرى وبلدنا بما فى ذلك القتل والاغتيال. وكانت القضية الفظيعة (الفاضحة) قضية ١٩٦٥، قضية مهدي بن بركة. الاستاذ الجامعى اليسارى فى المغرب، أسس بن بركة حركة المعارضة المغربية وبعد سلسلة من الأحداث تم نفيه وحكم عليه بالإعدام غيابيا فى بلده. وقد تم منحه حق اللجوء السياسى فى باريس حيث استمر فى نشاطاته ضد النظام المغربى الذى كان لدى جهاز أمنه روابط وثيقة مع جهاز أمننا - وهون إرث آخر لنظامنا الاستعمارى فى شمال إفريقيا الفرنسى. تم اختطاف بن بركة فى ليلة ٢٩ أكتوبر عام ١٩٦٥ فيما سمي بعملية مشتركة بين المخابرات الفرنسية والأمن المغربى. كان اختفاؤه ضربة أخرى عميقة الثقة لجهاز الأمن الفرنسى برمته. كانت صورته فى العالم الخارجى وحالته المعنوية فى الداخل فى أدنى الحالات لمدة طويلة. انقاذا لهذه المنظمة (الهيئة) وبناء مخابرات فرنسية على أساس احترافى جديد سيكون مهمة هائلة فى الحقيقة - وقد تنفجر فى وجه أى فرد قد يتولاها. وكانت المهمة أمرا ضروريا واضحا. أولا جهاز المعلومات الخارجية ومكافحة الجاسوسية احتاجت إلى أن تقام على أساس احترافى - وإبعاده عن السياسات الداخلية حيث لا دخل لأى مخابرات بأى عمل يلطخ يديها. ثانيا، إن المخابرات تحتاج إلى البدء فى العمل فى أسلوب يساند الأهداف الدولية الفرنسية والاستراتيجية لفرنسا، وتلعب دورها المناسب فى

جهد التخابر للحلف الغربى الذى انخرط بعمق وفعلا فى الحرب العالمية الثالثة.
وبومبيدو بمراقبة وجهى فهم بوضوح العديد من الأفكار المتسابقة خلال ذهنى
- وقد أدرك أيضا طبيعة المخاطرة المتمثلة فى قبول المركز. ولذلك استمر بسرعة
قائلا: «إذا عشت هذه المهمة المستحيلة فلن أتركك فى موقف حرج. سأنعتك
باسم «مستشار الدولة»:»

لم أرد على بومبيدو ذلك المساء. وحقيقة بعد عام من وقت تلك المناقشة -
عام خلاله راجعت تفكيرى ثانية وثانية حيال عرضه غير العادى.
تم انتخاب بومبيدو فى يونيو ١٩٦٩ كرئيس بعدما تقاعد ديجول نهائيا،
حيث كان رئيسا للوزراء وتحت هذه الترقية.

تقابلنا ثانية بعد انتخابه بمدة قصيرة. وقال لى: «لافائدة. إن المخابرات
لا تعتمل بطريقة لائقة. ويقول رئيس أركانى إن هناك شيئا واحدا يجب القيام
به. إنهاء الإدارة برمتها وبدئها ثانية من جديد».

فأجبت: «إننى لا أعرف شيئا عنها، سيدى الرئيس. ولكن امهلنى بضعة
أسابيع وسأفعل ما أستطيع للحصول على منظر لابعاد المشكلة على الأقل.»
كان بعض أصدقاء وقت الحرب فى الخدمة السرية (المخابرات). فطفت
بالآراء، وفتشت فى بعض احلك الفجوات ظلمة لأجل الأغراض المعنية غير
الوحشية حقيقة. ثم عدت إلى قصر الإليزيه وجورج بومبيدو.

بدأت القول: «أظن ياسيدى الرئيس إن فكرة إنهاء الادارة والبدء فيها من
جديد لهى فكرة سيئة.» لأن الوقت المحفوف بالمخاطر سيفقد هيئة جهازك

البوصلة الدقيقة. إن ما تحتاجه المخابرات هو إعادة تنظيم كامل وتطهير عدد من العناصر الهدامة. لكنه يمكن البدء فى ذلك فوراً. وإذا نجح الأمر سوف يكون لديك ثانية جهاز فريد سيساعد فى إرشادك خلال القرارات الصعبة للغاية وخلال الأزمات الأكثر خطورة. إلا أنه لو اضطلعت بهذا العمل فإنه يتوجب عليك أن تثق فى مائة بالمائة.

فتسعة وتسعون بالمائة غير كافية.»

وافق بومبيدو على الفور. ظل أمر تعيينى سرا للغاية حتى آخر لحظة ممكنة، وأذعناه بعد اجتماع الوزراء فقط الذين وافقوا عليه. إن تعيين رئيس المخابرات فى فرنسا هو تعيين رئاسى. لا يحتاج البرلمان لأن يصدق عليه - ولا يصدق عليه سوى مستشارى الرئيس (وزارته الخاصة به). حتى أن وزارة الدفاع لم يتم إشعارها إلا قبل بضع ساعات من الإعلان. حدثت مفاجأة لكل واحد. وأصيب الكثير بصدمة.

إنه فى يوم الإعلان عن ذلك فى التاسعة صباحاً وصلت إلى ثكنات طوريل فى المنطقة الإدارية العشرين فى باريس وهى بعيدة. وكانت ثكنات عسكرية، إلا أنها تستخدم كمقر للمخابرات - كالمخابرات المركزية الأمريكية عرفت بعد ذلك (بالإدارة العامة للمخابرات الخارجية) وكانت تعرف أيضاً ورسمياً بحمام السباحة، وهو تعبیر الصحفيين حيث يوجد حمام سباحة للبلدية بالقرب منها. إننا نسميها ببساطة (الهيئة). لم أذهب للسباحة هناك على الإطلاق.

ولكننى غصت فى أمر الفساد والعجز الذى أصاب أجزاء من المخابرات بالشلل.

اخترقت سيارتى الحكومية البوابات الرئيسية ومرت بالخضرة العريضة
بسارية علم بيضاء. وقف ضابط المخابرات وقفة انتباه وأدى التحية. كان على
وعى تماما بالحقيقة ولو أننى مدنى إلا أننى أحمل رتبة أربع - نجوم. اعتلينا
بسرعة الدرجات وعبر الأبواب الأمامية الضخمة وجدت نفسى فى مواجهة
جدار (حائط) أبيض صلب.

علقت على ذلك الجدران بعد ذلك سيف هوميروسى. ثم انحرفنا بشدة يمينا
ودخلنا مكتب المدير العام - مساحته خمسون ياردة مربعة.

كان هناك الكثيرون ذلك الصباح فى انتظارى الذين لم - يحبذوا فكرة
وجودى هناك. استطعت أن أرى ذلك فى عيونهم، القليل ممن رأيتهم مباشرة.
كان باستطاعتى استشعار ذلك. ولم يعرفوا أن بعضا منهم كانوا على
وشك الإقصاء.

كنت أحمل فى جيبى فى اليوم الأول قائمة قصيرة لكنها أساسية للأعمال
التي يتولاها بعض الناس. عرفت بالضبط من أين ستكون ضربتى ومن الذى
يجب إقصاؤه دون تأخير.

ولأنه توجد الكثير من القوى داخل المخابرات عرفت أنه تم رصهم ضدى،
قررت أن أضرب أولا وبوحشية كبيرة. لذا كان أول صباح، فى ثلاث ساعات،
اقتلعت نصف ستة من الرؤوس ينتمون إلى أناس عرفت أنهم لم يكونوا النوع
الذى أردته للعمل معى. فهذا الأمر من المؤكد باغتهم.

قمت بطرد ثلث المديرين فى أول يوم - وأبرزهم مديرو الأبحاث، مكافحة
التجسس، والتكنولوجيا. واتبعت روتيننا بسيطا. الكبار، استدعيتهم إلى
مكتبى الواحد تلو الآخر.

وإن أولئك الذين كانوا ضباطا عسكريين ويقفون وقفة انتباه بسبب رتبتي العسكرية ذات النجوم الأربع. وقف الآخرون ببساطة أمامي بانتظار دعوتي لهم للجلوس. وإنه بالنسبة لأولئك الذين أريد أن يأخذوا انطباعاً فظاً عني كنت أقول لهم بغلظ بعد أن يكونوا قد عبروا مساحة عريضة من الغرفة حتى مكتبي في الركن: «لن أطلب منك الجلوس لأنك مفصول».

حدثت لهم بالطبع صدمة. سألتني أحدهم مندهشاً: «حسن، ولماذا؟»

أجبت بجفاف: «لأنني لا أثق بك.»

«إلا أنك لاتعرفني. هذه أول مرة نتقابل.»

«لم أقابلك من قبل، لكنني أعرف من أنت،» واختتمت القول.

ببساطة هكذا. إلا أنه لم ينه كلامه واستمر بابتسامة متكلفة على وجهه:

إنى متأكد أنه بإمكاننا عمل ترتيب.»

فنهضت من كرسيي. كنت رجلاً ضخماً وأكثر شباباً في تلك الأيام وقوياً مثل الثور. فجذبتة من ياقته ورفعته عن الأرض. وأشارت إليه في اتجاه الباب المغلق الذي دخل منه منذ فترة وجيزة على بعد خمسين قدماً وقلت له: «هل ترى ذلك الباب؟ أمامك خمس ثواني لتعبر عتبة الباب وأنت بكامل وعيك وإلا ستعبر دون أن أفتحه لك.»

أخبرني مساعدى بعد ذلك أنه قال للرفيق هذا عندما خرج من الباب: «تعرف أنك محظوظ لأنك لازلت على قيد الحياة. فالمدير العام كان بإمكانه سحقك إلى قطع.»

انتشر هذا الكلام بسرعة عبر الشكنات في طوريل في الصباح الأول. ذلك

الأفراد الذين كانوا بالصف بعده كانوا يرتجفون برمتهم. كانت استراتيجيتي فعالة للغاية.

لذا كان الأمر مروعا لدرجة أنه في الأيام والأسابيع التالية استلمت عدداً من التهديدات الكثير منها بالقتل. فهناك مذكرة تم تجميعها وقراءتها: « لن تدوم أسبوعاً. وقد تم تجميع هذه المذكرة من خطابات بمجلات. وهناك تحذير آخر يقول: « سوف ننال منك. »

فهناك كثير من العناصر الخطيرة في المخابرات ، بعضهم في مراكز عالية وقوية لم انجح بعد في كشفهم. فإما هم أو أنا. وكما ترى، فإننى على قيد الحياة. ومخابرات فرنسا مستمرة أيضاً.

الفصل الرابع

(الالف طبقة)

اللقب الخاص بى فى العمل السرى. هو « فيلنيه » وهو اسم فطيرة فرنسية مدهشة ومعروفة فى الخارج جدا مثل نابليون. وهى تتكون بدقة من عدد كبير (مليون مثلا) من طبقات رقيقة من المربى ، وهكذا كان العمل السرى ، مزيجاً من طبقات لاحصر لها من المربى . ولكنها بدلا من انتمائها الى الحلوى اللذيذة التى تتحدد كل صباح فى ايدى الخباز الماهر ، فانها قد تراكمت على مر السنين واخذت فى التحجر وهكذا فعندما حان وقت وصولى كانت قد تحجرت ، هنا يوجد فقط اناس وافكار عتيقة ومهجورة ، فى احسن الاحوال اصبح اسلوبا اقل فاعلية ، تجميع عقل ، ثم استخدام ذلك فى العمل فى رئاسة الامن القومى ، والاسود ان ذلك يصبح بالضرورة مسئولا قانونا عن احتمال اغتيال للرئيس ، مطلوبوا للاستجواب فى محاكمة سلطية تعوق هؤلاء الذين يديرون نوة الحياة او الموت ، نزاعته التامة فى التسلط .

إنها ستكون بالقطع مغالاة ان اصرح بأن ذلك الوضع السيئ كان موقف الرئيس بومبيدو فى تلك الايام الذى كان معلوماً فور وصولى الى توريلز ياراكس ، كان الرئيس غاضبا جدا من اداء الخدمة السرية ، وكان اختطاف واختفاء بن بركة فقط اهم شئ ظاهر من الممارسات الفظيعة التى نقوم بها SDECE (جهاز النشاط الخارجى ضد المواجهة الفرنسية) كان يعمل خارج فرنسا ، فى بعض الحالات حتى اهالى « ميليو » أو المافيا المؤسسة كانوا يجندون للقيام بمهام معينة تحت ستار الامن القومى ، كان يقال ان بعض

لعملاء كانوا يهربون مخدرات واسلحة وآخرين كانوا يكلفون بالخطف والقتل
إنجاز الاهداف الدموية ، وحقيقة فإن بعض الشخصيات التافهة كانت قد القيت
ملفاته لدى الشرطة وامر بفتح محل طناجن جديد للدولة الفرنسية ، غير ان
الاجلبية ظل يقوم باعماله القذرة بايماة .

البزيتات الاسبانية المزيفة من السهل إدخالها الى سوق تناول عمله عن
البزيتات الفرنسية كان نزيفاً ، كان يقال للمساعدة في تمويل نشاط حرب
العصايات الموالية لفرنسا في الجزائر استعان ماركو فيك الحارس اليوغسلافي
الخاص للنجم السينمائي الفرنسي آلان ديلون كان قد جرى همس في باريس لا
يمكن تصديقه ، عن تورط مدام بييدو في حفلات معينة حيث يكون هذا
اليوغسلافي غالباً موجوداً ، الاشاعة القبيحة ضد مدام بييدو ، السيد
اللطيفة جدا التي تشارك زوجها حبا عميقا ، كانت لا اصل لها ، ولكنها كانت
تستخدم بواسطة مجموعة صغيرة من المعارضة السياسية لزوجها .

بالكاد مر شهر بدون ان تقع بعض الفضائح الجديدة التي تثير الصحافة ،
وترتبط باسم « جهاز النشاط الخارجي ومواجهة الجاسوسية » بالنسبة لادارة
الرئيس يومبيدو ، كانت ولعدة اسباب خاصة اسوأ من ايام ، ووترجيت
وانعكاسات إيران تدور نحو الشخص .

هؤلاء الذين ارتبطوا بها ولو حتى بالاهمال كانوا يتطلعون في صمت الى
وسيلة يمكن ان تمحو وتجلب الصفح عن مثل هذه الانشطة باسم ادارة الامن ،
ويجب ان تحذف بسرعة ، كانوا يستطيعون العمل على إحباط الروح المعنوية ،
ارباك الجمهورية ، ومنع الرئيس معه نهائيا من ادارة العمل اذا كان ممكنا .

لقد جئت للحصول على حصة كبيرة من الاختصاص وتعاظفا مع الرئيس بومبيدو فان الاختصاصات كما اعتقد كانت متفائلة ، فمنذ البداية قلت ١٠٠٪ من ثقته واطمئنانه ، تماما كما وعد هو ، كنت على وشك ان تكفل للخير التى يمكن ان تجبل قضايا سياسية صعبة جدا ، هكذا قبل ان ابدأ ، كنت منتميا الى المناصب الضعيفة فوق العادة ولم نذكر الخطر الادنى - الذى كنت على وشك ان اشغله وقد طلبت طلباً اخيراً وهو ان يقف معى تماما كنا نلتقى كالعادة فى تلك الايام الاول واحيانا كثيرة يتم ذلك فى مكتبه الخاص فى قصر الاليزيه، وقد كان المكتب غاية فى الزخرفة.

وكان المكان يلائم أنه يستخدم للاحتفال بمناسبة رسميه، الحوائط كانت مطعمه بماء الذهب. وقد احيط السقف الذى ارتفاعه ٢٠ قدما. بنوافذ كأرصفة للسقف والتى تفتح كالأبواب على شرفات من حديد، والتى تطل بدورها على مساحات كبيرة من الحدائق، والتى تطل بدورها على مساحات كبيرة من الحدائق المقلمة بعناية، ومع أن هناك نصبح ظلاما تماما عند الاصيل، فالليل يخيم عده ساعات مبكرا فى شتاء فرنسا عنه فى واشنطن أو نيويورك. المصابيح الصغيرة ذات الاذرع الثلاثة والمسماء بنيلون كانت بالفعل قد اضيئت فى مكتب الرئيس عندما كنت اجلس فى المقعد ذى المساند موديل لويس السادس عشر والمواجه لمكتب الرئيس الذهبى المصنوع من خشب الماهوجنى.

- وبدأت الحديث قائلاً: انت تعرف ياسيادة الرئيس أنك وعدتني عندما وافقت على هذا المنصب أن احوز على ١٠٠٪ من ثقتك.

- واجاب بلطف: نعم

-يجب أن تكون لى حرية التصرف فى تعيين أو عزل من اختاره.

- واجاب ثانية: نعم.

أغلق الموضوع . وناقشنا بعض وقائع اليومين الاولين فى المنصب. لقد كان مبتهجا أن ينمى بالتظهير (جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية) قد بدأ مبكرا جدا، ولكنه كان بريسر الاختصار بقدر ما يمكن بالنسبة للولايات المتحدة، والتي كان على وشك أن يقوم بزيارتها. وليونيد بريجنيف والذي بدأت صحته بالفعل فى التدهور. تحدثنا بايجاز عن كل الموضوعات ووعدت بمزيد من التفاصيل بعد مناقشة هذه الموضوعات مع خبرائنا من خلال البحث والنتائج. وهنا اخيرا يستعيد «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية» كفاءته التى لا تجارى. وقفنا.. واصطحبني إلى الباب وبعد ذلك عانقني بلطف وابتسم وعندئذ عرفت أنى نلت ثقته. وعزمت إلا افقدها ابدا وعاهدت نفسى ألا اسيء استخدامها ابدا.

على ذلك فقد ايقنت، انى الآن تأكدت أن رئيس الدولة اصبح خلفى ولتحقيق خطتى بأسرع ما يمكن. بأن خطوتى الأولى كانت أن أركز اهتماماتى على رئيس الوزراء جاكوس شابان ولماس، وبالرغم من أنى احمل له احتراماً كشخص، فقد عاينت مكتبه، بؤره العاصمة السياسية فى فرنسا- بارتياح عميق. وفى فندق اتيمايتجنون، حيث المكاتب والسكن الفاخر لرئيس الوزراء، اصطحبني الحاجب إلى السلم الرسمى الذى يبدأ حلزونياً من القاعة فإن صدى خطواتنا يدوى فى الممر الرخامى يبدو كنا بصفة للطابق الثانى.

وفى القمه، قابلت الجنرال بيير بيلوت قادما عبر الباب الضخم المزدوج لمكتب رئيس الوزراء.

لقد كان بيلوت فى موقف ما ولفترة قصيره وزيراً للدفاع وببساطة شديدة اصبح فجأة بليونيرا بدون اسباب. وتوقف لقبول كلمه موجهها وجهه فى مواجهه وجهى مباشرة، ربما أنه أيضا حل ضخم فقد أصبحت انفه فى انفى « منصبك »، قالها متبجحاً، وليكن، وقحاً! فإن الوظيفة لى قانونا».

ابتسمت بلطف وشكرته بهدوء على كلماته الرقيقة مسترجعاً حقاً، كيف يكون من الخطوره جدا الخلط بين عمل السياسى والموظف وكيف يمكن وجود هذا الصراع الحقيقى فى اسلوب عمل موظف توقفت تحليلاتى بعودة المساعد الذى ادخلنى بسرعه إلى مكتب السيد شابان دلماس. ومثلما كان مكتب رئيس الجمهورية، كان مكتب دلماس.. منشقاً جدا ويطل على حديقة جميلة جدا. معظم المباني الرسمية الفرنسية كانت يوما فنادق خاصة أو بيوتا حضارية لكبار النبلاء الفرنسيين، صممت لتكون كواجه هادئة ومورقة وسط ضجيج العاصمة الفرنسية والآن، فإن كثيرا منها مازال يمثل ملجأ فى وسط الاضطراب السياسى والدبلوماسى . وقف رئيس الوزراء ليحيينى بابتسامة عريضة وبمسكة قوية من يديه:

وبداً قائلاً: صديقى العزيز، نحن كلينا محاربون قديمون . ومن المساوين المحنكين القدامى.إننى اشعر بالخجل لأننى لم افكر فيك تشغل هذه الوظيفة ما اعظم ما فعله رئيس الجمهورية ذلك أجمل أمانى، وكل ثقتى لتأتى لمقابلتى فى الوقت الذى تريده يأتى وخط تليفونى الخاصين مفتوحين لك ليلا ونهارا وتوقف ودار حول مكتبه وقال:« انت تعرف أننا نستطيع أن نعمل معا. هذا رقمى السرى وسأكون تحت امرك.

دار حديثنا حول موضوع إعادة تنظيم» جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية. وعرضت افكارى حول السرعة المطلوبة والفاعلية اذا نجحت العملية واعيد علماء فرنسا إلى مواقع نافعة كأدوات لخدمه الدولة والحكومة، نكون قد عثرنا المشهد بالنسبة لبعض اصعب موضع للمشاكل فى العالم. وعندما كنا نطوى الحديث، توقف للحظة، وسألته عما إذا كان لديه اقتراحات للمساعد.

واجاب» لست لى حاجة أن اشرح لك الشئون الدولية فقد كنت فارعا فيها معظم سنوات حياتك. ماذا يجب أن اقترحه عليك؟ حسنا يوجد رجل... رجل ربما تعرفه... واره من حين لآخر. لديه تذوق محدد جدا بالنسبة لهذا النوع من الامور. اننى اتكلم عن جنرال بيلوت».

تركت الجملة الاخيرة معلقة لفترة طويلة من الصمت .

وقلت مبتسماً: "سيادة رئيس الوزراء، اشكرك جداً لقد حدث أن قابلته خارجا من بين مكتبكم منذ دقائق قليلة"!!.

واحس بالخجل . وابتسمنا. وغيرنا الموضوع .

وانتهى حديثنا بايجاز. بالرغم من ان معظم التحويل السرى لجهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية يأتى من مكتب رئيس الوزراء، فإننى دائما كنت أشعر براحة اكثر بتوجيه تقاريرى إلى رئيس الجمهورية. فضلا عن ذلك فإنه كان مع بومبيدو، جيسكار وميتران اللذين عملت معهما فعلاً (غير أننى عملت مع ميتران لفترة قصيرة) .

أكثر من ذلك، كنت أشعر ان ذلك كان ان أمراً حتمياً تماماً. ان الروابط التنفيذية بين السياسة الفرنسية وجهاز النشاط الخارجى مكافحة الجاسوسية

يحب أن تدار بطريقة باته. ومكتب رئيس الوزراء ابعد بكثير من خدمة السياسة الفرنسية من مكتب رئيس الجمهورية. الذى يجب طبقاً لشرعيته الطبيعية جداً ان يكون ملماً بالرؤية الدولية العريضة، والموزعة طبقاً لقضايا الحرية والسلام، والدبلوماسية والاستراتيجية والتي تتعلق بشكل شرعى ومباشر بالاستخبارات الفرنسية الخارجية. على مر التاريخ كانت دائماً تجربة مغرية للقائد الاعلى للأمة بأن يستخدم الخدمات السرية للمخابرات لانجاز عمليات تعينه تتفاعل مع السياسة الداخلية. ومع أنه كان يمثل السلطة للادارة الاعلى فإنه لم يحدث ابداً ان طلب منى رئيس فرنسا ان اقوم بمثل هذا العمل الشاق.

كثير من الافراد على اتصالات وثيقة بهؤلاء الذين قررت ان اظهرهم بين جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية تحولوا الى مؤيدين للسياسيين الذين كانوا زرعوهم بعناية . خلال السنوات. لقد كان ذلك مشكلة بالنسبة لنظام التغير الدائم للمدير العام، والذي كان واحداً من أكثر الخصائص الموهلة فى جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية حتى وصولى. نادراً ما كان المدير العام يملك القوة السياسية أو الثناء للوقت اللازم للتخلص من بعض هذه الشخصيات. بدلا من ذلك ارتبط العملاء ارتباطاً وثيقاً بالسياسيين الاقوياء الذين سيطروا على الجهاز. إحدى هذه الخواص السياسية التى اكتشفتها من خلال هذه الايام المبكرة . كانت إنه كلما كان المخبر جاداً - سنقول الايطاليون- فانه يكون اكثر مهارة حسن ذلك الذى لديه نوع ما من الاحساس الخاص عندما يصل الامر إلى سياسه الخداع (كان هؤلاء غالبا اذكياء تماماً ولديهم ومخادعون بدرجة كافية لا قتلاع أى شىء يقف امامهم. احيانا ما طلب منهم أن يقتلعوه

ربما كان معروفا فقط لا غير بالنسبة للصديق أو دوى الاتصالات الخاصة. وحيانا الخدعة ربما تكون تعود خصوصا بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم القدرة المالية ويودون امتلاك الثروة كلما امكن.

كان هدفى كل هؤلاء فى داخل أو خارج جهاز الاستخبارات. والذين سعوا لاستقلال خدمه الدوله لأنفسهم. فلو أن أحد افراد الجهاز اصبح قوة الشرطه السياسيه ثم بعد ذلك اذا تغيرت الرئاسة من حزب لأخر فإن الرئيس القادم سيدمره - ضابط المخابرات ليس رجل شرطة. رجل الشرطه يريد أن يقتل الارنب أو يعتقله. أنا اريد أن اراقب الارنب لأرى أين يذهب اذا هو دمر فرما يوجد ارنب اخر، ولكن ربما قد احتاج خمس سنوات للعثور عليه: فوق ذلك فقد قررت أن استخدم كل الحرص فيما اتخذه لتضييق الجهاز امام السياسيين الفرنسيين، وليس فقط بعض المديرين العموميين الذين سبقونى ولكن ايضا الذين يأتون بعدى بقدر المستطاع حيث يكونون اقل ارتياها وبالضرورة يقللون بشدة من استغلال جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية فى تحقيق مكاسب تعود إلى جيوبهم أو جيوب اصدقائهم.

بعض الشخصيات غير المرغوب فيهم والذين كان لى شرف مواجهتهم كانوا قد عينوا بواسطة اسلافى المختلفين وكانوا مرتبطين تماما بشخصيات سياسية بالاضافه إلى الاحزاب السياسية مشكلين صفاً عريضاً من المعارضين. ولكن هدفهم النهائى كان أن يبذلوا اقصى جهد يستطيعونه من نفوذ لتحقيق كسب فى اعمالهم الشخصية وخاصة مع دول الكتلة الشرقية هذا ومع مجموعة رجال الاعمال كما كنت اطلق عليهم، يداومون على التجارة المربحة ضمن اخرين مع الدوله السوفيتيه واتباعها.

« إن علينا أن نساعد التقدم الروسى أيضا » واحد من هؤلاء المندوبين أو الوسطاء المنشقين فسر ذلك فى مكتبى محاولا تبرير دوره فى المحافظة على قدمه فى المعسكرين ومعسكرنا ومعسكرهم. إن بريجنيف يتحرك باضطراب نحو بعض الاصلاحات الليبرالية.

اننى غالبا أسمع عن مذهب يتكرر عن التحول وأن الوقت مناسب عن «جوربا تشوف يتحرك بنفس الطريق مثل دينج خويج مثلا.

عندما بدأت أتحرك نحو هؤلاء الذين خربوا جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية و بالرغم من انه ليس لدى طقم مبدأ المواجهه)) و كنت ادير امورى- فى كليهما أيام التطهير المبكرة والمكيدة والآن. كنت أقول دائما لمرووسى سواء مدنيين أو عسكريين.

«أيها السادة. فلتكونوا واعين لتلعبوا بالكروت التى لديكم وليس بالكروت التى تتمنون أن تكون لديكم».

اخبرونى كيف سوف نقوم بذلك لا كيف لن نستطيع».

هؤلاء الذين اتبعوا هذين الامرين عملوا ما فى وسعهم خلال فتره وجودى كرئيس للاستخبارات الفرنسية. وصدقونى، لقد كنت بنفسى اقرر من الذى كان يفوز ومن الذى كان يخسر أنا بنفسى كنت اضع النهايه، بالنسبة للقرار الذى احيانا عن الحياه أو الموت . ولكن دائما كلتا عينى كاتا ثابتتين بفسوخ على الهدف النهائى وشرف الخدمة.

لقد اكتشفت سريعا أن وظيفه مدير عام «جهاز النشاط الخارجى ومكافحه الجاسوسية هى واحدة من اكثر الوظائف عزلة فى العالم. فهو ليس له شركاء

قريبون . القرار النهائي له. واذا كانت النتيجة مرضية فان المجد يكون للسياسيين. ولكن اذا كانت نتيجة العمل سيئه فإن عليه أن يحصر بكل تأكيد مرارة ما يترتب على ذلك.

ومن جهة اخرى فإنها وظيفه كل بل فهي القوة، والوسائل الكبيرة انت لديك فرق الصدمة لاستخدامها كما تريد، اوراق مزورة، ميزانية خاصة. لا شىء يمنعك إذا كنت ترغب فى محو أى سياسى أو حتى رئيس الدولة لانك لا ترغب فى الموافقة على ما يقوله. الارادة الحديدية والسلوك الشخصى فقط هو الموضوع الذى يجب أن يرافق هذه الوظيفة المذهلة لتحمس المدير العام من اساءة استعمال قوته.

أنا آخذ اوامرى من رجل واحد فقط - هو رئيس جمهورية فرنسا. انه هو الذى يتحمل وحده المسئولية النهائية والعبء النهائي فهو يتخذ القرار وينفذه بأمانه- مهما كنت موافقا عليه أو غير موافق ربما تحتج أو تحاول استمالته، ولكن اذا هو لم يقتنع بالعدول فان عليك أن تنفذ امره بهدوء تام. هذه القوة لتحريك أحداث العالم يتحكم فيها رئيس امريكى بواسطة ضغطه من إصبعه الذى لا يحاسب عليه- على الزر النووى مثل هذه القوة يتحكم فيها بواسطة الرئيس من خلال جهازه السرى- القوة التى تعتبر بالفعل القوة الحيوية فى قتال اعدائنا فى الحرب العالميه الرابعه والتى اصبحت فوق رؤسنا.

يوجد خاصية اخيره يجب أن يتميز بها مدير المخابرات فهو يجب أن يكون اكثر الرجال سرية ويجب الا يكون لديه طموحات سياسية، ولا طموحات اجتماعية ايضا، فانا لم التق بالصحافة ابدا لقد طلبت من رئيسى الجمهوريه

الذين خدمت معهما بصدق بأن يعفونى من الاعمال الرسمية- المآدب الانيقة فى قصر الاليزيه، حفلات الصيد الرئاسية، استخدام الصندوق فى الاوبرا، والاحتفالات الاجتماعية التى يعتز بها جدا العاملون المدنيون. بالنسبة لمدير المخابرات تكون هذه الاشياء كالاراضى الرخوة، فهى استنزاف هائل لوقته وطاقته، وربما أدت إلى ارتباك، وأيضا التعرض للشكوك والظنون والمصادمات لقد وضعت عددا من الاستثناءات مناسبات العشاء الخاصة فى قصر الاليزيه أو فيرسال، عندما يكون الرئيس الزائر لحكومة أجنبية والذي تربطنى به علاقة صداقة شخصية طويلة ويسبب غيابى عنها اساءة عميقة.

بهذه القواعد الاساسية الثابتة برسوخ فى عقلى، بدأت فى الحفر فى المنطقة المعقدة التى كنت اقودها بعزم لأحولها إلى طراز هو الاصل من نوعه لتجمع استخبارات تنظيم عملى تحتاجه الدولة الفرنسية بما لديها من عيون وآذان وايد ثرية فى الخارج. الجهاز السرى الفرنسى كان ومازال يشبه فى تنظيمه لأى منظمة صناعية ضخمة، حيث يوجد نظام مالى وفروع اداريه، ومراكز ابحاث. ولكن توجد الفروع الاخرى التى لا يوجد صور منها فى المؤسسه الصناعية كاجهزة الاتصال والتجسس المضاد والعمليات.

يقسم العاملون إلى قطاع مدنى وقطاع عسكرى كل المواطنين العموميين يحملون نفس الدرجات مثل المواطنين الذين يعملون فى الخدمة المدنية.

وبهذا الخصوص فقط فهم لا يختلفون عن البيروقراطية الذين يعملون فى وزارات الزراعه والشئون الخارجية أو مكاتب البريد.

العاملون فى القطاع العسكرى يوصفون غالبا فى المراكز الكبيرة بالنسبة

لعملهم فى جهاز الخدمه المخابرات تبعا لفاعلية تخصصاتهم- وعلى سبيل المثال فى الشئون العربيه والاسلاميه، أعمال البترول أو شئون قبائل البدو فى الصحراء توجد أعمال أخرى للضباط العسكريين وهم الذين ينتدبون للعمل بالجهاز لفترات قصيرة قبل عودتهم إلى وحداتهم.

يوجد ايضا ضباط احتياطيون يلحقون بالجهاز وهم الذين يحكم مواقعهم المدنية يمكن أن يكونوا فى أى وظيفة أو أى قطر. هؤلاء وغيرهم من مندوبى المخابرات يطلق عليهم «مندوبين فخريين» وهم يكملون الرسم البيانى لتنظيم جهاز الخدمة السريه- يشغلهم فى النهايه الاماكن الخاليه على امتداد الحدود. فى فترة قيامهم بدورهم كرجال مخابرات ربما يرقدون ساكنين أو بلا استخدام لسنوات، ولكن ربما فجأة يصبحون اهم اعضاء جهاز المخابرات اثناء الليل. أنت قد تجد واحدا كان سائق تاكسى وآخر كان صاحب مقام كبير فى الكنيسه، أو حتى وزيرا حكوميا. البعض قد يدفعون لعملهم- للكسب تماما-مبلغاً من المال- ولكن الاغلبيه يقومون بهدوء بتأدية عملهم من خلال احساسى بحب الوطن وحبا فى الفخر فقط. انهم الرجال والنساء الفرنسيون الذين قد يقتحمون المخاطر بصمت ليصلوا بحماس شديد الى المناطق التى يستطيعون منها ان يروا ويسمعوا ما يمكن ان يكون له فائده لبلدهم .

هذا ليس معناه القول اننا نحن الفرنسيون نملك هذا الامتياز فى مثل هذا النشاط او مثل هؤلاء الافراد ، ان كل امه تتبع هذا النهج. الامريكيون يحصلون على معلوماتهم بسرعة اكثر بكثير عنا - مصادر من كل من البشر والمال بكثير عنا - مصادرهم من كل من النشر والمال تتوق العظمه ، جيراننا

السويسريون الذين يحافظون على حيادهم بحماس ، لديهم الشبكة التي تعتبر بصفة خاصة واسعة ، كل رجل سويسرى هو عضو فى ميلشيا تلك البلدة ، وهم قادرون على استدعاء الضباط الاحتياطيين الذين يسافرون بعيدا فى اعمال مركبة سرية وفى الاعمال المالية التي يفضلها السويسريون جدا ، إنهم يبتهجون بالحفاظ على الاتصال بالحكومة الفيدرالية فى برن من أى مكان يحتمل ان يكونوا فيه .

وبهذا الخصوص فإن كل اجهزة المخابرات لديها الكثير من الاتصالات - فهي اشبه بالعصاره الكبيرة يتم تغذيتها باعداد لاحصر لها من جزئيات المعلومات. مئات أو آلاف من هذه الجزئيات كل يوم لتتمكن من استخلاص الجوهر ومن خلال القطرات الى تتقاطر بعناية وتنقى ، سيضمنون هذا الجوهر فى التقرير اليومى المعد بقصر الاليزيه وعملية تجميع المعلومات هذه توضح واحدة من اكثر الفرق الجوهرية لجهاز المخابرات وان كانت اقل اثاره ، إنها اكثر الاعمال جهدا وكدحاً ، ليس هنا جيمس بوند بطل اقل من ماتا هيرس ، بعض قليل من الذى تم اسقاطهم بالبراشوت لحظه ما وبعد ذلك قد يتم دعمهم بجاسوسة سمراء و تجميع المعلومات يحتاج الى اخصائيين فى العديد من الانظمة السرية او المواقع فى عالمنا - مسلحون ليس بالبريتا ولكن بالقدرة على تفسير اكوام المعلومات من الكتب والصحافه وتوجيهات الراديو وتقارير الميدان .

انهم يجب كذلك ان يكون لديهم القدره للتفرقة من بين الحقيقة والخيال وبين المزيف والمخادع والصادق ، ونظرا للتعقيدات الدولييه فان عددا كبيرا من الرجال المتخصصين يتم اعدادهم للعمل فى مقايضة المعلومات بالنقود ، فى ظل أى

مكاسب المخابرات يقوم هؤلاء الافراد بعملياتهم ؟ الاغلبية يعملون لحسابهم الخاص ، وفى عملية الالتقاط للمشاركة فى العملية التجسسية التى قد تتعثر بسبب حقيقة هنا او هناك يحاولون كسب اجر تافه ليوم من خلال مناقشتهم فى مواضع النفايات فى العالم ، ولكن يوجد انجازات ساطعه بالفعل ، ان لديهم تخصيصاً فى المعلومات التى يحصلون عليها - أو التى يستنبطونها ويريدون بيعها ، كيف يتم الحصول عليها ؟ ، فى اوقات العمل النشط للمخابرات فى المنطقة التى يمارسون فيها اعمالهم الخاصة ، وفى الغالبية العظمى يكون ذلك نتيجة حضور اجتماعات ، حفلات عشاء قراءة بالصحف الاجنبية ، بالاختلاط مع مجموعات الحالمين ، ومجالس الشرب فى مناسباتهم الشخصية ، انها وظيفة المتخصصين للاستماله ، امام تبادل المال فى الايدى ، سواء كاتب المعلومة تساوى الثمن بحيث تكون قادرا على القول ما احضرته لى لاتيمة له او حقيقة اننا نعرف ذلك .

واحد من امثال هذه الشخصيات المغلوية ، كنت قد تعرفت عليه من خلال عمله كان قد امد جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس إس - دى - إى - س اى بالكثير او القليل من المعلومات لسنوات عديدة قبل وصولى كمدير عام للجهاز وكان اسمه الكودى كاردينال ، اصبح ذا سمعة طيبة بعد فتره من الوقت بسبب تورطه فى الطائرات الشجاعة - وهى عبارة عن جهاز نقل جوى غير عادى والذي قيل انه لديه القدرة على شم وجود احتياطى البترول اثناء الطيران فوق أى اراضى ، وقد كان قد كلف الحكومة الفرنسية ملايين كثيره من الدولارات لاستيعابه وكان هذا النظام ضحية لعملية اختلاس ضخمة ، نزمع انها كانت واضحة لى من التقارير الاولى ، فقد رايت ان «الكاردينال» بمساعدة

الارستقراطي بلجين الامين الساذج ، كان اكثر قليلا من مجرد رجل ذى قيمه موثوق فيه ، ما كشفت عنه تقارير المخابرات الخاصة بالكاردينال بالنسبه لما انفق عليه من المال بصعوبه ارتفعت الى المستوى المطلوب للمراقبين والذي كان الانسان يتوقعه من باحث صغير مدعوم بالمشاركة فى الصحف اليومية المختلفه ، ولذلك فهو قد تزعم مجموعه ممن يحصلون على أعلى مكافآت من جهاز النشاط الخارجى ومكافحه التجسس .

خلال عده ايام من وقت وصولى وضعت وقفه مع مجموعه الكاردينال وامرت مساعدى الخاص فى ذلك الوقت ديدير ان يقذف به للخارج ، ديدير الرجل الفرنسى الحر الانيق ذو السجل الحربى تردد بعض الوقت فى تنفيذ هذا الامر الاول منى .

هكذا كانت بالنسبة لديدير اننى وجدت الغداء انى اطلقت « عمليه ابن مقرض » على خطى لاصلاح الادارة ، تناولنا الغداء وكانت مفاجأة وبدون سابق انذار ، فان كان ديدير مرتبكا عندما كشفت اولا عن الاسم الكودى للعملية .

وقلت موضحا : عندما اقتحم « ابن مقرض » مستعمرة الارانب ، نقد الارانب رؤوسهم وهلعوا وحاولو ايجاد مخرج للخروج للهواء الطلق. كان كل المطلوب عندئذ بالنسبه للهدف هو الوصول الى أى من الفتحات .

كانت الساعات الاولى هى اخرج الساعات عندما بدأ ديدير يحضر فى التنظيم ، وكما توقعت ، فان القضية كانت شخصية بالنسبة لكل رجل بعد وجد عددا من الارانب المذهولة طريقه الى مكتبه وقد بقيت فى مكتبى المجاور

منتظراً بعد عودته لكي يستكمل عمله . وكانت الاجساد مجازاً قد افترشت ارضية أركان مساعدى .

شخص مثل هذا الفرد الذى قد جمع ثروة ضخمة مستغلاً الامتيازات التى يمنحها له جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس ، بل لم ينسى عرضاً ان يأخذ الحذر من بعض القيادات السياسية الذين ربما بصفة نهائية كانوا بعض المساعدين ، تم حرقه بواسطة ديدير بناء على اوامرى مباشرة .

وامرت ديدير : استدعه وابلغه انه قد انتهى .

واستدعى ديدير الرجل بارتياح وابلغه خبر اقالته .

وقال الموظف متشنجاً : انت تعرف ، انا رجل مهم جداً ، هل تقصد ان تخبرنى ان المدير العام نفسه يرغب ان يخبرنى انى قد احترقت ؟

وكما سمعت من خلال جهاز الاستماع المفتوح فى مكتبى ، كان ديدير يشرح بصبر قائلاً : -

نعم ... أنك محظوظ لأنه لا يقوم بذلك بنفسه ، لانك قد تدخل مكتبه سائراً على قدميك ولكن ستخرج منه على نقاله .

كنت واقعى التفكير وصارماً ولكنى مؤمن بالاعتدال . إن جهاز المخابرات ، عندما يدار بتوافق يكون مزيجاً رقيقاً من الحساسية الفنية والانضباط العسكرى ، وبالنسبة للعمل فيه بتوافق فى إحدى الضواحي مثل تلك الخاصة بالحرب العالمية الثالثة أو أكثر خصوصية بالنسبة للرابعة ، فانه يجب ان يكون مفهوماً الفارق الرقيق لفكر العدو والمجتمع ، فى نفس الوقت بينما تقف

مستعدا للعمل مع كل جزء من الثانية لمواجهة التهديد المميت للامن القومى .

كان هدفى فى عملية «ابن القارض» هو تنقية الجهاز من هؤلاء الذين لم يكونوا لديهم الكفاءة والحماس الكافيان لانجاز هذه الرسالة ، ولاتمام عملية المزج بين المشاعر والانضباط وسط هؤلاء العملاء الذين يستمرون فى الابداع المشجع والتفكير الاصلى بينما يصرون على دقائق النظام العسكرى .

وفى يوم ، وبعد قليل من البدء فى «عملية ابن القارض» دخل نقيب شاب مترفعاً من خلال الباب الرئيسى لمكتبى وهو يلهث بشكيمه لم يعد لها وجود الآن من المعلومات. وقمت بوضعه رهينه الاحتجاز اسبوعين. العاملون بجهاز النشاط الخارجى ومكافحه التجسس كانوا يريدون أن يأخذوا أصغر مدخل للعمل جانباً.. وذات يوم بينما كنت عائدا الى «توريل باراكز» بعد الفداء فشل الحارس عند البوابه الاماميه فى ايقاف سيارتى التى كان قد ميزها جيدا».

وقلت لسائقى: «اوقف السيارة»، واجتزنا أرض سيترون الواسعه السواد الى الموقف. وأضفت: «استدعى النقيب».

ووصل النقيب ومال نحو السيارة ببعض الارتجاف. كان واضحا أن سمعتى قد سبقتنى، وشرحت ما حدث، وقلت: «إن رجلك لم يقم بعمله»، «مرة أخرى.. وأنت تحرق».

لم أكن أبدا أقوم بتنظيم الأمور الصغيره، ولذا وقع بعض الخلاف الكبير فى جهاز النشاط الخاص ومكافحه التجسس»، الذى كنت مسئولا عنه، مهما كان السبب صغيرا. وقد اتبعت نفس القاعده كتقليد - النظام يجب أن يكون مضمونا من القمة الى أسفل.

الجهاز ككل كان فى حاجة أن يتم تحويله، الى فريق مواجهه واحد. وكل فرد كان عليه أن يكون معدا أن يحترم هذا الفريق ونجوم «الدولة قبل أن يخدم نفسه أو أى فرد آخر. سواء كان تنظيما أو فلسفه سياسيه:

وعلى ذلك لم تأت مفاجأة أن عمليه تطهير «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس» التى اقدمت عليها واجهت بعض اللحظات الصعبه. كان يوجد هؤلاء الذين حاولوا تحطيمى، بمجرد أن فكرت أن اسقطهم. وفى إحدى الحالات كانوا قريبين جدا من النجاح.

لقد اصبحت تعرف باسم «قضية ديلويت». ولم تأت بدون إشارات مسبقه، ومالم يكن معروفا بصفه عامه هو إن هذه القضية كانت نتيجته مباشرة لتحركاتى نحو العناصر المختلفه فى الجهاز، متابعا هذا التطهير والمحاولة لاسعاف قوه دفعه. وكحكمة تقليديه فان عمليه التطهير لم تكن تمس من وقع عليهم التطهير انفسهم. لقد مات ميعادهم وليسوا فى حاجة لأى تحد لدفعهم للمواجهه.

الأنذار بأن الخطه قد بدأت تسير قد جاء من سيرجون لـ. زميلى البريطانى المفضل فى إحدى مقابلاتنا السابقه. لقد تقابلنا فى مكاتب الـ.م. ١٦ « - جهاز المخابرات البريطانى - كان مكتبه مملوءا بصور الرؤساء المؤسسين لجهاز المخابرات البريطانى، معظمهم فى ملابسهم المدنية والبعض فى زيهم العسكرى. وعدد منهم فى الزى الكحلى الغامق الخاص بالبحريه الملكيه.

لقد بدأ ببطء واعتدال مختارا كلماته بعنايه مستخدما اسلوبه الايحائى المشهور - وبطريقه ارتجاليه وبذلك الأسلوب الهادئ للرجل الانجليزى المذهب

اشار قائلاً: احترس. سوف يكون هناك محاولة لتدميرك.

- واجبت قائلاً: شكرا لك لابلأغى، سير جون، ومتى وكيف سيكون ذلك؟.

- وقال : ترقب ذلك فى الربيع.

وتماما كما أشار هو، فى الربيع: انفجرت أحداث « ديلوت ». لقد بدأت بمخدرات وانتهت بمأساة. ولكن لم تكن مأساتى.

كان ذلك فى الصباح المبكر فى ٥ ابريل عام ١٩٧١ عندما جاءنى اتصال تليفونى من بيتى من الضابط المناوب يخبرنى ان المحرر الصحفى فى التليفزيون والاذاعه الفرنسيه (أو - آر - ت - إف - كما كانت تسمى حين ذلك) ويدعى روجر ديلوت، قد قبض عليه فى ميناء ايليزابيث نى نيوجيرسى. بينما كان يتسلم سياره وصلت بالركب من فرنسا وان السيارة كانت تحتوى على ٥ , ٤٤ كيلو جرام من الهيروين الخام النقى. لم يكن عميلا «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس» ولكن بعد عدة اسابيع من الاستجواب العنيف أخيرا إنهار واعترف للبوليس الأمريكى أنه كان يعمل لحساب «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس» من خلال كولونيل يدعى بول فورنر، وعند ذلك اعتقل ديلوت رسميا. واودع السجن.

كان يوجد عدد من الامريكيين وقد حاولوا الخروج من القضية والابتعاد عنها، ومن بين هؤلاء كان ممثل حكومه الولايات المتحده شاباً لمدينه نيويورك فى نيوجيرسى هى بيت. ج ستيرن وبوضوح فان هدفه قد اكتفى مع اهداف اعدائى فى فرنسا بصورة حقيقيه جدا. لقد كان الهدف هو اظهار أن «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس» تحت رئاستى يستخدم فى تهريب

المخدرات لحساب عملياته الخاصة أو على الأقل اعطاء انطباع بأن المخبرات الفرنسية اتجهتا للمخدرات لكسب المال.

ولقد شهدت العلاقات الفرنسية الأمريكية أوقاتا صعبة جدا لعدة شهور. لكن كان لى عدد من الاصدقاء الاقوياء يقفون معى. توماس واتسون ابن نوسيس الـ «آ - ب - م» وفى نفس الوقت سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى فرنسا، وكان شخصا متورطا فى هذه القضية السيئة السمعة التى انتشرت فى فرنسا وكذلك الفساد العميق لدرجه أن الولايات المتحدة اعتادت بجلاء رفض تصديق الرجل الذى كان صديقا شخصا هاما للامريكان وأحد الجواسيس والذى كان بنفس الدرجة حليفا هاما.

لقد علمت عن محنه واستون ولكن مؤخرا عندما تقابلنا قبل زيارة كنت على وشك القيام بها الى الولايات المتحدة بعد فترة طويلة حيث كانت القضية قد اصبحت ماضيا. فى وقت ظهور قضية ديلوت. بذلت كان جهدى لأتجنب اى لقاء مع الشخصيات الأمريكية حتى لا ابدو كما لو كنت اسعى للتدخل لاستقصاء اسباب القضية فى فرنسا او الولايات المتحدة.

الناس الذين كانوا وراء هذه المؤامرة قاموا ايضا بنشر اشاعه بأن موظفا صغيرا فى الـ «إس دى - إى - سى - اى» كان بالضرورة العقل المفكر لادارة نظام مافيا المخدرات هذا. بارشاد وتحت عين وباستغلال التسهيلات من جهاز المخبرات. لقد كنت هذا الموظف المدنى. فهو لم تكن لديه القدرة لتهرب المخدرات اكثر مما لدى من قدرة لأكون مطرانا فى الكنيسة. القصة كلها كانت - بالطبع - ملفقه من البدايه للنهايه.

وبسرعه جدا اصبحت قضية الأمة عن كلا جانبي الاطلنطى. كنت اقابل الرئيس بومبيدو بتكرار اثناء هذا الوقت الصعب. وقد كان يهاجم فى كل مكان ولكنه لم يسألنى ميزة واحدة عنها، لم يكن يرغب فى امر ارباكى وكان يعرف انه لا يوجد شئ يستطيع أن ابلغه له حتى اقوم بتحليل الأمر واقتناعى به، وفى الوقت الذى ليس فيه لدى شئ مجددا ايا كان لتقديمه فى تقرير. ان سلوك الرئيس بومبيدو كان يظهر الحساسية، لقد كان رجلاً فائق الخوذه. وذات صباح. و اثناء الضجة الصاخبه التى كانت اكثر من ارتباك المشكله ذاتها. كنت فى بيتى استعد للمغادرة الى مكتبى، وصل مراسل رئاسة الجمهورية بدراجه البخاريه السوداء الضخمة. دق الجرس فى الدور السفلى. وادخلته مديره منزلى وبدون كلمه. فتح صندوقا مصرفيا اسود كان يحمله - صندوق مرسل من رئاسه الجمهورية - واخرج منه طردا كان بداخله، وناولها لها . وفتحت الطرد ووجدت فيه بروازا فضيا به صورة رسميه للرئيس جورج بومبيدو وعليها اهداء رقيق ولكن ذو معنى مربع. «بور الكسندر خادم فرنسا والذى اثق فيه تماما» توقيع جورج بومبيدو». تستطيع أن تتخيل بصعوبة اثر ذلك على. لقد تأثرت تأثرا عميقا. لقد كان ذلك اشاره ذات قيمه لدى أكبر من اى تجميل أو اشاره. اشاره توضح كرم الاخلاق الحقيقى لديه.

كان بومبيدو واقفاً معى خلال كل هذا. ولكن فى النهاية، فإننا حقيقه لم نكتشف من كان وراء محاولة الانقلاب ضد توقعى على رأس ال «إس - دى - إى سى - اى». ما حدث كان سيمزق وحدة تكامل الجهاز واحتمال كبير سيدمر نظام الرئيس بومبيدو نفسه. التحقيق القضائى بواسطه قاضى التحقيق الفرنسى، الذى يعادل وكيل قضايا الاقليم، فشل فى ايجاد دليل الادانه، الذى

تمكن أن يثبت احضار أى بضائع غير مشروعة. فى هذا المحيط حيث تكون المياه خضراء معتمة، انت احيانا ترى ظلالا بالاسماك الكبيرة ينساب أكثر ولكن انت لاتستطيع ان تفسر أى تفاصيل. هكذا كان الحال فى قضية ديلوت. مازال يوجد شئ ساخر ومأساوى مرتبط بهذه القضية العجيبة. فى العام التالى، ابن سير جون الرجل الإنجليزى المحترم البرئ الذى نبهنى بشهامة عن مشاكل التى فى الافق. كان متورطا فى مشكله مخدرات، كان سيرجون ينظر اليها كفضيحة، قدم استقالته من جهاز المخابرات البريطانى. ربما كان ذلك انتقاماً نهائياً من هؤلاء الذين دبروا قضية ديلوت. ولا يحتمل ان يعرف الاجابة ابدا.

كان الهدف الرئيسى من «عملية ابن القارض»، وحقا من كل عمل قمت به خلال الأسابيع الأولى والشهور الأولى فى مكتبى، هو خلق شكل جديد من التفكير فى كل مكان من الـ «اس دى - إى سى - إى» من اقصى القمه الى ادنى القاع. كل عدد من جهاز المخابرات وكما هو معروف كل فريق عليه يجب أن يعمل كما لو كانوا حقا فى الحرب.

عند وصولى فى نوفمبر ١٩٧٠ وجدت ان جهاز العمليات، الذى كان يحب أن يكون لديه القدره للعمل كقوه الضرب القوية، باعتبارها حشود الخطوط الامامية لجهاز «إس - دى - إى سى - إى» فى حربنا العالميه الثالثه، فى حاله الحرب، فى الحقيقه قد تم تخفيضها بالفعل الى لاشئ. اعاده بناء هذا الجوهر الذى لاغنى عنه لجهاز «إس - دى - أى سى - إى» كانت المهمه الاصعب لى والتى استغرقت وقتا طويلا. كانت تستلزم افساد وحدة عسكرية فاعلية من

تحت الارض. ولكن بالاضافه إلى ذلك فهي تحتاج إلى تحويل شكل على ضابط عمليات المخابرات فى جهاز « إس - دى - إى - سى - إى » وفى الجيش كلما أمكن.

فى الماضى، انتقال العادات غير المناسبة جعل الخدمه فى « إس - دى - إى سى - إى » ضارة بالنسبة لطموحات عمل ضابط القوات المسلحة. لمدة طويله حتى كانت نتيجة المهام التى كان يكلف هو أو هى للقيام بها - مهام من التى لاتلائم بشكل واضح لضابط القوات المسلحة. لقد عملت بنجاح من أجل التغيير فى جدول الترقى. بحيث ان يرقى العاملون معى من العسكريين بنفس المعدل تماما كما لو كانوا مستمرين تحت النظام العسكرى. لم انجز ابدا تماما فى انجاز هدفى النهائى - الاسراع بترقيه ضباط المخابرات الذين يجهزون للاقدام على توضحيات شخصية ويعيشون تحت الظروف الخطيرة جدا والتى يصبح الكثير منها جزءا من حياتهم اليومية. الحقيقية أن هؤلاء الضباط ليسوا مثل امثالهم الذين بقوا فى وحدات الجيش الفرنسى، كانوا دائما فى حالة حرب. ميدان فى معركة الترقيات كان حقيقه النظام الخاص بحياة الضباط فى القتال. بالتأكيد هكذا كانت الحالة بالنسبة لضباط المخابرات بصفه عامة.

بالنسبه لبعض الافراد أصبح ذلك ممكنا طبقا للالتزام الذى قطعتة على نفسى. بعد أن اصبحت صورة الـ « إس - دى - إى - سى - إى » أكثر رسميه، أكثر « جدية » كما نحب نحن الفرنسيين إن نسمى شيئا هاما. كان يوجد، أربع حالات، حالة جنرال لاكار الذى كان معاراً لى لمدة ست سنوات وكأقدم ضابط فقد ترقى الى رتبه الجنرال، ثم انهى خدمته نهائيا كرئيس عمليات لاركان حرب الجيش الفرنسى.

وخلال فترة مسئوليتى. انشأت جهاز العمليات فى الوحدة من عدة آلاف رجل وأمرأة فى مناصب رسمية وغير رسمية. إعادة بناء مثل هذه الوحدة يحتاج الى صبر يفوق العادة. كان جهاز العمليات وحدة الصفوة. وقد انتقلنا الى كل فرقة منفرد المظلات الهامه فى الجيش الفرنسى وطلبنا متطوعين لقواتنا الخاصة. كنا نختار واحدا من العشرة. كل واحد منهم كان خبيرا - فى الفنون الحربية، فى البنادق والمسدسات. كان فيهم مظلليون، غواصون وخبراء فى التخريب. جنود ممتازون.. البعض اختيرو للعمل كل الوقت فى فرنسا أو تفرقوا حول العالم - الضباط العظام الضباط الاقدم والاحدث «إن - سى - أو» ورتب اخرى. كثيرا من الشباب كانوا قد أتموا خدمتهم العسكرية معنا وغالبا كانوا يجدون جهاز المخابرات متجانسا وبقون فيه. كان يوجد هؤلاء الذين فى حالات احتياط وآخرون فى اعارة مؤقتة من القوات المسلحة.

وبعناية زرعت رئاسة الجهاز من شخصيه عسكريه وقاده عسكريين هامين. الذين يكون لديهم القدره على توجيه هؤلاء الذين كان لديهم كفاءات خاصة نحن فى اشد الحاجة اليها. - كان يوجد - على سبيل المثال - ضباط من الجيش والقوات البحرية والقوات الجوية ولديهم القدره للتحدث ببعض اللغات النادره. من الواضح إنه بالنسبه للعمل العادى فى احدى فرق المشاة وأن ندرة أحد الضباط فى التحدث لغه الخمير» تعتبر شيئا نادرا ذاتيمة عظيمة. لكن فى جهازى يكون فى النادر جدا ايجاده. وطبقا لما نحتاجه فقد اصبح معروفا أن التخصصات التى يتسع احتياجنا لها. نجدها فى حوض للنوع غير العادى فى ثكنات وحدات الجيش الفرنسى.

ولكن لم يكن بالتأكيد نستثنى النساء بينما كان كثير من المتهمات يعملن في فاحصات للمعلومات كان لدينا عدد من النساء الضباط المتخصصات في وحدات جهاز المعلومات حسب المطلوب. بعضهن كن متخصصات في الكيمياء في الاليكترونيات أو في الفيزياء النووية أو في الاستراتيجية العسكرية والتكنيك، وأخريات كن متخصصات في الفنون الرفيعة لأعمال الغوايه ولتشتيت العقول.

الخطوة الثانية كانت تدريب الجنود الجدد. فقد كانوا جنود أول درجة. ولكنهم مطلوبون للعمل معا كوحدة وغالبا تحت اصعب الظروف المحدثه. في الليالي المظلمة وفي اعماق المحيطات. ولذلك فقد عايشنا هذه الظروف. لقد اقمنا تدريبات ليليه خاصه بي في البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي. ولذلك فان الطائره كان يجب الا تسمع، وسيفقد المظليون من ارتفاع كبير. وبعد ذلك تفتح البراشوتات فقط على بعد عده مئات من الياردات قبل السقوط في البحر في اللحظة الأخيره جدا. وكانوا يحملون معهم ما كانوا يمكن ان يحتاجوه مثل ادوات الغطس. معداتهم قوارب النجاء المطاطيه. لقد كانوا متخصصين.

قبل وصولي كان يوجد نقص واضح في النظام الخاص وكان على رجالنا ونسائنا أن يجهزوا حتى في التدريب على ان يوهبوا حياتهم لبلدهم. بصمت وفي مواجهة اكثر الجحود عندما يدفنون في قبور بعيدة عن اوطانهم وعائلاتهم. ولكن كان يجب تشجيعهم وقد حاولت ان اكون ومشجعهم، كما لو كنت اباهم وبسرعة اكتشفت انه احيانا يكون على الرئيس ان يكون أول الداخلين في حقل الألغام الذي حولنا. لذا فانه ذات مرة وفي لحظه وبدون إنذار

كنت امر على المكاتب واقف لاداعب وأتابع رجالنا وهم يؤدون واجباتهم. خارج باريس فى الريف وفى البحر، قواتنا الخاصة وخاصة الضفادع البشرية المقاتلة المحافظين على ارضهم المختارة تنظيمات القوات الجوية والبحرية. كنت اذهب واقضى يوما معهم فى وكنا نأكل فى الميس وفى المساء بعد العشاء كنا نغنى معاً وهذه الشاعر تكفى الف مرة.

مما يشير الدهشه ان الموازنه بين المدنيين وضباط الجيش ربما كانت ادق مهمة فى الشهور الأولى كرئيس لجهاز «إس - دى - إ - سى. إى» المدنيون فى تنظيمى كانوا موظفين. ومن ضمنهم مديرو إدارات ورؤساء اقسام - مما يعادل تماما وزارة صغيره من وزارات الدولة. كان الهدف الشخصى الثالث والنهاى هو ضابط القوات المسلحة.

عند وصولى للمكتب الرئيسى كانت الاشاعات المترقبه قد بدأت تدوم بسرعة. بعض المدنيين كانوا خائفين. والآخرى يهدثونهم قائلين: «انتم لم تحصلوا على شئ يستحق القلق عليه. انه هو نفسه مدنى. هو سوف يحرق العسكريين ويجلب مدنيين فى كل مكان. كلاهما كان على خطأ.

كل شخص لديه مواطن قوه مواطن ضعف. أننى اكن قدرا من الاحترام للعاملين المدنيين الذين يكرسون اعمالهم لخدمه الدولة. والعسكريون من جهة اخرى رهن اشارة نداء كل شخص. خلال ٢٤ ساعه فى اليوم، بما فى ذلك ايام الآحاد وأيام العطلات. انهم مجندون للعمل بالكامل. وإحراق اى رجل عسكرى ليس مشكله. ببساطة نضع خطأ على اسمه ونعيده الى وحدته. ولقد اكتشفت ان ايعاد موظف مدنى أمر اكثر تعقيدا. ويسرعه انشأت مجموعة صغيره من

المساعدين الشخصيين كيفما كان. والتي أصبحت ماهره جدا فى التنظيم مع
الوزارات والادارات لتستعيد السيد أو السیده غير المرغوب فيهم.

هكذا - عن اى شئ كنت ابحث عندما جاء الى الأعضاء الجدد.؟

أنهم يجب ان يبدأوا «أريد حياة ممتعه»

« مهما كنت او مهما كان عملى، لا اريد أن أكون مشكورا عليه. اذا صارت
الامور إلى الخطأ. كنت راغبا جدا لأحصل على الدقه، لكن اخيرا من آله حفر.
سوف أكون مصارعا فى سبيل الحرية».

إذا كان الشخص متوازناً جدا ولديه حراره الإحساس والحماس الابتدائى
واجبت «نعم، بكل تأكيد. انضم للعمل فى المخابرات واحترم سبب الحرية.

والاحساس الخاص لدى الفرنسيين كان عديم الفائدة بالنسبة لأولئك الناس
الذين يقومون بهذا النوع من العمل . وانهم ببساطه غير مطابقين لأن
يكونوا بالمخابرات .

والمخابرات فى بريطانيا بالمقارنة فهى قادرة على تجنيد الصفوة من الجامعات
القمة، واحد من صفوه المثقفين الذى خدعه غموض المهنة. ويكاد يكون معروفا
فى بريطانيا إلى عهد حديث أى المخابرات كانت موجودة. لم يكن لدى الناس
فى بريطانيا أى فكرة من الذى ترأس المخابرات. فكان كوديا ويحميه قانون
المخابرات بعناية. وكان هناك إم ١٦ وبصورة رسمية. واذا برزت فضيحة مثل
مسأله السلام الأخضر أو ديلويت فإن رئيس مجلس العموم أو رئيس الوزراء
يقول ببساطة: «حسن، غير واضح لى أى هيئة تتحدث عنها.» ويتم إرسال
خطاب خاص فى الأنحاء إلى كل صحيفة فى بريطانيا العظمى. وتنتهى

القضية وتختفى سواء من الصحافة أو العامة. كانت المخابرات باختصار المهنة الذروة للمحترف.

وجد نظراؤنا فى أوروبا الشرقية التجنيد أسهل. وإنه مع المميزات غير العادية التى تلائم مخابراتهم. حق السفر إلى الخارج وهو مهمة فى الحقيقة (بخلاف مجموع عريضه من أبناء وطنهم)، حرية الوصول إلى أفضل المطاعم والمدارس وإلى أفضل الشقق والملابس، وباختصار ميزة حياتية غير متاحة لتسعين بالمائة من أبناء وطنهم - فلم يكن لدى مخابرات أوروبا الشرقية مشاكل فى تجنيد الصفوة من مواطنيهم. ورغم المظاهر الخارجية كلها وماتبدو عليه من تفكك لأجهزة مخابرات أوروبا الشرقية فإنه ينصح لنا أنه ما من مشكله لديهم فى التجنيد إلى الآن. إن المخابرات السوفيتية خاصة لاتزال تقدم عملاً جذاباً بدرجة كبيرة ومضمونا ومريحا لأولئك المحظوظين للغاية من يتم اختيارهم.

وهناك سبب آخر لمصاعبنا فى التجنيد عبر السنين وكان سببا ماليا - الموارد المحددة بوجه العموم التى كانت توضع تحت أمر مخابراتنا. أما بالنسبة لميزانيتنا فكان يتم إجبارنا على المضى قليلاً فى الحقيقة على الدرب. إن ميزانيات أوروبا الشرقية غير المحددة فى مخصصاتها بالنسبة للرجال والمواد (حسبما أفضى به الكثير من المنشقين ذوى الرتب العالية إلى) تشكل تناقضا مضحكا بالنسبة لمواردنا العجفاء بالنسبة لتلك المخابرات الغربية فى معظمها. إن ميزانيتنا الفرنسية، التى تتكافأ مع الميزانيات البريطانية بطريق أو بآخر، هى بدورها عجفاء بالمقارنة بميزانيات مخابرات ألمانيا الغربية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

إن الراتب المنخفض، وظروف العمل الفردية، والنقص العام فى الهيبة لمعظم مهنتنا الخطيرة، فتحت باب المغريات لأى فرد من أفراد الأمن الذين لم يكرسوا أنفسهم تماماً لمهنتهم المخبراتية للدولة.

وإنه من المفاجأة القليلة أننى لم أترك التماسك الشخصى والأمانة الشخصية أو الحرارة العملية للجهاز السرى برمته لحسن نية ضباطنا. فالحياة معقدة جداً والمغريات فى مهنتنا منتشرة جداً. واختبرت تحولهم (ثقتهم). كان هناك دائماً مخبرات داخلية لخدمة هذا الغرض. إلا أنه عبر السنين حيث ان الاقطاعات الأخرى فى المخبرات الفرنسية قد اكتسبت قوة هائلة من الداخل ودعماً سياسياً من خارجها فإن وظيفة الحراسة للأمن الداخلى قد حدثت بها ضمور. لذلك بعد وصولى مباشرة أضفت عدداً من الأفراد المدنيين والعسكريين زيادة على ذلك كلفتهم مباشرة بمهمة دقيقة وهى مراقبة الذين تستخدمهم المخبرات وكانت أفعالى التى أتيت بها غير متوقعة. وكانت أوامرى أن أوضع تحت الفحص الدقيق مثل أى واحد آخر.

وكان يشترك أكثر من ثلاثمائة فرد اشتراكاً مباشراً فى مراقبة نشاطات بقية الهيئة. كانت المراقبة فنية وبشرية - حيث المراقبة الإلكترونية والمراقبة الجيدة لأى اتصالات مريبة. أى واحد من هيتلنا يريد السفر للخارج على سبيل المثال فدائماً ما كان يطلب إذناً خاصاً (تصريحاً خاصاً).

كان يتم سؤالى من آن لآخر عما إذا كانت المخبرات قد حدثت بها تسلل. كنت أجيب دائماً: «بالطبع حدثت بها تسلل. وإن لم يحدث تسلل فى مخبرات كبرى فإن الواحد يفترض أن ذلك السبب عدم اهتمام أولئك الذين عملهم هو اختراق المخبرات المضادة».

كان الأمل يحدوني بالفعل إن أى تسلل يظل لاقيمة له أو يتم الإمساك به تبيل أن يصبح خطيرا أو يفضح مصالح الهيئة أو الدولة، وإضافة إلى أى أفراد. لقد اكتشفنا فعلا عبر السنين وتخلصنا من عدد معين من الناس الذين أثاروا الشك بأدنى درجة وغالبا ما وجدنا أجهزة هامة مخبأة فى منشآت تستخدمها فى الخارج. وإنه فى تفتيش لسفارتنا فى وارسو اكتشفنا أربعاً وأربعين ميكروفونا أو أجهزة تصنت أخرى، كلها أقيمت فى شهرين منذ التفتيش السابق. عندما علمت أن أحد أكبر خبرائنا فى مكافحة التجسس الإلكتروني عاد من توه من هذه الزيارة الطارئة إلى وارسو طلبت أن يأتينى لرؤيتى وفى اليوم الثانى ظهر فى مكتبى. أجلسته وقدمت إليه شرابا وبدأ تقريره.

قال بافتخار: «آه، ياسيدى، تعلم أنه فى مكتب السفير وحده كانت هناك أربعة ميكروفونات. وجدناها كلها». كان يستخدم شنطة مليئة بالأجهزة الكاشفة والمضادة للإزعاج.

كان من المفترض أن محادثاتنا التليفونية يتم مراقبتها وكان يتم ملاحقتنا من جانب رجالنا أو الطرف الآخر. إن قانوننا سمح لنا على الأقل بتنفيذ مثل تلك الملاحظة وتصرفنا وفق ذلك لم اشجع التخمين. لم نكن بمجانين ارتياب إلا أن ذلك جعلنا متيقظين. رفضت إجازة أى نوع من جنون العظمة فيما بيننا، ذلك الذى ازداد فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على يد جيمس أنجلتون. تولى أنجلتون مهمة التخلص من سرطان التسلل (التخلل) السوفيتى.

تولى أنجلتون لمدة عشرين سنة تقريبا وحدة مكافحة التجسس فى وكالة المخابرات المركزية وهو انتاج عبقرى من ييل وأوس شاعر متأمل له أسماء كروية

متنوعة - أم، زهرة الأوركيد، الشبح الأشهب، الجينه (الجثة) الصياد، الطائر - تحدث مجلدات عما يرتثيه بنفسه وعما يراه الآخرون عنه. وإنه فى بداية العشرين من ديسمبر ١٩٥٤ تم إعطاء أنجلتون تعليمات بيروقراطية المخابرات المركزية الأمريكية الرهيبة بالفعل باحثا عن نوع واحد من الحيوان - الخلد (الشخص الذى يعمل فى الظلام) وهو اختصار المخابرات بالنسبة للعملاء الذين كانوا حقيقة يعملون للجانب الآخر ، فى حالة أنجلتون ، الإمبراطورية السوفيتية.

استخدم «استاذ الجواسيس» البارع لمدة العشرين سنة التالية كل الوسائل فى طلبه المركز بالنسبة للشخص الذى يعمل فى الظلام المراءغ فى قمة المخابرات الأمريكية. إن ثلاثمائة عميل أو أكثر استجابوا لكل رغبة من رغباته. أثناء هذه الفترة وبموجب حمايته قامت وكالة المخابرات الأمريكية بفتح عشرات الآلاف من الخطابات المرسلة بالبريد من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتى وطورت «قائمة المراقبة» عن طريق الكمبيوتر المكونه من إثنين مليون إسم. وكان الأمر غير شرعى بالطبع حتى بالنسبة للعملاء الحكوميين فتح الخطابات للولايات المتحدة.

إلا أن كثيرا من أصدقاء أنجلتون وأعدائه على السواء ظنوا أن أكبر خسارة الحق بها بها المخابرات الأمريكية قد اتت فى فترة ردة واستجواب اثنين من كبار الجواسيس السوفيتيه - أناتولى جولييتسن الذى هرب من هلسنكى فى ديسمبر ١٩٦١ ، يورى نوسنكو الذى وصل من سويسرا فى فبراير ١٩٦٤ . شكت عناصر مختلفة فى كل واحد داخل وكالة المخابرات بأنه عميل مزدوج

وصلت إليهم تعليمات بعدم نشر الحقائق أو بالشك فى الآخر. تعلق انجلتون على أية حال بجوليتسن كمنشوق حقيقى وفتح الملفات الشخصية للقسم السوفيتى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية أمام دراسته وتأمله فى محاولة لتحديد الأشخاص الروس الذين يعملون فى الظلام. تحول عشرات الأخصائيين السوفييت ذوى الخبرة خلال شهور عن العمل بناء على أوامر أنجلتون السريعة وعلى الشكل الرديء أو التلميح. كان القسم السوفيتى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مشلولاً لسنوات، علاوة على قدرة الوكالة بصفة عامه لتقييم المنشقين من أى نوع بأى معنى موضوعى. وكان ذلك خطأ أقسمت ألا أرتكبه على الإطلاق.

وإنه بعدما اضطلعت بمهام المكتب فى عام ١٩٧١ بفترة قصيرة قمت بأول زيارة لى إلى لانجلى وفرجينيا لأقابل نظيرى الأمريكى ريتشارد هيلمز ولأرى أستاذ الجواسيس جيمس أنجلتون مباشرة .

فى اليوم التالى من مقابلتى لهيلمز بقيت لرؤية انجلتون - الأسطورة الآن.. وبدأت محادثتنا ببداية غريبة للغاية.

قال فى صوت منخفض يقرب إلى الهمس: «أى شئ سرى وموثوق حقيقة. أنت تأتى إلىّ وليس إلى المدير.»

وصدمنى ما كان بالنسبة لى فى الحقيقة حالة نادرة عجز اللسان عن وصفها، ولذا استمر دون مقاطعة.

قال أنجلتون: «على أية حال فإن رجلنا فى باريس هو عميل للمخابرات السوفيتيه وإن زوجته أسوأ منه أيضاً.»

وإن رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى باريس كان رجلاً
جيداً جداً، من وجهة نظرى. كنت آنذاك لا أستطيع التنفس إلا بشق الأنفس.
وشارفت الساعة على الخامسة مساءً، لذا فتحت زجاجة ويسكى وبدأنا نشرب،
ونجحت فى النهاية أن أتمم بالإجابة.

فبدأت قائلاً: «مستر أنجلتون، إذا كان هو جاسوساً للمخابرات السوفيتية
فلماذا لا تبعده وتقبض عليه؟» ولم يقم بالإجابة. واستمر يتجرعان الويسكى
حيث فى نهاية أمسينا أفلح بدرجة كبيرة على إنهاء المناقشة. لم أتناول أكثر
من مشروب أو اثنين من الويسكى فى أى أمسية.

حيث أنه نهض فى النهاية ليصطحبنى إلى الباب استنتجت أنه كان على أن
أستجيب لملاحظته الافتتاحية على نحو حاسم.

قلت: «عزيزى السيد أنجلتون، أنا مدير عام المخابرات الفرنسية وإنى
أتعامل مع مديركم ومع مديركم فقط.»

ثم أضفت: «إنى آمل ألا تلقوا القبض علىّ قبل أن أغادر مكتبكم». فابتسم، وغادرت ربما اعتقد أننى كنت جاسوساً أيضاً أو عميلاً للمخابرات
العربية السوفيتية - النظر للمخابرات السوفيتية المدنية.

كان جيمس أنجلتون فى رأى ليس بالرجل الذى تريده ليترأس وحدتك
لمكافحة الجاسوسية. فإذا بدأت بالتشكك فى كل واحد، وبينهم أخلص أصدقائك،
حينئذ أين ستذهب؟ طالب عملاؤنا لمكافحة التجسس بثلاثة مطالب. لا، لجنون
العظمة. لا، لاحتساء الخمر. لا، لتكوين الآراء المقبولة - اختيار نوع معين من
الأفراد من الواضح أنهم عرضة للانشقاق والخداع. كان كلنا فى معركة مع عدو

غير معرض لجنون العظمة ولكنه ميال إلى الموضوعية؛ الذى يعامل كل فرد بتشككية سليمة إلا أنه وافق على الحاجة إلى تقييم المخابرات من جهة وقائع الحالة الموضوعية لها.

لكن هناك الكثير من الأنماط التى لها صلة قليلة بالمخابرات المعاصرة. أخشى أننى لم أواجه جاسوسة جادة جدا، المرأة الفاتنة المهلكة ذات الملابس السوداء وبقلاده فى عنقها، وشفاه شهوانية ومبسم سجائر طوله ياردة. هناك الأساطير القوية عن المخابرات ينقلها التلفزيون وتتضمنها الروايات والمجلات والأفلام السينمائية من كل نوع. وإنه مع الحب فالتجسس هو معظم المشاهد. يربط السيناريو الحب بالجاسوسية، ذلك السيناريو من الصعب أن يحدث به خطأ. لأنه من المؤكد أن العامة تستوعبه - مشاهد الإثارة التى يثق بها أكثر من الشخصيات فى الحياة الحقيقية، الحركة والمؤامرة السرية بطريق أو بآخر، السحر والحب، الدم والدموع. حتى أنا لم أكن محصنا ضد هذه النوعية المتنوعة من السينما. كنت ببساطة حذرا بدرجة أكبر قليلا حيال إطلاق العنان لأذواقى.

لذا فإننى هنا أعترف طمعا فى العفو. كنت استقل قطارا أو طائرة إلى جنيف من وقت لآخر أو إلى بروكسل مرتديا عمامة معطفا بياقة مرتفعة استطيع جذبها حول وجهى. فإننى بالنسبة للقطار أسافر فى أواخر بعد الظهر من محطة الشمال أو محطة الشرق. كنت آخذ معى رواية عاديه رواية قليلة الصفحات مثلا - وأجلس بجوار النافذة بهدوء لمشاهدة الريف. عندما أصل إلى جنيف أو بروكسل، أذهب إلى صف التاكسيات انتظر بصبر تاكسيا، وأذهب إلى سينما اخترتها بعناية مقدما. وأمتع نفسى بفيلم جيمس بوند. وظللت

أحتفظ بقرارى هادئا للغاية. لم أغامر بالذهاب لمشاهدة مثل ذلك الفيلم فى باريس حيث أن أى شخص ماهر من المؤكد جدا أن يرصدنى ويبدأ فى نشر الإشاعة الماكرة. أو لأنه ربما يروجها كالاتى : « ياإلهى - ترى كم الهيئة السرية سقطت إلى حد بعيد عندما يتطلع رئيسها إلى الأسرار فى فيلم جيمس بوند! ».

ربما هذا الهمس يأتى من أحد المنافسين لى أو أكثر داخل جهاز الأمن الفرنسى. لأننى اكتشفت بسرعة ولأسفى أن الهيئة السرية للمخابرات لم تكن سلاح الأمن الوحيد للدولة. وكان التنافس المستمر بينهما وبين الـ D.S.T غالبا ما يضعف وأحيانا ما يكون محرجا إن لم يكن ضد مصالح الدولة الفرنسية ذاتها.

إن الـ D.S.T (إدارة مراقبة المنطقة) مكلفة باختصاص واحد من العمل داخل الأرض الفرنسية وهى المساو القريب للمباحث الفيدرالية. أما هيئتى، وهى الـ SDECE فهى هيئة مكافحة التجسس الخارجى والمخابرات (مع استثنائين) تتولى مسئولية العمل فى أى مكان ما عدا داخل فرنسا. أمضت الـ SDECE لسنوات الكثير من وقتها وطاقتها تناضل ضد وزارة الداخلية التى تشرف على الـ DST إداره مراقبة المنطقة.

حاولت بالمفهوم العام أن أنشئ علاقة عمل بين الإثنتين وكانت علاقة فعالة لبضع سنين. إن ذلك التجمع لتمامك المخابرات الداخلية والخارجية لم يكن فعالاً أكثر من محاربة أنواع من المعارك التى كانت فى الحرب العالمية الثالثة وتظهر أنها حتمية فى الحرب العالمية الرابعة. تم اختراق الحدود فى كلتا الحالتين قبل الاشتراك فى المعارك.

لذا كانت أولى زياراتي بعد تعييني في عام ١٩٧٠ هي زيارة وزير الداخلية، ريموند مارسيللن، لأدعه يعرف أرائي القوية عن هذه الأمور. وكانت زيارتي الثانية هي زيارة جان روشيه، خدم كرئيس لإدارة مراقبة المنطقة في ذاك الوقت، وكان وطنيا كبيرا. ودخلت مكاتبه المزدانة في مبنى هائل عتيد يلي مباشرة وزارة الداخلية خلف قصر الإليزيه في مدينته باريس. وجلسنا في كراسي مريحة في ركن بعيدا عن المكتب الضخم حيث يقوم بأعماله اليومية الخاصة بمراقبة الأمن الداخلي للشعب الفرنسي، وقد قررت الدخول مباشرة إلى الموضوع. كان جدول أعمالى جدولا بسيطا - نهاية للتناقس الذى كان موجودا حقيقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بين جهازى الأمن الأساسيين للجمهورية الفرنسية.

وبدأت الحديث: «أنا لست من اليمين ولا من اليسار. اهتمامى الوحيد هو خدمة فرنسا والحكومة.» أصفى روشيه بعناية حيث استمرت في الحديث: «لذا، من فضلكم، دعنا نعيش فى وئام. لا قتال بين الأجهزة، ودعنا نحصل على العدو!»

كان من الصعب، طبعا، بالنسبة لأى مدير إدارة مراقبة المنطقة أن أوافق علنا على مفهوم فى صالح الحكومة الفرنسية بكل وضوح، لذا كنت مقتنعا بنفس الدرجة بأن معظم سابقيه تحولوا إلى تعويض مثل هذا الاتفاق. إنى أعتقد بإخلاص تماما بأن روشيه بذل كل مجهود أثناء توليه منصبه للتأكيد على هذا التعاون بأن يصبح يمثل تلك الحقيقة بقدر ما سمحت به حقب التنافس الماضى.

لم يكن ذلك الشيء بالشيء الذى أتى بصورة طبيعية أو بسهولة لأى رئيس إدارة مراقبة المنطقة أو مدير هيئة الأمن السرية بالنسبة لذلك الأمر، ولا لأى من هيئتى الأمن المقارنتين للمباحث الفيدرالية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية. كان شيئاً توجب علينا العمل لأجله، ولقد عملنا بالفعل لأجله. وإنه بعد أول اتصال مع روشيه مباشرة تقريباً فى محاولة لجعل هذه الفترة الزمنية الجديدة ذات شعور طيب راسخ حقيقة رتبت التعهد بالاشتراك فى التدريبات فى كورسيكا تحت قيادة موحدة - متضمنة كوماندوز إدارة مراقبة المنطقة والأمن السرى.

إن رجال الشرطة الشبان لإدارة مراقبة المنطقة العاملين إلى جانب عملنا كغطاسين وخبراء تدمير يستخدمون طائرات وطائرات عمودية. وأقمنا فى اليوم الأخير حفل عشاء ضخماً وحفل شواء فى الهواء الطلق. وحضر كل من روشيه ومارسلين وزير الداخلية الذى يقدم إليه تقريراً، وصعدنا فى طائرتنا لقضاء اليوم. وإن الجهود التى مثل هذه هى التى ساعدت حقيقة على كسر بعض من عدم الثقة، على الأقل على المستوى العملى بين هيئتنا.

لا يزال هناك قدر كبير من النزاع بين المخابرات الفرنسية (المعروفة بالإدارة العامة للأمن الخارجى) وإدارة مراقبة المنطقة. لم يكن الجو متوتراً مثلما كان كالمعتاد إلا أن هناك منافسة شديدة لازالت باقية. عند تناول أنماط الحرب التى تميز الحرب العالمية الرابعة فإن كفاحنا ضد الإرهاب أو تهريب المخدرات على الحدود يستفيد حقيقة من فصلنا بين المخابرات المحلية والعالمية، وعلى كل المخابرات المشتركة أن تتخذ الإجراءات المناسبة. غالباً ما يكون هناك وقت

للتشاور الوثيق. يجب على المخابرات ببساطة تامة العمل معا على نحو جيد طول الوقت ويعرف كل منها ما يدور على الحلبة الأخرى.

إن إدارة مراقبة المنطقة والإدارة العامة للأمن الخارجى قامتا فى ١٩٨٣ بتحديد كبار عملاء المخابرات السوفيتية العاملين خارج السفارة فى باريس فى شارع لان و قام الرئيس باتخاذ قرار وهو قرار سياسى لطردهم جميعا. وكانت لفته تراجيدية حقيقية. كانت معلوماتنا أيضا أن هذه اللفتة وجهت ضربة خطيرة لجهاز المخابرات السوفيتية فى فرنسا لسنوات آتية.

كان أحد هؤلاء العملاء عضوا فى القسم الصحفى فى السفارة السوفيتية. وكان ابن أحد أعضاء المكتب السياسى السوفيتى قد تم تطهيره إبان فترة خروشوف وتم إرساله فى النهاية إلى طوكيو كسفير، وكان قد خدم سابقاً كعضو فى البعثة التجارية السوفيتية فى الجزائر حيث تمت معرفته فى أول الأمر كأحد كبار المخابرات العاملين. وكان تميزه فى اللغة الفرنسية يحدده قلبا وقالبا. سرعان ما اشتغل بهذا الإتقان فى لقاء كبار المراسلين الفرنسيين وعمل صداقات معهم خاصة العاملين فى الاذاعت والتليفزيون، والمراسلين الأمريكين خصوصا من الأجانب الموجودين فى باريس. وأصبح كاتم أسرار يولى فورو نتسوف أقوى سفير سوفيتى فى باريس عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الذى عاد إلى موسكو كنائب وزير الخارجية وسفير فى محادثات الأسلحة الاستراتيجية مع الأمريكين فى جنيف. وإنه كنتيجة لاتصالاته وموقعه فإن عميل المخابرات السوفيتية كان قادرا على إمداد معلومات غير سوية لمراسلين أجانب غربيين.

كان هناك على سبيل المثال تأكيد على أن السوفييت أو أى من أصدقائهم أو حلفائهم لا يساعدون ولا يحرضون أبو العباس جناح جبهة تحرير فلسطين الذى قام بتنفيذ الاختطاف المميت للعبارة أكيلى لورو. إن وسيلة وصوله إلى أعلى الصحفيين الفرنسيين وكبار المراسلين الغربيين الذى غالبا ما كان « يبيع » لهم المعلومات قد مكنته من الامتزاج بحالة الرأى العام الدقيقة فى الغرب خاصة فى فرنسا وأوروبا الغربية وبالرأى الأمريكى حيال الشئون الأوروبية والاحساس بكيفية استخدامها بطريقة أفضل.

ظللنا نراقب هذا الفرد عن قرب. قامت إدارة مراقبة المنطقة بمراقبة نشاطاته عن قرب فى فرنسا والاتصالات المتطورة فيما بين أولئك الصحفيين، بما فيهم بعض الأمريكين الذين كان على اتصال بهم. وقامت الإدارة العامة للأمن الخارجى بمراقبه رحلاته إلى الخارج - لوكسمبورج، بروكسل وجنيف. قمنا بتحديدته ومراقبته والإحاطة به.

لماذا لم نُسرّ فى الإبقاء عليه فى الغرب - حالة الأرنب الذى عرفناه مُراقبا بعنايه؟ كان يتم الإبراق إليه تماما. إن أولئك الصحفيين الذين كان على اتصال منتظم معهم كان يتم اخطارهم بدوافعه واهتماماته. إلا أن الروس فى النهاية صاروا ماكرين واستدعوه. لقد كانت الحالة هى حالة تعاون نموذجيه بين جهازينا الأمنيين - إدارة مراقبة المنطقه والإدارة العامة للمخابرات الخارجية. لم تعمل هذه الحالة بفعالية دائما لسوء الحظ. كان التقسيم هو الأمر المقبول ببساطة بين الهيئات الأمنية لفرنسا. التى تخدم الدولة.

لقد عقدت العزم ألا أدع مثل تلك الممارسات تؤثر على علاقاتنا مع حلفائنا

الغربيين واننى منذ الأيام الأولى فى منصبى فعلت ما فى وسعى للتعاون مع هيئات المخابرات الأخرى للعائلة الغربية. وطالبت زملائى الأوروبيين بهذه النقطة وجعلتهم يعرفونها.

كانت استراتيجيتى ترتيب لقاءات مرتين سنويا أو حيثما تقتضى الضرورة، حيث لم يحدث ذلك من قبل أبدا؛ وناقشنا فى اللقاءات الأمور التى تهمنا جميعا. أجرينا لقاء فى باريس ولندن وميونخ بالتناوب. وكانت اللقاءات يحضرها فقط رؤساء المخابرات الأوروبية الاساسيون - الفرنسية والبريطانية والألمانية، حيث كان التعاون ضروريا للغاية إذا كنا سنشارك فعلا فى مقاتلة الامبراطورية السوفيتية فى الحرب العالمية الثالثة.

لم يكن الأمريكيون حاضرين فى تلك الدورات (الاجتماعات). وانه أثناء عملى كمدير للمخابرات الفرنسية لم يكن هناك لقاء مشترك بين رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ورؤساء وكالات المخابرات القيادية الثلاث للحلفاء فى أوروبا. وقمت بدلا من ذلك بترتيب محادثات نصف سنوية مع الأمريكيين. كان جورج بوش يحضر عندما كان رئيسا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

لقد اتهمونى مرات بعدم تقديم معلومات كاملة للأمريكيين. ولاشك فى أن هذا لا يدعم الوحدة بين قوى المخابرات الرئيسية الشمالية أو الغربية مما يجعل تنفيذ الحرب العالمية الثالثة أسهل وللدفاع عن أنفسنا فى الحرب العالمية الرابعة ممكنا. إلا أن هناك أسباباً لهذا الموقف. هناك سبب بسيط جدا فى الحقيقة كما حذرت وليام كاسى أثناء أحد لقاءاتنا الأولى: أنه بالنسبة لمعظم تلك السنوات أيا أبلغت به الأمريكيين كان يعرفه العامة فى الصباح التالى.

إن أول مرة قابلت زملاء الأوروبيين كشفت كل أوراقى على المنضدة. كانت هناك من الواضح شكوك كثيرة عميقة يرجع تاريخ بعضها للحرب العالمية الثانية. إن مدير المخابرات الألمانية الرهيبة كان موجودا مع باقى الحلفاء ماعدا الأمريكان. إن الغيرة والعاطفة المكثفتين اللتين لاتزالا تقسمان أوروبا تقسمان أيضا أجهزة مخابراتنا (ولايزال هذا الأمر إلى حد معين حتى الآن).

منذ أن طلبت عقد اللقاء الأول وافتتاحه فى مكتبنا الرئيسى فى باريس، إنما طلبت النظام وبدأت حديثى: «أيها السادة أنا رئيس المخابرات الفرنسية. سأدافع عن مصالح فرنسا. لكننى رئيس حليف أيضا. وأنا لا أخفى أى شىء. قلبى معكم وفى الاتجاه الصحيح. لو كانت هناك أى مشاكل أو نزاعات بيننا، دعونا نطرحها على المائدة الآن ونتحدث بشأنها. إننا جميعا نقاتل نفس الأعداء، أعداء الديمقراطية. وإذا كانت حكوماتنا لديها مشاكل أو خلافات فإنه يجب وضعها على المائدة ونتحدث بشأنها بحرية.»

كانت هناك همهمات بالموافقة حول المائدة بينما استمرت فى الحديث: «وأود أن أقول شيئا واحداً أخيراً قبل أن نبدأ - لن أكذب عليكم أبدا لأننى لا أعتقد فى الكذب. مثل ساشا جويتري» - التفت إلى المندوب البريطانى وابتسمت - «إن برنارد شو الفرنسى اعتاد القول: «لاتكذب أبدا، لأنك ستحتاج إلى ذاكرة كبيرة جدا.»

كانت نتيجة هذا اللقاء مستوى غير عادى من التعاون فيما بين رؤساء المخابرات الأوروبية القيادية الذى لم يكن له نسخة أخرى. وعندما قام سير بريان توفى، الرجل المشهور الذى ترأس إدارة التصنت فى تشلتنهام (أقوى

عملية مخبرات الكترونية بريطانية ذائعة الصيت بإرسال نسخة اعتراضية للعميل في لندن، وأرسل لي نسخة في باريس كذلك. لديه تلكس كودى خاص تم تركيبه في مكاتبنا. لم يكن هناك أجزاء محصورة أفضل من البريطانية في أجزاء كثيرة من العالم، ويعرفها كلانا.

إن فلسفة الاخلاص التام التى أوضحتها أثناء اللقاء الأول مع زملائي الحلفاء والتى أثبتت أن الاستجابة لها جيدة كانت أساس فلسفتى فى إدارة الأعمال والتعامل مع نظرائى الأجانب، وبالطبع زملائى فى الجهاز الخاص بنا.

ملحق الفصل الرابع — اختصارات..

CIA مخبرات مركزية أمريكية

DST إدارة مكافحة التجسس والارهاب

SDECE المخابرات الفرنسية

STS المخابرات البريطانية

NCO ضباط الصف

FBTI إدارة التحقيقات الفيدرالية

KGB المخابرات السوفيتية

GRU توسيع لمخابرات العسكرية

RAF توسيع القوات الجوية الملكية

الفصل الخامس

مسرح العمليات أو الأحلام

إن المعلومات نوع من الألعاب المتكررة، تتكون من عدة أشكال وألوان والتي تتشكل بصورة ثابتة أو لا تتشكل. والمعلومات تتكون من البحث الذي لا ينتهى أبداً عن عدد من الأجزاء المنفصلة التي تقوم بتحليلات الخدمات السرية بتجميعها لإكمال اللعبة أو اللغز وعندما تقرر أن تملأ إحدى الشغرات بأجزاء جديدة، يتبدل شكل اللغز. إنها عملية تطور لا تنتهى. وهى من بعض النواحي مثل لوحة الآلات فى إحدى الطائرات. وهى أيضاً الرجل الذى يصنع القرارات. مثل الطيار، رئيس الدولة، وتوافر المعلومات أمامه أمر حيوى. وبدونها، فإنه لا يستطيع أن يقود الطائرة لأعلى بأمان. وإذا كانت الخدمة السرية لا تتسم بالكفاءة، أى مليئة بإناس غير محترفين أو أشخاص غير أكفاء أو أغنياء أو أسوأ من ذلك، فإن هذا سوف يؤثر على الرئيس بدون ذكر «الركاب» الذين معه - الأشخاص الذين يحكمهم. ومن الواضح أن وضعه الدولى سوف يضعف أيضاً، وسوف تفشل البوصلة التى ترشده، ولن يتمكن من حيازة جميع الأدوات التى تمكنه من اختيار الطريق المباشر لغايته.

والعالم ينطبق عليه ما سبق حتى انه فى الظروف الطبيعية، يقوم الرئيس بالطيران فى احوال مناوئه وعادة فى مجال رؤية تصل نسبته إلى صفر. فإذا كان أيضاً بدون الأدوات الأساسية التى تحذره إلى ما يجب أن يتوقعه، فكيف يمكنه تجنب حدوث كارثة؟ ولم يحدث فى أى وقت فى التاريخ أن تمكنت «دولة» تستحق أن يطلق عليها «دولة» من الاستمرار بدون جهاز مخبرات.

وقد لاحظ الفيلسوف الصينى الكبير وكان من سادة الحرب، صمن نزو، وذلك منذ خمسة وعشرين قرناً « أن الاستخبارات الجيده هى الخطوه التمهيديه للنجاح ». وكان معروفا عن هذا الرجل أنه عميل للمخابرات.

ولكن كلمة « النصر » اليوم تعد أقل وضوحاً عما كانت عليه من قبل. فالنصر قد يشمل النجاح العسكرى، السياسى أو الدبلوماسى.

ولكن من الممكن أن يشمل أيضاً الانتصارات المعنوية، التى تتضح بصورة كبيرة فى أوقات تزايد الربح، ويعنى بهذه الانتصارات الاقتصادية.

والمخابرات الاقتصادية أصبحت سلاحاً استراتيجياً له تأثير قوى، وخاصة على أعدائنا الجدد فى الحرب العالمية الرابعة، اقتصاديات العالم الثالث الهشة التى تعتمد بصورة كبيرة على الثروة البترولية، وديكتاتوريون تعتمد قوتهم على القوة الاقتصادية والقدرة على شراء الاسلحة من الأسواق العالمية. واليوم فى الوقت الذى تتناقص أهمية بعض فروع أجهزة المخابرات فإن الخدمات الاقتصادية أصبحت حالياً قائمه بذاتها فى الأهمية، خاصة هؤلاء المتعاملين مع دول القمر الصناعى بأوروبا الشرقية.

والتجسس الاقتصادى أصبح عنصراً رئيسياً من قدرات القتال الحربى. والسلاح الاقتصادى عادة ما يكون أول سلاح يُستهدف فى أوقات الأزمات والمواجهة.

الأكثر من ذلك فى أنه إذا استخدم بصورة سليمة فإنه يمكن أن يثبت أنه نقطة الضغط الخطيره التى تخنق النشاطات العنيفه للمقادة غير المنطقيين فى مثل هذه الحالات، كما هو الحال فى صدد المخابرات السياسية، الدبلوماسيه أو

العسكريه التقليديه، يمكن أن تكون المعلومات غير الدقيقه فى حد ذاتها سلاحاً قوياً وذلك عندما يتم استخدامها بصورة سليمة. وعلى سبيل المثال: فى نهاية نوفمبر ١٩٧١، مع قرب انتهاء وصول مشكله « ديلوت » إلى نهاية متأزمة، تلقيت معلومات بأن الأمريكين سوف يقومون بتخفيض قيمة الدولار فى ١٨ ديسمبر. والمحلل الذى جلب لى هذه المعلومات فى المقر الرئيسى كان من أكثر المديرين الذين أشملهم بثقتى. كان رئيساً لما نسميه جهاز المخابرات الاقتصادى، الذى لا يضم فقط المخابرات المالىه والاقتصاديه ولكن، كما اكتشفت فى بدايه عملى، التجسس الصناعى أيضاً وهناك مناسبات عديدة يمكن أن نقول فيها ان جهاز المخابرات هذا كان أكثر من قادر على تأدية مهامه، بل وفى الحقيقه تمهيد الطريق وتأدية جميع عمليات المخابرات الخاصة بالحكومة الفرنسيه.

وكانت هذه احدى المناسبات. عندما تلقيت التقرير الخاص بقرب قيام الأمريكين بخفض قيمه الدولار، أمسكت فوراً بالخط الساخن الأحمر الذى يربطنى مباشرة بمكتب الرئيس وطلبت إجراء مقابلة عاجلة مع الرئيس «بومبيدو» فى قصر الإليزيه ويبدو أن مصدرنا لم يعرف فقط تاريخ التخفيض ولكن أيضاً مستوى التخفيض ولهذا دخلت إلى مكتب «بومبيدو» مستعداً للأسئله التى لا يمكن تجنبها والتى سيفرضها هذا الفرنسى المتميز فى مجال البنوك لمعرفة مزيد من التفاصيل.

وبسرعة قدمت السيناريو له ، معبراً عن ثقتى فى دقة المعلومات وثقتى فى مصدر المعلومات.

طلبت من الرئيس «هل يمكن أن تعطينى السلطة لكى أقدم هذه المعلومات لشخص آخر - لوزير المالية على سبيل المثال؟»

رد قائلا «لا، لى أنا فقط»

ولأسباب جزئيا للخلفية التى يتمتع بها، وجزئيا بسبب طبعه العصبى، فإن «بومبيدو» كان يتصرف عادة بصورة مباشرة فى مثل هذه الأمور الحساسة مع البنك الفرنسى ومديره. وفى هذه الحالة لم يكن الأمر مختلفاً.

كان بومبيدو يتمسك بشدة بمفهوم خاص أعرفه (كأنه من المقدسات، وأن هذا أمر أساسى بالنسبة لأى نوع من عمليات المخابرات، وهو المفهوم الخاص بالحاجة إلى المعرفة. وفى حين إننى خرجت منذ هذه النقطة من أنشطته المعلومات، إلا أننى كنت قادراً على تتبع الخطوط الرئيسية للموقف عبر أجهزة المراقبة الخاصة بنا.

وقد كان البنك الفرنسى، وهو البنك المركزى الفرنسى والذى يوازى البنك الفيدرالى للولايات المتحدة، قادراً على القيام وتنفيذ مجموعة من العمليات التى أثبتت نجاحها بصورة عالية وذلك بالعمل بهدوء عبر مجالات متعددة يمكن أن توصف فقط بأنها تشكيلات متباينة، أو مع أشخاص يتم إنكار صلتهم بالحكومة.

وقد كان البنك المركزى الفرنسى قادراً وقتها على تحقيق أرباح ضخمة بمفرده، وهى أرباح كافية لتحويل جميع عمليات جهاز المخابرات فى فترة قيامى بتولى المنصب، ومن المحتمل حتى نهاية القرن، وذلك عن طريق القيام ببيع الدولارات وشراء الفرنك؛ فى عدد من الأسواق حول العالم بهدوء. وهل كان من الممكن ألا

نستطيع من سوء حظ دولة صديقه أو حليفة؟ من المحتمل، ولكن فى بعض الأحيان يكون هذا جزءاً من اللعبة، مع أن هذه الفرص نادرة جداً.

ويوماً بعد يوم، كان يمر علينا حالات تؤكد لنا مكرراً مدى فاعليه ماتجمعه المخابرات من معلومات فى مجال إدارة أعمال الدولة، حتى فى أوقات الهدوء عن أوقات الأزمات. وفى بعض المناسبات كنت أقوم بإعطاء الرئيس ملف عن أحد القادة الأجانب قبل أن يقوم بزيارة فرنسا. وعادة ما يكون الملف المطلوب ملفا الرجل الشخصى، والذي تم تجميعه فى بلدة من قبل الأجهزة الأمنية الخاصة بدولته. ونتيجة لذلك، كان الرئيس يعرف الإجابات التى سوف يعطيها له قبل أن يقوم الضيف الزائر بطرح الأسئلة.

وعملية جمع المعلومات التى تقوم بها المخابرات تقدم معلومات أيضاً يكون لها مكاسب شخصية مباشرة. وعلى سبيل المثال، إذا أراد شخص أجنبى ذو مقام رفيع أن يلتقى بى أثناء زيارته، فكان عليه بصفة عامة أن يتصل بسفارته فى باريس قبل سفره. وكنت، بالتأكيد، قادراً على قراءة مثل هذه الرسائل.

وفى الأسابيع أو الشهور التى تتخلل ذلك، تقوم السفارة بتكوين صورة عامة عنى، والتى يمكن أيضاً أن تصلنى عن طريق مراقبيننا.

وأخيراً يقوم ذو المقام الرفيع بإرسال برقية لسفيره: «هذا ما أريد أن أناقشه معه. فكيف عن المحتمل أن يكون رد فعل «الكونت» تجاه استئلتى؟ كيف ستسير الأمور فى رأيك».

وفى الوقت الذى يصل فيه إلى مكتبى، أكون قد عرفت عنه ليس فقط

شكله وصفاته المميزه والخاصة، ولكن مايريده أيضاً من لقائنا والمدى الذى يمكننى أن أسايره إليه، ومتى وأين أقوم بشد الخط.

إن التجسس بالمعنى الصحيح أصبح يتركز بصورة متزايدة على ادارة الأعمال والاقتصادو العلوم والصناعة.. ومع تزايد تعقيد وصعوبة تكنولوجيا الإرهاب وأسلحة الإرهاب، اضطرت أجهزة المخابرات العظمى إلى التركيز على أحدث انواع التكنولوجيا المنتظر استخدامها فى الحرب العالمية الرابعة. وذلك لتحديد ماينوى عليه الأعداء، وكيف نحمى منشآتنا الصناعية من التخريب، الهجوم والسرقة. ومن المحتوم، أن هذا التركيز أدى إلى بعض الاكتشافات التى أثبتت فائدتها الكبيرة فى المناطق غيرالعسكرية. هذه النوعيه من المعلومات تُمكن الجهاز من اكتشاف عملية تستخدم فى دولة أخرى وكان يمكن أن تستغرق سنوات وملايين الفرنكات لتتطور أو تصل للكمال.

وقد بذل السوفييت مجهودا ضخما فى هذا المجال. وفى نيويورك، كان هناك نصف دسته من مسئولى القنصلية السوفيتيه يقومون يوميا بزيارة مكنت براءة الاختراعات بالولايات المتحدة ومكتب العلامات التجارية. وهم يذهبون إلى هناك، بصورة قانونية، ليقوموا ببساطة بنسخ جميع الاختراعات التى تم تسجيلها خلال الـ ٢٤ ساعة السابقة.

ولكن هناك عمليات تتسم بكونها أقل شرعية ومن النادر أن يتم إعطاء الأجهزة العسكرية براءة اختراع.. وطالما كان الجهاز من ضمن المحظورات أو من ضمن الأسرار العليا، فإنه لا يكون فى حاجة ليحصل على براءة اختراع. بالاضافه إلى أن البراءات نادراً ما تعطى فى مراحل التطوير الأولى. ومع ذلك

فإنه فى هذه المرحلة. قد يكون للأجهزة قيمة كبيرة، ويمكن بذلك أن يحقق التجسس الصناعى أعظم المكاسب.

واليابانيون متخصصون فى مثل هذه الأمور. والصناعة اليابانية لها علاقات وثيقة مع الحكومة. وقد قمت أنا ومنفذو عملياتى بدراسة عملياتهم فى الخارج، فى محاوله لفهم ومعرفة هدفهم التالى فى فرنسا، وكيفيه وصول التكنولوجيا التى ينسخونها لأعدائنا الأساسيين فى دول أخرى. وفى فرنسا يتم تولى عمليات مواجهة التجسس الصناعى مجموعة - وهى عملية تتم بمهارة. وفى بعض الأوقات كنا نقوم باقتسام المسئوليات والمعلومات. والتكنيك اليابانى كان بسيطاً بصورة خادعة فعندما كانوا يلاحظون أنهم يحتاجون فى أحد الصناعات التى تتطلب تكنولوجيا مالىة إلى جهاز معين أو إحدى الأدوات، كانوا يقومون باختبار الوضع العالمى. فإذا توصلوا إلى استنتاج يشير إلى أن فرنسا أو سويسرا، على سبيل المثال، تعد إفادة العالم فى هذا النوع من المنتجات، كانوا يقومون بإرسال وفد..

وهذا حدث فى نهاية سنة ٧٨ مع نظام تحويل التليفونات الرقمية الحديثه التى توصلت إليها إحدى شركات الاتصالات الفرنسيه الكبيره، وقد تحققنا من اهتمام اليابان بهذا المجال عن طريق محادثه زملائنا البريطانيين فى «ستلنهام» والذين قرروا اعتراض طريق اليابانيين وعندما أجرينا اتصالنا بالشركة الفرنسيه، ومثليها فى طوكيو، كانوا مندهشين، فقد افترضوا، بعد التحقيقات الدولية مع اليابانيين، أنهم كانوا على وشك القيام بمبيعات كبيرة، وليس السرقة. وقد أعرب أحد العملاء اليابانيين فى إحدى المحادثات مع

الممثلين الفرنسيين للشركة فى طوكيو قائلاً: «إننا عملاء لبعض منتجاتكم». وهذا الحديث أدى إلى الاتفاق على تعاقد كبير جداً، يكفى لأن يجعل لرجال الصناعة الفرنسيين والسويسريين يجرّون لاهتين لفتح باب مصانعهم على مصراعيه أمام الزائرين فى هذه الحالة، كان اليابانيون يصلون فى جماعات من اثنين أو ثلاثة، الكاميرات تتأرجح على صدورهم، وطلبوا رؤيه معدات معينه وعمليات تصنيع معينه. وقد أكدت معلوماتنا أنهم وجدوا عددا من الابتكارات التكنولوجيه التى جذبت اهتمامهم بصفه خاصه.

وقد كنا نقوم بمراقبتهم عن قرب طوال اليوم وخلال الليل. وفى هذا المساء ناقشوا المسأله فيما بينهم خلال لقاء فى جناح رئيس الوفد، والذي كان مقيما فى فندق «انتركونتيننتال» الذى يطل على حدائق «تويلرى» وقاموا بتبادل الملاحظات المفصله وتبادلوا الصور التى التقطوها وتم تحليلها بدقه. وفى النهايه، ثم توزيع مزيد من الأعمال عليهم. وقد تم تخصيص أحد أعضاء الوفد لإقناع أحد المصممين الفرنسيين البارزين لمناقشه اختراعه.

كما تم إرسال شخص ثانيا لأخذ صور أكثر تفصيلاً.

وفى اليوم التالى. تم تقسيم المصنع إلى اقسام تمهيدا للزيارة الثانيه والأخيره. وكان الوفد قد خطط القيام بهذه الزيارة لهدف واحد فى رأسهم وهو الحصول على أكثر المعلومات تفصيلاً حول طبيعه وعملية إنتاج الأجهزة. ولكن العاملين الفنيين بالمؤسسة الفرنسيه كانوا على علم بذلك من قبل عملائنا. ولكن فجأة تم إلغاء الزيارة بصورة غير رسميه، ومحادثات توقيع العقد انتهت، وعاد اليابانيون إلى وطنهم بفشل مُخزٍ. وهذه العمليه الخاصه بمواجهه

التجسس، وبالحسرة، كانت تعد نجاحاً معزولاً. وكانت هناك عمليات أخرى باءت بالفشل، وتم نقل الابتكارات التكنولوجية من أوروبا الغربية، وأمريكا أيضاً، إلى اليابان كنتيجة لعمليات مماثلة. وعادة ما يقوم رجال الصناعة الغربيون بالتعامل مع اليابانيين بصورة أكثر مباشرة. فهم عادة مستعدون حتى إلى إرسال نماذج للأجهزة التي من انتاجهم إلى اليابان، بسبب انبهارهم بفكرة العقود المجزية التي يقدمها اليابانيون.

وفى إحدى المرات وبعد مرور عدة أشهر، ولحزنهم الشديد، وجدوا نفس المنتج الذي ينتجونه فى أحد المعارض التجارية الغربية ولكن صنعه أجود، وأقل تكلفة وعليه علامة «صنع فى اليابان» مطبوعة عليه. والأكثر خطورة أن بعض هذه المنتجات عرفت طريقها إلى أيادى الأعداء.

وقد شعرت شركة «توشيبا» بحرج شديد عندما تم الكشف عن أن التكنولوجيا المتقدمة ذات التصميم الأمريكى والتي تستخدم فى تصنيع مراوح الغواصات تم استخدامها فى الاسطول النووى السوفيتى. ومن المعروف أن دول الكتلة الشرقية تحاول دائما الحصول على هذه النوعية من التكنولوجيا بصورة مباشرة منذ أعوام - شاهدته على سبيل المثال المحاولة السوفيتية لتصنيع نسخة مطابقة لطائرة الكونكورد وبالرغم من فشل المحاولات النهائية لطيرانها، ولكنها كانت فى الحقيقه مطابقة لطائرته الكونكورد الفرنسية - البريطانىة «فيما عدا طريقة تصنيعها المخزية، والتي تسببت» فى النهاية، إلى سقوطها مكرراً اثناء تجربتها. وعرفت هذه الطائرة باسم «كونكوردسكى» وهذا يعد مثلاً تقليدياً لعملية التجسس الصناعى على المستوى الدولى.

كيف يمكن تجنب مثل هذه السرقات التكنولوجية في مجتمعاتنا المفتوحة في الغرب؟ على مدى أعوام، كان الفرنسيون وقوى غربية أخرى يقومون بإمداد السوفييت، علانية وقانونياً، بعمليات تصنيع حربية يطلق عليها «مفتاح التحويل» وقد أطلق عليها ذلك لأنه على الشاربي أن يدير فقط المفتاح في الباب ليذهب إلى العمل.

وقد تم تصنيع الشاحنات العسكرية التي تم استخدامها أثناء الاحتلال السوفيتي لأفغانستان في منطقته مشروع شاحنات «نهر كاما» الذي تولته مؤسسة من أوروبا الغربية.

وفي هذه القضية (الحالة) وحالات أخرى كان جشع الأفراد أو المؤسسات هو الدافع الأساسي، ومن المحتمل أن يكون جديراً بالثناء في محيط المؤسسة، ولكن تضع المؤسسة موضع تساؤل أمام الأمن القومي. ومثل هذا النشاط يتم تقييده فقط بشق الأنفس من قبل تنظيمات الدولة. والتكنولوجيا الأكثر تقدماً والتي لها أهمية أمنية وطنية واضحة هي فقط التي يتم حظر تصديرها إلى الكتلة السوفيتية في إطار اتفاقية (وهو لجنة تنسيق التحكم في التصدير المتعدد) المنعقدة بين الدول الغربية التي ظهرت منذ سنة ١٩٥٠.

وهذا يترك مجالاً مفتوحاً وواسعاً أمام الذين يفكرون في التجارة مع الشرق - وهي تجارة مربحة لمؤسساتهم، ولكنها تعد مساعدة ضخمة وراحة كبيرة للقوى الشيوعية، ولأعدائنا في الحرب العالمية الثالثة. وقد وصف «لينين» الأشخاص المسئولين عن مثل هذه الصفقات «أغبياء نافعين». وكان «أماندهامر» والده، أول موردين في هذا المجال للاتحاد السوفيتي، من ضمن

هذا التصنيف الذى وضعه لينين. وفى بعض الحالات، كان أعداؤنا فى الحرب العالمية الرابعة يتسمون بأنهم أكثر عنفاً فى عملياته التودر إلى الشركات الصناعية الغربية أو الشمالية ومنتجى الأسلحة. وقد قام مثلاً تجار الأسلحة بدفع مبالغ نقدية سخية فى مبيعات الأسلحة الفرنسية ومراكب الحراسه السريعه لإيران وطائرات حربه للعراق.

وقام الرئيس الليبى معمر القذافى باستثمار مبالغ ضخمة فى شركات السيارات الأوربيه وأما باكستان وبعض الدول الأخرى فقد قاموا ببدء حملته شرائيه واسعة المدى فى الغرب لجمع المعدات اللازمة للتحرك تجاه الوصول إلى انتاج الاسلحة النووية. وقد شعر الألمانى ديملر بنز» بالخرج الشديد عندما تكشف أن الشاحنات الخاصة به تم استخدامها فى نقل الجنود العراقيين إلى الجبهة فى حرب الخليج سنة ١٩٩١. والشئ الذى كان أكثر إحراجاً هو استخدام العراقيين لطائرات الميراج ٢٠٠٠ التى كانت فرنسا قد باعتهم للعراق لاستخدامها خلال الحرب الإيرانية العراقية. ووجود نفس هذه الطائرات فى السماء فوق الكويت كان يعنى أن جزءاً من القوى الجوية الفرنسية سيتم تركه أرضاً بعيداً عن ساحة القتال خلال حرب الخليج خوفاً من أن تقوم طائرات الحلفاء بالخلط بين الميراج الفرنسية وبين طائرات صدام وتقوم بإسقاطهم. ومع ذلك فإن التعاملات الرسمية، التى يعلن عنها بصورة كبيرة بعد ذلك، وغيرها التى تتم فى الخفاء غالباً ما تكون مادة التكريم الشخصى على نطاق واسع وذلك من قبل المسئولين الذين قاموا بالتركيب لها وللصناعات الغربية التى استطاعت الحصول على هذه العقود المربحة.

وبخلاف هذه العمليات التجارية، هناك الكثير من العمليات التي تتم بعيداً عن أعضاء التليفزيون وذلك على يد عملاء المخابرات من جميع دول الكتلة الشرقية وعدد من دول الشرق الأوسط وأفريقيا والتي تعد تهديداً مستمراً لمعارضيهم الشرقيين. وعادة ما يتم حجب هؤلاء العملاء وراء ستار الدبلوماسية، وهؤلاء العملاء يحصلون على نسبة ضخمة تتراوح بين ٣٥ و ٦٠٪ من السفارات والقنصليات، ومنظمات التصدير والاستيراد. وفي المجتمعات الدكتاتورية والشيوعية، تكون هذه الجماعات ككل مسئولة بصورة مباشرة أمام الحكومة. بما أن لديهم كل شخص يُعد مسئولاً.

إن امتياز السفر والعيش في الخارج في المناطق الغنية في الغرب عادة ما يحمل معه مهمة تقديم أي خدمات من أي نوع كان التجسس الصناعي، الاستخبار السياسي، وحتى القيام بعمليات إرهابية - قد تطلبها دولته الأم. وهذا يعد صحيحاً بالنسبة لدول الكتلة الشرقية وعدد من أعدائنا في الدول الديكتاتورية في العالم النامي. والسلطات الفرنسية تعتقد أن مسئولاً أمنياً سورياً كبيراً، يتظاهر بأنه دبلوماسي في سفارة سوريا في باريس، قد تورط بصورة مباشرة في عدد من التفجيرات الإرهابية في العاصمة الفرنسية في بدايه سنة ١٩٨٠، بما في ذلك الانفجار المهلك الذي حدث في أحد المطاعم اللبنانية في شارع «ماريف» بالقرب من الإليزيه.

ويجب علينا أن نعزز قدراتنا الخاصة بمواجهة التجسس بما أن أعداءنا قد قاموا بتعزيز مجهوداتهم ضد عملائنا، حكوماتنا، أعمالنا وصناعتنا. ويجب علينا أن نساوي أعداد الدبلوماسيين أو الجواسيس المخول لهم الالتحاق بالعمل

على الجانبين لتخفيف عبء المراقبة. وفي نفس الوقت يجب علينا ان نمتنع كلياً عن الاستعانة بعاملين أجانب فى قواعدنا العسكرية فى الخارج، كما كان يفعل دائما الأمريكيون والفرنسيون فى الماضى - وكما امتنع السوفييت عن فعل ذلك.. والتطبيق العملى كذلك يؤدى فقط إلى المتاعب.

ففى كل حالة، كان السوفييت سيحاولن اغتنام كل فرصة للسيطره على ساحه اللعب لصالحهم. وفى واشنطن، قاموا باختيار موقع مميز لسفارتهم الجديده على تل يُطل ويكشف العاصمة - موقع يساعدهم على القيام بنشاطهم فى مجال جمع المعلومات إلكترونيا. وفى موسكو، عندما كان يتم بناء سفارة أمريكية جديده فى نفس الوقت فى بدايه الثمانينات، اختتم السوفييت الفرصة وملأوا المكان بأجهزه التصنت السمعى الإلكترونيه الخاصه بهم.

والأكثر من ذلك، أنه لايجب علينا أن نسعد بالافتراض الذى يشير إلى أن مصادرنا يمكن أن تكون أكثر فائده إذا طبقت فى أى مكان آخر بعد إزاحة التهديد السوفيتى. ولكن المخابرات السوفيتيه، المخابرات العسكريه مستمرتان فى العمل فى فرنسا، بالاضافه إلى عملهما فى الإمبراطوريه السوفيتيه ككل. وفى الوقت الذى نأمل فيه أن تقل قوتها فى المستقبل، وهذه ليست القضيه الآن فى الوقت الحاضر، لا يجب علينا أن نخفض عدد مراقبينا.

ومازال هناك أشخاص من المخابرات السوفيتيه فى باريس، مارسيليا، وليون (حيث افتتحت منظمه البوليس الدولى، الإنتربول، مؤخراً مقر القيادة العالمى الجديد)، وفى مناطق أخرى. ويجب علينا أن نستمر فى استخدام مواردنا

لمراقبة عملاء الأعداء باستمرار فى كل قطاع يعمل فى الخفاء، خاصة عملاء أعدائنا الجدد. ولقد فشلت مراراً فى فهم «لماذا يجب على السوفييت أن يكون لهم مراقبون فى بلدنا يزيد عددهم أربع أو خمس مرات عن عدد مراقبيننا فى بلادهم؟ المساواة يجب أن تكون القاعدة. ولقد استطعنا منذ فترة تحديد نسبه ملائمة لبعض ديكتاتوريات العالم الثالث. ففى بلادهم تكون تحت المراقبة الكلية، لايمكنك أن تتحرك خطوه بدون أن تكون مراقباً. ولاشئ من هذا قد تغير فعلياً فى الاتحاد السوفيتى ولقد زاد العدد أكثر فى بعض العواصم منذ حرب الخليج الفارسي ولايزال الدبلوماسيون أو الجواسيس يتحركون بحريه فى كل مكان يريدونه فى فرنسا. ويتمتع عملاء المخابرات السوفيتيه والمخابرات العسكريه بحياة رائعة. فهم يمكنهم زيارة أى شخص يريدونه، وهم يمكنهم السفر إلى أى مكان يريدونه (مع بعض قيود محدودة جداً). وكل هذا بدون رقابة فعلية أو إشراف. وقد بلغ عدد المتواجدين فى مدينه مثل باريس الذروة فى السبعينات وبدايه الثمانينات، فقد كان مئات من مسئولى وعملاء المخابرات من الكتله الشرقيه، ولاداعى لذكر المئات الذين ينتمون لديكتاتوريات العالم الثالث، يعملون فى باريس كدبلوماسيين، وأصبح من الصعب جداً تتبعهم جميعاً. وفى موسكو، هناك عدد قليل من السيارات ولذلك يمكن تتبع أى شخص بسهولة. ولكن حاول ذلك فى لندن، باريس أو نيويورك حيث تجعل أزمة المرور هذا الأمر مستحيلاً.

وعملأؤنا، ودبلوماسيونا أيضاً، لم يكن يسمح لهم بالرحيل من موسكو بدون إذن خاص. فكان هناك نقاط لضباط القوات المسلحة النظامية كل عشرين أو ثلاثين ميلاً على الطرق السريعه الرئيسيه تقوم بالتفتيش على الأجانب.

وإذا لم نصل إلى أحد نقاط التفتيش هذه فى وقت معقول بعد أن نترك النقطة السابقة، كان يتم إرسال بعض الضباط ليجثوا عنا. وهم لا يقومون أبداً بمساعدتنا فى تغيير اطار السيارة.

وفى أحد أيام صيف سنة ١٩٧٦ قابلت وزير الخارجية الفرنسى فى احدى الحفلات الرسمية فى باريس، والذي قدمنى إلى وزير الخارجية للولايات المتحدة. ومع أننا نعرف بعضنا منذ أعوام، إلا أننا نادرا ماكان لنا لقاء مباشر خلال عملى فى المخابرات الفرنسية. وقد كانت معلوماتى تمر إلى أيدي الرئيس مباشرة، فى حين أن الاعتمادات الماليه للجهاز كانت تمر على مكتب رئيس الوزراء. وكانت الخارجية الفرنسية والموازن لوزارة الخارجية الأمريكيه، والتي يرأسها وزير الخارجية مجرى آخر للمعلومات والتقارير. وكان ضباط الجهاز الخارجى، أو الدبلوماسيون، يقومون بالتحقيق عن مدى صحة بوعيه المعلومات التى يقدمها عملاء المخابرات التابعون لى والذين يقدمونها بصورة منفصله للحكومة.

وقد بدأ وزير الخارجية حديثه قائلا: «لدى بعض الأخبار السارة، فلقد رأيت فى النوم بعض أصدقائنا الروس فى موسكو، وسوف يسمح لنا بفتح قنصليه عامه فى «ليننجراد». وسوف يفعلون نفس الشئ فى مارسيليا.

قلت «ياإلهى. هل يمكن أن أسأل عن عدد الأشخاص الذين سيعملون فى مارسيليا؟. رد قائلا «حوالى خمسين».

قلت «وماذا عن عددنا فى ليننجراد».

قال «خمسة» إذا وجدنا عاملين مدنيين مستعدين للذهاب الى ليننجراد».

فأسرعت مباشرة لرؤية الرئيس وأطلعته على ما أعتبرت أنه ليس خبراً جيداً ولكن أسوأ خبر ممكن سماعه. ونتيجة لذلك، تم تخفيض العدد المسموح به للعاملين السوفييت في القنصلية السوفيتية العامة في مارسيليا.

ومع ذلك، بعد مرور عدة شهور، عندما بدأ مسئولو الأمن الفرنسيون العملية الروتينية الخاصة بالتقصي عن الروس العاملين في مارسيليا، وجدنا أن نصف عدد موظفي قنصليتهم جواسيس محترفون يعملون من أجل واحدة من منظمات الجاسوسية السوفيتية أو الأخرى. فلماذا يمكن أن يكون السوفييت مهتمين لهذه الدرجة بهذه المنطقة من فرنسا؟ والسبب، بالتأكيد، أنها الميناء الرئيسي لفرنسا وإحدى المنشآت البحرية على البحر الأبيض وكانت الغواصات النووية الفرنسية التي تستقر في طولون وما زالت هي التي تجنب اهتمام العسكريين السوفييت بصورة مكثفه - ليس فقط بسبب وصول أورميل هذه السفن في حد ذاتها والتي أصبح من السهل مراقبتها حالياً عن طريق الأقمار الصناعية والوسائل الالكترونية ولكن بسبب الحاجة إلى معلومات عن الاسطول البحري أيضاً. خطط الانتشار وحالة التأهب في الدولة والنوايا العسكرية يمكن الكشف عنها فقط عن طريق الاتصال الشخصي بين عملاء المخابرات السوفيتية وبين ملاحى البحرية الفرنسية.

ولكن لا يجب علينا أن ننسى أيضاً أنه قرب منطقته مارسيليا، في الكوت دازور هناك عدد يتزايد من معاهد الأبحاث الفرنسية الخاصة والهامة. وشركة وعدد من الشركات الدولية الأخرى لها معامل أبحاث هناك. وقد تأكدت أسوأ مخاوفي بعد مرور عدة أشهر من فتح السوفييت لقنصليتهم في مارسيليا. فقد قام رئيس شركه في فرنسا بزيارتي في مكتبى في باريس.

وقد بدأ كلامه بجديده قائلاً « لدى مشكلة، وبما أننى أعرفك، فلقد سمحت
لنفسى أن أحضر لرؤيتك. لقد وقع أحد مهندسى الأبحاث العاملين فى مركز
لاجود (وهو مركز الأبحاث الرئيسى لشركة فى جنوب فرنسا) فى غرام فتاه
من القنصليه السوفيتيه العامة فى مارسيليا - وأنا أتساءل لماذا ؟ »

وكان ردى « لماذا لا يثير هذا دهشتى؟ »، وشرحت أصل فكرة تبادل
القنصليات فى مارسيليا وليننجراد، بالاضافه إلى طبيعه الوجود السوفيتى
الجديد فى «الكوت دازور». وبالتأكيد، ان ليننجراد لها نفس الأهمية لنا كمركز
استماع لجهاز المخابرات الخاص بنا. فلماذا إذن هذا التناقض الكبير فى مستوى
عدد العاملين فى الجانبين؟ »

أولاً:، ليس لدينا العدد الكافى من الاشخاص المدنيين والعسكريين. والأكثر
من ذلك أن الجهاز الدبلوماسى الفرنسى ينفر من تقديم خدمات خاصة
بتوصيل المأكولات وتوفير المسكن والمساعدات الرئيسيه للاشخاص
التابعين للمخابرات.

وهناك شعور عميق ومتبادل بعدم الثقه بين أعضاء الجهاز الدبلوماسى
الفرنسى وبين جهاز المخابرات يفوق بكثير أى انقسامات يمكن أن تكون فى
مثيله الأمريكى والبريطانى فهناك سوء فهم رئيسى لعملنا، حتى بين
الدبلوماسيين المحترفين، الذين يجب أن يكون لديهم دراية أفضل بكيفية
قيامنا بعملنا. والدبلوماسيون يعملون فى ضوء النهار، أما عملاء المخابرات
فهم يعملون من وراء ستار كثيف.

وبالنسبة للفرنسيين، فإن زملاءنا كانوا عادة ما يجدون صعوبة فى التفريق

بين وظيفتنا كضباط مخبرات وبين عمل الاشخاص من العسكريين الفرنسيين. بدون سؤال، أغلب الأشخاص الذين كانوا يقومون بعملياتنا جاءوا من وحدات الجيش النظامى وهذا هو الحال بالنسبة لبعض المنظمات الأخرى الخاصة بالمخابرات ولهذا السبب، فليس من الممكن تجنب وجود بعض سوء التفاهم.

ولكن عادة ما يتزايد حدة سوء التفاهم وينقلب إلى كراهية وشكوك واضحة. كيف إذن تختلف عملياتنا عن عمل هؤلاء الجنود أو الدبلوماسيين؟ أن من صميم عمل الجيش أن يعرف مدى قوة جيوش حلف وارسو. ولكن معرفه ما يفكر فيه ضباطهم، ومعرفة اخلاقياتهم. ودوافعهم. وحالتهم النفسية تبعد أكثر الامور صعوبة، ولكنه هدف مساو فى الحيوية لمعرفة قوة جيشهم. ولهذا السبب فإن ضرورة اكتشاف كيفية تحوك الإرهابيين تجاه اهدافهم، أو كيفية اختبارهم لأهدافهم، ونقاط التسلل، وأسلحتهم وحلفائهم يمكن أن يمنع أكثر النتائج سوءا والتي توصف بالكارثة. والمعلومات التى من هذا النوع تكون ضرورية لمنع تجارة المواد المخدرة، والتجسس الصناعى، والتهديدات المميتة الأخرى التى تهدد بقاءنا والتي تعد فى تزايد مستمر فى الوقت الذى يقل فيه خطورة «حلف وارسو».

وخلال الفترة التى كنت فيها رئيسا للمخابرات الفرنسية، كان من الواضح أن الانذار المبكر الذى يسبق أى تحرك لبعض الوحدات العسكرية الرئيسية حلف وارسو، أو رفع حاله التأهب، وإن كان يسبقه بعدة أسابيع أو عدة أيام أو حتى عدة ساعات، يمكن أن يثبت أنه شىء ذو أهمية قصوى بالنسبة للدفاع أوروبا الغربية. وقد أولينا اهتماماً كبيراً ، على سبيل المثال، لخطط الجيش الميكانيكى العشرين للحرس «وكان الروس يقومون فى بعض الحالات بإطلاق

أسماء القياصرة على الوحدات». وساحة عمليات هذه المجموعة كانت تنحصر بصفة خاصة في شرق برلين، وكان من الممكن أن تكون هذه الوحدة إحدى الوحدات الهجومية الخاطفه إذا حدث غزو من قبل قوات «حلف وارسو» وإذا تم اعطاؤهم أمرا بالتحرك، كان من المحتمل أن يكونوا وحدة تعبر الستار الحديدي في طريقها تجاه منطقته برست Brest وإلى القناة.

وفي أحد الايام تلقيت مكالمة تليفونية في منزلي. وقد كان إلى جانب فراشي هاتفان. أحدهما الخط العادي، والآخر هو الخط المباشر مع ضابط الخدمة في المكتب الرئيسي للمخابرات وكثيرا ما كان التليفون الثاني يرن في وقت متأخر من الليل.

وهذه المرة كان يبدو أن التقرير ينذر بالسوء بشكل ما. وقال أحد مساعدي بشفرة سريه موجزه « هناك شىء إضافي حدث منذ ظهيرة هذا اليوم في هذا العمل الغريب ».

وقد كان ذلك في اكتوبر سنه ١٩٧٣ ، عندما قامت القوات المصرية والسورية بشن هجوم بمفردهم ضد إسرائيل، وبصورة تبشر بكارثه، تحولت الحرب لصالح العرب. وبعد الظهيرة قال لى مدير المخابرات : « ان هذا شىء غريب، ولكن فرقه الباراشوت السوفيتية لا ترو. ولا تستطيع الوصول إليها على أى جهاز من أجهزة المراقبة الخاصة بنا ».

وهذه الوحدة كانت من الفرق الممتازة فى الجيش الاحمر، وتتمركز فى مكان جنوب موسكو. وقد كنا معتادين على الاستماع لها بصورة متقطعة. والآن اختفت بصورة مفاجئة ويبدو أنها تلتزم الصمت.

بعد أن استمعت لتقارير جميع المراقبين أصدرت له أمراً « اطلعنى أولاً بأول الحقائق الجارية » وسنستند إليها، ثم نسأل حلفاءنا ».

واتخذت من مكتبى مقراً للاقامة وكنت أحصل على موجز الاخبار على فترات منفصلة.

وفى كل مرة كان التقرير مشابه لسابقه « مازالت لا ترو » الفرقة السوفيتيه كلها اختفت وخلال الليل.. أصبح الموقف معقداً بصورة متزايدة. بدأت التقارير فى الوصول وتشير إلى أن طائرات ذات حمولة ثقيله تطير جنوباً فوق تركيا، حيث يوجد تسهيلات وأجهزة مراقبة دقيقة تعمل بجديّة فائقة للولايات المتحدة.

ويتجميع جميع هذه العناصر، واستنتجت بسرعة أن أسوأ الامور أصبح من المحتمل حدوثه. وعدت إلى رئيس مساعدى وقلت له: « حسناً، هذا هو الامر. إنهم سوف يتدخلون فى الشرق الأوسط.

وانتقل خبير الطيران التابع لى إلى الخرائط والرسومات التى قمنا بفرشها على مائدة المؤتمرات فى مكتبى. واستغرقنا فى التفكير حول الاوراق، وكنا نحاول الوصول إلى عدد ساعات الطيران التى استغرقها اختفاء فرقة الباراشوت السوفيتيه واحتمال وصولها إلى مجال أحد الاهداف المحتملة فى الشرق الأوسط - بكلمه أخرى، حتى يمكن أن يكون لدينا تأكيد حاسم، مصحوب بكارثة، بأن الروس قد وصلوا. وقد كان هناك عدة أهداف أساسية محتملة، من ضمنها مرتفعات الجولان، حيث تم تدمير واهلاك الجزء الأعظم من الجيش السورى ومعداته السوفيتيه الصنع على يد القوات الجوية الإسرائيلية

وهناك أيضا سيناء ، حيث قام الإسرائيليون بتثبيت القوات المسلحة المصرية ككل.

ولقد كنت محاطا بكبار ضباط المخابرات الفرنسية والمتخصصين المدنيين. كل منهم أعطاني موجزا من أخبارهم، ثم تركزت جميع العيون على. وعند هذه النقطة، سألت نفسى السؤال الحساس، كمدير عام للجهاز السرى، هل يجب أن أحادث رئيس الجمهورية على الهاتف.

وقررت، بغريزتى أو بالحاسة السادسة، بأنه لا يجب أن أوقظ الرئيس . وفى النهاية ثبت أن الانذار لم يكن له أساس. وبعد عدة ساعات، تم التقاط أصوات الفرقة السوفيتية ثانيا على الموجة المعتادة. واتضح أنها لم تترك موقعها أبدا. ولم نعرف أى تفسير لما حدث. ولكن هذه الحادثة توضح القاعدة الأساسية لعمل المخابرات وهى الحاجة إلى تجميع العديد من العناصر الممكنة بالاضافة إلى أى كم ممكن من المعلومات. وفى التحليل النهائى، يتوقف الأمر على بديهة الشخص، والشعور الخاص الذى تولده سنوات الخبرة، لاتخاذ القرار النهائى. وعلى هذا القرار يتعلق مصير أمة.

وهناك العديد من الدروس التى يمكن استنباطها من هذه الحادثة. أولا، واحتمال أنه أكثر الدروس أهمية، يتعلق بشكل العلاقة بين المدير العام للمخابرات الفرنسية ورئيس الجمهورية فخلال هذا المسار وصلنا إلى نقطة معينة بدا لنا خلالها أننا على حافة أزمة دولية بسبب تدخل السوفييت فى الشرق الأوسط. وأنا لدى خط مباشر مع الرئيس على ركن مكتبى. ولكن هل كان على أن أزعجه، ولم يحدث شىء، عندئذ كانت مصداقيتى لديه ستتعرض

للضرب بشدة. والعملية الوحيدة الرابعة لمدير المخابرات لدى رئيسه، رئيس الجمهورية هي مصداقيته. وخاصة عندما لا يكون هناك أى فعل أمر الرئيس بالقيام به، فإن درجة التسامح تكون صفراً للطفل الصغير الذى أبكى الذئب ويمكن السماح له بإنذار خاطئ. ولكن الإنذار الثانى يمثل مشكلة. وفى المرة الثالثة عندما يحدث شئ حقيقى، فإن رد الفعل يكون «ها قد بدأنا ثانياً». وأنت فى هذا العمل وحيد. فالأفراد الذين معك فى طاقم موظفيك، والفنيين، والمتخصصين يمكن أن يمدوك بمعلومات كاملة ومفصلة من وجهة نظر المخابرات. ولكن ليس لهم سلطة اتخاذ القرار. وقرارك له المتخصص يعد مصدر المعلومات الجوهرية والنهائية. وهذا ما تحتاج له أغلب الدول الأوربية حيث لا يتم اتخاذ القرار عن طريق لجنة ما، كما هو الحال عادة فى الولايات المتحدة، ولكن يتم اتخاذ القرار عن طريق المسئولين المنعزلين الذين يعملون بنصائح الخبراء الذين عينوهم ووثقوا بهم.

وهذا يؤدى إلى الدرس الرئيسى الثانى والمستفاد من قصة الفرقة السوفيتية.

وهو يتعلق بمشكلة تقسيم وترجمة معلومات المخابرات غير المصقولة، وكيفيه استخدامها أو التصرف بصددتها. وبعد أن أصبحت وسائلنا لاصطياد المعلومات أكثر تحسناً وتتسم بأنها لحظية أى أن لها توقيتاً معيناً، فإن الاعداء أيضاً أصبح أكثر مراوغة ذلك يجب أن نصبح أكثر إنجازاً ودقة فى التقسيم والتصرف. وهذا يعنى العودة إلى القاعدة الرئيسيه الخاصة بالاستنتاج والمحلل الخبير المتمرس فى الأحداث العالمية هو القادر على القيام بذلك.

وهذا يعنى سرعة تقييم معلومات المخابرات فى أقصر وقت، وتقييم المحيط والخلفيه المتعلقة بالموقف وتفسير فجواتها وتقييم مغزاها، وفى النهاية أن تتوافر القدرة على العمل بسهولة وثقه مع الاستنتاجات التى تم التوصل لها من خلال هذه العملية السابقة.

وللبريطانيين عرف عظيم فى مجال التحليل. ويقوم الجهاز الجوى الخاص (SAS) والجهاز الخاص بالسفن (SAS) بتنفيذ العمليات البريطانية، ولكنهم إذا كانوا يحتاجون إلى نقل شيء، كان عليهم أن يذهبوا إلى القوات الجوية الملكية، وإذا احتاجوا إلى مزيد من الأشخاص لتعزيز وحدات العمليات الخاصة بهم، كان عليهم الذهاب إلى الجيش النظامى أو البحرية، وقبعا تهم فى أيديهم وكرئيس (SDECE) المخابرات الفرنسية، كنت الرئيس الوحيد لإحدى منظمات المخابرات الغربية الذى له سلطة كاملة على وحدات العمليات الخاصة والتى تشمل الرجال، الطائرات، والمعلومات حيث كنت أجمع هذه العناصر معا بسهولة وثقة، ولايهم نوعيه أو طبيعة العملية. ومثل هذه الارتباطات كانت تتطلب حقيقة وجود وحدات مترابطة.

فمثلا عند ما تنزل فى قطاع ما من الأدغال، وإذا كان الشخصان الصغيران اللذان وصلا بعجلاتهما البخارية فى منتصف الليل ومعهما الأنوار اللازمة لإرشادك من نفس الوحدة التى تنتمى إليها، وكنت تأكل معهما نفس الشيء كل يوم، فإنك ستثق فيهما كلياً. والسبب أنهما فى المرة القادمة سيكونان فى نفس موقفك وستكون أنت الشخص الذى معه الأضواء الكاشفة التى سترشدهما على الأرض. هذه هى نوعيه العمليات الخاصة التى نتفوق فيها. وجهاز

عمليات الأمن القومي الأمريكي لديه نظام رفيع المستوى خاص باعتراض المعلومات الاليكترونية ، وهذا يساعد على جمع معلومات متباينه. وما يفرق بين الأمريكيين عن كل من البريطانيين والفرنسيين أن جهاز المخابرات الخاص بالولايات المتحدة يقوم بجمع كثير جدا من المعلومات ويتصرفون تجاهها بصورة غير نظامية حيث يؤدي ذلك إلى فقدان قدرة البريطانيين على بلورة معنى المعلومات وتحليل مغزاها أو قدرة الفرنسيين على اتخاذ موقف سريع وفعال.

وبالتأكيد فى النهاية كل ما يستطيع أن يفعله أى رئيس للمخابرات هو تقديم أفضل تقييم للموقف إلى رئيس الدولة الذى وحده لديه سلطة التصرف وخلال الحرب العالمية الثانية، فى إطار تعاملاتى مع مسئول الخلفاء فى فرساي، سمعت إحدى القصص الغريبة عن « تشرشل » التى توضح مدى ضرورة وأهمية اتخاذ القرارات فى المواقف الخطيرة على أساس أفضل المعلومات الممكنة.

وقد قرر البريطانيون فى ذلك الوقت، فى أوج الحرب البريطانية - الحرب الجوية التى شنها الألمان على إنجلترا، أن يحلوا شفرة الرسائل الألمانية. والتوصل إلى حل هذه الشفرة، والتى من المحتمل كانت من أحد الأسرار الهامة خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تمكننا من قراءة الرسائل التى تحمل أدق أسرار العمليات الألمانية خلال الغارات الجوية، وهذا كان له فائدة عظيمة لطيارى الحلفاء خلال القتال الجوى ضد النازى. وفى أحد الأيام، أطلع قائد القوات الجوية الملكية (RAF) تشرشل على أخبار صاعقة .

قال له « سيدى رئيس الوزراء ، لقد سمعنا من خلال شفراتهم أنهم

سوف يقومون بضربة خاطفة على إحدى المدن البريطانية « وكان عليه أن يبلغ تشرشل.

سأله تشرشل « أى مدينة أيها المارشال؟ »

رد « سيدى رئيس الوزراء، لست أدري، ولكنى سأعرف خلال أيام قليلة».

وخلال أيام عاد ثانيا وأقر تشرشل بأنها مدينه كوڤنتري Covenry «.

« سوف يقومون باحتلال كوڤنتري.ماذا يجب أن نفعل يا رئيس الوزراء؟

إذا قمنا بترحيل مواطنى كوڤنتري. فإنهم سوف يغيرون الشفهر. وسنكون

كالعمى والصمم فى المستقبل».

وتشرشل لم يكن لديه اعتراض. ولكن المقربين له كانوا يعتقدون أنه أحد

أصعب القرارات، والأقل شيوعا التى اتخذها تشرشل أثناء الحرب. فقد قال

ببساطة « لن نفعل شيئا ».

وفى ليلة ١٤-١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ قامت القوات الألمانية بتدمير

المدينة، وحولوها إلى جحيم حقيقى. ويمثل قرار تشرشل هذا الاستخدام النهائى

للمعلومات. بمعنى آخر معرفة ما سيحدث بدقة- وأن تتوافر القوة المناسبة

للتصرف أو عدم التصرف على الإطلاق.

وأى دولة تريد أن تكون ذات قوة يحسب حسابها، تكون فى حاجة أولا

وقبل أى شىء إلى قيادة وطنية يمكن الثقة فى قوتها وقدرتها على صنع القرار

حتى تستطيع فرض سياستها الدوليه والداخلية بما يتماشى مع قدرها . ويجب

على الشعب أن يكون لديه الدافع والرغبة فى البقاء كقوة فى الصفوف الأولى

لا يمكن أن تتخلى عن مسؤولياتها.

وإحدى أدوات مثل هذه القوى يجب أن يكون جهاز الاستخبارات المضادة والذي يكون مستعدا لمواجهة أى تهديد. وكان أول لقاء لى فى واشنطن مع « ادجار هوفر » تم سنة ١٩٧٠ ، بعد أن توليت منصبى بقليل، وخلال نفس الرحلة التى التقيت فيها د « هلمز وأنجلتون ».

ومع أنه خدم كرئيس للجهاز الأمريكى الموازى لـ (DST) الخاص بنا مفضلا ذلك على (SDECE) إلا أن « هوفر » كانت له سمعة بأنه « وحش مقدس » فى مواجهة الإرهاب. ولذلك قمت بتجريب إحدى القصص عليه والتى استخدمتها فيما بعد وكان لها أثر كبير مع كل من الرئيس بومبيدو ووجيسكار دستان.

وكنا وقتها نجلس فى مكتب هوفر الهادئ والأنيق فى المبنى الحراينتى الذى يضم المقر الرئيسى لـ FBI فى واشنطن وكنت أجلس على مقعد ومعى فنجان قهوة وطرحت عليه الموقف الافتراضى التالى.

دعنا نعترض أنك ذهبت إلى جزء منعزل فى قلب فرنسا وحدث هناك انفجار وعندما حضر البوليس لرؤيه ما حدث ، ولم يبق شىء ولا حتى فرخة على مدى ألف أكر ولهذا قاموا باستدعاء خبراء الذرة من باريس وأكدوا أن ذلك كان ما كنت تخشاه، جهاز نووى صغير. لأ يخصك . وليس قنبلة سوقيتية ولكن بعد مرور عدة ساعات، وقبل تسرب الأخبار، جاءت مكالمة لرئيس الجمهورية. وقام الصوت المتحدث بتحديد إسم إحدى المنظمات الثورية غير المعروفة كمسألة عن الحادث».

قال « ان هذا يعد عينه صغيره لما يمكن أن نفعله. فى منطقة ما فى باريس، قمنا بإخفاء جهاز قوته تزيد على الجهاز الذى حكيت عنه مليون مرة. وكانت

شروطنا كالتالى: أن تفرق الاسطول الفرنسى فى منتصف المحيط الأطلنطى.
أن تقوم بتسليم كل الذهب الموجود فى بنك فرنسا. وغدا بعد الظهر تقوم
بالذهاب إلى « قصر الإليزيه » وأنت عار ولا يسترك غير ريشه» ماذا كان
الرئيس سيفعل عندئذ؟ « هذا يمكن أن يحدث ثم رد ببساطة» هذا ما يحتاجنا
من أجله». وضحكت فقد كان رد شرطى محنك، واثق بصفه أساسية من قدرات
البوليس أو منظمة المخابرات التى انشأها لترتفع إلى مستوى المسئولية فى أى
مناسبة وقد كان يعتقد، أنه هو ومنظمتة مساوون لأى تهديد داخلى. وكان
« هوفر » على حق: فمنظمتة كانت من نفس نوعيه المنظمات التى قام
الفرنسيون باقامتها، قد تزيد عنها أو تقل. ولكن معروف أن FBI كانت
دائما فى حاجة لمزيد من الرجال، مزيد من المعدات ومزيد من الدعم المالى وكانت
تحصل عليه ووكالات المخابرات اليوم، سواء كانت محلية أو دولية، فى حاجة
إلى وسائل تجعلها تستجيب بمرونة لكل تهديد- وتجمع المعلومات، وتقوم
بتفسيرها، وأن تقوم بالتصرف إذا كان ذلك ضرورياً. إننا نلعب فى حقل
العمليات وحقل الأحلام.

وحتى تكون فرنسا، وحتى الولايات المتحدة، قوة عالية يجب عليها أن
تصل إلى مستوى العالميه وذلك بتوسيع مجال قدراتها السياسية، الدبلوماسية
والعسكرية. فالكلمات وحدها لا يمكنها أن تشكل قوة من الطبقة الأولى.

والقدرة على التأثير بفعاليه على الموقف- حتى مع ملاحظة أن الولايات
المتحدة أو فرنسا قادرتان على مواجهة هذا الموقف- أمر ضرورى لمساندة
المبادرات السياسية والقرارات الدبلوماسية. وهذا المبدأ صحيح بصورة مزدوجة

فى مصر الدمار والحرب العالميه الرابعه، عندما لا يفهم الإرهابيون والحكومات التى أرسلتهم فى هذه المهام المميتة إلا مفهوم توقيع عقوبه ما بسرعة ويدونه رحمه.

وفى بعض الأحيان، تمر لحظات لا يمكن معها استخدام ورقة اللعب الدبلوماسى أكثر من ذلك، هنا يجب أن يفسح اسلوب المخادعة الطريق لاتخاذ موقف. وبدون إعلان حرب حقيقى، يجب على الدولة أن تكون قادرة على القيام بعدة عمليات فى الخارج- أن تكون قادرة على مساعدة شعب يتعرض للخطر أو انقاذ ومساعدة أبنائها المغتربين أو الرهائن المحتجزين على غير رغبتهم أو إجراء جراحة عاجلة لاستئصال ورم سرطانى يسمم حليفاً يتم الاعتماد عليه. وتحل مهمة وحدات الجيش التقليدى فى وقت محدد، وتتدخل فى غزو الإقليم، والسيطرة عليه. وعملياتنا، التى يطلق عليها رد الفعل الجراحى، يجب أن تتم ليلاً ومع حلول الفجر يجب أن تكون أمراً واقعياً. وهذه الضريرة الجراحية طبقاً لمصطلحات الجيش والأكثر من ذلك، أن فرق الهجوم الجراحى هذه هى أيضاً ال LCBM لأكثر معارضينا خطورة فى الحرب العالمية الرابعة، وهم ليس لديهم لا الوسيلة ولا الرغبة على مواجهة جيش ضخم، ومنشآت عسكرية ضخمة فى جزر منعزلة، وسفن ضخمة قادرة على نقل العتاد العسكرى الثقيل وليس لديهم حاجة فى الحصول على أى شىء مما سبق. والخلايا الإرهابية الصغيرة التى تخطط وتنفذ أكثر الأفعال هلاكا، والتى تشير الرعب والخوف، لهم نفس التأثير السابق- فهم يضعفون معنوياتنا ويضعفون رغبتنا فى المقاومة. ومثلما شجعنا الهبوط فى نورماندى الاستيلاء

على « Lwo jino » على الاستمرار فى القتال، فسوف تكون فى حاجة إلى الانتصار فى الحرب العالمية الرابعة ضد هذا الشكل الجديد من الأعداء وهذا إذا توافرت لنا الرغبة فى النص. وإذا كان علينا أن نقاتلهم بنفس أسلوبهم، فيجب أن يكون لدينا فريق ممتاز لمنافسة قدراتهم بل التقدم عليها وأن يتوافر لنا قوات خاصة والتي تعد الأسلحة النووية فى عالم المخابرات النشطة.

وقد كانت هناك أوقات، قبل قيامى بتولى العمل كمدير عام، قام فيها الجهاز بشن عمليات خاطئه من الناحية الاخلاقية، بل ويحرمها القانون. وبالتأكيد أن هذه السقطات لم تكن مقيدة لفرنسا. وقد تم من قبل اتهام المخابرات المركزية الأمريكية باستخدام بعض رجال المافيا. وحتى رئيس المخابرات السابق لى كان عادة ما يستأجر القتلة المجرمين، وقاطعى الطرق، لتنظيم الجرائم، والعصابات، والقوادين. وفى مفهومه لم يكن هناك شىء يمكن أن يطلق عليه خطأ فاضح بالنسبة لجهاز الأمن.

وأنا أرى أن القاتل المأجور أو الهجام يمثلون خطراً عظيماً وعادة ما يكون غير فعالين.

والسبب أن اهتمامه الأول هو أجره، وليس المهمة التى سيقوم بها. وهو يقوم بأفعال غير قانونية من أجل الربح. والأكثر من ذلك، أن من أجل مضاعفة ربحه، قد يقوم بمحاولة ابتزاز أو الاغتصاب، وعند هذه النقطة سيكون من الضروري تصفيته جسدياً أى قتله، وبذلك ندخل فى دائرة وحشية أسوأ من عدم الاحتراف، وتتم بالاجرام إلى أبعد حد والمرسوم الذى أرسيته كان مبسطاً: اقبلو تعيين هؤلاء الذين يتصفون بالشرف، بحسن التدريب، والذين يتسمون بسرعة الحركة فقط.

وكل منهم يجب أن يعمل بدافع الوطنية وخدمة الدولة لأن الأفراد العاملين في الجهاز السري يعدون في حرب دائمة.

وقد قام رئيس المخابرات السرية الإسرائيلية في إحدى المرات بإضفاء مجاملة عظيمه لى.

وتعد الموساد من أكثر أجهزة المخابرات احترافا والتزاما في العالم. وقد قام رئيسها بزيارتي في مكتبي مرة واحدة في توريل باراكس Tawralles Bareacla في باريس. وقد بدأ كلامه قائلا: سيدي المدير العام، أنت، ونحن معك، الأشخاص القادرين على تنفيذ إحدى الهجمات من نفس نوعية عملية «عنتيبي» وانهاؤها على أكمل وجه.

ولسوء حظك، فإن هناك شيئين ينقصانك- طائرات ذات مدى بعيد والشجاعة السياسية والالتزام من جانب حكومتكم. «

ولم أعارض على كلامه في ردي وقلت « بالنسبة للاقتراح الأول، ليس من السهل تنفيذه، وبالنسبة للثاني هناك طرق ووسائل للوصول إليه».

وفي أيامى بالوظيفة، قمنا بتنفيذ عدد كبير من العمليات على نفس نمط عملية غارة «عنتيبي» والتي كانت كلها ناجحة- والدليل على نجاحها أن العالم لم يسمع أبدا كلمة عن هذه العمليات. وقد كنا نقوم بثلاث أو أربع عمليات في السنة- أى أكثر من أربعين عملية خلال عملى كرئيس للمخابرات الفرنسية. ولم تسير واحدة منها فى طريق خاطئ أربعين عملية أو أكثر لم يسمع عنها أبدا أى شخص خارج المخابرات والقيادة العليا بالحكومة الفرنسية

وهناك عمليات أخرى قمنا بها بنوع أكثر من الموضوع. وبعض نذكرها فى

هذا العمل ومن بينها الإطاحة بالامبراطور بوكاد Bakadda قائد امبراطورية أفريقيا الوسطى وعملية البوليس فى زائير. وكان لبعض هذه المهام، بالتأكيد، عواقب مأساوية- بأفراد يقتلون أو يجرح عدد من الجهاز الفرنسى وهؤلاء الرجال والنساء يموتون فى سرية ومعهم بطولاتهم التى لا تعرف أمتهم عنها شيئا بالصورة اللاتقة لهم.

ولكن هذا هو ما يدور حوله الجهاز السرى- وليس الجهاز السرى الخاص بجيمس بوند- فهو الجهاز الذى يعمل فى ظلال العالم الحقيقى وفى جهاز SDECE يعد تقليدا لسكوت السمة المميزة والقوية. وقد كان هناك شعور بالتضامن وروح الجماعة وإحساس بالمسئولية وقد برز كل ذلك على مدى أعوام طويلة. ولن أتمكن أبدا من الثناء على مدى الشجاعة الفائقة، ونكران الذات والاخلاص الذى أبداه الأشخاص الذين كان لى شرف العمل معهم وتحت قيادتى لمدة طويلة.

وكل هذا يعود بنا إلى أحد المسؤولين الرئيسيين الذى طرحهما رئيس الموساد. ومن وجهة نظرى، أن الشجاعة السياسية والتزام الحكومة الفرنسية كانا دائما موجودين عندما كنت أحتاجهما.

وبالتأكيد، أن هذا يمكن أن يكون أسهل فى بيئه تنادى بالتدقيق البرلمانى أو الشعبى المحدود لعملياتنا « سواء كانت ناجحة أو فاشلة». وفى مثل هذا المناخ، يمكن لرئيس الدولة ومستشاريه اتخاذ قرار يتعلق بالقيام بإحدى المهام بعد دراسة الوقائع الموضوعية لها باعتبار أنها أداة للسياسة، الدبلوماسية والسياسية العسكرية والتى تدخل جميعا فى مجال فن إدارة شئون الدولة.

ولكن هناك سبباً آخر وعميقاً خاصاً بالقدرة على التصرف بصورة سريعة وبدون اعتراض عندما تتطلب الأحداث اتخاذ حكم أكيد وسريع وقد كان هناك دائماً شعور خفى فى الدوائر السياسية فى فرنسا- وفى أغلب دول أوروبا- بأن أى شىء ضرورى للدفاع عن مصالح الجمهورية يعد مقبولاً ، فى إطار غدة حدود أخلاقية.

ورئيس الجمهورية هو الذى يضع أساس هذه الحدود الأخلاقية والاجابة عنها أيضاً فى النهاية. ومع انتخابه رئيساً، يعطى امتياز الشك وتفويضاً رسمياً لايساءل عليه.

وبهذا المعنى، على الأقل ، يصبح هو السورث المباشر للصولجان ومجد ملوك فرنسا.

ونحن الأوربيين لدينا اصطلاح لجميع هذه الأشياء، كما أشرت. ونطلق عليها «سبب وجود الدولة».

إنه من الصعب على الأمريكى ، يفهم أن أجهزة أى دولة يجب عليها أن تفعل، فى بعض المناسبات، أشياء غير أخلاقية وحتى غير شرعية. وفى بعض الأوقات، مثل هذا القرار يمكن أن يتم اتخاذه فقط من قبل رئيس الجمهورية. ولكن خلال عملى كرئيس للمخابرات الفرنسية، كان عادة ما يترك الأمر لاختيارى الشخصى فيما إذا كنت أتخذ القرار بنفسى أو أن هناك ضرورة لنقل الأمر إلى الرئيس.

على سبيل المثال، لم أكن أستطيع أن أتخذ قراراً منفرداً للتخلص من رئيس دولة ما- ودائماً كان لدينا واحد فى عقلنا. فى مثل هذه الحالة، كنت أذهب إلى

الرئيس وأقول» إننى أنصحك بأن يتم التعامل مع فلان الذى فعل كذا بالطريقة المناسبة .» وكان الأمر يتوقف عندئذ على الرئيس ليقول» لا ، ليس كليا إننى أرفض ذلك» أو ببساطة لا يرد .

وهذه هى الشفرة التى وضعتها مع رؤساء الدوله الثلاث الذين تعاملت معهم. والسكوت على الموافقة وفى إحدى المرات وأنا أناقش هذه المسألة، أخبرت الرئيس ريجان بقصة حول « تاليراند وزير خارجية نابليون والذى من المحتمل أن كان أكثر الرجال دهاء وذكاء فى عصره، فى أوائل القرن التاسع عشر، وقد كان نابغة. وفى خلال عمله مع نابليون، قام البوليس السرى فى تلك الفترة باعتقال، على الجانب الآخر من الحدود البلجيكية، دون إنجيان Englien وعدد من البيت الملكى البريوى الذى كان يدعى حقه فى هرش فرنسا، وعدواً للتاج كما وصفه نابليون وكان الدوق، رجلاً وسيماً جداً وشباب شديد الذكاء، وقد تم القبض عليه أثناء الليل وتم نقله إلى باريس. وكان نابليون يخشى منه لأن كان بوربونى، وكان رجلاً قوياً له أتباع كثيرون ومع وصوله إلى باريس، أخذه البوليس السرى إلى قلعة فينش Vineemer فى أطراف باريس، وقاموا بإعدامه فى الزنزانة أمام فرقة إطلاق نار. وفى اليوم التالى، عندما علم تاليراند» بهذا التصرف، كان ثائراً من شدة الغضب واندفع إلى غرفة نابليون.

وبداً كلامه قائلاً» سيدى إن هذا التصرف أسوأ من الجريمة أنه غلطة».

وما كان يقصده كان شديد الوضوح. ففى هذه المرحلة، التى كان فيها نابليون امبراطوراً، كانت الجريمة السياسية تعبر الخط الرفيع الذى كان يفسر

بالحرب ويتعدى مقتضيات الدولة بل أنه لم يعد من ضمن المعانى الخاصة بأسباب بقاء الدولة وتصبح عندئذ عملية تآثر شخصيه وقد يكون أفضل وصف لهذا المفهوم - أنه خدمه للقانون.

والعلاقة بين أجهزة المخابرات والحكومة مختلفة تماما فى الولايات المتحدة، كما اكتشفت خلال تعاملاتى مع وكالة المخابرات المركزية وقاداتها المختلفين للأسف. فكل رئيس للمخابرات المركزية كان يجبر على النظر من فوق أكتافه على كل بادرة. وكان يجب عليه باستمرار أن يهتم بالعواقب السياسية والدبلوماسية لأى عملية يتولاها.

وبالتأكيد، ان الشعب الأمريكى أكثر حساسية تجاه المشاكل الاخلاقية. ومن المحتمل أن يكون ذلك نتيجة للآلام والانقسام الذين كانوا منه أثناء حرب فيتنام وأغلب الأمريكيين لا يقبلون بصورة عمياء مبدأ أن أى شىء ضرورى للأمن القومى يجب أن يكون مقبولا.

فكل تصرف سياسى، وبالتأكيد أى عملية شبه عسكرية ما يتم فحصها بدقة ومعرفة احتمالات قبولها الجانب الأخلاقى الأمريكى بصورة أدق عنا نحن الأوربيين، وخاصة أننا الفرنسيين لنا تاريخ طويل ملئء بالحروب التى حاربناها على أرضنا. ومن البداية إلى النهاية، يقوم الأمريكيون باستخدام تكتيك يمكن أن يوصف فقط على أن تعريف إحدى اللجان، بأن كل شىء يعد طريقة لحدوث كارثة فى العالم الذى يتحرك سريعا فى عهد الحرب العالمية الرابعة.

إن النظام الحكومى الخاص بالاختبار والموازنه، الذى ينبع بعمق من حياة الشعب الأمريكى منذ وضع القوانين، ومازال يقيد أيدي مديرى جهاز المخابرات المركزى الامريكى .

فإن العمل الرقابى الرسمى الذى يقوم به الكونجرس يجعله يجرى باستمرار إلى « الكابيتول هيل » قبل ، وخلال ، وبعد أى عملية سواء كانت ناجحة أو فاشلة.

ولم أقف أبداً أمام لجنة برلمانية عاصفة على مدى عملى الذى استمر عاماً. ولكنى لا أعارض جوهرياً فكرة الاتصال بالقيادة السياسية لدولتنا. وعندما سألت، أخبرت عدداً من المديرين الأمريكيين بالمخابرات المركزية بأننى لا أرى أى مشكلة فى أن يقوموا بانتقاء بعض أعضاء الكونجرس الذين يمكنهم العمل معهم مباشرة. فبعد مرور العديد من الأعوام فى إدارة عمليات المخابرات فى أى دولة غربية، يواجه مدير المخابرات مخاطر فريدة حيث يجد نفسه بعيداً عن الحقائق الخاصة بالسياسة المحلية وأفراد الشعب الذى هو مكلف بحمايتهم والعمل مع ساسة موثوق فيهم ولهم قدرات عقلية عالية يمكن أن يصبح إلى حد ما اختباراً للحقيقة، أو تصحيحاً لها. وسيرتكبون أخطاء غير مقصودة أقل إذا كان العمل يتسم بروح التعاون، وأعضاء الكونجرس يمكن أن يضيفوا منظورهم السياسى إلى المعلومات ووجهات النظر العسكرية الخاصة بمدير المخابرات المركزية.

وخلال مدة خدمتى، كنت أقابل بعض رجال البرلمان من وقت لآخر - كأصدقاء.

ومؤخراً تم تشكيل لجنة استخبارات تضم الوزراء تحت إشراف مكتب رئيس الوزراء ويرأسها رئيس الوزراء أو ممثل عنه. ولم يكن لهذه اللجنة حق الاعتراض على ما أقوم به، لأنه لم يكن على أن أوضح ما سأقوم به مقدماً فى

أى عمليه استخبارية وقد كنت أتمتع أنا وأغلب المديرين السابقين على والذين جاءوا وأن بعدى بسلطة لا حدود لها. لقد كان لدينا سلطه خيانه الرئيس. وكان لنا سيطرة على الموارد الضخمة للاعتمادات السريه والحقيقة سيطرة على كل الاعتمادات السرية للحكومة الفرنسية، فقد كنا نسيطر على أكثر من النصف ، وهذا على أى حال كان يعطينا الموارد الماليه التى يحصل عليها زملاؤنا الأمريكيون السوفييت أو حتى البريطانيون والألمان. وكانت لدينا أساليبنا الخاصة فقد كنا نستطيع القيام، كقادة للمخابرات، بتزوير جوازات السفر، وتزوير المستندات بجميع أنواعها، ولم نكن نعرف حدوداً لتصرفاتنا.

وكانت لنا وحدة شبه عسكرية خاصة بنا، وقوة جوية خاصة بنا. وعلى مدى ١١ عاماً ، لم يتم تفتيشى فى المطار أو وقفى للتأكد من جواز سفرى. القوة التى كنا نقودها كانت مرهبة بطريقة ما، ولكنها ضرورية ومراقبة كل تصرف لرئيس مخابرات يعنى توريطه فى المتاعب. وتقيد القدرة الدولة على الرد على أكثر التهديدات الأخلاقية المحتمله لها.

الفصل السادس

ذكریات و سياسات

عندما بدأت بحثى عبر المباني والأراضي الخاصة بالمخابرات SDECE والتي توليتها سنة ١٩٧٠، اكتشفت عددا من المباني الإضافية المهمة، وفي أحد الأيام وفي أحد هذه المباني، عرض على رزمة ضخمة من الأوراق بدت وانها مستندات تم تخزينها خلف إحدى الغرف المحكمة، وقد كانت مرصوفة بغير انتظام على أرفف معلقة في أحد الأركان.

وقد سألت مدير الأرشيف، الذي كان يصاحبنى «ما كل هذا»؟

رد ببساطة «أه، انه المحفوظات الألمانية»

لقد كانت المحفوظات النازية الشهيرة «للجستابو وأبو يهر»، والتي تم التحفظ عليها عند تحرير باريس، حيث ان الألمان لم يقرروا أن يأخذوها معهم عندما انسحبوا من باريس سألته «ما الكمية الموجودة»؟

رد قائلا: «عشرة أطنان، قد تزيد أو تنقص»

في أوروبا المحتلة، كانت المخابرات العسكرية، الابويهر، والجستابو، منتشرة في كل مكان والاكثـر من ذلك ان هذه الشبكة الأمنية الألمانية كانت تقوم بنسخ جميع الأوراق بالكربون كل ورقة من نسخة أو سبع نسخ، واحدة تبقى في المكتب المحلي، واخرى ترسل للقائد في باريس، وبالتأكيد ترسل واحدة للقائد العام لل Wehrmacht في فرنسا، وبالتأكيد ترسل نسخة الى برلين، وفي برلين هناك وثائق خاصة بكل شخصية مهمة، ولكل عميل يتم

اختياره من بين أفراد الشعب ، ولكل حادثه محدودة ظهرت فى كل ارض محتله ، وقد كانت هناك وثائق مشابهه فى الأرشيف المركزى فى باريس لكل فرنسا ، كما هو الحال فى عاصمة كل دولة محتلة .

والسوفييت فهموا هذا النظام ، ومن المعتقد ان ستالين اراد ان يذهب الى برلين أولا فى نهاية الحرب لأسباب سياسية ونفسية وقد استجاب الحلفاء لطلبه بسبب ملايين القتلى الذين عانى الروس منهم على يد جيوش النازى الغازية ، ولكن السبب الحقيقى وراء رغبة السوفييت فى دخول برلين أولا هو وضع يدهم على الارشيف المركزى للنازيين - الأرشيف العسكرى والمدنى الألمانى الرئيسى للجستابو والابويهر ، وكان هدفهم هو ابتزاز المتواطئين مع النازيين فى الاراضى التى احتلها النازيون فى أوربا ، وقد استفاد السوفييت بصورة جيدة من هذا الارشيف ، وبالفعل ، وعلى مدى اعوام ، قام السوفييت بالتعرف و الاتصال ببعض الاشخاص الذين وردت اسماءهم فى ملفات النازيين ، وكل ارشيف من هؤلاء كان يعطى فرصة فريدة للسيطرة على اشخاص اصبحوا بعد انتهاء الحرب نموذجاً للاحترام ، وحماة للمجتمع فى أوطانهم ، وكنت فى مناسبات التقى مصادفة مع بعض هؤلاء سيئ الحظ وبسبب تعاونهم السابق مع العدو ، وبسبب وصول الروس لسجلاتهم وإمساكها ضدهم فقد تعرضوا للابتزاز بأسوأ معانيه ، واصبحوا مضطرين للقيام بعدة خدمات لأسيادهم الجدد من السوفييت والذين لم يكونوا يشاركونهم اى تعاطف او مصالح.

فقد كانوا ببساطة يحاولون بشتى الطرق الحفاظ على أسمائهم وسمعتهم ، وكانت المقالات التى يقومون بنشرها فى بعض الصحف ذات النفوذ ، والمقابلات

التي يجرونها في التليفزيون أو الراديو والتي يعبرون فيها عن وجهات نظر معينة كانت كلها نتيجة الابتزاز الذي حول حياتهم الخاصة الى جحيم .

هذه التكتيكات تعتبر مساوية للهجوم الموجد والمباشر لبعض مواطنينا المحترمين من قبل الأعداء، وهو تكتيك جديد وضعه الروس لبدء حرب جديدة، ففي الحقيقة هم أول من أطلق شرارة بدء الحرب العالمية الثالثة في أوروبا.

وعدد قليل جداً في فرنسا يعلم أن المخابرات الفرنسية SDECE لديها أغلب المحفوظات والسجلات الفرنسية. ووزارة العدل لديها بعضها أيضاً، وكذلك الشرطة لديها بعضها وكل من هاتين الوكالتين مازالت تقوم بحراسة النسخ الخاصة بها.

وكذلك تقوم المخابرات الفرنسية بحراسة نسخها وكذلك خليفتها في هذا المجال الـ DGSE وبالمقارنه بالغنيمه الروسية، فان ماملكه يعد البقايا، ولكنه في الحقيقة يُعد مادة متفجره بالنسبه لفرنسا.

وعلى مدى خمسة وعشرين عاماً، لم يجرؤ أحد على الإطلاع عليهم أو حتى إلقاء نظره عليهم. وقد وجدت أن هذا شيء يصعب تصديقه، وقد طلبت منهم تقييماً للمدة التي يمكن أن تستغرقها عملية الإطلاع وتنظيم هذه السجلات. وبعد دراسة استغرقت عدة أيام، عاد إلى مدير المحفوظات التابع لى. وبدأ كلامه قائلاً: «سيدى المدير العام، إن الأمر سيتطلب أشياء. من ضمنها أولاً أنه سيتكلف مبلغاً كبيراً من المال. ثانياً، سيأخذ وقت طويلاً، إلا إذا قمنا بالاستعانه بعدد كبير من الأشخاص للكشف على هذه السجلات. وبالإضافه الى أن إيجاد خبراء للاستفادة من كل ما يمكن أن تحتويه هذه

السجلات لن يكون سهلاً. وسوف نحتاج إلى أشخاص يتحدثون الألمانية بطلاقة ولهم معرفة خاصة عن منظمه الخدمة السرية الألمانية.

وهذا بالتأكيد ضيق مجال البحث. فهناك عدد قليل من الأفراد يتمتعون بهذه الصفات، وأغلبهم من الألمان. وقد قمت بتجميع فريق صغير - مكون من ضابط معروف، كولونيل «U» ؛ وأحد الضباط المساعدين، الى جانب نصف دسته من ضباط الصف، تساندهم عدة سكرتيرات مللمات بعدة لغات وعلى درايه بمثل هذه النوعيه من الوثائق. ومع مثل هذه المجموعة الصغيرة، سوف تستغرق العملية عامين و التكاليف ستكون ضخمة.

وقررت أن أتقدم ببطء وأمرت ببدء عملية استطلاع تمهيدى - وسحب بعض السجلات بصورة عشوائيه من الأرشيف. والنتيجه كانت مؤسفة، بل مؤلمة فكان من السهل اكتشاف أن بعض هذه الوثائق تتعلق بالضرورة ببعض الأفراد الذين مازالوا على قيد الحياة ومازالوا نشطين فى مجال الأعمال.

وظهرت أسماء بعض الأفراد المعروفين، رجال ونساء لهم احترامهم ووضعهم، الذين إدعوا أثناء الحرب أنهم كانوا أعضاء يدينون بالولاء للمقاومة - ويتسمون بروح وطنيه حقه. وبدلاً من كل هذا، كانت الحقيقة تشير إلى أنهم كانوا أعضاء بالجهاز السرى الألمانى، الجستابو. بل قد قاموا بتوقيع بعض إيصالات برواتبهم وقد كانت أجرا لخيانتهم. وقد فكرت فى ذلك الوقت، ولا زلت أعتقد، أن أحد أكثر الأشياء ضرراً للنواب الفرنسيين هو الشقاق والانقسام. وحيث أن الأشخاص الذين تعرفنا عليهم فى هذه السجلات الغربيه مازالوا أحياء، فلم يكن هناك ضرورة للتنقيب فى صناديق القمامة أو إثارة

الأتربة، حتى إذا كان لذلك بعض الآثار الهامة والمفيدة، أو على الأقل دروس عملية للمستقبل. والأكثر من ذلك، إننى لم أنس أبداً مرحلة تهدئه الجراح التى تلت الحرب فى فرنسا. فمع كل الأشياء الرائعة التى تتعلق بتحرير فرنسا، كانت هناك نسبة متساوية من المساوىء والتعذيب وأشياء أسوأ من ذلك.

وقد قمت برؤية بعض هذه السجلات شخصياً، تلك التى جذبت انتباهى بصورة مباشرة. وعرفت بعض الأسماء التى لم يتم النشر عنها - هؤلاء الذين كانوا يعملون إلى جانب النازيين، وهؤلاء الذين إدعوا أنهم من المقاومة، ولكنهم كانوا بدلاً من ذلك - كانوا - من بين المرتدين الجديرين بالإزدراء. وقد تم استنكار قرارى بأن آخذ هذه الأسماء معى إلى قبرى ضراحة.

ولكن إطلاعى على سجلات النازيين أكد لى صحة قرارى الذى عزمت أن أتمسك به - وهو التركيز على التطوير الحالى والمستقبلى للمخابرات الفرنسية بدون الكشف عن الأشياء المرعبة الماضيه. وعمل أى شئ غير ذلك كان يمكن أن يبعدنى عن القضايا الأساسيه - وهى إدارة الحروب الخاصة بالمخابرات حول العالم. والأكثر من ذلك، أنه كان من الممكن أن يجرنى إلى نفس الفضائح الداخليه الفرنسيه التى وقع فى شركها الرئيس السابق لى، بالإضافة إلى إرباك المخابرات الفرنسيه ككل، بل وتدمير فاعليتها كمنظمه تجسس عالمية. ولهذا بقيت العشرة أطنان من الوثائق المتفجرة مهملة فى أحد المخازن المظلمه فى إحدى ضواحي باريس. وتأكدت من أن السكوت على مثل هذه الأشياء، فى الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى لمدة ٢٥ أو ٤٠ عاماً بعد الحدث، يجعل من الصعب تصديقها ولكن يجب أن أشير إلى أنه لا الولايات المتحدة ولا

بريطانيا العظمى عانت من الاحتلال. والمشكلة على أية حال متشابهة.

ووكالة المخابرات المركزية، مثل المخابرات البريطانية والفرنسية، تضع يدها على بعض سجلات الجستابو و«أبو يهر» منذ نهاية الحرب. والأكثر من ذلك، أنه من المؤكد أن الأمريكيين قد حصلوا على مزيد من السجلات، لأنهم بعد نهاية الحرب مباشرة عملوا مع الجنرال الألماني «رينهارد جهلن» **NREINHARD GEHLE** لفترة طويلة، وقد كان من أكبر القادة داخل المخابرات العسكرية الألمانية. وقد كان من المعروف أنه أحضر معه عددا كبيرا من الأشخاص الأكفاء إلى جانب سجلاتهم وذلك أثناء تكوين.

الـ «BUNDESNA CHRICHTEN DIENT»

وهؤلاء الأشخاص كان لديهم خرائط موضحة للطرق التي تؤدي إلى الأشياء المادية التي تم تجميعها على يد الجستابو والأبويهر خلال سير الحرب وخلال الاحتلال الألماني لأوروبا الغربية والشرقية.

وهناك بالتأكيد حالة معروفة لتجريم أحد الأشخاص لعلاقاته مع الجهاز النازي خلال الحرب - وهو كورت فالد هايم . وهو الرجل الذي وصل الى رئاسة جمهورية النمسا وكان له ماضٍ وفي وجهة نظر مؤيديه، وخاصة في النمسا، كانوا يرونه بريئا وفي رأى الآخرين، يعتبر ماضيه مروعا. وخلال توليه منصبه كسكرتير عام للأمم المتحدة، لم يتم انتقاد «كورت فالدهايم» أبداً بسبب مبادئه المحافظة. على العكس ثم انتقاده بصورة متكررة بسبب تطبيقه لسياسات يمكن أن تفسر على أنها في صالح الكتلة الشرقية بصورة ملحوظة. فهل يمكن أن يكون السوفييت محتفظين بهذه الوثائق التي تدينه كل هذه الأعوام؟ يحتمل.

ولكن لماذا، إذن، قاموا بالكشف عنها فقط بعد أن وصلوا إلى نقطة فصول أحد الرجال الذين يستطيعون الاستمرار في فرض سيطرتهم الكاملة عليه إلى منصب رئيس جمهوريه النمسا؟ ونحن قد لا نتسكن أبداً من الإجابة عن هذه الأسئلة. ولكن قيل ان الحكومة العسكرية الفرنسية التي إحتلت القطاع الفرنسي في برلين كانت تمتلك ملفاً ذا أصل ألماني عن فالدهايم» وأنا لا أتذكر إنني رأيت هذا الملف، ولكن تنظيم المجتمع الدولي عملية لانتشاك مع وظيفه أجهزه المخابرات السرية في الغرب. ويتوقف الأمر على الحكومة لتطلب من أجهزه الأمن، جهاز المخابرات وجهاز مواجهه التجسس رأيهم في شخص معين. وخلال فترة عملى، لم يطلب منا أبداً هذا السؤال عن كورت فالدهايم. ومع ذلك فإن الأرشيف الخاص بنا وبالسوفييت مازال سليماً لم يُمس. اليوم، لدينا ومساائل أخرى للتحقق من صدق الأشخاص المرموقين حول العالم. وفي المال الذى يحيط بالحرب العالميه الرابعه، عندما يقوم الإرهابيون ومعربى المخدرات، الذين يعدون جُند المصادمة، بتغيير أسمائهم وهوياتهم بصورة اعتياديه كما يغيرون ملابسهم الليليه، وعندما يحمل إسم محمد أحمد أو أحمد محمد نفس المعنى مثل جون أو أوجون ديبون، وعندما يبتلع السوق أحد المعتالين القتله مثل الهوة السوداء، فإن المعلومات الشخصيه الدقيقه يمكن أن تكون أكثر خطورة عن الذخائر الحربية الدقيقه التوجيه. والمخابرات السوفيتيه «وبعض أجهزه المخابرات الشرقيه الأخرى لديها قدرات خانقه في مجال المخابرات الشخصيه. أخذ الطرق هى الاستفادة من مسئولى المنظمات الدوليه الهامة والذين يحتفظون بملفات كثيرة لأشخاص في جميع أنحاء العالم. وهذه النوعيه من الأنشطة رئيسيه لعمل أى منظمه لمخابرات دولية.

ويقوم جهاز المخابرات الروسى بصفه ثابتة، مثل المخابرات الفرنسية، بوضع رجاله فى بعض النقاط الهامة فى بعض المنظمات الدولية. ومن المعروف جيداً أن عددا من عملاء المخابرات الحاليين والسابقين يشغلون مناصب دبلوماسية هامة. فمثلا الجنرال «فرنون والترز» الذي خدم كنائب مدير المخابرات المركزية فى الـ CIA أصبح مؤخراً سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، وقام بعدة مهام دبلوماسية سرية حساسة لصالح رئيس الولايات المتحدة، كما عمل كأول سفير أمريكى لدى ألمانيا الموحدة قبل عودته إلى الولايات المتحدة ومنذ عدة أعوام، استطعنا التعرف على الوحشين المقدسين للمخابرات، ومن الحقيقى أننا قد وحافظنا على صداقتنا وقمنا بتبادل وجهات النظر معاً كلما كان ذلك ممكنا فى باريس، نيويورك أو مكان نجد فيه أنفسنا معاً.

وبما أن الاستخبار الشخصى شديد الأهمية لمهام الأجهزة السرية فى الحرب العالميه الرابعة، مع عدم ذكر أهميته للحروب التى حدثت من قبل، فإنه دائما ما يُفترض أن مسئولى المخابرات الرئيسى ليسوا إلا مخلوقات لديها قدرة على الوجود فى كل مكان فى كل الأوقات - وأنه لدينا قوة حقيقيه غير محدودة لمعرفة كل ما يمكن أن يُعرف عن أى شخص.

والحقيقه، عندما تعمل فى المخابرات مدة مثل التى عملت بها فيها، فإنك عادة ما تجمع حجماً كبيراً من المعلومات حول أشخاص بارزين قد لا تتمكن حتى من مصافحتهم باليد. ومن المعتقد بصفة عامة أننا وصلنا لمثل هذه المعلومات عن طريق الاستراق الأسلاك (وهو مصطلح يعنى إقامة اتصال غير مشروع مع اسلاك البرق أو الهاتف بنيه الاطلاع على المخابرات الجارية بواسطتها). ومن

المؤكد أن المراقبه الالكترونيه إحدى أهم الأدوات. وفي فرنسا، تقوم بالفعل بعملية المراقبه التليفونية المجازه. ويتحكم رئيس الوزراء مباشرة فى الميزانيه، ولكن بعض العمليات يتم القيام بها من قبل أجهزة الأمن المختلفه. وعلى مدى أحد عشر عاما، كان يقدم لى تقرير عن تسجيلات محادثات المسئولين على مكتبى كل صباح. وكان عبارة عن ملخص للمحادثات، ولكن لكل التسجيلات بصورة مختزلة، ولم يكن على إلا أن أطلب من أحد المساعدين أحد الأشرطه ويكون لدى خلال دقائق. وقد تعهدت على ألا أخون أبداً هذه الآمانه. ومازال يمكننى أن أعترف أنه كان لدى بعض لحظات الضعف. فخلال العام الأول بعد تولى جهاز المخابرات، قبل أن أنسحب من الحياة الإجتماعيه العامه، كنت عادة تناول عشائى فى المدينه لتكوين عدد كبير وفرص أكثر للاتصال بالأصدقاء الذين أهملتهم بعد ذلك. وفى هذا العام أصابتى تعب فى كبدى جعلنى مجبرا على الدخول فى اختبارات على صحتى، بالاضافه إلى بعض المتاعب فى أذنى. وأصبح السؤال الذى يراودنى فى هل أنا أصبحت معتلاً؟ والذى كنت أجيب عليه « يجب أن تفكر فى نفسك أكثر من ذلك؟ ».

وفى بعض المرات، كان لى لعبه (خدعة) صغيره، كنت أظن أنها لاتضر، وكنت مولعاً بلعبها فى الحفلات النادرة التى أحضرها، وكنت أفضل الحفلات المبهجه، والتى عند استرجاعها أسلم بأنها كانت فى الواقع ذات طعم خاص. ومع ذلك كنت أستمتع بها. وعندما كنت أرى أحد الأشخاص المعروفين والذين يقدرون أنفسهم أكثر مما يستحقون والله يعلم أن باريس، وأغلب دول العالم من بينها نيويورك وواشنطن، مليئه بهم، كنت أقترب منه وأهزُ إصبعى تحت أنفه (وهذا التصرف بالتأكيد فى حد ذاته كان تصرفاً فظاً).

وكننت أقول مبتسماً « آه ! آه ! آه ! »

وكننت أجد الشخص يتحول لونه إلى لون شاحب وأظن أنه كان يفكر مرعوباً
يجب أن يكون على علم ! »

وكننت ألعب هذه الخدعة كثيراً . وفى إحدى المرات إنقلب على أحد أصدقائى
المقربين، وقد كان جندياً متميزاً خلال الحرب العالمية الثانية، بيير ميسمر
Piersee messmer ، وأصبح رئيس وزراء فرنسا بعد ذلك، ويعد
رجل دولة حقيقياً، ولم يكن به أى عيب من أى ناحيه، فعندما قمت بهز
إصبعى أمام أنفه، حلق فى ببرود وقال ببطء:

« ماذا اتقصد به آه ! آه !! ؟ »

وكانت هذه نهاية لعبتى الصغيرة يومها وبعد ذلك.

ومن الحقيقى أن الذين ليس لديهم شىء يخفونه من الوجوه السياسية
المعروفة قليلون جداً . ولا شك فى أنهم أقل ندرة فى الولايات المتحدة، حيث
يرتفع كثيراً المستوى الأخلاقى للقادة الشعبين عنه فى بلدنا الأكثر ملائمة
ولكن هؤلاء الذين يثبت أن لديهم شيئاً يخفونه يكونون متأكدين من أن المدير
العام للمخابرات الفرنسية يعرفه كل شىء عنهم ولكن نقطه ضعف أغلب
الأشخاص أنهم لا يعلمون ما الذى يعرفه عنهم . فأنا لم أعترض أى شخص . بل
أفضل أن أتركهم وهم لا يعملون فيما أفكر . وعلى نطاق واسع، فإن هذه
السياسة تعد رأياً تقليدياً للمخابرات وتقوم باستخدامها كثيراً لمزاياها الجيدة .
ويكون تأثيرها أعظم بين الارهابيين المعزولين عن تأثيرها المنظمات
الاستخبارية التى لديها دراية دولية جيدة بالمعلومات فالارهابيون عادة

يفترضون أن لدينا معلومات أكثر عمقا من نشاطاتهم عما نقتنيه بالفعل. ومجهوداتهم المكثفة لاختفاء أثارهم التي قد لا نكتشفها أبداً تجعلهم يتسمون ببطء الحركة بصورة لا يمكن تجنبها. وهدف بطيء متحرك خير من هدف سريع تحت أى ظروف.

وما يثير الفضول أن الساسة مشتركون مع الارهابيين ومهربى المخدرات فى افتراض معرفتهم الكاملة بكل شىء يتعلق بالمنظمات الخاصة بالتجسس. وفى بعض المناسبات، سمعت بعض الساسة البارزين يتذكرون بعض الفضائح الاقتصادية التى تثير الاشمئزاز والتى أكدوا لى أنهم لم يشتركوا فيها. ولكن قيامهم بذكر هذه الحقائق، ومناقشه أدق تفاصيل هذه المسائل، جعلنى أتاكد من انحرافهم. وعلاوة على ذلك فإننى اكتشفت سريعا خلال عملى الجديد، أنه فى السياسة هناك عادة مفهوم مختلف جدا عن الصح والخطأ - ونقيقه مستويات اخلاقية شديدة الاختلاف. وكان هذا سبباً يجبرنا على البقاء بعيدا عن ساحة السياسة الداخلية، مع وجود بعض الاستثناءات النادرة والمقررة والتى تتعلق بالصالح الاقتصادى والأمن للدولة نفسها.

الفصل السابع

خدمة سيدين

خلال مدة خدمتي كرئيس للمخابرات الفرنسية قمت بخدمة سيدين مختلفين تماما هما «جورج بومبيدو» و«قاليري چيسكار ديستان» والمشكلة العظمى لرئيس المخابرات العام هي أنه لا يجب عليه أن يحاول إرضاء أحد أبداً.

في إحدى المناسبات الخاصة والصعبة وبعد مناقشه طويله ومتشابكه مع الرئيس «چيسكار ديستان»، توقفت واستدرت عند الباب وأنا على وشك الخروج من مكتبه في قصر الإليزيه.

وقلت له «سيدي الرئيس: إنني أذكرك له بمقولة ذكرها «ماريشال دي» فيلار» في خطاب «للويس» عندما كنت: «سيدي، أن ليس من اليسير على الإنسان أن يخدم ويرضى». والحقيقة، أن العلاقات بين قصر الإليزيه والمخابرات الفرنسية كانت سلسلة بصورة تُحد عليها ومنتعشه بصورة كبيرة في عهد الرئيس «بومبيدو»، ولكنها اتصفت بأنها أقل من ذلك خلال فترة رئاسة «چيسكار ديستان» التي تلتها.

وبدون سؤال، كان كل من الرئيسين لديه ثقة كاملة في شخصي وإلا لما كنت لأستطيع أبدا أن أخدم بهذه الكثافة بصورة تكاد تصل إلى درجة الحرية الكاملة في التصرف.

ولكن طابعهما كان مختلفا بصورة جوهرية طبقا لشخصية كل منهما، وخاصة التجارب السابقة لكلاهما. وقد استطعت أن أعرف «بومبيدو» جيدا

جدا . ولكن « جيسكار » ظل بالنسبة لى لغزا داخل شخص غامض . ومفاهيمهما عن طبيعه السلطة واستخدام المعلومات يختلف جوهريا . فكلاهما كان يتناول المشاكل ويحاول حلها بإسلوب شديد الاختلاف عن الآخر . وكان « بومبيدو » أشبه بصبى من الحرب العالميه الثانية جاء فى عصر معارك الحرب الثالثه . أما « جيسكار » فقد تعلم عقيدته السياسيه أثناء الحرب العالميه الثالثه وحاول ، سواء نجح بصورة كبيرة أم قليله ، تطبيقها على الحرب العالميه الرابعه .

التى اشتعلت بدايتها وهو يستعد للرحيل من منصبه . أما فرانسوا ميتران ، خليفة جيسكار ، والذى عملت معه لمدة شهور قليله كفترة انتقالية ، فكان خليطاً غريباً من الاثنين السابقين ، فهو نتاج الحرب العالميه الثانيه التى قرر أن يحول الدروس المستفاده منها بطريقة ما إلى مفهوم حقيقى للحرب العالميه الرابعه بدون الاقتراب أبدا من مفاهيم الحرب الباردة التى تقع بينهما .

وكخادم لبومبيدو وجيسكار ، فقد حضرت فترتين مختلفتين تماما فى تاريخ فرنسا والمخابرات الفرنسيه - وكانت مهمتى هى تحويل قدراتنا الاستخباريه الضخمة بزاوية ٩٠ درجة وجعلها ذات مركز حيوى فى التاريخ . وأصبحت أعتقد أن الفجوة بين الاثنين كانت نتيجة الصلات الشديدة التباين التى كانت لكل منهما مع « شارل ديغول » والحرب العالميه الثانيه وقد ولد بومبيدو سنه ١٩٨١ ، وكان لديه ٣٣ عاما فى الوقت الذى تم فيه تحرير فرنسا ، عندما وجده أحد مساعدى « ديغول » أثناء بحثه عن بعض الأشخاص البارزين الذين يستطيعون التحدث الفرنسيه ! وقد مر بفترة الانقلاب الرباعى المذهل عندما تحول ستالين الروس من صديق محايد للغرب إلى حليف لألمانيا الهتلريه ثم

إلى عدو للنازية وعضو بالتحالف الغربى ثم إلى الامبراطورية الشيطانية للحرب العالميه الثالثه. وهو لم يتمكن أبدا أن ينظر إلى الاتحاد السوفيتى بأى شىء سوى بعين الشك العميق الذى ولد من هذه المجموعه من الخيانات.

وقد أثر ذلك على منظوره الكلى لدورنا فى متابعه الحرب العالميه الثالثه. وفى نفس الوقت، عاصر فترة التخلص من الاستعمار، وخدم إلى جانب ديجول خلال الحرب الاهليه فى الجزائر، ووصل إلى منصب رئيس الوزراء خلال تساقط المستعمرات الفرنسيه الأخيرة فى ثلاث قارات. والإرهاب بالنوعيه التى عرفناه بها يعد محطاً للحرب العالميه الرابعه وكان بالنسبة «لبومبيدو» أقل من أن يوصف بأنه وسيله متميزه للعدوان الخارجى بل كان نتاجاً للحرب الاهليه التى كان يريد أن ينهيها بأسرع وقت وبأقل ألام ممكنه.

أما «چيسكار» فكان على أى حال أصغر من بومبيدو بنصف جيل . فقد ولد سنه ١٩٢٦، وكان عمره ١٨ عاما بالكاد فى وقت تحرير فرنسا ولم ينضم إلى الدائرة السياسيه لديجول فى قيام حرب الجزائر . وبالنسبة له، كانت المفاهيم العسكريه للحرب العالميه الثانيه شيئاً تاريخياً أكثر منه حقيقه واقعيه ملموسه، ولهذا فقد قرر التطوع فى الجيش سنه ١٩٤٥ عندما قاربت الحرب فى المانيا على الانتهاء. وكانت الحرب العالميه الثالثه هى التى تعلم خلالها تكتيكه العسكري- السياسى، وقد كانت الشراره الأولى للحرب العالميه الرابعه حقيقه خطيره وملحة.

وعندما كان « بومبيدو » رئيسا ، كنت عادة ما أذهب إلى قصر الإليزيه بعد العمل.

وكل هؤلاء الأفراد الذين كانوا يشكلون فريق الرئيس كانوا يتواجدون هناك، يجلسون حوله على الكنب المزركش والمقاعد التى تملأ المكتب الخاص بالرئيس.

ومن بين المنتظمين فى الحضور كان هناك رجل طويل دمث الأخلاق له عينيان متقدتا الذكاء وسلوكه يتسم بالقلق. وكان ذلك هو چاك شيراك، الذى خدم بعد ذلك كوزير للاقتصاد، وأصبح أخيرا رئيسا للوزراء وحاول مكررا، ودائما بدون نجاح، الوصول إلى منصب رئيس الجمهورية وكان لى عمل مشترك مع «بيير جويليه»، المستشار المتمرس فى السياسة الخاصة بالرئيس وكنت على اتصال به لعدة مرات منذ المناسبة الأولى كلفنى الرئيس «بومبيدو» بمهمة إعادة بناء المخابرات الفرنسية حتى اللحظة التى قبلت فيها التخلّى عن منصبى وبما أننى كنت أقوم بزيارات متكررة للإليزيه خلال السنوات الأولى التى اتسمت بأنها كانت أكثر صعوبة فى حياتى العملية، فكان لدينا العديد من الفرص للقاء ومناقشه بعض التفاصيل فيما بيننا، شخصا، أو، على الخط الأمن الخاص بين الوزراء، والذى يقع على مكتبى جهة يدي اليمنى. ولكن كانت مناقشاتنا عادة ما كانت تتجاوز الشئون العاجلة للدولة أو التجسس.

ووصولى إلى منصب رئيس الجهاز السرى لم يجىء بعد فترة طويلة من الفضيحة الكبيرة التى يطلق عليها «فضيحة ماركو فيك - Markovic -» وهى عملية إعدام «ستيفان ماركوفيك»، أحد الحراس الشخصيين لممثل الأفلام الفرنسى «آلان ديلون». وقد ثارت أقاويل حول اشتراك ماركو فيك فى الحفلات الهمجية الشاذة حيث أخذت بعض الصور لبعض كبار مسئولى الحكومة.

وقتها بعض الأشخاص أن « بومبيدو » قد عيني خصيصا لمعرفة أساس وعمق هذه الفضيحة والشائعات التي تناولت ذكر عائلة بومبيدو، ومن أجل التصرف مع البقايا السيئة التي خلفتها الفضيحة. ولكن هذا ببساطة لم يكن صحيحا. فوجهة النظر هذه تظهر التجاهل الكلى للأعمال الداخلية للنظام. وأنا أستطيع أن أتذكر مناقشه للرئيس معى حول مشاعره العميقة تجاه جميع هذه المحاولات لتلطيح اسمه النظيف وإسم زوجته وعائلته وذلك فى مناسبة واحدة فقط. وذلك خلال أحد لقاءتنا المنفردة المتعددة فى نهاية أحد الأيام الشاقة، وبدأ يومها بفتح قلبه لى وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يصف لى ماذا يفعل أعداؤه لزوجته، فما بالك ما يفعلون به شخصيا وهذا الثنائى كانت له إحدى الفضائل التى تتزايد ندرتها هذه الايام- وهى أنهما أحبا بعضهما بشدة وكانا شديدا الاخلاص.

وأنا اعترف أننى شعرت أننى تعوزنى بعض البراعة خلال هذا الحديث وقد حذرت الرئيس ضد مفهوم «الكل لباريس» ، وباريس بلدة المشهورين الذين يتعاملون مع الشائعات، والسفيرة والطعن فى الذمم- كل شخص يحاول أن يتغلب على ذكاء وقدرة الآخر فى جرح وتشويه الوجوه المعروفة شعبيا. فهم مثل أسماك القرش التى ما أن تشم الدم أولا فى الماء، حتى تقوم بالذهاب إلى مكانه من أجل القتل.

وأضفت أحد الأمثال لكلامى: « عندما يحضر القرويون إلى باريس فإنهم عادة ما يرتبكون من تألق وسقوط ضحايا إغراءاتها. وعادة ما يفشلون فى رؤية الظلال الاجتماعيه القائمة التى تكمن فى عالم النساء المشبوهات. »

وبعد انتهاء كلامى ، لاذ «بومبيدو» بالصمت، وتحققت فوراً من أنه يعكس كلامى على وضعه الخاص- وأنه شعر بأنه أساء الحكم على المحيطين به.

ولا يوجد شك يساورنى فى أن نهاية «بومبيدو» ، ومرضه الخطير كان بسبب مثل هؤلاء الاشخاص، ومن بينهم بعض الساسة من داخل مزيه الديجولى، والذين أرادوا تدميره بفضيحة «ماركوفيك» وبيع المناسبات المعدودة التى تلت ذلك.

هذا بالاضافة إلى أن محاولات تشويه سمعة والخط من قدر مدام «ركلودبومبيدو» السيدة الأولى، أضاف أعباء أخرى على زوجها. وكل هذا اضيف ظلاله على إدارته ككل خلال ساعاتها الأخيرة.

ومع ذلك فقد قررا إلا ينافس ذلك، وقد أصبحت أشعر بالقلق بعد أن توليت منصبى تجاه خطورة مرضه- والذي لم يصبح واضحاً للعالم إلا فى وقت متأخر جداً من رئاسته.

وكنت أشعر بتقدير كبير، ومزيد من الاحترام والاعتزاز لشخصه وقد دفعنى ذلك لاحترام مشاعره الخاصة بضرورة كتمان مسألة مرضه. وقراره بتجنب المحتوم وكتمان خبر مرضه والتصرف وكأن شيئاً لم يحدث ، نابع من وطنيته واعتقاده القلبى أن من واجبه أن يستمر فى قيادة دولته حتى آخر دقيقة ممكنه.

وقد كان البعض يفضل أن يقوم بالاستقالة ولكنه كان واثقاً من أنهم لن يتمكنوا أبداً من طرح هذا الموضوع فى وجوده. وكانت لقاءاته المنتظمة مع وزارته كل أربعاء، ولقاءاته الشعبيه والخاصة، تتم بدون فشل . والاسبوع

الأخير له فى مارس ١٩٧٤ ، لم يكن إستثناء عما سبق. وفى يوم الخميس ،
التقى بـ «چيسكارديستان» ، وزير ماليته. ويوم الجمعة ، أعطى وجهات نظره
الخاصة بالوضع الدولى لـ «ميشيل چوبرت» وزير خارجيته. وفى عطلة نهاية
الاسبوع ، ذهب إلى «أورقيليه» ، حيث منزله الريفى ولم يكن هناك دلائل
تشير إلى أن مرضه ، نوع من السرطان اللنفاوى ، كان فى مراحله الاخيره.
ولكنه شعر بالتعب فجأة يوم الأحد فى الريف. وتم إعادته إلى باريس بسيارة
إسعاف يوم الإثنين إلى شقته فى «Ruaide Betherne» فى باريس.
وقد قمت بزيارة هذه الشقة عدة مرات خلال فترة صداقتنا لم تكن شقه شديده
الفخامة ، على مستوى مكاتب الساسة المرموقين فى فرنسا. ولكن بومبيدو
نفسه لم يمتلك مثل هذه المكاتب ، مع أن أغلب زملائه كان لهم مكاتبهم الفخمة.
ولم تتوافر له أبدا سبل شراء مثل هذه الشقه - وهو لم يحاول أبدا أن ينتفع من
الوظيفة التى كان بها أو من خدماته لدولته. وقد كانت إحدى شركات التأمين
تمتلك هذه الشقه ، حيث تقوم شركات التأمين باستئجار عدة بنايات فى باريس ،
وكان بومبيدو من المستأجرين وفى اليوم التالى ، الثلاثاء ، كان ما يزال قادرا
على وضع توقيع على بعض الوثائق والموافقة على جدول عمل اللقاء الوزارى
الذى كان سيتم فى اليوم التالى فى قصر الإليزيه ، الذى كان سيراوسة
بييرمسمر ، رئيس وزرائه. وفى هذا المساء ذهب إلى النوم ، فدخل فى غيبوبة
وفى الساعة التاسعة مساء ، مات بهدوء.

ونهاية «بومبيدو» المفاجئه وغير المتوقفه تسببت لنا جميعا فى الألم
والأسى. وقد تدافقت حشود كبيرة إلى قصر الإليزيه فى الليله التى مات
فيها. وكانت الساحة الرئيسيه للقصر مضاءة ، وكانت هناك كاميرات

وميكروفونات فى كل مكان. ولم أكن قد وصلت بعد إلى القصر لتقديم واجب العزاء، عندما عرفت حاشيه الرئيس - مستشاريه السياسيين وعائلته - يريدوننى بصورة عاجله. أبلغنى رجالى بالتليفون الذى فى سيارتى أن الإليزيه يحاول الوصول إلى. فعدت فوراً. إلى مكتبى للتحدث عبر تليفونى الخاص وطلبت مكتب الرئيس على الدائرة الوزارية الداخلية ويبدو أن بعض هؤلاء المقربين من الرئيس فكروا فى احتمال أن يكون «بومبيدو» قد ترك وصيه سياسية سرية. وكانت الفكرة بالتأكيد تستحق الدراسة. ومثل هذه الوثيقة كانت ستتضمن معلومات هامة عن الخليفه الذى اختاره لمنصب الرئيس. وإذا كان «بومبيدو» عين شخصاً محدداً على أساس أنه ملائم لهذا المنصب» أو على أنه الشخص الذى يوصى به لفرنسا، لكان الشعب قاموا بانتخابه فوراً بجره قلم خلال الانتخابات القادمة لاختيار خليفه له وقد اكتشفت، فى مكالمتى لقصر الإليزيه، أن هناك مشكلة عاجلة. فلا يوجد أحد يستطيع أن يفتح الخزانة الخاصة بـ «بومبيدو» لأنه لا أحد كان يعلم مكان المفتاح.

ويبدو أن هذه الخزانة الفرنسية، كان لها مفتاح، بالإضافة إلى القفل الرقمى، وفى فوضى المرض المفاجئ «لبومبيدو»، لم يتم التمكن من تحديد المكان الذى وضع فيه المفتاح ومن بين القدرات الأخرى التى تتمتع بها المخابرات، ومن المعروف أنها الفرع الوحيد بالحكومة الفرنسية التى لديها القدرة على فتح الخزائن. فقد كان لدينا أكثر الأشخاص براعة فى قطاع صناعة الاقفال. وفى ثكنة «توريل» كانت هناك غرفة مليئه بالخزن التى تمثل أحدث المنتجات فى هذا المجال على مستوى العالم. وكان خبراءى يستطيعون فتح أى واحدة منها بدون مفتاح خلال دقيقتين أو أقل من ذلك. وزوارى الذين شاهدوهم وهم

يقومون بذلك كانوا يصرفون قائلين ، يا إلهى ، إن هذا مرعب» ومن المؤكد أنهم كانوا يفكرون فى مدى إمكانية تعرض أشياءهم الثمينة إلى الخطر. وفتح الخزانة لا يفرض أى عقبة على الإطلاق بالنسبة لعدد محدود من المتخصصين المحظوظين. والأمن الحقيقى يعنى منع الأشخاص من الاقتراب من الخزانة، والتي تعد قيمتها الأساسية فى حماية المحتويات من أى دخيل غير نظامى أو هاو. وقبل أن اترك المقر الرئيسى للمخابرات لأذهب إلى قصر الاليزيه هذه الليلة، تحققت من أن خزانة الرئيس من طراز « فيشيت ٣ » ولها ثلاثة أقفال رقميه يجب أن يتم إدارتها قبل أن يتم استخدام المفتاح. وفى ذلك الوقت ، وكانت الساعة العاشرة تقريبا. قمت بالاتصال الاقفال بقسم الخاص بنا.

وسألتهم « أين خبيركم المتخصص فى فتح خزن فيشيت».

« أخشى أنه فى مهمة فى الخارج».

« هل هناك شخص آخر موجود؟ »

« نعم ، يمكن أن يكون فى بيته فى منطقة خارج المدينة»

قمنا بالإرسال فورا وأطلقت الإليزيه على الخط. الأمن أننى سأصل مع صانع الأقفال التابع لى ومعه مجموعة مفاتيحه، ولكن يجب أن نتخلص بأى ثمن من تجمع الصحفيين والمصورين المتواجدين فى الساحة الرئيسية بالقصر، يشاهدون جميع القادمين والذاهبين. وقد اقتربت سيارتنا من القصر من الجهة الخلفية من «شارع جابريل». وكما اتفقنا، أعطينا إشارة خاصة بالضوء العالى للسيارة، فقام شرطى بفتح البوابه الحديدية الضخمة لدخل الحديقة على ناحية شارع الاليزيه وطريق «جابريل». وشارع الإليزيه فى حد ذاته طريق خاص صغير

يشبه الزقاق الذى يربط بين البيت الأبيض ومبنى المكتب التنفيذى فى واشنطن، وجميع المباني المواجهة لقصر الإليزيه من هذا الجانب تشغلها مكاتب الرئاسة. وقد عبرنا الممر بسرعة إلى القصر نفسه، ودخلنا من المدخل الجانبى الذى يقع إلى جانب الأبواب الزجاجية لقائمة المناسبات الكبرى، والتي تطل على الفناء، ثم قمنا بارتقاء السلالم الخلفية إلى الشقة الخاصة بالرئيس.

وقد عرفونا فوراً بمكان الخزانة، ووجدنا أنفسنا فى منتصف حمام الرئيس.

وقام خبيرى بفتح حقيبته المفاتيح، ورفع أكمامه، وحل رباط العنق (الذى ارتداه تمشياً مع المناسبه ومكان عمله، مع أننى كنت أشك فى أنه ليست لديه أى فكرة عن المكان الذى يمكن أن نجد أنفسنا فيه، وقد استدرت تجاهه وهو يفحص الخزانة وكنت جالساً على حافه البانيو. وسألته: ما الوقت الذى ستأخذه فى فتحها؟ »

« سيدى المدير العام » دقيقتين أو ثلاث ».

وكان يجلس على الأرض أمام الخزانة وكان على وشك أن يبدأ عمله، عندما مرت بخاطرى فجأة فكرة مرعبة . وقلت لنفسى يجب أن يكون هناك شهود . ماذا سيحدث إذا لم يكن هناك شهود؟ » فقط تخيل أنه قام بفتح الخزانة فى ثوان. ووجدت ظرفاً مطوياً ومكتوباً عليه وصية سياسية. » وفتحته . (وكان هذا بالتأكيد يبدو وكأنه حلم، حيث أن هذه ليست طبيعتى أو أسلوبى.) وكانت الوصية تحدد اسم السيد ، الذى لا أحبه ووضعت الوصية السياسية فى جيبى، وتغير مجرى التاريخ نتيجة لذلك. كل هذا انساق فى تفكيرى خلال ثوانى. ووجدتنى أصرخ عالياً بما أثار دهشة صانع الاقفال وقلت « انتظر »

وفتحت باب الحمام، وطلبت السيد «آلان بومبيدو» ابن الرئيس ، و«بيير جويليه» رئيس وزرائه، وطلبت منهم الدخول إلى الحمام أثناء فتح الخزانة. وكانت الغرفة صغيرة على أن نكون فيها نحن الأربعة ولكن فى النهاية، بعد مرور دقيقتين انجز الرجل عمله وانفتح باب الخزانة. ولم يكن هناك وصية سياسية بأى شكل من الأشكال.

وفى هذه اللحظة انتهى عهد بومبيدو وبدأ عهد چيسكار ديستان.

وقد تم أول لقاء بينى وبين فاليرى چيسكار ديستان عندما جاء ليتناول غداءة فى «ثكنات توريل» فى ٢٠ يولييه سنة ١٩٧٣. وفى ذلك الوقت لم يكن متمرسا جيدا فى الشئون الدوليه، على عكس الشئون المالىه الدوليه، حيث إنه خدم كوزير للاقتصاد والمالىه وكخريج من المدرسة، ذات المكانه العاليه، الدوليه للإدارة، كانت خلفيته المهنيه كلها بيروقراطية - بيروقراطى فى الفروع الاقتصاديه والمالىه للحكومة الفرنسيه. وبما أنه كانت لديه قدرة ذكية فكان على معرفة أين تقع القوة السياسيه الحقيقيه فى فرنسا.

وكان چيسكار منذ أيامه الأولى مدمناً للسلطة. وقد كانت للشئون الدوليه والعسكريه، وخاصة المخابرات فائدة فقط إذا ساعدته على تنفيذ سياساته الجوهريه- وخاصة إنهاء أى مشاكل فى أى حملة سياسيه أو إيجاد وسائل لخلق تحالف مع آخرين يهتمون بمثل هذه المشاكل ويستطيعون مساعدته. وكان هناك تساؤل بسيط عن أنه لم يكن على صلة جيدة مع وزير الخارجيه الفرنسي، «ميشيل جوبر»، والذي كان ينظر له على أنه منافس سياسى له. إذن فقد كان أمام «بومبيدو» أقل من عام فى الحياه، وأنا كنت على علم مقدماً بأنه مريض

جداً. وفي وجهه نظري كان هناك خليفتان محتملان في يوليو سنة ٧٣-
فرنسا ميتران وقاليري چيسكار ديستان. وقد كنت أشعر بالقلق من أنه
ستكون كارثة على فرنسا أن يكون رئيسها المستقبلي غير مطلع كلياً على
أعمال أداة معقدة مثل التي أديرها، والتي لها صلة مباشرة بالاحداث اليومية
الأكثر خطورة والتي تواجه الجمهورية. وفي بعض الأوقات كنت أشعر باحساس
بأننى ألعب دور الدكتور الذى يستمع جيداً بواسطة سماعة طبيب إلى الأصوات
الضعيفة داخل صدر مريضه- وذلك خلال بحثى عن أول بادرة تبشر بأى خطر،
وأى أحداث عنف يمكن أن تظهر فجأة وبدون أى إنذار مبكر وحيث أن المصدر
الوحيد الممكن لوجود رأى ثان يتعلق بما اكتشفته كامن فى رئيس الدولة،
فيجب عليه ان يكون مطلعاً على مجريات الامور بالقدر الذى تسمح به
سلطاتى وافضل الاشخاص تمهنا يجب أن يكون لديه درجة معينة من التواضع
الشخصى ونسبه جيدة من الصبر فى الأمور التى يستعرضها ويواجهها .


وابنة عمى وهى تيريزدى سان فال، وهو أحد الكتاب واكبر الناشرين الأدبيين
فى فرنسا.

ولديها معرفه شخصية واسعة بالامور السياسية اقترحت يوماً أن يحضر
«چيسكار ديستان» ليتناول الغداء معى. وفى ذلك الوقت كان چيسكار يعمل
كوزير للخزانة ، ولكنه كان من ضمن الذين يريدون أن يصلوا إلى
منصب الرئيس.

ومر «چيسكار» على «تيريز» وأخذها من مكتبها فى «فلاماريو» وهو
مقر الناشرين فى «أوديون» إلى حيث كانت تعمل مديره ورئيسه تحرير. وما

أن وصلت سيارتهم إلى ساحة المقر الرئيسى للمخابرات ووقفت عند بدايه الطريق الأخضر الصغير، تقدم أحد مساعدى لاستقبال «چيسكار» وابنة عمى» ، وأرشدهم إلى سلم المدخل الذى يوصل إلى مكتب المدير العام، وكانت هناك صورة لى معلقة على الحائط، ومضاءة بنور جعل لها خيالاً طويلاً. وقد لاحظ چيسكار مدى تأثير هذا الرمز.

وما أن دخلا مكتبى، وقفت ولاحظت أن عينا چيسكار ضاقت وركزت فوراً على أحد الجدران المعلق عليه خريطة ضخمة للعالم منقوشة بسهام مغناطيسيه ملونه، بعضها موجه تجاه إسرائيل لماذا كل هذه السهام، ولماذا هى موجهه لإسرائيل؟» هذه كانت أول كلمات لچيسكار فى مكتبى شرحت له فوراً أن جميع معلوماتنا تؤكد أن إسرائيل على وشك أن تتعرض لغزو مشترك من قبل الجيوش العربيه». وكان چيسكار يشعر بالدهشة من كل شىء، حيث ان بومبيدو كان قد عزله بصورة فعاله عندما كان وزيراً للاقتصاد والمالية عن أى شىء له صلة بالشئون الخارجيه، والسياسيه العسكريه أو المخابرات.

وقد بدأنا فى أكل بعض المشهيات بعد أن جلسنا على أريكه كبيره من الجلد وعلى كرسيين كبيرين، تحت صورة بيضاء وكان الفارس يمسك فى يده عصا القيادة، ويمتطى جواداً صغيراً رائعاً وقد قام چيسكار بدراسة اللوحة جيداً. ثم جلسنا بعد ذلك لتناول الغداء الذى أعده طباخى المتميز وكان مكوناً أولاً: من بعض أنواع البيض مع البطاطس. ثم طبق لحوم، ثم أعده طباخى المتميز وكان مكوناً أولاً: من بعض أنواع البيض مع البطاطس. ثم طبق لحوم، ثم الحلوى، وهو تارت المشمش. واستدار  كلياً إلى الخريطة خلال

الغداء معبرا عن دهشته، على سبيل المثال، على عدد السهام الموجهة لإسرائيل ومصر. وقد وضعت له الإمكانيه القويه لوقوع حرب بين الدولتين. والشئ الذى يدعو إلى السخرية بالنظر إلى أهمية الغزو السوفيتى لأفغانستان- وهو الحدث الذى احتل مساحة جيدة من وقت الرئيس خلال الاعوام السابقة، أنه قام بإبداء اهتمام خاص بهذا الموضوع ودهشة من السهام الموجهة من الجزء الجنوبي من روسيا تجاه أفغانستان وإلى بالوفستان فى شمال ايران وقد تناول حديثنا خلال لقاء الغداء الأول لنا عدة مواضيع تدور حول أكثر البقع اضطرابا. فى العالم، وقد أطلعتة على جميع معلوماتى. وبعد الغداء، فى الوقت الذى كان يستعد فيه «چيسكار» للمغادرة، اقترحت عليه أن أقوم بإرسال عدة تحليلات له والتي كانت معه بالفعل وبالرغم من هذه البداية السعيدة، إلا أننى لم اكن أبدا قريبا من الرئيس چيسكار كما كنت مع الرئيس «بومبيدو» ومع أن هذا لم يتضح أبدا، ولكننى أشك أن المشكلة تعود إلى تجاربنا الشخصية السابقة والمتباينه ومناظيرنا الشديده الاختلاف فأنا كنت مثل بومبيدو، نتاجاً للحرب العالمية الثانيه ومراقباً مطلعاً على الأحقاد الشديده للامبراطورية السوفيتية. ولذلك فإننى لم أتمكن أبدا أن أوقف عدم اعتقادى وثقتى فيما يتعلق بموسكو، عدونا فى الحرب العالمية الثالثة. ولهذا عندما أصبح چيسكار رئيساً عادة ما كان يقوم بعض حاشيته بإبداء تضررهم من تميزه فى الوثوق فى معلومات المخابرات الشديدة الحساسية أو فى مهام السياسة الخارجية من الوثوق فى أصدقاء الرئيس الذين يتمتعون بسلوك معتدل ولصالحى تجاه السوفيت، وتجاه بعض أعدائنا فى الحرب العالمية الرابعة أيضا.»

وهؤلاء الخبراء الهواه فى التجسس وشئون السياسة الدولية لديهم فكرة بسيطة عن مدى دقة التنظيمات الخاصة بالوسائل التى يستخدمون الجهاز فى القيام بعملياته ومدى الصرامة التى نستخدمها فى إعداد تقرير وتقييم التقدم الذى يصاحب أى مهمة أو عملية. وأحد هؤلاء المستشارين الهواه والذى كان يلجأ إليه «چيسكار» كثيرا، وخاصة فى تعامله مع السوفييت، كان «جون بابيتست دومنج».

وكان لدينا ملف كبير عن «دومنج» ، بالإضافة إلى إدارة مواجهة التجسس وكان «دومنج» ، متخصصاً فى التجارة الزراعية مع الكتلة الشرقية، وقد قرر أن يجمع ثروة عظيمة من عمله بيع القمح، الزبد، وبعض نوعيات الأحذية الأخرى للسوفييت فى مقابل منتجات يمكن إعادة بيعها إلى الدول الفقيرة فى أفريقيا والتى تسيطر عليها فرنسا والتى كان له صلة وثيقة بها، ويقوم بالاستثمار فى معظم دول القارة الأفريقية . وعملأونا الذين كانوا يعملون فى أفريقيا كان عليهم أن يجروا فى أثره فى عدد من المناسبات التى لا تحصى.

وأصول «دومنج» السياسية كانت واضحة جدا وقد كان أكثر من مليونير بمراحل، وكان أيضا عضواً فى وأحد المتبرعين الأساسيين للحزب الشيوعى الفرنسى ومع مرور الأعوام أصبح «دومنج» بصورة فعالة، البديل الفرنسى «لأرماند هامر» والذى مع ذلك قرر أن يجعل نفسه فى خدمة چيسكار وبعض أعضاء حاشية الرئيس والمشكلة الأساسية فى الاعتماد على مثل هؤلاء الرجال، الذين لهم قدم فى معسكر والآخرى فى معسكر آخر، أنك لا يمكن أن تتأكد أبدا عن أى معسكر يتحدثون فى أى وقت.

ومع ذلك، قرر «دومنج» كسب ثقة عدد من القادة الفرنسيين في الربيع الماضي من هذا القرن وإحدى نتائج هذا التعاون قرار «چيسكار» المفاجئ والغريب بالذهاب إلى «وارسو» لحضور مؤتمر مع الرئيس السوفيتي وقتها «ليونيد بريجنيف» في ١٩ مايو ١٩٨٠، ويحتمل أنها الحالة الوحيدة التي غير فيها أي رئيس فرنسي عدم مصداقيته للسوفييت، أو حتى أي قائد غربي، وفي أي وقت خلال الفترة التي سبقت الحرب وقد أساء «چيسكار ديستان» فهم كل من الوضع الدولي وقدرته الشخصية على التأثير عليه «بأي طريقة بناءة».

واللقاء بين القائدين - بريجنيف وچيسكار الشرق والغرب - تم في لحظة تتسم بالحساسية، بعد أن قام الجيش الأحمر بغزو أفغانستان بخمسة شهور في ديسمبر ١٩٧٩ وقد كان الغزو مصمماً على الأقل جزئياً - على أساس السيطرة على دولة ينظر إليها الكرملين على أنها دولة استراتيجية بالنسبة للإمبريالية السوفيتية. وخطوة تجاه الوصول إلى البحار الدافئة في الجنوب.

وقد تم لقاء چيسكار وبريجنيف في بولندا، وهي الدولة الوحيدة على الحدود السوفيتية التي كان لها دين، كاثوليكية، قادرة على دفع أهله إلى المقاومة المسلحة، مقاومة لها صلة بالجمهوريات الكاثوليكية التابعة للسوفييت، ودول البلطيق، والتي فرضت سيطرتها عليها في نهاية الحرب العالمية الثانية وأول بذور هذه المقاومة كانت تتزايد في بولندا في عقول الشعب الذي شكل حركة تضامن قوية تحت قيادة «ليسخ واليسا».

وإذا كان هناك مكان لا يريد أن يلتقي فيه قائد غربي كبير بقائد روسي، فهو بولندا فالروس يحتضرون البولنديين والبولنديون يمثلون بكره، بالاضافه إلى الخوف من الروس.

وكل هذه الخلفيات لا يمكن أن تؤدي إلى حوار بناء في أحد اللقاءات، حيث سيكون المناخ بصورة لا يمكن تجنبها مليئاً بالشحن والتوتر. والاكثـر من ذلك، أن زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لوارسو لحضور لقاء مع امبراطور السوفييت فقط يمكن أن يبعث إشارة لأي بولندي أن فرنسا أو الرئيس الفرنسي، لن يتمكن من تقديم أي مساندة معنوية أو مادية لشعب بولندا وفي نفس الوقت كيف يتمكن رئيس دولة فرنسي من السماح لنفسه في التفكير أنه يمكن أن يكون لديه أي أمل في فرض تأثيره على ليونيد بريجنيف في قضية مثل أفغانستان أو بولندا؟

وقد واجه التضامن البولندي هجوماً ضاراً منذ عدة شهور قليلة. وقد أمسكت الإمبراطورية السوفيتية عن التنفس بعد موت «ليونيد بريجنيف»، وكان الوقت قد حان وقتها للنظر تجاه المستقبل والحقيقة تجاه نهاية لعبه الحرب العالميـة الثالثـة.

بدلاً من ذلك، كان «چيسكار» ومستشاروه يقومون بوضع سيناريو للتصالح والتكيف الذي يمكن أن يوفر لأعدائنا السوفييت متنفساً، بالضبط في الوقت الذي استطعنا فيه أن نجعل إمبراطورية الشيطان تغطي ظهرها إلى الحائط.

وللتحضير لهذا اللقاء المشثوم الذي كان يرغب فيه بشدة أصدقاء «دومنج» في الشرق، تولى المستشار الشخصي المقرب للرئيس ديستان، ميشيل بونيا توسكى، عملية الإعداد له.

ولإجراء المحادثات السريـة في وارسو، قام الرئيس بالطيران إلى العاصمة

البولندية فى طائرة «دومنج» الخاصة والمثير للدهشة كما يبدو، بالرغم من إننى المدير العام للمخابرات إننى لم أتلقي أى إشارة مسبقة عن أهمية إقامة هذا اللقاء الحيوى بين رئيس جمهورية فرنسا وبين السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. وبالتأكيد، لم أتجرأ أبداً على محاولة تشكيل مجرى مثل هذا اللقاء، وعلاوة على ذلك فقد كان لدى نفاذ بصيرة وبدلاً من ذلك حصلت على معلومات عن زيارة جيسكار من بعض المصادر المتميزة «لچون بابتيست دومنج وأصدقائه، والذين كان لديهم جدولهم السياسى الخاص. جداً بهم. ومع أن الناخبين أبدوا دلائل ارتياح تجاه ذهاب «چيسكار» للقاء «وارسو» إلا أنه كان يشعر أنه فى حاجة إلى تطور مفاجئ ومثير وغريب يضمن فوزه. وهذا الموقف المفترض انقلب ضده وأصبح غلطة جباره. وعلى الأقل، فقد كلف فرنسا، التى كان من الممكن أن يجعل عدد سكانها الكبير من البولنديين والكاثوليك شريكه غريبه مثاليه للتضامن معها، الفرصة للعب دور فى المساعدة على إرشاد النظام الديمقراطى الذى ظهر فى فرنسا بعد ثلاثة أشهر من هذا اللقاء.

وخلال الحملة الانتخابية الرئاسية العنيفة سنة ١٩٨١، نظر الناخبون إلى لقاء وارسو على أنه خيانة من أجل مصلحة القيادة السوفيتية، وقد انتهز «فرنسوا ميتران» هذا اللقاء كمخرج له فى هذه الحملة الانتخابية الغريبة. وفى كل مناسبة، كان يشير إلى «چيسكار» بأنه عامل تلغرافى صغير من وارسو. وهكذا، فى أقل من عام بعد هذه الزيارة المظفرة لوارسو كان چيسكار ديستان قد خرج من منصبه، تاركاً المكان «لفرنسوا ميتران» وخزبه الاشتراكى، وبالمصادفة تضمنت حكومة «ميتران» الأولى بعض الأصدقاء

المقربين جداً لـ «دومنج» من الحزب الشيوعى الفرنسى.

وقد كانت هناك مناقشات جديرة بالاعتبار حتى بين أقرب مستشارى «چيسكار» حول ما قيل بالضبط بين «چيسكار» و«بريجنيف» خلال ساعات لقائهم المنفرد.

وعلى حد علمى، لم يتمكن أحد منهم أبدا أن يقرر بصورة قاطعة ما دار بينهما فى اللقاء، ولكن بعد انتهاء نظام «چيسكار» فى وقت لاحق، وكذلك نظام بريجنيف بعده مباشرة، أصبحت هذه الأسئلة غير المجابة مجردة ليس لها أهميه عمليه. ولكن الطعم السىء لها بقى فى فم كل مفكر مستقل تقريبا فى أوربا الشرقية، والتي أصبحت تنظر إلى فرنسا وخاصة إلى «چيسكار» باحتقار وهذه الذكريات لم تختف سريعا.

ومع أن هذه الرحلة كانت آخر تصرف لنظام فاشل فى كل من الدولتين، إلا أنها كانت تعد مثلاً جيداً للطريقة التى ناضلت بها إدارة «چيسكار» أثناء الحرب العالمية الثالثه- وذلك بالنظر إلى معسكر الأعداء عبر نظارات ورديه اللون، بدلا من نوعيه الشك الصحى المزمّن الذى يساند أفضل أنواع التجسس. والقبول غير المشكوك فيه لدوافع أعدائنا ليس له مكان حقيقى فى عملية جمع المعلومات (الاستخبار) أو صنع السياسة التى تؤدى إلى الانتصارات فى محيط الحربين العالميتين الثالثه والرابعة.

الفصل الثامن

الإرهابيون وغيرهم من الرومانسيين

وعادة وعلى نحو تقليدى يوجد عدد قليل من المجالات الهامة للامن القومى فى فرنسا والتي يتحكم فيها عن قرب من قصر الإليزيه حتى مع وجود المخابرات أو قوات عسكرية يتم استدعاؤها عند الحاجة واحد تلك المجالات الشئون الأفريقية، لأن فرنسا كان لها وجود ولفترة طويلة متصلة بأفريقيا والمجال الآخر هو قوة الردع النووية الفرنسية، المسماة بقوة الضرب. والمجال الثالث هو الإرهاب، لأنه من دواعى اهتمامات بقاء الجمهورية الفرنسية ذاتها وأمن كل فرد من مواطنيها.

ورغم هذا، أو ربما لأن، الرغبة الثانية لكل رئيس فرنسى، فلقد استفدت من البقاء قريبا منه، السيطرة على كل من المجالات الاستراتيجية الثلاث بجانب هذا فقد كنت أضعها فى مقدمة أولوياتى من أول يوم لى فى العمل. وقد علمت وبسرعة، ان دور فرنسا فى أفريقيا وادارتنا لقوة الردع النووية كانت فى ذلك الحين تحت أيدينا وبصورة طيبة. كما كان من الضرورى فقط التأكد من أن التقنية الميكانيكية تعمل فى مكانها كما هو مطلوب- جمع المعلومات اللازمة والعمل بها وفقا لرغبة الرئيس.. والأسبقية الوطنية الثالثة، الإرهاب، كان بالنسبة له اصعب مشكلة استراتيجية واجهتها، والتي لا يمكن تجنب الدعوة لتطبيقها بأعظم مالدينا من مهارات. فضلا عن هذا فقد تعلمنا، ولفترة طويلة تلك المنعطقات التى ننطلق إليها، وخلال فترة قصيرة جدا ومميّزة أيضا توصلنا إلى الذروة.

ومن خلال مجربات استعدادى لتولى شئون SDECE تعلمت دروسا حرجة عديدة من رجالنا السريين لمواجهة الإرهاب - كلاهما فى الداخل فى DST وفى الخارج وهى التى كنت أتولى توجيهها.

إن الإرهابيين هم قمة الرومانسيين - تعين من خلال اعتقادهم الاساسى بأنهم يساعدون قضيتهم عن طريق العنف. وفى وسطهم المعزول المشوة، فإنهم يسافرون معاً، ويعيشون معاً، ويأكلون معاً، ويجامعون معاً. كما انهم ينتظمون داخل خلايا متناهية الصغر - بها من خمسة إلى خمسين شخصا. لديهم الأبطال والأدغال الذين يعملون وفق هواهم. ولا يجب أن نعتقد انهم ويكل بساطه من المتعطشين لامتصاص الدماء. انهم يشعرون بالاحباط، كما انهم تافهون يعيشون فى دنيا الخيال. ومع ذلك وفى الواقع فإن الكثير منهم أذكاء. وبعد سنوات طويلة من مراقبتهم، يمكننى تفسير كيف يعملون.

لقد تعودنا أن نقول: «إن الحمار هو حصان الفقراء والعنز هى بقرة الفقراء. والارهاب هو مقاتل الفقراء». ولكن لكى يتم القيام بعملية ارهابيه واحده فان الامر يستدعى وجود قوة بشرية صغيرة جدا، وقدر فعال من المال. ومع هذا فان نتيجة اشتباك واحد واننى استخدم هذا المصطلح عن عمد، من الممكن أن تكون مميته وخطرة كمعظم الهجمات العسكريه المكثفه من جانب فرقة من القوات الضاربة والمسلحة تسليحا ثقيلًا.

والاسلوب الوحيد فى مقاومة الارهابيين من الناحية التكتيكية، ومعارضة للمفهوم الاستراتيجى هو النزول الى مستواهم. ويكل بساطة لأن تصبح واحدا منهم تماما - تسافر معهم، تنام معهم، تعمل معهم، وأحيانا لعدة سنوات.

وبالتأكيد، فإن المنظمات الاستخبارية الغربية القيادية نجحت كثيرا فى التسلل إلى الصفوف الكبيرة للشيوعية السوفيتيه، بجانب هذا فإننا نفهم الاستعداد الذهني للأوروبيين الشرقيين جيدا. وفوق كل ذلك، وكما شرحت لكل رئيس من رؤساء فرنسا ولأى عدد من زعماء العالم، انهم اوروبيون مثلنا.

أما. الارهابيون، مع بعض الاستثناءات، ليسوا على وجه العموم اوروبيين. وإذا كانوا اوروبيين - على سبيل المثال اللواء الأحمر، عصابه بادر - ماينهوف، وحتى الجيش الجمهوري الايرلندي - فإنهم اختاروا العديد من التكتيكات، وفى الواقع وفى كثير من الأحيان، تدريبوا فى نفس معسكرات التدريب، لأخوانهم الارهابيين فى العالم الاسلامي الذين اخترعوا التكتيك الذي يستخدمه الارهابيون الأوروبيون. أو أنهم يطبقون ذلك التكنيك الذي تعلموه من الكتله الشيوعيه وفى الوقت الذي يستمرون فيه فى صقلها واثقانها. ورغم أن معظم ارهابيي الشرق الأوسط الضارين قد تدريبوا على أيدي السوفييت، أو الألمان الشرقيين، أو خبراء الكتله الشيوعيه على استعمال السلاح أو أى تكنيك آخر، فإنهم فى هذه الأوقات، ولسوء الحظ، قد تفوقوا على مدربيهم. فضلا عن هذا فإن معظم سياسيينا الغربيين أو الشماليين لم يفهموا فهماً كاملاً عقليه الارهابيين. فضلا عن هذا فإنهم لا يعرفون أو يفهمون الأماكن التي يخرجون منها أو كيف ينشطون.

ولمقاومة الارهابيين، يجب علينا أولا أن نحرّمهم من القواعد الطبيعیه حيث يعملون ويتدربون. انهم فى حاجه الى السلاح. وأكثر من هذا فان بإمكانك شراء السلاح من أى مكان. كما أنهم فى حاجه إلى عدد قليل من الرجال.

ولكن لابد وأن يكون هؤلاء الرجال على مستوى عال من التدريب. بجانب هذا فان أى فلاح فى استطاعته أن يصنع خليطا من قنابل مولوتوف. لكن ليس بإمكانه أن يصنع متفجرا بالستيكية متقدما له زناد ثنائى ذى ارتفاع عال. وإذا ما قمنا بالضغط على الدول التى تأويهم، قبلى اين سيذهبون؟ إن جنودهم من المشاه يمكنهم التقهقر إلى اعماق الصحراء للتدريب. ومع هذا فان الصحارى مكشوفة إلى حد كبير ومعرضة لهجمات القاده. وإذا ما وقفت ما فى مكان ما قى الصحراء، ففى خلال خمس دقائق سقبض على خمسة رجال مع وجود ثلاثة أقمار صناعية للتجسس تراقبكم. إن الصحراء مكان موحش جدا وسيئ لكى يختبئ فيه قادة الارهاب. وأفضل مكان لهم هو المدينة الكبيرة - فى الشرق الأوسط، بالتأكيد، وعلى نحو متزايد فى أوروبا ذاتها.

ومن بعض الأمور فقد تعاملنا مع مشكلة الارهاب الدولى والى حد بعيد، بخبرة بسيطة أكثر مما تعاملنا مع مشكلة الارهاب الداخلى المتزايد فى فرنسا - الانفصاليين الكورسيكيين إن هؤلاء الكورسيكيين يمثلون نشاطا دائما على أرض فرنسية، وعنقهم، فى كثير من الأحيان يكون على صورة هجمات دموية موجهة إلى مكاتب ومؤسسات الحكومة الفرنسية، وحتى إلى كبار المسئولين الحكوميين. وخلال فترة خدمتى فى الـ SDECE قام الانفصاليون بوابل من الدعاية الجماهيرية يحثون فيها على القيام بحملة من العصيان المدنى والضرر المتعمد ضد فرنسا. وقد انبعث الكثير من تلك الدعاية من إحدى محطات الاذاعة وقاعدة فى الباء، وهى الجزيرة التى أبعد اليها نابليون عام ١٨١٤، والتى أصبحت حاليا ارضا ايطالية، ومن ثم فان الكورسيكيين يعتقدون أنهم بعيدون عن متناول العدالة الفرنسية. إلا أنه مع ذلك فإن السلطات الايطالية

متجهون اتجاهها آخر، ومن ثم قمنا بتفجير المنشأة بأكملها. وجزيرة الباهيا جبل كبير على شاطئها. وفي إحدى الليالي، غطت إحدى مجموعاتنا من رجال الكوماندوز، واتخذت طريقها إلى أعلى الجبل، حاملة معها ملابس إرهابيين. وفي اليوم التالي، أكملوا عملية الاستطلاع وهم بملابس الإرهابيين وفي تلك الليلة وزعوا شحنات المتفجرات حول المعسكر الكورسيكي بأكمله وفجروها كلها في وقت واحد. وفي خلال عشرين ثانية ضاع جهاز يقدر بسبعة ملايين دولار. وفي اليوم التالي، زعماء الإرهاب الكورسيكون لعقد اجتماع طارئ في مقرهم الرئيسي لمنفاهم داخل ليفورنو، بإيطاليا. وقد طلبت من أحد ضباط الصف الكورسيكيين التابعين لنا الاتصال هاتفيا بالمركز الرئيسي حيث كنا قد حصلنا على رقم تليفونه.

فقال بلهجة كورسيكية جيدة: «أتررون ما فعلنا بكم ليلة البارحة. والمرة القادمة سننسفكم أيضا، وليس الجهاز فقط..، وأفضل برهان لقدرتنا على فعل ذلك هو أنني أتحدث اليكم هاتفيا من المكان الذي تعقدون فيه اجتماعكم وعلى أعلى مستوى من السرية.

لم يحدث شيء، لمدة الأشهر الستة التالية - لا كلمة، ولا عمل، من جانب المقاومة الكورسيكية. فلقد تخلصنا من أحد عناصرهم الحاسمة - قاعدة تأمين العمليات.

وبعد ذلك بوقت قصير، قمت بتطوير خطة أخرى للتعامل مع الإرهابيين الكورسيكيين. فلقد تعرفنا وحددنا بدقة متناهية شخصية خمسة من كبار قادتهم. كما أنني أشرت على الرئيس چيسكار دستان، بأن نأخذ أول اسم

ارهابى فى القائمة ونجعله يختفى. وبعد فترة، نأخذ الاسم الثانى فى القائمة. ونعمل نفس الشئ.

بجانب ذلك فقد قلت للرئيس، ونحن جلوس فى مكتبه بقصر الأليزيه: «لن نحصل أبدا على الاسم الثالث فى القائمة. إن هؤلاء الناس يرغبون فى العيش والتمتع بالحياة. انهم ليسوا مثل البعض من المتعصبين الشرقى أو سطين أو اليابانيين الذين على أتم استعداد بأن يضحوا بحياتهم من أجل قضية يؤمنون بها. إن لديهم الأموال. انهم يعيشون فى قصور فخمة، مع فتيات. انهم أبطال عظام داخل وسطهم الصغير. كما أنهم يحبونه. انهم لا يريدون أن يموتوا».

إلا أن الرئيس لن يحبز هذا العمل غير القانونى.

بجانب هذا فإن مثل ذلك الاستراتيجيه لن تتلاءم مع أبى نضال أو كارلوس أو أى ارهابى من الشرق الأوسط أو اليابان. أنهم لا يعبأون بالموت. وبالنسبة لهم لا بد وأن توجد وسائل أخرى للهجوم. لا بد وأن نتسلل إلى كل خليه من خلاياهم لنعرف العمليات التى يخططونها يوما بيوم، اسبوعا بأسبوع.

وعن طريق الوسائل السياسية والدبلوماسية، وفى النهاية بالقوة العسكرية المطلقة إذا لزم الأمر، لا بد أيضا أن نزيل القواعد التى تساندهم، وأن نعمل، فى تحييد تلك الدول التى أصبحت أعداءنا الطبيعيين، وباحتضار، وفى الواقع المشاركة فى الحرب العالمية الرابعة كما فعلنا فى الحروب الثلاث التى سبقتها فى هذا القرن.

ونحن الفرنسيون كنا دائما مؤثرين إلى حد كبير عن الأمريكين فى اختراق الجماعات الاسلاميه، كما أننا اصبحنا مشهورين بخبرتنا. علاوة على ذلك فان

القرن والنصف الذى قضيناه كقوة استعمارية أورثنا ميراثا لا يقدر بثمن من عدد كامل من مصغر للورنس العرب. بالاضافه إلى هذا فان لدى عدداً من الناس فى الدول العربية ممن يتحدثون اللغة العربيه وفى الحقيقه لا يمكن تمييزهم عن العرب. وكان العديد منهم من الضباط السابقين فرقه الجمل، من الفيالق التى تشارك فى ركوب الجمال ويشبهون العرب.» وكان أحد العملاء طبيبا قضى أكثر من عقد محترقاً قلب أحد المنظمات الارهابيه الشرقى أوسطيه. ومع هذا وفى أحد الأيام، اكتشف الارهابيون هذا الشخص الذى يعمل فى الظلام وسطهم، واختفى الطبيب بكل بساطة تماما. وعملية الاختراق فانها تستغرق من عشرة، خمسـه عشر أو أكثر من الأعوام. ومن ثم فعليك أن تبدأ مع العميل وهو شاب، كما أنه يجب عليه أن يتخذ طريقه متسللا داخل هذا التنظيم ويكبر معه، ويصبح جزءا لا يتجزأ منها، ويصبح فى أحد الأيام أحد القادة.

وهكذا فقد خدم عملاؤنا فى أفريقيا مصالح فرنسا القوميه فى مناسبات عدة ويحذورننا من العمليات الارهابيه، ويحولون دون وقوع أى حوادث ارهابيه والتى من المحتمل أن تكون سببا فى موت ودمار لا يمكن تصوره. هذا وقد أغتيل أحد هؤلاء الضباط فى شهر سبتمبر ١٩٨٩ فى ابيدجان. ولقد كان يخدم مصالح فيلكس هويهوت - يويتى، رئيس ساحل العاج، بمراقبته عن كثب أنشطه بعض الفتيان الفاسدين - والتى اصبحت قريبة جدا. ولمدة عشرين عاما، كنت أقول لهويهوت، «لاتدع أفراداً من الشرق الأوسط يأتون إلى بلدكم لأنهم سي جلبون مشكلاتهم معهم». تلك بعد عشر سنوات من الاستماع إلى نسى فى النهاية نصيحتى، وقد أعجبتـه الرغبة لأن يصبح ساحل العاج ملاذا حقيقيا للاجئين السياسيين من كافه الأنواع - ويقول بغض الناس،

أن جزءاً من طلبه المحير والذي لا طائل تحته كان من أجل الحصول على جائزة نوبل للسلام. بجانب هذا فقد كان الرئيس هوبهوت يأمل من ترحيبه بتلك العناصر الارهابية علانيه أنه سيعزل بلاده عن هجمات الارهابيين - وأسفاه، توقع مفرط في التفاؤل. بجانب ذلك فان هؤلاء الذين منحهم هوبهوت الملجأ بدأوا في الواقع في العمل وقتل بعضهم البعض في ابيدجان. وباستخدامهم لساحل العاج كقاعدة، كان في مقدورهم السفر إلى حد كبير وكان كل منهم يحمل اثني عشر جواز سفر أو أكثر، وكلها دون استثناء تحمل اسماء متماثله وصورا غير محددة الشكل، وكانت تعمل أى شخص شبه الكل ولكن من المستحيل اقتفاء اثره. وفي الحقيقة فان تواجد الارهاب في ساحل العاج أصبح أحد اهتمامات الحكومة الفرنسية لانها اعتبرته أمن مستعمرتها القديمه والتي تعتبر مرتكزا لسياستها الأفريقية. وأكثر من هذا، وبالروابط المختاره بين ساحل العاج وفرنسا، فقد كان السهل، الهروب المباشر لأى ارهابى أو متعاطف مع. وهكذا فإنه في أحد الايام، عندما حضر هوبهوت إلى باريس وقال «لا يوجد عندي من يراقبهم» وهنا أحضرت له واحدا. فقد كان عندي أحد ضباطى الممتازين المخلصين كان لتوه قد أحيل إلى الاستيداع، أرسلته إلى أبيدجان. لقد كان كفتاً جداً. وأسفاه، فقد تدخل في الاماكن التى لم يكن من الواجب أن يكون فيها. وفي أقل من عام، كان ميتا.

وكان هناك حادثه أخرى مثيرة جدا في أواخر السبعينيات. فقد تصادف أن تقابل عضوان من الفلسطينيين القياديين من إحدى الخلايا مع فنانتين فرنسيتين شابتين في أحد النوادي الليلية في حيفا، المصيف على البحر الأحمر والذي اكتشف الكثير من الشباب الفرنسى أنه ملتجأ جميل تماما. وقد قام

الفلسطينيان بمصادقة الفاتتين الفرنسيتين الشابتين الرقيقتين، وناما معهما، ثم قالا أن لديهما بعض الهدايا يريدان ارسالها إلى أمهما التي تعيش، كما قالا للفنانتين، في فرنسا، وبطبيعة الحال، وضعت الفنانتان - قنابل من المحتمل انفجارها بعد وصولهما إلى فرنسا - في حقائب ملابسهما. ولم يقبض أبداً على الارهابيين. ولكن حيث أن لنا عميلاً في الجماعة التي صنعت القنبلة، استطعنا أن نحذر سلطات الجمارك بوقت وصولهم المتوقع. وتم اكتشاف القنابل وبسرعة تم ابطال مفعولها. وهكذا تم تجنب حدوث كارثة مهولة في وسط باريس.

ورغم هذا فان احراق خلايا الارهاب في القاعدة يعتبر أكثر بقليل من الاشتباك العسكري المعادل لمستوى السرية - عنصر فردى، معزول عن احدى الحملات في مسرح الأحداث الحربية بأكمله - وفي النهاية، فقد كان من الضروري التحرك على سلم المسئولية، ونضع ونفحص الاستراتيجيه على الاساس العلوم السياسية الطبيعیه، وكذلك التكتيكية. وهكذا فان الكثير من أصدقائنا وفي الشرق الأوسط من المحتمل أن يدركوا الصياغة الجديدة للقول المأثور لكوزويتس، «إن الارهاب حرب بوسائل اخرى. وطوال السبعينيات وإلى الثمانينات، أصبح الارهاب القوة الضاربة الاساسية لاعدائنا في الحرب العالميه الرابعه. ومع هذا فقد كان لها ايضا سقطه هامة داخل الدول العربيه المعتدله في الشرق الأوسط، والتي كان يشعر قادتها بفرع متكرر من وحشية جيرانهم الأكثر راديكالية والتي كانوا يرتكبونها بهدف السلطة والجشع. وقد ادركت في رقت مبكر أن حلفاءنا الطبيعيين في الحرب العالميه الرابعه كانت تلك الدول لمعتدلة في الجنوب والتي ادركت أن مصلحتها الذاتية الاساسية، في الحقيقه هي أمنهم وحياتهم، بمعنى وضع قدرهم في ايدينا. هذا وقد تماثلت تلك الدول

المعتدله، مدفوعين بشعور الكراهية لأعمال جيرانهم البرابرة، مع الاهتمام الأكثر عملية للحفاظ على نوعيه من النظام العالمى، ولذا انضموا إلى بعض قادة المخابرات الغربية لتشكيل ما عرف بأنه نادى الرحلات (سفارى).

ونادى السفارى (الرحلات)، مجموعة غير عادية وغير معروفة حقيقه، تم تنظيمه خلال أزمة النفط عام ١٩٧٣، وهى أخطر فترة بالنسبه للغرب. وكثيرا ما كان من النادر الادراك بأن تلك الفترة من خطر شحن النفط كان من اكثر الفترات خطورة على الشرق الأوسط ايضا وذلك عندما كان الاطار الهش للاقتصاد الدولى والذى اعتمد عليه العالم المنتج للنفط حيث كان العائد فى خطر شديد. ولقد اعتقدت أنه من الأمور الحيويه أن نجتمع بعض الممثلين الرئيسيين للعالم الاسلامى والغرب لتكوين جبهه متحده فى مواجهة العناصر غير المسئولة والذين من المحتمل أن ينتهزوا تلك الأزمة الاقتصادية لاثارة مواجهة دبلوماسيه أو عسكريه على النطاق العالمى.

وكان أول اتصالاتى بشأن ايران، وملكوك السعودية والمغرب، والرئيس المصرى أنور السادات. وقمت بزيارة شخصية لكل من تلك الشخصيات، وأغراءه بالاقبال على تلك الفكرة و فى حالة إذا ما انضمنا إلى تلك القوة فمن المحتمل أن نخرج من تلك الأزمة أكثر قوة وأكثر تفاهماً للكيفيه التى ربما يتعامل بها بعضنا البعض فى المستقبل لتجنب تكرارها. وفى نفس الوقت، فإن الاجتماعات الدورية بالامكان أن تصلح لتكون وسيلة لتبادل الاستخبارات بخصوص العمليات التى يقوم بها جيرانهم المتطرفون راديكاليا. ولقد كنت صريحاً فى مناقشاتى مع كل من هؤلاء الزعماء للتأكيد على أننى، فى الوقت

الذى كان فيه الرئيس الفرنسى على علم بأعمالى، لا أعمل بصفتى الشخصية كمدير لـ SDECE لكن بالاحرى لتسهيل الأمور بصفة شخصية وذلك لأن سياستى العملية كانت معروفة لكل واحد من هؤلاء الزعماء.

وكانت اجتماعاتنا متتالية فى العواصم المختلفة لبلد كل منهم على أساس دورى. بجانب هذا فقد كان لنادى السفارى قنواته الاذاعية الخاصة، وشفرته واجهزته الخاصة. وكانت كل دولة على وجه العموم ممثلة إما برئيس مخابراتها أو مستشار الأمن القومى لرئيس الدولة. وعلى سبيل المثال، فقد كان هناك اللواء أحمد دليمى، المستشار الأول للملك حسن الثانى ملك المغرب، ومن مصر جاء رئيس المخابرات العامة، - قوات الأمن والمخابرات -. ومن ايران جاء لواء بأربع نجوم والذى كان يرأس جهاز السافاك وكان يعمل كمساعد للمشاة والنائب الأول لرئيس وزراء ايران، اللواء نعمة الله ناصرى.

وفى أحد اجتماعات نادى السفارى والتى جاءت على وجه الخصوص بسبب الاسلوب الغريب الذى وحدث به خيوط الحرب الثالثة والرابعة العالميتين. وقد عقدت الدورة فى المغرب وبعد حل أزمة النفط عام ١٩٧٣ - ٧٤ كان اجتماعنا فى الرباط، وحضر كل مشارك فى طائرته النفائث الخاصة. وقد طلبت من المغاربة أن يضعوا طائرتى، من طراز ميستير ٢٠، فى ساليه، مطار الرباط، بنهاية نطاق المطار، وحيث ان الطائرة كانت تحمل العلم الفرنسى الثلاثى الألوان الخاص باحدى الطائرات الرسمية، فقد شعرت بأنه لابد وأن نظل بعيداً عن العيون. بقيت فى الرباط لمدة يومين. وفى صباح اليوم الثانى، كانت الشرطه المغربيه تقوم بدورية بالطريق الصغير خارج المطار المجاور للقطاع الذى تقف

فيه طائرات، على بعد يقرب من الثلاثين يارده. وفي الساعة السادسة صباحاً، اكتشفت الشرطة وجود سيارة وبداخلها رجل ويخرج رأسه من النافذة وهو يحدق في اتجاه طائرتي.

وقد سألوه «ياسيدى، ما الذى تفعله هناك».

أجاب بطريقة تدعو إلى الشك اننى « استنشق هواء المغرب المنعش فى الصباح».

وقد قال لى رجل الشرطة مستمرا فى حديثه «حسنا، هذا شئ جميل، لكن ذلك اهتمام بتلك الطائرة التى تحملق فيها وأنت تراقبها لمدة خمس عشرة دقيقة السابقة؟».

«نعم، اننى أحب النظر إلى الطائرة. ليس هناك أى شئ غير قانونى فى ذلك، أليس كذلك؟»

وقال الضابط «هل لى أن أسأل من تكون؟»

اننى سكرتير أول السفارة البلغارية فى المغرب».

لم يكن معروفا عن البلغاريين خبثهم بأمور التجسس، لكنهم معروفون بوحشيتهم. وأكثر من هذا، فلم يكن هناك شئ قانونى فيما كانوا يفعلونه وليس هناك من سبب لاحتجاز هذا الدبلوماسى. لكن كان واضحا أن هناك اهتماماً إلى حد كبير فى علميات نادى السفارى. وفى ذلك الوقت، كان متورطاً إلى حد خطير بالامبراطورية السوفيتية فى الحرب العالمية الثالثة. لقد كان السوفييت نشطين فى كل مكان فى العالم، ولكن على وجه الخصوص،

حيث كانوا يعتقدون أنهم ربما يجدون حلفاء قادرين على مهاجمة وحدات عدم استقرار لأعدائهم في الغرب. وقد أثار نادي السفاري الاهتمام إلى حد كبير بجانب أحداثه قلقلًا ليس فقط للسوفييت ، بل أيضا لأصدقائهم في الشرق الأوسط ، والذين كانت تسعى موسكو وعلى نحو متواصل لتشجيعهم ورعايتهم.

وبعد الغداء في آخر يوم، تركنا المكان للعودة إلى عواصم بلادنا على التوالي. وكما كنت معتادا أن أفعل بعد كل وحدة فقد ذكرت كافه المشاركين بأن يهتموا كثيرا بأماكن تركهم محافظتهم المحليه ومن الذى له حق حرية الوصول الى اوراقهم السريه وفي المساء، طرت عائداً إلى باريس، ووصلت إلى المكتب وسجلت اسمي، ثم توجهت إلى البيت ومباشرة إلى السرير. وفي حوال الساعة ١٠.٠٠ صباحا، دق جرس التليفون، وكان على الخط الضابط المنوب عن المكتب المركزى.

بدأ يقوله: «سيدى المدير العام، اننى أسف لاقلاقك، لكن على ما يبدو أنه قبل سفره إلى طهران، فقد توقف اللواء ناصرى لقضاء ليلة في الميس ليتناول طعام الغداء مع السيده حرمه وبعض الأصدقاء. وفي الوقت الذى كان يتناول فيه الغداء في الميس، تم السطو على شقته ليلا. كان بها قدر كبير من المال والجواهر، ولكن لم يختف شئ.

وعلى الفور علمت بما حدث، وفورا اتصلت هاتفيا باللواء ناصر، وهو رئيس جهاز السافاك وصديق طفولة موثوق به وزميل دراسة للشاه، كان يميل لاتخاذ إلى حد ما العديد من الاحتياطات التى تتسم بالفروسية والتى يتخذها

اخصائيو المخابرات المحترفون باهتمام مفرط. وعلى الأقل، فقد كان موقفه فى وطنه كما كان يشعر لا يمكن مهاجمته ويعطيه حقوقا وحتى امتيازات، والتي كانت بكل ما فى الكلمة من معنى بعيدة عن مكان موقعه. لقد كانت مجرد اشارة للعشاء الذى كان بادئا فى ذلك الحين ينهش فى ايران فى ظل حكم الشاه. وبسرعة اتصلت بناصرى تليفونيا. يا صديقى العزيز، يا عزيزى اللواء، آمل ألا يكون معك شئ من أوراقك» بدأت معه حديثى.

أجاب : « آه، اطلاقا، بالطبع لا. الحمد لله لقد ارسلها مباشرة من المغرب إلى طهران.

لقد عرفت أنه يكذب. لكن فى صباح اليوم التالى، للتأكد من صحة افتراضاتى: أرسلت رسالة إلى المغاربة، طالبا قائمة بكل الطائرات الخاصة أو التجارية التى أقلعت من المغرب مع خطه الطيران إلى طهران فى اليوم السابق. وجاء لى الرد الذى توقعته - لم تكن هناك.

وهكذا عرفنى. لقد عرف ذلك البلغارى الذى كان يراقب الطائرات فى الصباح بموعد اقلاع طائرة ناصرى. وقد حذر البلغارىون نظراءهم السوفييت، الذين راقبوا شقة ناصرى فى الميس عن كثب، بعدئذ قاموا باقتحام الشقه فى نفس تلك الليلة - الليلة الوحيدة التى سيكون فيها على بعد مؤثر، معرض للهجوم الشامل والصريح لرجالهم السريين. لقد أعجبت بتنظيمهم، ولكننى أصبحت لأن أعرف وذلك من أجل التأكد إذا ما كانوا قد حصلوا على ما جاءوا من أجله.

وفى اليوم التالى، وذلك بعد يومين من فض اجتماع نادى السفارى واليوم الذى عاد فيه ناصرى الى طهران، طلبت من المغاربة ارسال رسالة، بشفرة نادى

السفاري، إلى اللواء ناصري في طهران للتأكد من الحادثة وطلب تفاصيل حادثه السطو الليلي. لتكون ضمن الملفات. لكن الشفرة كانت قد ضاعت منه حيث أنها كانت ضمن الأوراق التي سرقت من شقته. ولم يجب اطلاقاً على الرسالة الشفريه حيث انه لم يستطع أن يقرأها. وقد علمنا في حينه أن الجانب الآخر حصل على الشفرة - تلك الشفرة التي كانت تتغير بعد كل اجتماع وأن تلك التي ناصري يحملها في محفظته الجلديه والتي لم تعد في حوزته.

لقد كنا مجبرين على تغيير الشفرة فوراً. وبمعلومات حول مداولاتنا، تمكن السوفييت من إحراز العديد من النقاط في الواقع مع كثير من تلك الامم الشرق اوسطية والتي استثنيناها عن عمد من نادي السفاري.

وكانت احدى الدول التي تم استثنائها من نادي السفاري، وهي العراق، رغم أنه منذ عام ١٩٧٠، كان التقارب المثير بين فرنسا والعراق يعتبر حجر الزاوية للسياسة الفرنسية في الشرق الأوسط لقد كان هذا التقارب جزءاً من خطة متعمدة ومدروسة تم تصورها على أعلى المستويات للجمهورية الفرنسية للعمل في النصف الثاني للمعادلة المناهضة للارهاب - لابعاد التأيد على المستوى الحكومي التوجيه من الجماعات الارهابيه، وعزل الدول المرتدة الواحده تلو الأخرى وبشكل مؤثر، وهي التي تستعد للدخول في معارك ضده في الحرب العالميه الرابعه.

وفي ذلك الوقت، كان أمامنا جدول أعمال متساو في أهميته فيما يتعلق بالعراق - واحدة كانت أكثر صلة بالعلوم السياسية الطبيعية عن اهتمامات بعض جيران العراق، والذين يخشون بجلاء أكثر من يحول بغداد التوسعية.

وكان جدول أعمالنا الآخر مرتبطا بأولوياتنا المباشرة لمقاومة الحرب العالمية الثالثة.. وكان قصدنا المحاولة بيأس لإبعاد صدام حسين وبلاده عن السيطرة الشاملة للروس، والذين كانوا يخسرون أرضا فى هذا الجزء من العالم - وأجبروا على الخروج من بلد تلو الآخر لأسباب سياسية، أو عسكرية أو دينية. وفى الواقع، فقد كان العراق آخر خيول السوفييت التى يتسترون وراءها لصيد الفريسه وكانت موسكو تأمل فى استغلال الطموحات السياسية الطبيعية لبغداد واستخدامها للهجوم على الغرب فى كل مناسبة.

لقد كان انهماكى مع العراقيين بسيطا. و لم أقل، ويجب أن تخلصوا انفسكم من الروس وترقموا فى احضان المغرب. وبكل وضوح، لم يكن من المحتمل أن تقبل بغداد مثل ذلك السخف الواضح - على الأقل من وجهة نظرهم - وعدم الاشارة إلى المشورة الخطرة. وفوق كل هذا، فقد كان السوفييت ممولا العراق الأول بالسلاح. بجانب هذا فقد كانت مناقشتى بسيطة جدا: «ألا تعتقدون أنه يجب عليكم أن تبتعدوا عن المخاطر ويكون لكم أصدقاء فى الغرب».

وبعد أن وجد الرئيس المصرى السادات أنه من الحكمة أن يطرد مستشاريه الروس، اصبح واضحا على نحو متزايد للصدام أن نصيحتى كانت سليمة وقد بنى قرار صدام على تفاعل معقد للاحتياجات والرغبات الممتزجة بكثير من المخاوف الشرق أو سطيه التقليديه. أولا، فقد اتضح له، كما كان الحال بالنسبة للسادات، أن السوفييت دون ريب ممولون للسلاح والذخيرة ليعتمد عليهم. كان لا يمكن الاعتماد عليهم لسبب الاسعار المرتفعة والتى كانوا يستعدون

لانتزاعها بالكامل لكل ذبابة غير قياسية أو مدفع ميدان من الدرجة الثالثة، والأجهزة التي لا تتماثل مع أى من الذخيرة التي يقوم الغرب بامداد جيران العراق، واعدائه الاحتماليين بها. هذا ولم تكن كارثة الجيوش العربيه فى معاركها مع اسرائيل فى ١٩١٧، ١٩٧٣ تقع على عائق صدام وقد تحقق صدام بكل وضوح أن الامداد المضمون من الغرب، وعلى وجه الخصوص من فرنسا، للسلاح والذي كان يدفع ثمنه بالدولارات النفطية التي كانت تتدفق دون تعصب إلى خزانه حرية القومية، كانت أفضل من الاسلحة السوفيتية الرديئة والتي يتم دفع ثمنها بعملة الامتثال الايديولوجية. كما أنه، وبالتخطيط المستقبلى الواضح، لم يكن مستعدا لقبول أى فيتو احتمالى لخطته التوسعية فى المنطقة. ويتجنبه الرهان على الغرب والشرق، فقد اعتقد صدام أن مثل ذلك الفيتو من المحتمل أن يكون والى حد كبير أقل قوة فى تنفيذه.

لقد كانت مقابلتى الأولى لسعدون شاكر فى أوائل السبعينيات، وقد كان هذا الرجل اليد اليمنى ومحل ثقة صدام حسين. وكان شاكر فى ذلك الوقت يعمل كرئيس لادارة المخابرات العامة، تلك المخابرات الخطرة، والتي كانت تعمل كعيون وآذان صدام فى الخارج والمساندة من داخل تنظيم حزب البعث. وعلى طول البلاد، فان صدام ممسك بزمام الحكم بيد من حديد، كما أن هؤلاء الذين يشكلون فريقه كانوا قساة، وقد شقوا طريقهم إلى السلطة عنوة بالقوة العضلية، ويقومون بتنفيذ حكم الاعدام فى أعدائهم على طول الطريق إلا أن سعدون كان شابا، حسن المظهر. ذكيا، وجذابا، كما كان قاسيا.

وفى أحد الأيام، ليس بفترة طويلة بعد أن توليت سلطاتى، جاء سعدون

لزيارتى فى باريس. تناولنا طعام الغداء فى مكتبى برئاسة الـ SDECE كان بصحبته أحد مساعديه ، وكان معى واحد من خبرائى فى شئون الشرق الأوسط.

وفى الوقت الذى كان نقدم فيه القهوة بعد الغداء التفت إلى سعدون وبدأت فى القول:

«إذا سمحتم لى معاليكم، فإننى سوف أتحديث بفضاظة بل بقسوة إن شعورى إزاء بلدكم يكاد يكون حزيناً. انكم تحتاجون فقط للتوجيه إلى متحف العاديات فى بغداد لتتعرفوا على تاريخكم وماضيكم بين أعتى الخبرات البشرية، أكثر قدما حتى عن مصر. أما اليوم فإنكم الوحيدون فى العالم العربى الذين تملكون المياه والنفط. اذا كنتم تؤثرون ذلك، ومعاليكم - قد قدر أن معظم الدول والمتوافر لديهم ، الماء ليس لديهم فقط والعكس بالعكس. وهذا أمر غريب، ربما، ولكن هذا هو الحال. أما انتم فإنكم حالة مستثناة. ويفضل الانهار الضخمة التى تأتى من جبال القوقاز وطورمس، ودجلة والفرات، فلديكم الماء بوفرة، وكما أكد لى خبراءؤكم (والتفت وأنا ابتسم لمساعدى). وامكانيات خرافية من المعادن والنفط. والبعض يزيد فى اعتباركم انكم تأتون فى المرتبة الثانية بعد السعوديه. كما أنكم أيضا تعتبرون - ويمكن تبريره تماما - أنكم الشعب البروسى فى العالم العربى - أعظم المحاربين. فما الذى تفعلونه فى الوقت الراهن؟».

وتركت السؤال معلقا فى الوقت الذى كنا فيه نغادر قاعة مائدة الطعام وانتقلنا إلى المقاعد الجلديه ذات المسافه المريحه فى مكتبى. جلس سعدون

على نفس الكنبه الطويلة التى جلس عليها جيسكار دستان خلال أول غداء فى مكتبى.

ثم استأنفت «إذن ما الذى يشغلکم بين هذا الماضى الهائل ومستقبل ربما يودى بكم إلى انتصارات غير عادية والثروة مرة أخرى؟ أنکم تقومون بأعمال ضئيلة تدل على الحمق فى القرى الجبلية. انکم تمارسون أعمالا ارهابيه أولية.»

قفز سعدون واقفا على قدميه معترضا. مددت يدي فى هدوء وأشرت عليه بالعودة الى الكرسي.

«حشاشون» عبرت عما جال فى ذهني من غير تردد، الكلمه العربيه للحشاشين فى عهد الحروب الصليبيه. انکم تقبضون على شبابکم، كما كان الاتراك يقبضون على الانكشاريين. لقد وضعوا هؤلاء الشباب فى أحد القصور - جنه حقيقيه فى الأرض - وأروهم حدائق القصر، أرضا عجيبه حيث تغنى الطيور كما كان هنالك نساء جميلات. ويبقى الشباب هناك لمدة يومين أو ثلاثه أيام فقط، وبعد ذلك تخرجوهم ويصبحون حشاشين ولقد كان ذلك فى العصور الوسطى، لكنکم تفعلون نفس الشئ فى عراق اليوم.

أننى لا أسألكم إذا كنتم تساعدون الإرهابيين، أننى أخبرکم، وقد استمرت. وقمت باخراج دفتر تقويم صغير من جيبى.

وبدأت أقول وأنا افتحه «اليس هذا حقاً فى انه فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو قمتم بإرسال شيك قيمته مائه الف دولار لأحد الأشخاص فى القاهره؟» وذكرت له اسمه هذا الشخص والحساب المصرفى. احمر وجه سعدون خجلا وقال «نعم». وعرضت الكتاب عليه «وبعد سته شهور ألم ترسلوا له شيكا آخر، بهذا الرقم؟»

أجاب بهدوء « صحيح ». « هل لى أن استمر ؟ »

قال « كلا ، معى رسالة ».

لقد كان واضحاً بصورة متساوية مما كان يدور فى ذهن سعدون من أفكار -
ربما كان هنا ويجد فى الحقيقه شخصاً ما يمكننا التحدث معه ؛ وربما كان
تخليص العراق من الارهابيين، كان أدنى ثمن تدفعه بغداد من أجل السلاح
الغربى الذى تحتاج اليه بصورة بائسه.

فى ذلك الحين بدأ صدام حسين فى التفكير ملياً بأن الارهابيين سواء أكانوا
من أمريكا الجنوبيه، أو أوروبا، أو أفريقيا، أو الشرق الأوسط أو اليابان،
حلفاء لايمكن الاعتماد عليهم بوضوح. وفى الوقت الذى استمر فيه فى تقديمه
العقوى المعنوى والمالى لبعض العناصر من منظمة التحرير الفلسطينيه، ادرك
بكل وضوح أن المنظمات الارهابية وأجنحتها العسكريه العامله داخل العراق
كانت قادرة على اشاعه عدم الاستقرار فى بلده بدرجة مساوية للديمقراطيات
الغريبه. لقد كان ذلك نفس النوع من الاهتمام الذى ادى بملك الأردن حسين
لطرده منظمة التحرير الفلسطينيه. وخلال عام ١٩٧٨، كان من المحتمل أن
تغلق بغداد مكاتب منظمة فتح التابعة لمنظمه التحرير الفلسطينيه فى العراق
وايقاف المعونه المالىة لمنظمة التحرير الفلسطينيه نفسها . (رغم أنه بالنسبه
لبعض من زمريتها) والاستيلاء على مصانع السلاح التابع لمنظمة فتح،
ومصادرة كميات كبيرة من السلاح فى العراق والتي تنقل من الصين إلى قوات
منظمة التحرير الفلسطينيه فى لبنان. هذا وكان قد تم طرد معظم الأعضاء
الأساسيين فيما يسمى بجبهة الرفض الفلسطينيه (سميت هذا لرفضها أى

تسويه تعقدتها منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل) من العراق. وتضمنت تلك المجموعات جبهة جورج حبش الشعبية لتحرير فلسطين . والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي يقودها العقل المدبر للهجوم على أخيل لوارو، أبو العباس، وفرع العمليات الخاصة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بقيادة وديع حداد، ومنظمه فتح - المجلس الثوري، بقيادة أبو نضال السيئ السمعة. وفي النهاية انتهى جميعهم في سوريا وإيران، الدولتين اللتين تعتبران من الد أعداء العراق ومنافسيه للسيطرة الاقليمية.

الشرق اوسطية.

وإذا ما تخيلنا إذا ما كان في مقدور صدام حسين، خلال عمليات عاصفة الصحراء، أن يحشد ذلك النوع من التأمين الارهابي، والذي بإمكان ايران أو سوريا أن تستدعيه هذه الأيام من بين تلك العناصر التي منحوها الملاذ. في هذه الحالة حقيقه لكان العالم قد تحول إلى جحيم فوضوي يدل على الغباء. غير أنه تم احتواء الارهابيين وقيدت حركتهم بسبب عداء زعماء سوريا وإيران، اللذين يسيطران ويدعمان العمليات الارهابيه، لصدام حسين. بجانب هذا فان هؤلاء القادة الوطنيين الآخرين الذين من المحتمل أن يطلقوا العنان لموجة الارهاب على الشمال، بدلا من ذلك انتهزوا الفرصة لاستخدام القوات المتحالفة للقيام بعمل مالم تتمكن قواتهم العسكرية الخاصة بتحقيقه - تحييد العراق، الجيش الوحيد والأكثرها قوة في الشرق الأوسط.

وباختصار، فان الاسس التي وضعناها منذ أكثر من عقد مضى مكنتنا من أن نستخدم العواطف الجياشه التي قسمت أعداءنا في الحرب العالمية الرابعة وتحولها لمصلحتنا في حملة عاصفه الصحراء.

وفى أول ليلة تقابلت بها مع سعدون شاكر فى مكتبى، أبدأ حوارا بيننا نحن الاثنين كان من المحتمل أن يستمر لعدة سنوات، حوار أدى إلى قيامى بأول زيارة رسمية لبغداد عام ١٩٧٤ لمقابلة صدام حسين نفسه. ولقد اخبرت الأمريكيين بنوايا - أن استميل صدام حسين الى جانب الغرب وأحرم الارهابيين من قواعدهم فى تلك الدولة. ولذا شرعت فى القيام برحلات مكوكية منتظمة إلى بغداد، وسلسلة من الاجتماعات مع صدام. وفى احدى تلك الزيارات، سألتنى لمصاحبتة إلى استاد بغداد الكبير.

قلت «بالتأكيد، طالما أننى فى أحد الأركان حيث لا يرانى أحد». لكن بينما كانت الأمور تأخذ مجراها، وجدت نفسى قد وقعت فى شرك بجواره فى الوقت الذى تركت فيه حاشيته موكب السيارات وتحركوا خلال الحشود من العراقيين إلى الاستاد ذاته. وفى الاستاد فى ذلك اليوم القائظ الحرارة فى الصيف كان هناك بحر من البشر لديه رغبة واحدة - لمبايعة زعيمهم الأوحده. وكانت المناسبة منح الميداليات العسكرية لابطال الحرب ضد العدو الكريه، ايران. وكان الروس هناك بملابسهم العسكرية - والجميع متألق فى زيهِ الرسمى، وكان من بينهم مسئول الـ كى جى بى بكتفتيتهم الحمراء. وقد استمر أحد الجنرالات فى الاشارة إلى الفرنسي الضخم الجالس بجوار صدام، متسائلا «من يكون» من يكون؟» لقد كان دون شك مندهشا عندما عرف فيما بعد أن الضيف الرسمى هو مدير الـ SDECE.

وحتى عندما هذبنا صدام حسين، وبدأنا فى بيعه طائرات جويه وذخيرة، كنا نراقب باستمرار اعادة السوفييت المستمرة لامداد العراق بالقوات العسكرية،

وعلى الأخص صواريخ سكود القوية والتي ربما كانت السلاح الوحيد المؤثر ضد القوات الاسرائيلية والحلفاء خلال حرب الخليج. وبعدم قطع العلاقات الدبلوماسية، والعسكرية والاستخبارية مع العراق، كان في مقدورنا كذلك أن نظل على تلقى المعلومات وبشكل معتدل عن حالة القدرات العسكرية العراقية. وقد تحول هذا النوع من الاستخبارات ليكون له قيمته التي لا تقدر بثمن وذلك عندما هبت القوات المسلحة لعاصفه الصحراء في النهاية ضد ما آمنت به الحكمة التقليدية بأن آله عسكرية عراقية التي تقريبا لا تقهر.

لقد كان صدام نفسه في ذلك الوقت رجلا مؤثرا تماما - مكتمل الرجولة، طويلا، وقويا وحسن الطلعه إلى حد ما. لقد كان الرجل حاكما مستبدًا، دون شك، لكنه قادر على التأثير لاخلاص اتباعه بصورة غير عادية.

وعندما قابلته، لقد كان ذلك بشكل عام في مكتبه الخاص بقصر الرئاسة المزخرف. وكان سعدون شاكر في العادة بجانبه ولم يكن هناك ما يشير الدهشه على وجه الخصوص عندما طرقت مسألة دعم العراق للارهاب الدولي. وفي كل مرة، كان صدام يتلقى تأكيداتى دون تعليق. لقد كان سعدون يلخص له كل شئ جيدا، وكان من الواضح أنه قد استقر رأيه على المشكلات الاساسيه - قطع العلاقات مع الارهابيين والتحرك تجاه القوى الكبرى للغرب والشمال، لكن وقفا لخطواته الخاصة.

وبالتأكيد، فقد كان هناك قلق بالغ لوضع نهاية لاقامة علاقات وديه مع الغرب أو على الأخص مع فرنسا. ومن المحتمل وبكل وضوح ألا تتوقف عنه أى شئ لنسف أى تفاهم جديد ووثيق. وفي خلال سلسلة اجتماعاتى مع كبار

المستولين العراقيين، قمت من جانب المائدة لأمد ساقى وأخطو إلى النافذة لآلقى نظره على الساعة العامة. وقمت بإزاحه احدى الستائر من أجل مشاهدة أفضل وهنا سقط ميكروفون على الأرض محدثا قعقعة، وأنه مع المضيفين لى، وهم فى حالة ارتباك شديد.

ابتسمت قائلاً « هيا. لاتبدوا هكذا. اننى مقتنع من أنكم تعرفون كيف تثبتون ميكروفونا على نحو كامل تماما. كما أن عملا غير متفق كهذا يمكن أن يعنى شيئا واحدا فقط - من يكون ذلك الذى وضعه هنا لآبد وأنه كان يقصد وقرعه خلال اجتماعنا». ولكن من بجانب العراقيين الذى من المحتمل أن يكون له حرية الوصول الى مثل تلك الحجرة؟ وأحدهم، حلفاؤهم» السوفييت ، وبعض الارهابيين العرب كذلك . وفوق كل هذا ايران آيه الله الخومينى.

وكان صدام فى ذلك الوقت يخطط للاستيلاء على ايران. ومن يكون أفضل الحلفاء عن «الشياطين» الكبار والصغار - الحكومات الغربية التى كانت الهدف الرئيسى للذميين الايرانيين وكان العدوان الارهابى الخومينى هو الراعى الشخصى. لقد كان العراق أول دولة يلجأ اليها الخومينى بعد طرده من ايران عام ١٩٦٣، فى وقت مبكر تماما ومن حكم الشاه وفى ذلك الحين آتخذ الخومينى مقرا له فى المنطقة التى يسيطر عليها الشيعة بجنوب العراق حيث تم الترحيب به كنبى. وظل آيه الله فى المنفى لمدينه النجف، وبالكامل على حساب العراقيين لمدة خمسة عشر عاما. وان وجوده يجيز له أن يعامل كاحد كبار السكان الشيعة العراقيين وكشوكة فى جنب الشاه.

لقد كان لسعدون شاكر حق الرعاية الكاملة للخميينى، وقد لخص لى
تفصيلا شخصية الخميينى. وكما قال لى، فان آيه الله له شخصية يصعب
التعامل معها. لقد كان أقل بكثير من أحد طفاة العصور الوسطى. وفى أحد
الأيام، تشاجر أحد الأطفال من الحاشية التى تبعته إلى المنفى مع أحد الاطفال
العراقيين المقيمين فى الجوار وقد طلب الخميينى باعدام الطفل العراقى الذى
تجراً برفع قبضة يده ضد «ذريته» الدينيه. لقد كان ذلك فقط أول طلباته
الفظيحه العديدة والتى وقعتها العراقيون.

وطوال فترة منفاه فى العراق، كان الخميينى يبذل ما فى وسعه بالغاء خطب
مثيرة للعصيان من أجل اثاره القلاقل فى الامبراطوريه الايرانيه، اعتقادا منه
بأن له حسابا شخصيا لتسويته مع الشاه، رغم أن الشاه نفسه أبقى عليه حياً
بنفيه عام ١٩٦٣. وللسخرية، فان الجنرال باكر فان، السفير الايرانى السابق
فى باريس، والذي كان مستشارا عسكريا للشاه، كان هو الذى انقذ بالفعل
حياة الخميينى. كان فان ماكراً فى ذلك الحين يعمل كرئيس لجهاز السافاك،
بوليس الشاه السرى المخيف، الذى حث الحاكم لنفى الخميينى بدلا من اعدامه.
وبعد ثلاث سنوات طرد باكرافان من الخدمة بواسطة الشاه، لعدم كفاءته فى
التعامل مع عناصر المعارضه. وبعد سنوات، عاد الخميينى منتصراً إلى طهران،
وتم استدعاء باكرافان إلى ايران من وظيفته الدبلوماسيه فى فرنسا. وأمر
الخوميينى بالقبض عليه واعدامه رمياً بالرصاص - لمنعه من اعلان، أن
الخوميينى مدين بحياته لمن كان فى يوم من الأيام رئيسا لجهاز السافاك.

ولم يمر وقت طويل بعد لقائى الأول مع صدام حسين، فقد اتضح لى أن
القائد العراقى يبذل جهودا مضنية لاعادة قيام علاقات وديه مع الشاه. وقد
تضمن جزء من تلك المفاوضات طلبات ايرانيه من أن يخدم صدام أنشطة

الخوميني الفوضوبه المتزايدة وهو فى المنفى. وفى نفس الأسبوع علمت بتلك الأحاديث، ومن ثم قمت بارسال مساعدى الرئيس إلى بغداد ومع رسالة شفوية شخصية لصادام حسين.

كن حذرا من ذلك الرجل الخوميني. انه مشير للفتنه والقلق. ولا يوجد شئ أخطر من نار الغابه، لأن الريح القويه تزيد من جذوتها، ومن الممكن ان تهب فجأه على الشوارع، والحدود - حتى حدود العقل - وتبتلع الغابات المجاورة».

وعلى أيه حال فإن مثل تلك التحذيرات، ومراقبه سعدون شاكر الشخصية وعن قرب بالداخل لم تواجهها آذان صماء. وعندما عاد مبعوثى إلى باريس بعد يومين، قدم لى تقريراً جاء فيه:

«سيدى المدير العام، ستشعرون بغبطه عندما تعلمون أنه تم اتخاذ قرار مؤثر من جانب العراقيين بطرد الخوميني».

وبالطبع، فان الخوميني لم يتلق ذلك الأمر بالقبول. فلقد هدد بأن يتعامل مع هؤلاء المتواجدين بالسلطة فى العراق فى أحد الأيام، الذين وضعوا قرار طرده، متناسين عن اقتناع بأنهم هم نفس الأفراد الذين قدموا له ولحاشيته باكملها الملاذ، دون الاشاره إلى السكن والاقامة الكاملة، لمدة الخمس عشرة سنه السابقه. هذا ولم يكن صدام حسين متعوداً على مثل تلك التهديدات. ولذا كان قراره سارى المفعول.

ومع هذا، فان صدام فى تلك الايام، كان من الممكن اقناعه، كما هو الحال بالنسبه للأسد هذه الأيام، أن يوجه القرارات السياسيه فى الواقع فى مصلحته - وعلى سبيل المثال، قرار ممارسة الحذر فى العنايه وتدريب الارهابيين. واننى غير واثق بأنه مازال محتفظاً بتلك المرونه.

وبعد عامين، كانت عراق صدام حسين وايران التى كان يحكمها فى ذلك الحين آيه الله فى حالة حرب. ومن ثم فان القرار الذى اتخذه صدام منذ سنين مضت بقبول التضحية المحسوسة ويسعى للتقارب مع أصدقائه فى الغرب كانت له نتائجها المتميزة. وعلى هذا فقد كانت الاسلحة والذخيرة الغربية هى الميزة الوحيدة لصدام حسين هى التى أبقت على الموجات البشرية لتعصب الخومينى دون أن ينطلق لها العنان على القوات العراقية.

وخلال تلك الحرب، واثنتى فرصة لاشاهد مباشرة الدلالة الأكثر حيوية لما يعنيه تماما وحقيقته مثل ذلك التعصب العسكرى الاسلامى. وكنت أزور صدام حسين فى قصر الرئاسة ببغداد.

سألنى « ما الذى تود أن تراه وقت تواجدك فى بلادى ؟ هل تريد أن ترى الجبهة ؟! »

« سيدى الرئيس، صراحة، لدى الكثير من ذلك، أحببته وأنا أشير الى الزيارات المتكررة لرجالنا العسكريين والتى قاموا بها إلى ميدان المعارك مع ايران » إلا أن هناك شيئاً واحداً، إذا لم يكن لديكم أى قلق. هنالك بعض الأحاديث التى تدور فى الغرب حول آلاف الشباب الايرانى، معظمهم فقد الراية، موجودين لديكم اسرى فى معسكرات الحرب.

« ما الذى ترمى اليه ؟ » تراجع صدام فجأة إلى الخلف، وهو يلتفت مباشرة إلى أحد مساعديه.

« باكر صباحا » قلت. وهذا ما تم فعله.

اصطحبت معى واحدا من المترجمين العاملين معى. كما أننى أعرف الحيل التى يلعبها المترجمون. لكننى لم أكن مستعدا للمنظر الذى سأراه - صورته

مؤلمة جدا لما يمكن أن تعنيه الحرب فى الشرق الأوسط، حرب يشنها متعصبون مشايعون لله. لقد كانت الصورة نذيرا بالحرب العالميه الرابعه والتي بدأنا ندركها دون وضوح على شاشات الرادار.

وكان معسكر أسرى الحرب فى حد ذاته مناسبا، كان مبتسما بالبساطه ولكنه نظيف. وكان الطعام متوافرا. لم يكن شقاقاً فى مبنى فيندوم لكن ما كان يجعله مختلفا عن معسكرات أسرى الحرب فى أماكن أخرى فى العالم الغربى هو أن النزلاء كانوا أطفالا - ثمانية، عشرة، اثنى عشر، أربعة عشر عاما. اخترت واحداً من هؤلاء الأطفال عشوائيا.

سألته بلطف، وأنا انحنى حتى أكون فى مستوى عتبه «كم عمرك؟»
أجاب بهدوء «ثلاثة عشر عاما».

«كم مضى عليك وأنت أسير حرب هنا؟»
«ثلاث سنوات».

لقد تم أسره وهو فى العاشرة من عمره. ومثله مثل مئات الأطفال الايرانيين فقد تم استخدامه ككشاف بشرى للألغام، حيث كان يجرى خلال حقول الألغام لتفجيرها قبل هجوم قوات المشاه. ومن بقى على الحياة، فى كثير من الأحيان بدون ساق أو بدون كلاهما، عادة ما كان يتم اسرهم فى أعقاب المعركة. ولعدم قدرتهم على الزحف بعيدا فلم يكن أمامهم مكان آخر للذهاب اليه.
ولقد لاحظت مفتاحا من البلاستيك حول رقبته.

«انه مفتاح الجنه» ، شرح وهو يبتسم لأول مرة خلال فتره حديثنا القصير .
لقد كان ذلك هو الدافع - تعصب دينى لعقليه القرن السابع عشر - والذي تعودوا أن يدفعوا به الشباب إلى أهوال لايمكن تصورها.

الفصل التاسع

حقول الألغام فى الشرق الأوسط

لمدة ألف عام، والمعركة بين السنة والشيعة معركة مريرة ومثيرة للأنقسامات مثلها مثل المعركة بين الكاثوليك والبروتستانت فى السترات وتلك التى بين المسيحيين والمسلمين فى بيروت، والتى بين اليهود والعرب فى إسرائيل.. إنه ثار يرجع تاريخه إلى القرن السابع منذ الخلاف حول خلافة الرسول محمد نفسه. هل حقاً أن علياً ابن عم الرسول محمد وزوج ابنته و هو وريث الحق فى خلافة الرسول ومنه إلى الخلفاء الاثنى عشر الذين لم يكشف عن آخرهم حتى يومنا هذا؟ إن الشيعة مازالوا يتنازعون على هذه الخلافة، ومازالوا فى انتظار وصول الإمام الثانى عشر. ووفقاً للتقاليد الشيعية، فإن هذا الخليفة فقط هو القائد الحقيقى للعالم الإسلامى. أما السنيون، فلا يعترفون إلا بالرسول محمد نفسه كأساس لدينهم.. وعلى العكس من ذلك، يعتبر الشيعة أن أى شخص يناقش حقاً على الشرعى فى القيادة (الخلافة)، لا يختلف عن الكفرة. والسنيون الذين يحكمون العراق والسعودية ومصر ومعظم الدول الإسلامية الأخرى هم مثل هؤلاء الكفرة. فالنسبة للشيعة، يُعدّ رفض السنيين الاعتراف بعلى كـ «ولى الله» سبباً شرعياً لأن يلاقى أى شخص موتاً لامثيل له (لا يمكن تصويره).

وأحدث إعادة لهذا الشقاق القديم هو كان الصراع الضارى بين إيران والعراق، الذى اندلع بعد عودة آية الله خومينى إلى السلطة فى إيران سنة ١٩٧٩. فصدام حسين رئيس العراق، سنى مسلم، مثله مثل جميع أعضاء

القيادة العراقية. وبالرغم من أن غالبية سكان العراق من الشيعة، فإن حكومته (العراق) السنية تجعله البقعة الوحيدة غير الشيعية في المنطقة. وإذا وقع انقلاب سياسى جاء للسلطة بحكومة شيعية في بغداد، حينئذ ستقوم امبراطورية شيعية تمتد نفوذها من بكستان عبر العراق ولبنان إلى البحر الأبيض المتوسط. لقد كان من السهل تقدير الخطر الكبير الذى قد يشكله العراق الشيعى لتركيا، عضو حلف شمال الأطلسى، ناهيك عن مصر والمملكة السعودية. فدولة شيعية عراقية ستجمع كل القدرة العسكرية للسلاح العراقى مع الهوس الدينى، ناهيك عن الدعم العسكرى لإيران، القوة الشيعية الكبرى الأخرى في المنطقة. فعلى المستوى الجغرافى، ستشكل هذه القوة حرية موجهة في أربعة اتجاهات، نحو السعودية وشبه الجزيرة العربيه في الجنوب والشرق» ونحو تركيا في الشمال، ونحو إسرائيل وحتى مصر في الغرب.

لقد وضعت بذور الصراع القائم اليوم بين الجنوب والشمال في الأيام الأولى للسلطة الشيعية. ولقد هبت رياح الحرب هذه عبر الصحراء في العراق وسوريا من ألف عام مضت عندما بدأ صلاح الدين أولى رحلات جهاده. وفي إيران، كانت ملموسة تلك القوى التى قادت جنود الإسلام قبل وصول آيات الله إلى السلطة بزمان طويل. قبل وصول هؤلاء الذين، باسم دين الشيعة، احتجزوا رهائننا في بيروت وتحذوا صدام حسين وغدُّوا فيه جنون العظمة. ونشروا بذور التذمر الدينى (التمرد الدينى) من الامبراطورية السوفيتيه وحتى بوابة البحر الأبيض المتوسط.

إن إيران اليوم هى موطن هؤلاء الذين مازالوا ينتظرون وصول الإمام الثانى

عشر وما زالوا يدافعون عن اسم (على) على حساب أبشع ثمن يبذله الآخرون. إن إيران إحدى القوى العظمى الحقيقية في الجنوب، بمخزونها الهائل من البترول ومساحتها الشاسعة وعدد سكانها الكبير. وهذه الامبراطورية التي عُرِفَتْ باسم الفرس لمدة ألف عام وحكمت يوماً ما المنطقة بأسرها، تشير في وقت واحد الخوف والإعجاب، الرعب والحسد بين جيرانها من الشعوب العربية. لقد اكتشفت خلال زياراتي الأولى للمنطقة إلى أي مدى مازال العرب يخافون الفرس الذين، رغم كونهم مسلمين، ليسوا من أصل عربي ولا ذوي خلفية ثقافية عربية. وكان العرب يخافون سلطة ونفوذ إيران تحت حكم الشاه، ويخافونها أكثر تحت حكم آيات الله. ويأتي هذا الخوف من ناحية نتيجة للنفوذ الجغرافي، ومن ناحية أخرى نتيجة للطبيعة الشرسة للفرس أنفسهم. فهم «رجال العنف» في الشرق الأوسط. ويكون خطرهم مضاعفاً عندما يسرى في دمائهم أدريينالين التعصب الديني ومصادر البترول. وهم كشعب تغيروا قليلاً على مدى القرون. وأصبح ضرورياً الآن أكثر من أي وقت مضى فهمهم ودراستهم ومحاربتهم.

طيلة هذا الوقت، والتكتلات في إيران سلاح فظيع في أيدي أي شخص يحكمهم، وبشكل مضاعف عندما يكونون في أيدي من لهم مصادر ماله حسابية كبيرة ومهارات تنظيمية. ورجال الدين الشيعة وأتباعهم في إيران كانوا مؤهلين تماماً للعنف الذي كان دائماً جزءاً مكماً لتاريخهم وثقافتهم ودينهم. إن الشيعة، بسبب رغبتهم في حفظ شروط الإيمان التي نقلت عن على، ولي الله، هم أكثر فروع طوائف الإسلام بدائية وعنفاً وتعصباً دينياً.

ولأنهم مسيطرون في إيران فهم يساندون مراكز الأقليات في معظم الدول الإسلامية السنية في الشرق الأوسط. في كل مكان يُساند الشيعة لكي يظهروا ويعلموا ويعطوا الفرصة، وخلاف ذلك هم قانعون بإقامة شعائرتهم.

وقد فطن الشاه إلى الخطر الذي تشكله هذه الطائفة الدينية، إلا أنه ظنه أقل مما هو فعلاً أو على الأقل استتضخ قدرته على احتوائه عن طريق الإجراءات القمعية الشرسة. إن إحدى المآسي الحقيقية لإيران في ظل حكم الشاه كانت أن هذا الحاكم القوي لم يع تماماً المصادر الغنية التي كان يمكنه السيطرة عليها لو أنه حاول أن يمتلك ناحيتهم (الشيعة). ويبدو أن الشاه ضخم (ظنه كبيراً) إعجاب التكتلات الإيرانية بمحاولاته المشثومة لتحديث بلاده. فلا فلاحو الريف ولا حتى تجار الطبقة المتوسطة أخذوا نصيباً من الثروة التي كونها أفراد الطبقة العليا المراءون الذين وثقوا صلاتهم بالبلاط الملكي في طهران، وبدلاً من ذلك وجد هؤلاء الملايين من الشيعة أنهم سيجازون من على ومحمد الرسول بعد ذلك فقط إذا التزموا بوصاياهم مخلصين واتبعوا تعاليم آيات الله وأحاديث الرسول المقدسه.

وهناك هدفان للمخابرات الفرنسية في هذا الجزء من العالم: الأول هو فهم القوى التي تعمل في إيران والقوى التي كانت تحاول في الداخل والخارج، السيطرة على هذه القوى وكان زيادة اهتمامنا بالأحداث في المنطقة والقدرة على رصدتها شيئاً جوهرياً بسبب موقع إيران الاستراتيجي ومخزونها من البترول ذي الأهمية الكبيرة لفرنسا والغرب. وكان مهماً أيضاً أن نتعاون مع إيران من أجل جدول أعمالنا الموسع. وحيث أن إيران تشترك مع الاتحاد

السوفيتى فى حدود يصل طولها إلى ١٢٠٠ ميل ومع أفغانستان فى حدود قدرها ٥٣٠ ميلاً، فهى فى موقع يعطى منظوراً فريداً للامتدادات الجنوبية للامبراطورية السوفيتية بأكملها. وقد تصنتت محطات الرصد المشتركة التابعة لنا على حدود الاتحاد السوفيتى لسنوات على تبادلات الكترونية هامة بما فى ذلك أكثر الاتصالات الحربية تفصيلاً.

أما هدفنا الثانى فكان أن نجعل إيران، التى كانت فى موقع استراتيجى وغير مأمون الجانب فى ذات الوقت، محايدة على أسوأ الفروض وأن تدخل فى أفضل الأحوال الى الجانب الشمالى فى الحرب العالمية الرابعة التى لاحت فى الأفق آنذاك. ومع تطور الأمر، كان ذلك أملاً يائساً. فإيران كانت دائماً وستظل دولة جنوبية ذات عقلية جماعية تغيرت قليلاً عما كانت عليه أيام الخلفاء، من القرن السابع، الذين سعوا إلى تأكيد خلافتهم للرسول. وبالرغم من أن الشاهنشاه رضا بهلوى كان ذا ميل شمالية وغريبة مؤكده، فإن صداقتنا وتدعيمنا للملكية الإيرانية أجلت فقط الأمر الذى لم يكن منه بُد.

ومنذ الأيام الأولى لحكم الشاه بدأنا نلمح دلائل تشير إلى قلاقل لا يستهان بها. قبل أن أقابل الشاه لأول مرة بسنوات، استقبل جلالته أدميرال من الأسطول الفرنسى لكى يطلعه الأخير على ملف على درجة عالية من التكنيكية. وعند وصوله إلى القصر الملكى، اكتشف الأدميرال أن هناك كارثة تقترب. فقد كانت هناك محاولة فى ذلك اليوم للقضاء على حياة الشاه الشاب حيث أطلق عليه أحد الحراس النار ونتج عن ذلك تراشق بالنيران. وبينما يتخذ الضابط الفرنسى طريقه إلى حجرة الاستقبالات. كان يسير وسط بقايا الزجاج

والحطام الذى لم يكن تم ازالته بعد . وكان الحائط ملطخاً بالدماء التى نتجت عن القتال الذى وقع بعد الهجوم الفاشل . ورغم ذلك كان الشاه محتفظاً باتزانه ، وأوضح لزمائره أن مثل هذه المحاولات ليست بالشئ غير العادى . إلا أن هذه الحوادث رغم تكرارها لم تفلح فى أن تلقن الحاكم درساً عن إلى أى مدى يكرهه العديد من أفراد شعبه .

كانت هناك أحياناً مقارنة بين الشاه ، ولم تكن هذه المقارنة فى صالحه ، وبين والده الذى كان ضابطاً أصبح بعد ذلك كولونيل ثم إلى مقاتل رجال حارب مع البريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى .

لقد كان عملاقاً ضخماً الجثة وليس صغيراً (ضئيل) الجسم مثل ابنه ، وفى أثناء إحدى زيارتي همس لى أحد رجال البلاط الذى عرف كليهما « لم يكن فى إمكان أحد أن يكذب على الوالد ، أما الابن فلا يجرؤ أحد على أن يقول له الحقيقة » . ومضمون هذه العبارة هو أن الرسول يمكن أن يدفع وظيفته أو مستقبله أو حياته ثمناً للرسالة التى يجب أن تسلم مباشرة قبل فوات الأوان . وهذا لسوء الحظ مطابقاً لما يحدث فى عديد من الدول حيث يزيد عدم الاستقرار عندما يخلف رجلاً قوياً مسيطراً وريث ضعيف أو متحضر للغاية .

وفى خلال السبعينيات من هذا القرن ، وبفضل رئيس محطاتنا فى إيران ، كانت المخابرات الفرنسية هى أول أجهزة المخابرات الغربية التى اكتشفت مدى الاضطرابات التى تغلغ فى مجتمع الشيعة فى إيران . وفى عام ١٩٧٢ ، كانت التقارير تصل إلى مكتبى عن الثورة والاضطراب بين العناصر الدينية الأساسية . وأمدتنا شبكة الـ SDECE بتقارير تركز على «تزايد التذمر...»

ودلائل الثورة عند رجال الدين». وكنا نعرض هذه التقارير التى نتلقاها عن التذمر المتصاعد على الشاه. وفى زياراتى الدورية معه، أوضح أنه يعتمد علىّ فى أن أخبره بالحقائق غير السارة التى يخفيها عنه الآخرون، وللتأكد من سلامة الشاه لم يكن هناك شك فى أنه كان يحتاج إلى أن يُحذّر مما كان يحدث. أما كونه يتصرف بناء على هذه المعلومات أم لا، فهذه مسألة أخرى.

وذات مرة، بينما كنا جالسين فى مكتبه الخاص، أخبرنى «إنك الوحيد الذى يخبرنى بهذه المعلومات. أما الآخرون فيخبروننى بالعكس.»

وكان ردى عليه اسمح لى أن أوضح لجلالتك أن ما يهم ليس هو عدد الأصوات وإنما دقة المعلومات.»

وعلى طول مدة نمو المعارضة لحكم الشاه. حذرته من الاضطرابات فى الأسواق وبين رجال الدين فى أقصى القرى تطرفاً (بعداً) وفى قلب العاصمة. وقد وصلت تقارير من عملائنا بها تفاصيل على قدر من الأهمية عن الرعب الذى تسببه تصرفات صغيرة تتم بلامبالاة وبدون حساسية أو إدراك لتأثيرها على الشعب المتدين. وقبل ذلك بسنوات وخلال ما أطلق عليه «الثورة البيضاء» قام الشاه بتوزيع ملايين الأفدنة على الفلاحين الفقراء. وكان جزء من هذه الأراضى ملكاً للكنيسة وبعضها ملكاً لأسرة الخومينى. لقد كان تجاهه الغربى ورغبته الحارة فى نقل بلاده من القرن التاسع الى القرن العشرين أى تخطى أحد عشر قرناً فى مدة حياة واحدة سبباً فى عدد من سوء الحسابات القاتلة التى كانت نتيجة للأحقاد أكثر منها نتيجة لقصر النظر.

لقد حذرته مراراً من تجاوزات رجال بلاطه ونظام حكمه - ومن سوء

استعمالهم لثروتهم ومكانتهم ورفضهم الاكتراث بالمعتقدات الدينية لكتلة كبيرة من أهل بلاده وفشلهم فى التغلب على الفقر المدقع فى الريف.

بدأت مرة اخرى محاوراتى معه بهذا السؤال «هل تعتقد ياسيدى أن المكاسب التى تأتى من البترول تتسم كما ينبغى؟»

وأوماً برأسه، متقبلاً هذا النقد الذى لم يكن يسمعه من أحد من حاشيته ولم يجد أبداً الوقت المناسب للتصرف بصدده.

لقد حاولنا استخدام أوراق المخابرات التى وجدناها لاختراق أفكار وعقول هؤلاء الذين يعيشون فى إيران وكنا نراهم على أنهم أعداؤنا. وخلال هذه الفترة كنت أدبر «حيل حرب» تخص إيران (تتضمن إيران). وكان رئيس المخابرات الخاصة بالشرق الأوسط وإيران ومتخصص العمليات يجتمعان فى مكتبى.

وكنت أقف وأعبر الحجرة قائلاً: «حسناً، سنفكر فى المشكلة الإيرانية». «أيها السادة. لسنا مسيحيين ويهود نهاية القرن العشرين. اننا اوروبيون أو فرنسيون فى القرن الحادى عشر. اننا رجال فى زمن الحروب الصليبية. كيف سيكون رد فعلنا؟ إذا كنا الخومينى ورجال الدين فى إيران ولنا نفس عقليتهم، كيف كنا سنفكر؟» ونظرت إلى مساعدى الذى يتحدث الفارسية وقلت له «ليس لدينا طريق أو طائرات هليكوبتر هناك فقط عداء وصل وأعلن أن أول القوات تعبر الإمبراطورية من بغداد القديمة فماذا نفعل؟».

ولم نكن نفلح دائماً فى الوصول إلى إجابة مرضية بالرغم من تزايد شبكة مخابراتنا فى أسواق ومساجد إيران.

وبينما كنا نبني قدراتنا الاستخبارية، كان زملاؤنا الأمريكيان يملأون الدولة بآلاف من العملاء وكان العديد منهم يعمل مباشرة مع المخابرات المركزية. ولا شك في أن بعض هؤلاء الأفراد على درجه من التميز ولهم اتصالات كبيرة مع مراكز هامة في السلطة مثل أى من أمثالهم الفرنسيين. إلا أن تحذيراتهم لم تلق أبداً أهمية كافية بحيث تؤثر على مجالس السلطة في واشنطن حيث كانت تصر وزارة وراء وزارة على تقسيم العالم إلى معسكرين. أصدقاء وأعداء. وفيما يتعلق بأصدقاء أمريكا، لم يكن أبداً هناك إشارة أو إلماح إلى أن هناك شيئاً سيئاً يحدث، وكانت إيران مثلاً آخر على مدى فشل الأمريكيان في فهم القوى المؤثرة في العالم الجنوبي - تلك القوى التي كانت أساس الكوارث الأولى للحرب العالمية الرابعة وما صاحبها من عنف وموت.

إلا أن إشارات التحذير الواضحة لنا جميعاً تم تجاهلها ليس فقط من قبل الأمريكيان وإنما كذلك من قبل الفرنسيين بل كل الغرب الذي اعتبر إيران قوة صديقة يُعتمد عليها. ولم نكن على استعداد لإقرار أى معلومة تهز هذه البديهية الجغرافية السياسية.

وقد شاركت أسطورة الجهاز الإيراني السري المرعب الذي كان يُعتقد أنه يسيطر على كل موقف في فشلنا في التحليل فيما يتعلق بإيران - الأمر الذي يعد من أكبر سوء تقديرات أجهزة المخابرات في القرن العشرين. فقد كان الـ SAUPK أقرب إلى قوة الشرطة منه إلى عملية مخابرات، كما هو الحال عادة في الدول الجنوبية حيث يهتم الحكام بالقمع والإرهاب أكثر من اهتمامهم بجمع المعلومات. وقد بدأت أدرك مبكراً أن هناك حلقة هامة مفقودة في سلسلة

المخابرات الإيرانية. فمهما كانت المعلومات التي نقدمها نحن أو أي مصادر أخرى دقيقة يساء تفسيرها أساساً. وكان يتم ترشيحها عن طريق العقول الغربية للشاه الذي تعلم في أوروبا وأخذ من الغرب ثقافته وأسلوبه وفوق ذلك سياسته. فقد اختار مستشاريه المقربين ورجاله الثقات ممن تعلم مثله وكان يفكر مثله، فلو كان الشاه لديه انعكاسات العقلية الشرقية، لكان عندما يقع اضطراب في الأسواق أو المساجد، يسحقه بلا تردد أو يحتويه ويخمدّه. ولكنه بدلاً من ذلك تردد فكانت خسارته.

وكجزء من مهمتنا، كنا نمد الشاه بأكثر من المعلومات المنتظمة عن مدى وحجم التدمير في امبراطوريته. كما كنا نقوم بجهود حقيقية، في حدود قدرتنا على الاقناع أو الاعتراض، لمساعدته على معالجة المناهضة المنتشرة والمتزايدة لحكمه وله هو شخصياً. وقد سألني صراحة في احد لقاءاتنا الأخيرة: «ما هو السيئ في؟»

وأجبت بصراحة «جلالة الشاه، إن صورتك بشعة. فكثير من الناس لا يوافقون عليك. إلا أن هناك متخصصين في تصحيح تلك الأمور. فنفس نوعيات الناس التي تبيع السيارات والطعام المحفوظ والسجائر يمكنها أن تحسن صورتك.» فعملية تكوين صورة الحاكم لها أهمية في العالم الجنوبي لا تقل عن أهميتها في العالم الشمالي. إلا أنها ببساطة أقل استخداماً ونادراً ما يتم فهمها.

وتساءل الشاه «ومن هو أفضل من يقوم بذلك في العالم؟»

فأجبت «ديفيد أوجيلفى . وهو عبقرى في الدعاية والإعلان وصديق عزيز لى»

فقال الشاه «حسناً، أحضره لى..»

وعدت بعد ذلك بعدة أسابيع مع أوجيلفى. ودخلنا معاً إلى مكتب الشاه الخاص وبعد تقديمنا إليه، تحول الشاه إلى أوجيلفى وتكلم معه مباشرة فى الموضوع وبدأ قائلاً. «أخبرنى الكونت أنك الأفضل فى العالم.»

«هل تحب أن تقوم بجولة فى إيران. ثم تعود وترانى؟» ووافق أوجيلفى.

وأعطيت أوجيلفى رجلنا فى طهران لكى يصحبه وكان قادراً على أن يظهر لأوجيلفى إلى أى مدى اخترقت الدودة التفاحة (ساعات الأمور). وعاد أوجيلفى إلى قصره فى فرنسا وأعد خطة للشاه قُدمت له بعد ذلك بوقت قصير. إلا أن رجال البلاط، الذين كانوا ينظرون إلى أى محاولة خارجية لتغير التوازن فى القوى الذى فرضوه فى إيران على أنها تحد كبير لمكانتهم، تم معارضتهم بشدة. ولم تُنفذ خطة أوجيلفى أبداً فى أى مكان. وفى كل جهة، حاولت أن أحمى الشاه من أعدائه فى الخارج والداخل. وفى كل مرة يظهر دليل على وجود مشكلات، كنت أواجه الشاه بشكل مباشر بقدر المستطاع. وأخيراً أصبحت هناك كثير من الثغرات.

وقد حذرت الشاه قائلاً. «إحذر من حكومة كارتر، لقد قرر الرئيس كارتر استبدالك» وجاء هذا القرار، الذى علمنا به، بعد زيارة كارتر لطهران أثناء موسم نيويورك سنة ١٩٧٨ عندما سمح الشاه لكارتر المرعوب بأن يشهر بنفسه فساد وخراب بلاط الشاه.

وقد أتبعته تحذيرى بتفصيلات لم يصدقها الشاه عن أسماء الأشخاص الذين وكلت إليهم فى الولايات المتحدة مسئولية رحيل الشاه واستبداله، وعن موعد

ومكان اجتماع لقاء حضرته أنا مع مسئولين بارزين فى المخابرات الأمريكية
لبحث هذا الأمر وكيفية ترحيله والشخص الذى سيخلفه.

إلا أن الشاه لم يكن مقتنعاً حيث قال لى : « اننى أصدق أى شئ تقوله
لى إلا هذا »

وسألته: « لماذا لاتصدق ذلك يا صاحب الجلالة؟ »

فأجاب: « لأنه سيكون محض غباء أن يستبدولنى. فأنا أفضل وسيلة
للدفاع لدى الغرب فى هذا الجزء من العالم. فلدى أفضل جيش وأفضل جهاز
مخابرات وأكبر قدرة لحكم دولة مستقرة. فهذا شئ غبى للغاية ولايمكننى
أن أصدق. »

فسألته: « ولكن ماذا اذا كان الأمريكيون لا يفهمون ذلك؟ »

وابتسم الشاه ابتسامة ساخرة وهز رأسه.

ولم يتصور الأمريكيون قصيرو النظر، بأى حال من الأحوال، أن حماقة
الإسراع بعزل الشاه سيتبعها مباشرة وصول آيه الله خومينى إلى السلط.

كانت تلك هى الفترة، التى بدأت فى أكتوبر ١٩٧٨ بترحيل العراق
للخمينى، عندما بدأت مراراً فى حث جيسكار (ديستان) أولاً عل عدم إعطاء
الخمينى، ألد أعداء الشاه، حق اللجوء السياسى فى فرنسا، ثم على الأقل
تقييد نشاطات آيه الله التى كانت تزعزع استقرار الدولة، وأخيراً عدم السماح
له بالعودة منتصراً لبلاده. وقوبلت نصيحتى بالتجاهل من قبل جيسكار
ومستشاريه حيث شعروا بقوة بأن فرنسا يجب أن تكون حرة فى منح حق

اللجوء السياسى لأى شخص عانى من الاضطهاد السياسى وفى بناء جسور مع شخص يعلمون جيداً أنه قد يكون خليفة الشاه. إلا أن جيسكار أخطأ فى تقدير جزاء حسن ضيافة فرنسا للخونة ، وأن هذه الضيافة ستقابل أساساً بالصداقة.

فعن طريق السماح لآية الله وحاشيته بإقامة متجر فى حى (نوفل لو شاتو) فى باريس، لعب الفرنسيون دون أن يدروا دوراً هاماً فى عودة الخمينى منتصراً إلى طهران: فقد وقعت مهمة مراقبة حاشية آية الله على عاتق وزارة الداخلية التى اعتبرت هذه مهمة بعيدة عن كونها ذات أولوية قصوى. إلا أنها كانت بالنسبة لنا أولوية قصوى، وخصوصاً بعد أن عثرنا على شرائط الكاسيت التى تحمل دعاية مضادة للشاه والتى كانت تخرج من بيت الخومينى لتلهب مشاعر الرغبة فى العودة إلى الوطن فى طهران. وكانت هذه الشرائط مليئة بالتهديدات والصلوات (الدعوات) والحق المبرر على الشاه وكل من كانوا يحكمون ويفسدون طهران والإسلام، كل ذلك بصوت الخمينى القوي المؤثر. وكانت هذه الشرائط التى سجلت فى باريس تنقل إلى سفارة ألمانيا الشرقية هناك ثم تنقل بسرعة عن طريق الحقائق الدبلوماسية إلى برلين الشرقية، حيث يوجد مقر حزب ثوره الحزب الشيوعى الإيرانى السرى، فى المنفى. هناك يستخدم حزب توده الأجهزة الإلكترونية الألمانية الشرقية لعمل آلاف النسخ من الشرائط ونقلهم (شحنهم) إلى إيران. وعن طريق شبكة معقدة من البازارات تنتقل الشرائط إلى صناديق البريد فى طهران أو عبر أسوار الحدائق فى أصفهان وإلى اصفر التجمعات الريفية.

وفى نهاية عام ١٩٧٨، ذهبت بتقرير عن هذه التطورات غير العادية إلى جيسكار نفسه وتوسلت إليه أن يرسل الخوميني إلى دولة أخرى، خاصة إحدى دول الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا من الدول التي يكون لها مصلحة في إسهاماته، وحيث يمكن التعامل معه كما ينبغي أو يمكن السيطرة عليه بشكل أكثر فاعلية.

وفى الصباح التالي، دخل مكتبي أحد مساعدي الأساسيين واسمه ميشيل روسين وعلمني وجهه ابتسامة واسعة وقال لي: «لقد نلت ماتريد ياسيدي، غداً أو بعد غد سيُخبر الخوميني أن عليه أن يترك فرنسا. سيقال له ذلك بشكل مهذب، ولكنه سيقال له.»

إلا أن هذه المعلومة التي نقلها لي روسين كانت لسوء الحظ سابقة لأوانها. فقد حضر إلى مكتبي فى اليوم التالي بمزاج مختلف تماماً. وقال لي: «الأنباء اليوم ليست سارة ياسيدي، فقد تحولت الرياح التي تهب من قصر الإليزيه. سيبقى الخوميني. فقد نقل السفير الإيراني إلى وزارة الخارجية الفرنسية طلب الشاه الشخصى بأن يبقى الخوميني فى فرنسا.»

ودعشت من أن الشاه أثبت مرة أخرى وأخيرة أنه قصير النظر فى ساعاته الأخيرة كما كان خلال أغلب فترة حكمه. وقررت أن أذهب إلى طهران على الفور لأسمع هذا القرار مباشرة من الشاه نفسه. وعندما استقلت طائرتي، علمنا أن طهران تحيطها النيران، وأن هناك إضراباً عاماً أحدث شللاً فى مطار مهر أباد خارج العاصمة وليس هناك مساعدات ملاحية تعمل، فلم يكن هناك وقود للطائرة، ونظراً للمدى القصير لطائرتي (يستير ٢٠)، كان من الضروري

أن نهبط فى لارناكا فى قبرص. وكان روسين فى صحبتى مع كابتن شاب متميز كان متخصصاً فى الشؤون الإيرانية.

وفى صباح اليوم التالى باكراً، وصلنا إلى طهران. ولم يكن برج المراقبة (السيطرة) يعمل، وكان هناك رجال مسلحون يبدو الشر على وجوههم يجوبون ممرات الطائرات (مهابط الطائرات)، ولم يكونوا فى زى عسكرى. وأمرت الطاقم أن يبقى مع الطائرة. ولأنى كنت على اتصال لاسلكى مباشر مع أحد مساعدى الشاه، قابلتنا سيارة. وأخذت وقتاً طويلاً نوعاً لعبور المدينة حيث كانت الشوارع تزدهم بجموع تهتف.

واستقبلنى الشاه فى القصر فى مكتب لم أره من قبل. فقد كان حجره صغيرة يضيؤها مصباح وحيد له مظلة كبيرة وينشر ضوءاً خافتاً فى أنحاء الحجرة، وكان مضيفى (الشاه) يرتدى نظارات سوداء كثيفة السواد تخفى نصف وجهه، ولم أره أبداً فى مثل هذه النظارات من قبل. وأجلسنى ومساعدى على ثلاثة مقاعد بجوار المكتب.

وتطرقت للموضوع مباشرة، حيث اعربت له عن دهشتى وصدمتى لسماع أنه شخصياً رفض طلبى بأن يقوم جيسكار بترحيل الخومينى من فرنسا. حيث كان هذا الترحيل سيؤدى بآيه الله إلى دولة يمكن فيها التعامل معه بشكل أكثر فاعليه أو على الأقل كان يمكن فيها خرق (تمزيق) شبكة الدعاية التى كان يقوم بها.

وأكملت حديثى قائلاً: «صاحب الجلالة، ربما كنت ضحية لأحد أفراد حاشيتك أو ربما أسى فهم احدى إشاراتك أو أن سفيرك فى فرنسا قد خانك؟»

وأجاب الشاه « لم يحدث شئ من ذلك، فهذا بناء على تعليماتى بالضبط. »
ونظرت إليه مدهوشاً، واتسعت عيناي من الدهشة والمفاجأة.

وأكمل الشاه: « دعنى أشرح لك أسبابى، إذا لم تبق على الخومينى فى فرنسا، فسوف يذهب إلى دمشق فى سوريا، ودمشق قريبه جداً من إيران. ولدى معلومات تقول انه إن لم يذهب إلى دمشق، فسوف يأخذ طريقة إلى طرابلس عند العقيد القذافى. وسيكون هذا هو أسوأ الأمور. وحيث ان علاقاتى بفرنسا جيدة بشكل خاص، فإنى أطلب منك أن توضح لرئيسكم أنتى أعول على صداقته فى أن يحكم سيطرته. وعموماً أنا أفضل أن يبقى الخومينى معكم حيث سيكون تحت المراقبة الشديدة. » وقلت لنفسى ان الشاه، رغم اعتياده ومعرفته بمجتمعنا، إلا أنه لا يفهم جيداً الأعمال الداخلية للنظم الديمقراطية الشمالية، على الأقل فيما يتعلق بهذا الأمر الدقيق وهو الوسائل الضعيفة التى تملكها لإسكات الخومينى فى الوقت الذى يعلو فيه صوته. كما لم يدرك الشاه أنه مع وجود معجزة الاتصالات الحديثة فإن البعد الجغرافى للهومينى عن إيران لم يكن ليحدث فرقاً كبيراً.

وتحولنا للحديث عن الوضع الداخلى فى إيران ووصفت له رحلتى من المطار والحشود الغاضبة فى الشوارع.

وقال لى الشاه « كن مطمئناً يا عزيزى الكونت ، فلن أطلق النار أبداً على شعبى. »

وقررت فى تلك اللحظة أنه ليس هناك وقت لتزيين الكلمات والحشود تنشر الرعب فى طهران. فقلت له ببساطه: « فى هذه الحالة، فإنك ضعت ياصاحب

الجلالة».. وهز الشاه كتفيه استهجاناً وقام من مقعده.

وانتهى اجتماعنا وصحبني الشاه إلى الباب وفتحته وفجأه غمر ضوء غرفة الانتظار المكتب الذي كان نصف مظلم. وخلع الشاه نظارته ورفع لى يده، ونظرت إليه قبل أن أنحني ورأيت وجهه لأول مرة فى إضاءة كاملة، وجهاً أصبح معتاداً لى على مر السنوات، إلا أنه كان مختلفاً بشكل كبير عن الوجه الذى رأيته قبل أسابيع قليلة من هذا اللقاء. فقد دمره السرطان الذى قضى على الشاه بعد ذلك.

وذهبنا على الفور إلى سيارتنا لكى نعود إلى المطار، مارين بعشرة أو أكثر من نقاط احتجاز على الطريق عليها جنود عصبيون يحملون أسلحة أوتوماتيكية. ولحسن الحظ الذى يشبه المعجزة لم تمس طائرتنا.

وفى الصباح التالى، ذهبت على الفور إلى مكتب رئيس الجمهورية. وقام جيسكار ديستان بنشاط وعبر الحجرة لمقابلتى.

وسأل بسرعة: «حسناً؟»

وأجبت: «انه لويس سيز (لويس السادس)»

فقال ببساطه: «فى هذه الحالة، فإن هذه هى النهاية.»

وكان ذلك هو آخر اتصال بين شاه ايران والجمهورية الفرنسية. حيث أنه كان واضحاً أن الشاه غير مستعد لمساعدة نفسه، ومن واقع الاعتقاد بأن عليه فى القريب العاجل أن يواجه الخومينى باعتباره القوة القائدة فى إيران، لم تبذل الحكومة الفرنسية مزيداً من الجهد لإعاقة الخومينى (عرقلته). واستمرينا نحن

فى مراقبته وتركنا التاريخ يأخذ مجراه. وفى غضون أسابيع. كان الشاه فى منفاد. وأصبح الخومينى حاكماً على ملايين من أتباعه الغاضبين.

ومن واقع وجوده فى السلطة، قام الخومينى بسلسلة من المغامرات الدولية بهدف نشر أقصى درجة من الرعب فى أنحاء معظم دول الشرق الأوسط والعالم الشمالى فى السنوات التالية. وبدأ جهاده أو حربه المقدسة.

وبالرغم من أن عملاء مخابراتنا ومحلليننا درسوا ذلك بشكل مكثف، وبالرغم من أنى أمعنت التفكير فى هذا اللغز لسنوات، فإنه ما يزال غير واضح بالنسبة لى لماذا وبأى دافع بدأ الخومينى نشاطاته الإرهابية الموجهة لفرنسا أو الأهداف الفرنسية واحتجاز الرهائن الفرنسيين مراراً فى بيروت عن طريق نوابه من المتعصبين الشيعة بما فى ذلك حزب الله. ومن الواضح أن هذا كان جزءاً من خطة أوسع، تتصل مباشرة برغبة آيات الله، فى شن حرب ضد الشمال تخترق قلب حضارتنا. وكانت الاستراتيجية واضحة، إلا أن التكتيكات كانت غالباً مبهمه.

ولم يكن الهدف الأول لآيه الله هو فرنسا أو الفرنسيين، وإنما كان الشاه الذى طارده رجال الدين الإيرانيون وأتباعهم حتى الساعات الأخيرة من حياته. وقد ترك الشاه إيران فى أسوأ الظروف ولجأ إلى مصر حيث كان فى حماية صديقه الرئيس أنور السادات ثم من هناك إلى المغرب فى حماية صديقه الحميم الآخر بين القادة العرب الملك الحسن الثانى.

واستقبله الملك الحسن هو وعائلته (الشاه) وأعطاه قصرًا للمنفيين الإيرانيين. وحيث أن الملك الحسن الثانى كان صديقاً حميماً لفرنسا وأن المغرب

دولة ذات أهمية استراتيجية في شمال إفريقيا، فقد قمنا برصد زيارة الشاه عن كثب. والملك الحسن يعتبر قائداً غير عادي في العالم الجنوبي، فهو قائد يجمع بين الإيمان الديني العميق والوعي بالحاجة التي بناها جسر على كافة المستويات مع الشمال إذا كانت هناك رغبة في تحقيق نوع من التوازن الدولي. وهو رجل حساس للغاية في مراعاة المشاعر والرغبات العميقة لشعبه.

وفي غضون أيام من وصول حاشية الشاه، بدأ عملاؤنا في المغرب في الكشف عن تقارير مقلقة. فالدوائر المعارضة كانت تبدأ في إثارة الاضطرابات، حيث يتهمون عن «عار الترحيب بهذا الطاغية في بلادنا». وبدأ ظهور الشعارات والرسومات على حوائط كازابلانكا، فالبسنة للمسلم، يعد الخنزير هو أكثر الحيوانات إثارة للخزي والعار ويليه الكلب. فالسباب في الدول الغربية «ابن الكلبة» يعد أكثر سوءاً في العربية «ابن الكلب». وكان ما يكتب على الحوائط في كازابلانكا هو «الملك هو كلب الشاه»*

وقد عرفت الملك الحسن الثاني مما يقرب من أربعين عاماً، منذ أن كان أميراً شاباً. وقد نشأت زوجتي في المغرب حيث كانت ابنة لأحد الموظفين المدنيين - المعينين هناك. وبعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير، اقترح الكولونيل فيليكس إيدون وهو ضابط سابق في سلاح الفرسان خدم لسنوات عديدة في كاميل كوريس أن أقابل الأمير الشاب الحسن، حيث كان يعلم مبلغ ولعي بالمغرب والمغاربة. وقد تناولنا الغداء وبدأنا صداقة استمرت عمراً.

ولذلك بمجرد علمي بمدى الخطر المحدق، طرت إلى الرباط لتحذير الحسن من الخطر الذي يشكله وجود الشاه على مملكته.

وبعد أن عرضت عليه أبعاد المشكله أوضح لى الملك الحسن قائلاً: « يجب أن تعلم أننى لا أستطيع رفض استضافة رجل يعيش مرحلة مأساوية من حياته. علاوة على أن هذا الرجل هو ملك مسلم، وكما تعلم، نحن المغاربة نعتبر الضيافة واجباً مقدساً. »

« إن الشاه موجود هنا، وسيبقى هنا طالما يرغب هو فى ذلك. »

وأجبتة: « صاحب الجلالة، هذه هى الإجابة التى توقعت أن أسمعها، ولكننى الآن يجب على أن أخبرك بشئ مؤلم للغاية. لقد وقع سادة إيران الجدد، آيات الله، عقداً مع عدد من القتلة المأجورين من الشرق الأوسط لاختطاف أفراد من عائلة جلالتك. الملكة أو أحد الأمراء الصغار - للمساومة عليهم فى مقابل تسليم العائلة الإمبراطورية الإيرانية.

وقبض الملك على ذراعى مقعده وامتقع لون يديه وتوترت ملامحه وتمكن أخيراً من أن يقول متلعثماً: « مع أن الأمر شنيع إلى هذا الحد، فإننى لن أغير قرارى. »

وأخذت أبذل قصارى جهدى لإقناعه. وأوضححت له أنه ليس فقط الحاكم المبجل فى المغرب، وإنما له أيضاً واجبات دينية مهمة فى العالم الإسلامى. وأنه هو وملك أسبانيا حارسا مضيق جبل طارق الاستراتيجى، والذى هو المفتاح للبحر الأبيض المتوسط. إلا أننى علمت أنه من المستحيل على الملك أن يطلب شخصياً من الشاه وعائلته أن يرحلوا. وتطوعت أنا بالقيام بهذه المهمة القذرة. ووافق الملك، الحسن بعد تردد.

وفى الصباح التالى، استقبلنى الشاه فى القصر الصغير الذى وضع تحت

تصرفه. وكانت الشهبانة معه، بينما كان الأولاد بعيداً. وكانت هذه احد أكثر اللقاءات مأساوية فى حياتى من حيث إيجازها ومحتواها (مضمونها).

صفت له الأخطار المرعبة التى تحقق بعائلة مضيفه: ومخاوفى على أمن المملكة المغربية نفسها، وما يمنحه وجوده من قوة للمعارضة المتزايدة، وإن كانت ضعيفة، للملك الحسن الثانى. وفى خلال ذلك، بقى الشاه صامتاً، وقوراً، مختفياً وراء نظارته السوداء التى كان يرتديها حينئذ فى أى وقت يقابل فيه غريباً.

وفى النهاية، رد بهدوء وبساطة: «سأفعل كما تقترح.»

وبعد ذلك بأسبوعين، رحل، مكماً رحلته إلى جزر البهاما، وإلى نيويورك وأخيراً إلى مصر حيث توفى.

وكان واضحاً من هذه المؤشرات الأولى أن آيات الله لن يقفوا عن حد فى سبيل تحقيق ما اعتبروه مهمة أوكلت إليهم من قبل الله. وكان الجهاد شيئاً غير قابل للتفاوض بشأنه. وأصبح حلفاؤهم أكثر العناصر غير المقبولة فى العالم العربى. فهم مستعدون للعمل فى مقابل المال وأحياناً فى مقابل الجزاء الموعود فى الآخرة، ويقومون بأفظع الجرائم ضد الله أو الإنسان.

وفى الوقت الذى وصل فيه الشاه إلى مركز سرطان (سلون كيتيرنج) فى نيويورك، كان آيات الله ينتقلون بالفعل إلى هدفهم التالى - السفارة الأمريكية ودبلوماسيها فى طهران.

وفى ٤ نوفمبر سنة ١٩٧٩، قام عدد كبير من «الطلبة» الإيرانيين وكلهم من المسلمين المتعصبين المستعدين للموت فى سبيل الله، باحتلال مبنى السفارة

فى طهران. واحتجزوا ٥٢ دبلوماسىة أمريكيا كرهائن وبدأت مواجهة استمرت لمدة عامٍ تعد أصعب مشكلة دبلوماسية وعسكريه فى الفترة الأولى من حرب الجنوب والشمال. وأصبحت مطالبة الطلبة سريعاً مطالبة رجال الدين الإيرانيين أنفسهم والذين سيطروا على الحكومة الإيرانية. حيث طالبوا الولايات المتحدة بأن تسلم الشاه وعائلته بالكامل التى استقرت فى نيويورك حيث كان الشاه المخلوع يعالج من السرطان الذى تسبب فى موته بعد ذلك بثمانية أشهر.

وبعد احتجاز الرهائن الأمريكيين بيومين، طلبنى ثلاثة من المسئولين البارزين فى وكالة المخابرات المركزية فى مقرى فى باريس.. وكنا معروفين بقدراتنا الفعالة فى طهران وبفهمنا العميق لإيران وقاداتها الجدد عل ما هم عليه من السوء.

ودخل قائد فرقة وكالة المخابرات المركزية إلى صلب الموضوع مباشرة وسأل «ماذا نستطيع أن نفعل؟».

وأجبت. «لست متأكداً مما يمكنكم عمله الآن، فلو سألتمونى فى غضون الخمس دقائق الأولى، أو الخمس ساعات الأولى، لربما اقترحت القيام بعملية تتضمن نقل قوات بالطائرات إلى مبنى السفارة بالطائرات الهليكوبتر. حتى فى حالة اقتراح المخاطرة بالوصول إلى المدينة المكتظة التى بها ٣ ملايين من الناس، ثم الهبوط على أرض السفارة أو وسطها، فإن المتطرفين المتدينين وحراس الثورة، سيكون لديهم أكثر من الوقت اللازم لقتل آخر فرد من الرهائن. ربما سيقتل بعض الثوار، إلا أن هذا سيكون الإرضاء الوحيد لكم، فلن يعود الرهائن أبداً إلى الحياة.»

وقام الأمريكيون لكى يغادروا وقال لى أحدهم: «أرجوك استمر فى التفكير فى هذا الأمر.» ووافقت على ذلك.

وقد فعلنا أكثر من ذلك. فقد أرسلت بعض عملائنا المتمرسين إلى إيران، وكان هناك خطر كبير على كل منهم. وكان واضحاً لنا أن الأمريكيين ليس لديهم مايفعلونه. فليس لديهم أوراق للعب أو خدع للتمويه أو ضغط يستطيعون ممارسته.

وكما تعلمنا خلال سنوات التجربة المريرة، فإن أول وسيلة للتحكم فى الإرهاب، هى الا تلعب وأنت خالى الوفاض (صفر اليدين). فالإرهابيون والديكتاتوريون لا يفهمون ولا يحترمون إلا القوة والسيطرة. فسوف ينتهزون أى فرصة يجدونها خاصة فيما يتعلق بأشكال الأموال والرهائن وأنواع التهديدات التى تنقل بشكل واضح خلال وسائل الإعلام (الوسائل) الدولية. ولذلك كان هدفنا هو إيجاد كارت لكى يلعب به الأمريكيون.

اكشفتنا أولاً ماعرفه العالم جيداً بعد ذلك عن أن آية الله له عادة العودة مراراً الى منزله فى مدينة قم المقدسة. فقد عاش فى منطقته هادئة قريبة الشبه بالأرض الخراب حيث يمكن للطائرات الهليكوبتر أن تهبط بسهولة. ودعت الخطة التى بدأنا فى صياغتها إلى اعتراض طريق الخومينى عند وصوله إلى مدينة قم، ومرافقته إلى طائرات الهليكوبتر المنتظرة ومنها إلى سفينة منتظرة فى شمال المحيط الهندى فى بحر عمان. ورسمنا الخطة بالتفاصيل الدقيقه مع خريطة لمدينة قم بيتاً بيتاً ورسوم تخطيطية لمقر الخومينى، وتحركات كل عنصر خطوة بخطوة وثانية بثانية. وكانت العملية من عدة نواحى تشبه العملية

الناجحة التي قام بها لويس الحادى عشر على الكاردينال (دى لا بالو). هذا الأسقف البارز، تم الكشف عن تورطه فى مفاوضات غادره مع أمير (دوق) بورجون، وتم احتجازه فى ليلة فى عملية شديدة الدقة ونقل إلى شاتو دى لوش، حيث بقى مسجوناً لمدة احدى عشر عاماً.

ولم يسمع الأمريكيون بأمر الكاردينال الطيب. إلا أن ذلك لم يحدث فرقاً. فهذه الخطة كانت قابلة للعمل. وتم مناقشتها على أعلى المستويات فى واشنطن، وأخيراً تم تقديمها للرئيس كارتر نفسه، ودرس كارتر الخرائط، والخطة وأعجب بالتفاصيل الدقيقة. إلا أنه رفض فى النهاية قائلاً: «لا يمكن أن تفعلوا ذلك مع رجل دين، وبالتأكيد ليس مع رجل فى سنه».

وانتهت الخطة فى المكتب البيضاوى (فى البيت الأبيض).

وبدلاً من ذلك، حاولت للولايات المتحدة، بعد ذلك بخمسة أشهر، تنفيذ عملية إنقاذ خاصه بها تحت قيادة الكولونيل تشارلز بيكون هذه العملية لم يُحسنَ تصورها أو قيادتها. وكانت هذه هى المهمة التى ناقشها أول زوارى من المخابرات المركزية معى بعد يومين من احتجاز الرهائن. والتى حذرتهم أنا وزملائى من أنها مضللة ومستحيل القيام بها. ولحسن الحظ لم تصل هذه المهمة إلى مبنى السفارة الأمريكية نفسها فى طهران حيث كان سيؤدى فشلها حتماً إلى موت بعض، إن لم يكن كل الرهائن ومعظم الفريق الذى سيقوم بها كذلك. وبدلاً من ذلك، خابت العملية فى الصحراء الإيرانية حيث تعرقلت الطائرات الهليكبتر فى الرمال المتحركة، وكان بيكون نفسه مثل خنزير مقيد يوجه القادة كل حركة من حركاته من واشنطن على بعد آلاف الأميال.

وقد تسببت هذه الخيبة بالإضافة إلى طنين المفاوضات غير العادى والأخذ والرد والتهديدات والفرص المفقودة (الضائعة) فى إطالة مأساة الرهائن الأمريكیین إلى ٤٤٤ يوماً مؤلماً، ولم تفعل إلا أن أكدت شكوك كل زعيم عصاة ورأس خيانة فى دول العالم الجنوى فى أن الولايات المتحدة ليست عازمة على اتخاذ الخطوات اللازمة لفرض مفهوم دمار معين فلم يكن الانتقام جزءاً من التوازن الاستراتيجى فى ذلك الوقت فى معارك الحرب العالمية الرابعة. ولذلك وجد حكام إيران، ناهيك عن سوريا وليبيا والعراق، مجالاً واسعاً لتدعيم إراقه الدم على المستوى العالمى بشكل تعسفى. واحتضنوا حرية القيام بهذه العمليات بقلب مفتوح.

هناك عديدون فى الشرق الأوسط وفى أجزاء أخرى من العالم استراحوا واطمأنوا لهذا الفشل الذى لحق بالغرب فى الرد على إيران. فعلى سبيل المثال، ليس هناك حدود لمساندة القذافى للإرهاب - ويبدو أن دافعه الوحيد هو زعزعة استقرار النظم الديمقراطية الشمالية وتوسيع مدى نفوذه المباشر. ونتيجة لذلك، ينتشر الإرهابيون الذين يقودهم ويمولهم فى أنحاء أوروبا. وتتركز قواته العسكرية وأجهزه مخابراته من تشاد إلى الجمهورية الأفريقية المركزية حيث لا تخفى خطط القذافى التوسعية. ويدعم القذافى معسكرات تدريب للإرهابيين فى عدة مواقع فى ليبيا. وعندما يحتاج هؤلاء الإرهابيون إلى أموال، يقدمها هو لهم، كما قدم من قبل مساعدات لمدرين من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وفلسطينيين للعمل فى هذه المعسكرات كمتخصصين فى أنواع المهارات التى يحتاجها الإرهابيون اليوم ليكونوا على أعلى مستوى من الفنية والتقدم. وهذا واضح من مصادر الرصد والمعلومات التابعة لنا. وبالرغم

من أنه تم حل جهاز الشرطة الخاص بدولة ألمانيا الشرقية، فإن عدداً كافياً من هؤلاء المدربين تحولوا إلى مركز للمرتزقه (الجنود المأجورين). وتم طرد عدد من الإرهابيين ذوي المهارة العالية من داخل الدولة ولذلك استمرت عمليات التدريب دون تناقص - وأصبحت صفوة الإرهابيين لدى القذافي في ليبيا قادرة على البقاء والاستمرار من تلقاء نفسها.

وفي النصف الأول من عام ١٩٩٠، أكد فتح بعض الملفات الخاصة بعمليات البوليس السرية في أوروبا الشرقية العديد من هذه النشاطات. وقد استخلصت أجهزتنا معلومات من مسئولين سابقين في البوليس السرى التشيكوسلوفاكى الذين أقروا بالقيام باختبارات لمعرفة كمية المادة المتفجرة من مادة السيمتكس البلاستيكية اللازمة لتفجير طائرة ركاب فى الجو. وقد كشفت هذه التجارب، التى تمت فى نوفمبر سنة ١٩٨٤ أن ٢٠٠ جرام فقط من مادة سيمتكس، الدرجة الأعلى فاعلية، يمكنها أن تفجر (تحدث) فجوة (ثقب) فى جانب الطائرة، وقبل ذلك بخمس سنوات، باع التشيكوسلوفاكيون ١٠٠٠ طن من هذه المادة المتفجرة للقناص الذى أصبح وسيطاً أساسياً حيث تم نقل المتفجرات الى جيش الثورة الأيرلندى. الذى يعمل ضد البريطانيين فى أيرلندا الشماليه وإلى عدد من الجماعات الإرهابية فى الشرق الأوسط تتمركز فى الأراضى الليبية ومنها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة. وهناك معلومات قوية عن أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة استخدمت مادة السيمتكس المتفجرة لاسقاط الطائرة بان أمريكان فى رحلتها رقم ١٠٣ فوق لوكيرى باسكتلندا فى ديسمبر سنة ١٩٨٨. وبينما عملت هذه الخلية فى ألمانيا الغربية، فإن مصادر المخابرات تظهر أن عدداً من أعضائها على الأقل تم

تدريبهم فى المعسكرات الليبية وفى نوفمبر سنة ١٩٩١، اتهمت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة ضابطين من المخابرات الليبية بمسئوليتهم عن قتل ١٩٣ شخصاً والقيام بمؤامرة لتفجير الطائرة بان أمريكان ١٠٣.

وتعد الأماكن والأسلحة والأموال وجوازات السفر عناصر خطيرة يقدمها القذافى وتسمح لهؤلاء الإرهابيين بالعمل فى أنحاء الدول الغربية. لقد استخدم إيش راميريز سانشيز، الإرهابى المعروف باسم كارلوس، هو وخمسة وثلاثون من رجاله جوازات سفر دبلوماسية ليبية للتحرك فى المجر وألمانيا الشرقية وفى أوروبا الغربية. فموظفو السفارات الليبية فى أماكن مثل برلين يساعدون الإرهابيين على القيام بأعمالهم بل يساعدون فى التخطيط للهجمات الإرهابية.

فالجماعة الإرهابية الليبية - الفلسطينية التى فجرت ديسكوتك (ملهى) فى برلين الغربية فى إبريل سنة ١٩٨٦، وقتلت أمريكيتين وأمرأة تركية وتسببت فى إصابة ٢٢٩ شخصاً بجراح،. كان يديرها موظف فلسطينى فى السفارة الليبية فى برلين الشرقية يدعى ياسر شريدى. وشخص آخر ليبى يدعى مصباح أبو الجاسم.

وقد رصدنا القذافى وشبكته الدولية عن قرب، حيث ان العديد من عملائه يمرون عبر فرنسا أو بالقرب منها أى على أراضينا أو أراضى حلفائنا القريبين. ولأن العمليات الإرهابية التى يرعاها القذافى هى جزء مكمل للإرهاب الدولى، فقد كان من الضرورى معرفة النشاطات التى تتم فى ليبيا لمنع أو مواجهة الأخطار الإرهابية. وليس هناك خلاف على أنه خلال السبعينيات

والثمانينات، كان القذافي عميلاً هاماً للعمليات السوفيتية في منطقة البحر الأبيض المتوسط على الأقل في حدود ما يخدم أغراضه. بعبارة أخرى، شغلت ليبيا بشكل مباشر الحيز الزمني بين الحرب العالمية الثالثة والحرب العالمية الرابعة. ولذلك كرّسنا جهداً خاصاً لمراقبة القادمين والذاهبين من المقيمين في المعسكرات وفيض الأموال التي تدعم عملياتهم والمواد التي استخدموها في حيلهم القذرة.

وكانت ثروة القذافي هي مصدر قوته الأساسي، وكان مخزون البترول هو مصدر ثروته. إلا أن البترول، في حد ذاته، لم يكن أبداً ضماناً للقوة السياسية أو الاقتصادية في العالم الجنوبي أو أي مكان آخر. فيجب أن يتحول إلى شكل من أشكال النقد، فأشكال النقد التي يفضلها القذافي، مثل غيره من المستبدين الجنوبيين هي الأسلحة والذهب. وكان الاتحاد السوفيتي سعيداً بأن يمدّه بهما في مقابل البترول - بتخفيض جيد بالطبع.

وانتقلت كميات هائلة من السلاح إلى الأجزاء المتطرفة من الصحراء الليبية ثم أُنشِرت في مخابئ مختلفة حتى تكون أقل عرضة للهجوم المفاجئ من أي من أعداد القذافي الكثيرين. وفي ذات الوقت. ساهم ذلك في قصر عمر هذه الأسلحة حيث أن رمال الصحراء مثلها مثل ملح المحيط تنخر في الأسلحة التي لم تُصنع لتحمل هذه العناصر. ولأن ليبيا يحدها البحر المتوسط من الشمال وبأقصى البيئات الصحراوية قسوة من الجنوب، فإن لديها كلا من الملك والرمال. وبعد ستة أشهر في الصحراء، لا تعمل أي من هذه الأسلحة. فالليبون ليسوا ماهرين في طرق الحفظ. فوجود الملح مع الهواء والرمال يكون بيئة سيئة للغاية

للأسلحة المتطورة. وبالطبع كان السوفييت سعداء بالاستمرار في الاستبدال الدورى لهذه الأسلحة والمعدات فى مقابل البترول. ومجموعة المهندسين التشيكوسلوفاكيين الذين أتوا بهم أخيراً للعناية بهذه الأسلحة كانوا قليلين للغاية وجاءوا متأخرين جداً.

وكان السوفييت سعداء كذلك بأن يمدوا القذافي بالذهب الذى استخدمه فى تمويل عملياته والعمليات الخاصة بأصدقائه المقربين. وقد عثرنا أولاً على طريق الذهب فى بريطانيا فى منتصف السبعينات. وهو المرحلة الأخيرة فى طريق طويل خاص. واكتشفنا أن الذهب الذى يخرج من المناجم السوفيتية يأخذ طريقه إلى ليبيا ومنها إلى كوبا حيث يُستخدم جزء منه لتمويل حركة كوبا الحرة. ومن كوبا، يمر ما تبقى من الذهب إلى جيش الثورة الأيرلندى. ومن هناك، يجد الذهب المتبقى طريقه إلى بريطانيا حيث عثرنا على المخبأ فى أيدي جماعات بريطانية متفرقة كانت تقوم بهجمات عنيفة على أهداف فرنسية. وتبقى بعد ذلك كمية كبيرة من الذهب تكفى لشراء أسلحة أتوماتيكية ومتفجرات كلها من أصل تشيكوسلوفاكى، ويتكون الذهب من أعمدة يزن كل منها كيلو ومن عملات ذهبية ليبية.

وقد كانت أيدي الروس تظهر بوضوح فى مناسبات عديدة عندما يكون الليبيون فى واجهة الأمر. وميناء طرابلس ذو المياه العميقة، وهو أكثر التيسيرات من هذا النوع تطوراً فى جنوب البحر المتوسط، ميناء أنشأه القذافي، إلا أن السوفييت استخدموه بشكل مكثف.

واكتشفنا أن الليبيين، بمساعدة السوفييت غالباً، يتجولون بعيداً عن

وطنهم. ولعل أكثر مغامراتهم إثارة كانت غزوهم لجزر تونجا. كل عام، كنت أتلقى زيارة من رئيس الخدمات السرية فى نيوزيلاند، وعادة مايكون فى طريقه من أو إلى اجتماع على مستوى عال مع زملائه البريطانيين فى لندن. وذات مرة فى أوائل السبعينيات، جاء ليقضى نهاية الأسبوع فى شقتى فى باريس. وكان أحد المحاربين القدماء فى الحرب العالمية الثانية، وهناك ذكريات عديدة مشتركة بيننا عن تلك الفترة. .

وبعد العشاء يوم السبت، تحول لى وبدأ حديثه قائلاً: «على أن أخبرك أننى لسنوات كنت مفتوناً بالقصص التى رويتها لى عما يسير عليه العالم عموماً فى مجال مهنتنا. ولأننى أعيش فى الجزء المقابل من الكرة الأرضية، فإننى نادراً ما كنت قادراً على المشاركة فى الحديث. إلا أننى لهذه المرة لدى شئ قد تجده مفيداً.»

فقلت له: «حسناً، حدثنى بالمزيد»

فقال مباشرة: «قبل مغادرتى لأوكلاند مباشرة، جاءتنا معلومات عن أن ملك تونجا تلقى رسالتين من القذافى.»

ومملكة تونجا هى مجموعة جزر صغيره فى جنوب المحيط الهادى، وهى أكثر الجزر الجنوبية الأهلة بالسكان قبل الوصول إلى أرض أنتركتكا.

وملك تونجا حاكم لديه قوه هائلة - وحجم ضخم كذلك. وفى الواقع، فإن الملك يتم اختياره لأنه أكبر رجل بين شعب من ذوى القامة والحجم الضخم، وهم فى الأصل شعب مقاتل فى المحيط الهادى الجنوبى. وعلى وجه الدقة فإنهم شعب لايعرف الخوف كليه. فضلاً عن هذا فإنهم لايدننون لأى إنسان أو دوله بأى شئ.

واستمر صديقى القادم من نيوزيلندة فى قوله. «لقد اكتشفنا أن هذين الرسولين، كانا يجلبان معهما حقيبتى ملابس سامسونيت ثقيلتى الوزن، فقد كانتا مملوءتين بالمال. لكن الذى كان يريده القذافى بالضبط من تونجا مازال غامضا تماما بالنسبة لنا.»

وفى صباح اليوم التالى، استدعيت واحدا من جنرالاتى، وكان أيضا أدميرالا فى البحرية الفرنسية، وكلفته بعمل التحريات.

وعاد بعد ثلاثة أيام - عاد - «حسنا، لقد كانت البحرية، كما كنت أنا، مذهولين»، قدم الادميرال تقريره مزهوا بنفسه. «ومع هذا فقد توصلنا إلى أن توجد أهمية استراتيجية حقيقية فى هذه المعلومات الاستخباريه. وفى وقت الحرب، فإن هذا الجزء من المحيط الهادى من الممكن أن يكون مشوقاً جداً كلمجأ لبعض الغواصات الروسية. وفى الواقع فإن مكاناً لتلك الغواصات أو سفن تموينهم لدخول الميناء من المحتمل أن يكون مفيداً تماماً.»

هذا ولم تبدأ الغواصات الروسية اطلاقاً بزيارة الميناء الداخلى لتونجا بقدر مايمكننا تحديده. كما أنه لم يكن واضحاً أن السوفييت قد أحاطوا بالقذافى علماً بهذه المغامرة الخاصة. ومع هذا لم يكن هناك أى تساؤل أن القذافى فى أحسن الأحوال، يتلاعب بجدول أعمال متعدد الجوانب - حماية ما كان يراه أنه أجنحه الجيش..، أو أنه يهذب التفاحه، الاتحاد السوفيتى - الذى يمدّه بالذخيرة والخبره الفنية. وفى نفس الوقت، فمن المحتمل أن يخدم اهتماماته ومصالحه الخاصه - متوقعاً تكوين حليف جديد استراتيجى هام فى أحد أطراف العالم الحرجه بالنسبه للصراع العالمى القادم الجنوب فى مواجهة الشمال.

لم يكن القذافي فى ذلك الحين ولا الآن عميلا للروس بالمفهوم التقليدى الكلاسيكى. والعميل الروسى فرد غالٍ ولا بد أن يحصل على أجره بنهاية كل شهر، وأن يُدفع له بسخاء. وعلى النقيض من هذا، فإن القذافي سيدفع للروس، ثمنا لسلاحه ومساندته فى نقل الجنود وايوائهم وتموينهم. فضلا عن هذا فإنه يستفيد من الروس كما يستفيدون منه. إلا ان القذافي، على النقيض مع الكثير من القادة المفتونين، يميل لأن يتعامل مستقلا تماما، ويتفاعل فقط مع خيالات جنون العظمة الشخصية ضد أعدائه - سواء أكانوا حقيقيين أو خياليين. ولذا فلم يتردد فى مطاردة المعارضين السياسيين، حلفاء أى من المتعاطفين مع ملك ليبيا المخلوع ادريس، أينما وجدوا ومهما كانت النتائج بالنسبة للمتفرجين الأبرياء.

إن القذافي ليس بالرجل المجنون. انه ثعلب صحراء ماكر جدا. انه رجل له رؤيا وتخيلات ملتوية فريدة فى نوعها، إلا أنه رغم هذا له رؤيا وتخيلات. ومن أحد أقسام تلك الرؤيا التقسيم، ثم السيطرة على جزء كبير من القارة الأفريقية والتي يُلقي عليها نظرة شاملة من مكانه العالى فى اقصى امتداد شمال البحر المتوسط. ومن المحتمل أن نضمن ذلك الاستيلاء على أكبر رقعة من الأرض - تشاد وجمهورية أفريقيا الوسطى، ويصبح بذلك كخنجر مسلط مباشرة إلى دولة زائير الغنية بمعادنها ويقسم بصورة متقنة شرق أفريقيا عن غربها. وهكذا يمكن لليبيين استغلال قصر من هذا النوع بتركيز اهتمامهم السياسى، إن لم يكن العسكرى، إما على خليج غينيا إلى الغرب، أو البحر الأحمر والقرن الأفريقى تجاه الشرق والجنوب، وفى وقت ما بالإمكان توفير التأييد للحكام الشيوعيين فى أثيوبيا. ومن ثم يحتمل جعل جزءا كبيرا من

أفريقيا مجبرا على الركوع، ودفع الجزيره للعقيد معمر القذافي. وهذا الجزء من أفريقيا به مخزون من المعادن الاستراتيجية والتي تعتبر حيوية بالنسبة للشمال وتشتمل على عدد كبير من السكان والدول التي لها روابط ثقافية، واجتماعية وسياسية واقتصادية طويلة وعميقة مع الدول الأوروبية.

بجانب هذا فإن جمهوريه أفريقيا الوسطى كانت لفترة طويلة من الزمان من أكثر الأمم المحرومة والمتخلفة على كوكب الأرض. ومصدر ثروتها الوحيد الحقيقي هو الماس الذي له خاصة صناعية، والذي يستخرج منه سنويا قرابه الربع مليون قيراط. وفي ٣١ ديسمبر عام ١٩٦٥، خضعت لسيطرة جان - بيدل بوكاسا، وهو حاكم مصاب بجنون العظمه الحقيقيه، والذي أطاح بالرئيس، ديفيد دكو، واستولى على السلطة بالانقلاب. وقد أعلن نفسه رئيسا مدى الحياه» فى عام ١٩٧٢، ثم لقب نفسه بلقب الامبراطور بوكاسا الأول فى عام ١٩٧٦ وبعد ذلك بعام توج نفسه امبراطورا فى احتفال تمكن أن يطلق عليه مهزلة (كوميديام الجادة) داخل عربة مزينة باكملها بالذهب. وكانت تكلفه هذا الاحتفال وحدها تكفى لتغذيه أمة بأكملها لمدة عام. ورغم هذا، حيث ان أمته كانت المرتكز لأفريقيا الفرنسية السابقة، فقد وجهت فرنسا انتباهها بأشراف على بوكاسا. وكانت البلاد ملائمة للعبه صيد ضخمة، واصبح بوكاسا ذلك النوع من حراس المرسى الخصوصيين للجمهوريه الفرنسيه والذين يحكمون حكومتها وصناعتها. كما كانت ايضا منطقته ارتحال اساسيه للطيران والقوات البريه الفرنسيه التى كانت تضمن أمن الكثير من وسط أفريقيا.

وبسبب اهتمام فرنسا الكبير بالشئون الأفريقيه - جنبا إلى جنب مع الارهاب

والتهديد النووي، فقد كانت واحدة من الاهتمامات الأمنية الثلاث الرئيسية لفرنسا - وقد كنا نراقب بوكاسا وحكمه الاستبدادى عن كثب.

وفى أوائل توليتى للسلطة، وبعد فترة قصيرة قصيره من اعلان بوكاسا نفسه رئيسا مدى الحياة، بدأت فى تحذير جيسكار ديستان من الخطر الذى يمثله الحاكم ولقد ترك مسلكه شيئا كثيرا ليكون مرغوبا. وفى الوقت الذى توج فيه بوكاسا نفسه امبراطورا، اصبح سكيما خطيرا. وبدأت الاشاعات الشاذة تظهر على السطح. وعند احدى النقاط، وتتبع انتشار قصة خبيثة على وجه الخصوص، حيث قمنا بفحص سرى للثلاجة فى قصر الرئاسة. لم يوجد بها أى لحم بشرى. بالاضافه إلى هذا فقد كانت هناك قصص متكررة عن مأساته. وفى أوائل عام ١٩٧٩، كانت المجلة الاسبوعية الفرنسية الهجاءة كانار أنشانيه الشهرية تشعر بالسعادة لكشف النقاب عن قصص الهدايا عن مآسى وسط افريقيا الغالى الثمن والذى كانوا يجودون به على جيسكار خلال رحلات الصيد العديدة التى قام بها فى الأمبراطورية. حتى ان جماهير الشعب الفرنسى. والذى معظمه على وجه العموم متسامح بالنسبة للافراط الزائد لحكامه، وفى الواقع يُتوقع منهم أن يحيا حياة الترف بالشكل الملائم لورثة العرش الفرنسى الحقيقيين - وجدوا أن هذا الافراط فى مصاحبه طاغية أفريقى حقير وضيق الأفق كثير جدا. وفى الوقت الذى أصبحت فيه هدايا بوكاسا لجيسكار ديستان مشهورة وتسببت تقريبا فى سقوط الحكومة الفرنسية، وفى الحقيقة فان الامبراطور وزع هبات مناجم بلاده إلى حد كبير جدا. إن جمهورية وسط أفريقيا تنتج الماس الصناعى، كما تفعل لكثير من الدول. إلا أنه يثبت فى النهايه أنها قطع صغيرة من الماس - صحيحه بعيدة عن

الماسه الواحده ذات اللون الأبيض المشرب بالزرقه أو مجوهرات تاج بريطانيا -
ومع ذلك، فان بوكاسا كان مسرورا لوضع مأساته الصغيره جدا للعرض
السخى، وتقديمها للضيوف الذين يشعرون بالمعاناه. وكان جيسكار وحزبه من
المتلقين، سيئى الحظ، لما يمكن أن يطلق عليه لصعوبه هبات. فضلا عن هذا
فقد كانت هدايا بوكاسا غير ذات قيمة والأمر كله كان ضربه خطيرة وكريهة
لرئيس فرنسا.

إلا أن ماثير اهتمامنا بدرجة كبيرة - والذي ننظر اليه بحرص وعن كذب -
هو أن أى تورط أجنبى مع بوكاسا من الجائز أن ينبغى أنه ضار بالمصالح
الفرنسيه. وفى ربيع عام ١٩٧٩، عملنا جادين للكشف عن دلالة لمثل هذا
التورط. ولقد طلبت مقابلة رسمية مع چيسكار. ووضعت أمامه خطه مفصلة
لوصول قوات خاصة ليبية الى عاصمة ما أعيد تسميتها بامبراطوريه أفريقيا
الوسطى. ولقد شعر جيسكار بعدم رغبة فى مواصلة الحديث. لقد اصبح
بوكاسا، وراء نطاق الماس، حارس ملعبه الخاص وأنه يتمتع بصيد
الأفيال والاسود.

وبعد تقديمى تفاصيل علاقة بوكاسا الليبيه اندفع فجأة قائلاً: «كيف عرفت
كل هذا؟»

«عادة، ياسيدى الرئيس، لقد كان لزاما على ألا أخبرك بكل تفاصيل
مهنتنا. لكننى أخبرك هذه المرة».

وهكذا قمت باخراج بعض الصور الفوتوغرافيه من جيبى. وبدأت أقول «إن
أدلتنا تجئ من عدة مصادر، عملاء عاملين فى تنظيمات فرنسيه، والمقيمين

المحليين الذين تعاونوا معنا. كما أن رجالنا الخصوصيين كانوا ماهرين في سرقة تلك الصور في الوقت الذي كان فيه اصحاب محافظ الجيب يتدربون أو يستحمون في حمامات السباحة». بجانب هذا فان الليبيين ليسوا بروسين بالضبط في سلوكياتهم. ورغم أنه في الوقت الذي كان فيه الليبيون في امبراطورية أفريقيا الوسطى يرتدون الملابس المدنية، فقد كشفت الصور الفوتوغرافية، التي في محافظهم مع أماتهم، أو آبائهم، أو صديقاتهم، الثقاب عن زيههم الرسمي الذي يرتدونه كاملا بالميداليات والشارات المميزة لقوات الخدمات السرية الليبية (المخابرات). وقد كان من الواضح أنهم ليسوا المستشارين المدنيين كما كانوا يدعون.

واستمرت في حديثي. ان الليبيين شيء واحد. لكن ما الذي سيحدث فيما بعد عندما تكتشف ايضا أن برفقتهم مستشارين من المانيا الشرقية او من كوبا، وفجأة نكون متورطين في مواجهة شاملة؟ سيدى الرئيس، سأقوم بتدوين ذلك عند عودتى إلى مكتبى. وإذا حدث أى شيء هناك، ستكون فى الملفات.

فكر جيسكار برهه. وقال «حسنا، وهو كذلك، أفعل ماتريد».

وفى أواخر صيف عام ١٩٧٩، اكتشفنا أن بوكاسا كان يخطط للقيام بزيارة لأحد أصدقائه، العقيد القذافى. ووضح أنه قد حان الوقت فى تلك الآونة للتخلص من بوكاسا، وهكذا تم ميلاد عملية باراكودا وكان هدفنا الاطاحة ببوكاسا دون اطلاق طلقة واحدة وتعيين وتنصيب خليفه له يتحرك تجاه استعادة الديمقراطية، حكم حليف للغرب، وكان الرجل المناسب للقائمة تماما هو ذلك الرجل الذى أطاح به بوكاسا منذ أربعة عشر عاما. لقد كان ديفيد داکو

لاجئاً سياسياً فى فرنسا. ولم يكن من السهل اقناعه بأن يأخذ على عاتقه ما
يحتمل أن يكون بالاحتمية عملية صعبة وخطيرة. بجانب هذا فإن داکو لم يكن
شاباً، لكنه فى النهاية اقتنع بأن تلك المناورة كانت ضرورية لانقاذ أمنه من
خواب شامل.

وعلى هذا قمنا بارسال العديد من المبعوثين للتحدث معه فى بيته
خارج باريس.

وقد قيل له «اننا نستهل هذه العملية بمفهوم أنك ستلقى بيانك الخاص
المستقل عند الوصول. أننا لسنا مستعمرين نحاول استعادة إحدى المستعمرات،
بل نحن أناس لديهم الرغبة لاحتباط كارثة ستأتى إذا ما اقام الليبيون مركزاً فى
وسط أفريقيا».

وأجاب «من الذى سيكون هناك لاستقبالى عند وصولى؟»

وقد بذلنا ما فى وسعنا لكى نؤكد له من جديد أنه ستوجد بنيه أساسية
كاملة للترحيب به فى بانجوى وقت هبوط طائرته. وفوق كل هذا، فقد أقنعناه
بأننا لانريد أى شئ أبعد من إعادة تنصيبه كرئيس للحكومة.

وخلال الأسبوعين التاليين، أعد داکو، بمساعدة كتاب الخطب العاملين
لدينا، رسالة وصوله، كما جهزنا لعمليتنا. هذا ومن المعروف أن مثل تلك
العمليات لابد وأن تكون دقيقة - على أن تباشر فى سرية تامة - تحت غطاء
من الظلام، وباستخدام كحد أقصى من ١٠٠ إلى ١٥٠ رجلاً. وفى كل حالة،
فإننا نصل مع مهبط الليل ونخرج مع أول ضوء للنهار صباح اليوم التالى.

لقد كان مجال استخباراتنا نموذجاً لمثل تلك العملية، فى أى مكان فى

العالم. لقد عكفت على خططى زهاء ثلاثه أعوام. وطوال ذلك الوقت، وكلما كان عندى ضابط يقضى أجازة، أعطيه أو أعطيها تذكرة طائرة - بدلا من كوت دازور أو ايطاليا - إلى امبراطورية أفريقيا الوسطى. وكل واحد كان يصطحب صديقه أو صديقاً، أو زوجه أو زوجاً وأطفالاً. وعندما يصلون يبدأون فى التقاط الصور فى كل مكان - تماما مثل السياح. وكانت الصور تلتقط أمام مكتب البريد، محطة التليفزيون ثكنات الجيش ومركز تشغيل التليفون. وقد وضعنا ضباطاً آخرين ممن كانوا يتركزون فى جمهورية أفريقيا الوسطى خلال فترة الاستعمار، وحتى تلك اللحظة كما كانوا فى الماضى يتحدثون اللغة القبليه لحرس الشركة فى مطار نانجوى.

هذا وقد تم استخدام طائرتين من طائرات SDECE الخاصة لنقل قواتنا إلى نانجوى. وكان قد سبق ارسال عدد صغير مقدما، لكى يتأكدوا بالضبط من كيفية تشغيل المطار، عندما يفتح ويغلق، أين توجد الاضواء، ومن يقوم بتشغيل برج المراقبة، وهكذا. بجانب ذلك فقد كان هناك مدفعان رشاشان فى الحقل لحمايته، ويقوم بتشغيلهما حرس مطار الشركة، والذين كما علمنا أنهم لم يتسلموا رواتبهم لمدة شهر. وأكثر من هذا، فان آخر مرة تسلموا فيها رواتبهم، كانت بالعملة المحليه، والتى أدى إلى التضخم السريع وكانت تقدم الكثير مما ليس له قيمة.

وهكذا وبحلول ليل العملية، يوم ٢١ سبتمبر ١٩٧٩، كنا جميعنا على أهبة الاستعداد. وكان هناك اثنان من طيارينا فى اماكنهما على الممر الجوى المظلم، ومجهزين بمصابيح فضاء بالبطاريات لارشاد طائراتنا. وفى ذلك الحين كانت

الطائرات الفرنسية في الجو قادمة من فرنسا عندما حدث تداخل. كانت هناك طائرة مصرية، على الأرض في الكونجو المجاورة، تطلب المادة فتح المطار لهبوط ليلى متأخر. ومن المحتمل أن يعمل ذلك على انهيار العملية بأكملها والتي تم التخطيط والكتابه لها بحرص شديد. إلا أنه كان هناك رجال لنا في الكونجو. وهكذا فقد حدث عطل في آخر لحظة في إحدى الآلات مما أخر إقلاع الطائرة لمدة يوم.

لقد كان مقر قيادتي تحت الأرض في مركز الرئاسة في باريس. وهناك كان محاطا بالخرائط ومجموع المساعدين - رئيس الأركان، القيادة العامة للقوات الخاصة، وأخصائيينا في أفريقيا السوداء وامبراطوريه أفريقيا الوسطى. وفي الوقت الذي كانت فيه العملية تجري مجراها، أرسل الكولونيل إم، والذي كان يقود قواتنا في الحفل، إشارة لاسلكيه في آخر دقيقه مستفسرا:

«سيدى المدير العام، تعتقد أن (بوكاسا) متواجد حاليا في طرابلس، لكن فلنفترض وصوله عن طريق الصدفة عائداً إلى بانجوى خلال الليل؟ ولنفترض أنه يأتى مهاجما المدينة داخل سيارة جيب ويده سيف؟»

ترددت لحظة ثم قلت « خذوه سجيناً . وأعيدوه إلى الرئيس داكو فى الصباح ».

ولنفترض أنه بدأ فى قتل البعض من رجالنا؟»

«عندئذ اقتلوه.»

لقد كنت فى ذلك الحين قد أصدرت أوامر صريحة جدا وذلك قبل أن تبدأ قواتنا مهمتها. « لدينا وسائل اتصالات رائعة. ولكننى لن أطلبك على الإطلاق.

أبدا. لأنك مشغول أما أنا فلا.. اننى جالس على مؤخرتى فى غرفتى المحصنة تحت الارض فى باريس. وإذا كنت فى حاجة إلى المشورة فى أى وقت، اطلبنى. ليس لدى النية فى التدخل. إنك الوحيد المسؤول. وإذا كان لديك أية أسئلة، إ طرحها بأية وسيلة، ولكننا لن نتدخل فى طريقك، لقد عقدت العزم على ألا تكون تلك العملية مشابهة لعملية كارتير التى أجهضت لمحاولة انقاذ الرهائن الامريكيين فى ايران وذلك فى الوقت الذى كان يتلقى فيه الكولونيل تشارلز بيكوز المسكين الأوامر بين انثى عشر شخصا من على بعد آلاف الأميال طوال العملية.

هبطت أول طائرة دون أية حوادث، وذلك استرشادا برحلتنا على الأرض. كان المطار مغلقا وكان العاملون فى ذلك الوقت قد غادروه إلى المدينة. وكان عملاؤنا بملابس المعركة كاملة كما كانت سياراتهم الجيب للانتقال خلال دقائق، كما كانت جماعة الهجوم تسرع تجاه المبنى حيث كانت كتيبة حرس المطار فى موقعها بالمدافع الرشاشة عند الأبواب والنوافذ. وفى الحال خاطبهم الضابط الذى يتحدث لهجتهم القبليه من خلال مكبر الصوت.

«لم نأت إلى هنا للاستيلاء على بلادكم، لكن ببساطة لمساعدتكم لتخليص أنفسكم من الطاغية، وإذا أمكن استعادة الحكومة الديموقراطية. والآن، فإننا نعرف أنكم لم تتسلموا رواتبكم لمدة شهر. أرجو أن تشكلوا صفا على طول الجدار وسوف تتسلمون رواتبكم فى الحال».

وعندما ظهر الحراس ومعهم منضدة وكرسى لصرف الرواتب، عرفنا أننا أحرار فى الوطن. واتخذ مقعده وأخرج رزمة من الأوراق النقدية من صندوق معدنى.

لقد كانت فرنكات (مجموعة التمويل الأفريقيه) كل خمسين تعادل فرنكا فرنسيا إلا أنها عملة صلبة تدعمها البنوك المركزية من الدول الأفريقية المتحدثة بالفرنسيه والقادرة على ابقاء جميع الديون.

وبدأت عملية الصرف فى الوقت الذى أعلن فيه الموظف المسئول والذى اختير لمهمتنا الخاصة إلى كتبينة الحرس قائلًا، أيها الضباط، يمكنكم البقاء مسحليين، أننا نثق فيكم لتقدموا بنفس العمل الذى تقومون به». لقد كنا نريد وجود قوة عسكرية محلية مسلحة إلى جانبنا.

والتفت قائدنا إلى الجنود الذين شكلوا فرقة الحرس المحلى وقال من فضلكم ضعوا اسلحتكم بجوار المبنى.»

لم تطلق طلقة واحدة. وقد عرض ضباط الحرس باصطحاب رجالنا معهم إلى المدينة ويقومون على خدمتهم كمرشدين. فضلا عن هذا فقد قمنا باحتلال نقاط استراتيجيه قليلة، لكن فى قرية صغيرة وهى فى نفس الوقت عاصمة، ولم يكن من الصعب تحديد النقاط الاستراتيجيه، وكنا نعرفها كلها من الاساس القصر الجمهورى، ومركز التليفون، ورئاسة التليفزيون، وبضع ثكنات عسكريه.

وفى ذلك الوقت، هبطت الطائرة الثانيه، حامله داکو وسيارة الرئاسة فى مطار بانجوى. وفى تلك اللحظه، أذاعت احدى وكالات الأنباء، التى أوجدناها بسرعة لهذه العمليه، والتى اختفت فى اليوم التالى، خبر القول فيها إن هنالك على ما يبدو وجود انقلاب فى الطريق فى امبراطوريه أفريقيا الوسطى.

هذا ولم يتم أخطار أحد ولا حتى كواى دارساي. ومن ثم قام وزير الخارجيه

الفرنسى بالاتصال تليفونيا بالسفير فى بانجوى، الذى استيقظ، وأخذ يفحص باختصار وكتب تقريراً بأنه لم يمكنه أن يجد شيئاً غير عادى.

وفى صباح اليوم التالى، ألقى الرئيس داکو، بعد تقلده منصبه فى قصر الرئاسة، بياناً الرسمى إلى الآن، بجانب ذلك جمعت قواتنا الخاصة أجهزتها ورحلت، كما كان مخططاً لها، مع أول ضوء للنهار. وقد حلت محلهم، ورسمياً تماماً وحدات نظاميه من الجيش الفرنسى.

والتي كانت متمركزة فى تشاد المجاورة.

وبالنسبة لبوكاسا نفسه، فإنه أصبح فى تلك اللحظة بدون حكومة، وقد عرض عليه صديقه العقيد القذافى اللجوء السياسى فى ليبيا. ولقد اختار، بدلاً من ذلك، منفى أكثر بعداً ومريحاً فى ساحل العاج. وخلال أيام غادرت قوات القذافى الخاصة بانجوى، وهكذا أُحبط الطموح الليبى كليه.

ولكن ليس هذا معناه أن يقال إن القذافى بأى شكل كان قد تخلى عن مخططاته لقيام امبراطوريه ليبية كبرى - فلقد كان طموحه الاقليمى واضحاً وقوياً لفترة طويلة، لقد أعد على الأقل هجومين كاملين دون تحفظ ضد تشاد من الشمال، حيث تحركت طوابير القوات المدرعة إلى واحة قايا لارجو فى أعماق الصحراء شمال العاصمة، تدجamina. هذا وقد تم ارسال قوة من المظليين الفرنسيين خلال احدى المناورات لتقديم العون لقوات الحكومة التشادية المنضمة لمواجهة الليبيين. وفى ذلك الوقت، الحيت فى طلب القيام بهجوم جوى فرنسى لتدمير الطابور الليبى بأكمله - بمفهوم تدمير محدد والذى لا بد وأن يكون فى ذلك الحين كضمان للأمن الشمالى ضد القذافى فى عالم الجنوب. وبدلاً من هذا

فقد يسمح للقوات الليبية فى النهاية بالانسحاب دون المساس بها إلى حدودها .
و بدون شك ، فإن العمل الفرنسى الحاسم لتدمير الطابور الغازى كان من المحتمل
أن يثير فى نفس الوقت عملا فاصلا داخل الجيش الليبى وربما الأمة كلها والتي
من المحتمل أن تؤدى الى ابعاد القذافى والذى يشكل تهديدا دائما للشمال .

وفى الواقع فإنه خلال السبعينيات ، كان هناك العديد من المحاولات للاعتداء
على القذافى ولكنها لم تحقق اهدافها اطلاقا - وكانت أى واحدة منها ، وأسفاه ،
من المحتمل أن تكون قد أدت خدمة لارسال رسالة للدمار المحدد ،

وفى يوم ١ مارس ١٩٧٨ ، أرسل إلى الرئيس أنور السادات ، رئيس مصر
رسالة تقدير بأنه مهتم بالاطاحة بالقذافى . ولكن لم يتضح لى اطلاقا إذا ما كان
السادات ، والتي كانت بلاده وبصفة متكررة تتعرض للخطر من جانب ليبيا
بجانب أن قواتها المسلحة ترغب فى الحصول على مشورتنا أو مساعدتنا
الفنية . والحقيقة هى ، اننى لم أكن مسئولاً عن فريق القتلة المأجورين ولذلك
فقد كان ردى إلى السادات أننى لا أدير منظمة يمكنها تنفيذ ذلك النوع من
العمل لكننى لم أشر أنه فى ذلك الوقت كان هنالك ٢٥٠ , ٠٠٠ مصرى -
تقريبا ١٠ ٪ من السكان - يعيشون ويعملون فى ليبيا . وبالتأكيد فمن
المحتمل أن يوجد القليل ليقف فى طريق فريق للتسلل من المواطنين المصريين
والذين يمكنهم وبسهولة أن يقوموا بعمليات تموية للقيام بأى عمل ليشعر أنه
مناسب . إلا أن السادات مع هذا غير رأيه . وبعد فترة زمنية قصيرة ، مات
الرئيس المصرى نفسه على أيدى القتلة من بلده والذين كانوا منتشبين
بتعصبهم الدينى .

هذا ولا توجد أية دلالة على أن القذافي أو مؤيديه وراء عملية اغتيال السادات. إلا أن عدم استقرار ديمقراطية الشمال كان ولفتره زمنيه طويله تكتيكا سياسيا حاسما للقذافي مثل تلك المحاولات لتقسيم وغزو أفريقيا. وفى هذا الخصوص فقد كان له العديد من الحلفاء - قادة لما يمكن أن يطلق عليه اتحاد الارهاب الدولى.

ومع ذلك فإن ابعاد قذافي أو خومينى ليس بالرد على مشكله الارهاب الدولى. ومن الواضح تماما فإن طريق الخومينى كان له تأثير ضئيل على نوايا الحكومة الايرانية لتقديم الدعم المالى للأنشطة الارهابيه أو أى تأثير حقيقى على فعاليتهم. وحتى فإن عودة الديمقراطية إلى ليبيا من المحتمل أن يكون لها تأثير حقيقى ضئيل. وهناك دائما ملجأ آخر يمكن أن يوجد لمثل هذا النوع من النشاط، نمط آخر مُعدّ لتجهيز المساندة والمساعدة.

بجانب هذا يوجد العديد من الملتجآت الاحتماليه، بعضها أفضل من الأخرى، لأمثال أبو نضال، أو أبو داود أو الارهابى الدولى الشهير. كارلوس والذين فى هذه الأيام يعتبرون ليبيا وطنهم الاساسى. هذا ولم يتردد أحد للهجوم على أى هدف يبدو وأنه مناسب فى لحظة محددة، وغالبا بدون أى احياء مباشر من أبيه الروحى.

ومن عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٨١، حدثت بعض الصفقات بين الحكومة الفرنسيه وجماعات ارهابية معينة، وعلى الاخص الخلايا التى يسيطر عليها أبو داود، فى محاولات ناجحه على نطاق واسع لاستثناء الأراضى والمواطنين الفرنسيين من الهجوم - وكان ذلك خلال فترة من التوتر الضخم بين باريس

وطرابلس. وطوال تلك السنوات، كان هنالك مفهوم ضمنى بأن الارهابيين العاملين خارج الأراضى الفرنسية، وحتى تحديد أهداف حلفائنا الأوروبيين. ولم أوافق أبدا على هذا القرار، إلا أن الترتيبات مع تلك كانت قرارا سياسياً محلياً لدرجة أن المخابرات الفرنسية كان تأثيرها ضعيفا. وقد أنتهكت الهدنة بالهجوم الدموى على المعهد اليهودى فى رى كوبرتيك بباريس، وفى النهاية تم تدميرها بوصول الحكومة الاشتراكية للرئيس فرانسوا ميتران إلى السلطة عام ١٩٨١. وبعد ذلك، أصبحت الأراضى الفرنسية أرض معارك للعديد من الجماعات الارهابية - ومن نواح عدة، خط الجبهة لما قد تطور ليصبح الحرب العالمية الرابعة.

الفصل العاشر

حقول الغام العقل

فى أحوال كثيرة كان الارهاب يوصف بأنه سلاح الفقراء. انه سلاح يؤثر فى نظام مؤسساتنا السياسية بأكمله ليس فقط فى الشمال، بل فى تلك المناطق من العالم الجنوبي وتما ما كذلك الذى يعتمد علينا لبقائهم. إن أغلب المناوشات الدموية والتي يستخدم بها ليلقى بظلاله على حياتنا. كما أن الحرب العالميه الرابعه ذاتها، بالطبع، من الحروب لم يتضح فيها منتصر حتى الآن، وفى الواقع ليس بطلسم النصر. ومع هذا فإن الذى مازال حياً فى الذاكرة الآن، فى أحلافنا المروعة، هو الهزائم.

وإذا لم نغير استراتيجيتنا لمكافحة هذا الصراع العالمى - لفهم انها ليست بأى وسيلة تشبه أى واحدة أخرى شاركنا فيها - فسوف نستمر فى المعاناة من الهزائم. والقليل من هؤلاء الذين يقودون أمتنا، فى الوقاع القليلون الذين يقفون على خطوط الجبهة كل يوم. قد فهموا تماما أننا متورطون فى « سلسلة من المعارك والتي لسنا مستعدين لها كليه». اضافته إلى هذا فلدينا الكثير من الضعف لدرجه أن المنظمات الارهابيه، من خلال مرونتهم، مرة بعد مرة قادرين على استغلالها.

وإحدى نقاط الضعف الرئيسيه هى استمرارنا فى التفكير فى الدفاع أساساً وفقاً للمفهوم الوطنى، فى حين يحدث الارهاب فى بيئة دوليه أو كرويه شاملة، ويتحرك وفقاً لرغبته عبر الحدود، مختاراً الاهداف بعناية حيث تبرز الفرصة ذاتها بدلا من أى هدف قومى على وجه التخصيص.

وارهاب الباسك من الموضوعات التى أثارت اهتمامنا على نحو خطير خلال الكثير من السبعينيات، إلى الثمانينات، وما زالت مستمرة حتى اليوم، وفيما مضى وقبل زمن يولويوس قيصر، والباسك، شعب فريد فى نوعه ووطنى سريع الغضب، وقد تشبث بقرار الواقعه على جانب الجبل والتى تنتشر فى غير نظام على جبال البرانس الغادرة فى أغلب الأحيان إلى الحدود لما أصبح الآن فرنسا وأسبانيا. فقد حاربوا جنبا إلى جنب مع الجيوش العربيه التى غزت أوروبا كما شاركوا فى معارك مع ثوار شارلمان خلال حروب الجهاز فى القرن الثامن. ولقد مات شاعر القرون الوسطى الفرنسى رولان فى أحد كمائن الباسك الأكثر شهره عند رونسفو. وفى العصور الحديثه، حيث تم تخطيط الحدود الاسبانيه والفرنسيه، فإنهم يتوقون للحصول على وطن للباسك والذى من المحتمل أن يوجد لهم، وهم فى حقيقه الأمر متحدون وبعمق روحانيا، الا أن هذا الحلم قد فاتهم ولم يدركوا. والباسك، كغيرهم من الكثير من الشعوب على الأرض، منقسمون بين دولتين، وبالكاد يتواجد منهم ٠٠٠, ٢٥٠ نسمة فى فرنسا، وتقريبا ٢ مليون عبر الحدود فى اسبانيا. ولقد استمر الكفاح العنيف لتوحيدهم منذ الخمسينيات، عندما كونت جماعات من الطلبة، والذين يسعون لاضفاء الصفه الراديكاليه على حزب الباسك الوطنى التقليدى، المنظمة العسكرية الشاذة والتى اسموها إيتا وبالتدريج وخلال الستينيات، فقد تزايدت فى السبعينيات والثمانينات اندفع ارهايو الباسك بعمق وعنف فى أكثر الأنشطة العنيفه وبدأوا فى البحث عن حلفاء أينما وجدوا. وبعد تدريبهم فى معسكرات الارهاب فى أماكن بعيدة كليبيا وكوبا، يعودون مسلحون بأحد الأسلحة الأتوماتيكيه والمتفجرات البلاستيكيه.

ومن بياريتس إلى بيلايوا وطوال تلك الفترة أصبح العنف - غير متوقع وفى أكثر الاحيان مميتا هو اسلوب الحياة. وفى عام ١٩٧٩ وحدها، هاجم كوماندوز مظمة ايفا قطار السكة الحديد السريع بين باريس ومدريد بالمداغ الرشاشه، واغتالوا ضابط شرطه شاباً وصديقتة كانا متجهين لقضاء امسية راقصة وللهو فى إحدى قرى الباسك النائية، وفيما يبدو أنه عنف عشوائى قتلوا ستة من سائقى السيارات الأجرة وحتى مفتش حافلة بالمدينة وبعد كل حادثة مميتة، يذوب الارهابيون عبر أى حدود تقدم لهم المأوى - فعملية قتل فى فرنسا تعنى الهروب إلى اسبانيا، وتفجير قنبلة فى اسبانيا تعنى ملجأ فى فرنسا. ومع الافتقار الى التنسيق الأرضى بواسطة قوات الشرطه والمخابرات فى كلتا الدولتين، فقد كانت فترة عطلة رسمية مفتوحة على كلا الجانبين من الحدود.

ورغم هذا فان ارهاب الباسك على أية حال فريد فى نوعه الاستغلال الأنشطة الوطنية الشاملة لتعزيز الغايات الوطنيه أو الايديولوجيات العنيفه. وفى اليابان، على سبيل المثال، كان يوجد دائما مجتمعات طبيعية سريه، إلا أن الجيش الأحمر اليابانى كان عنيفا، متكافئا مع منظمة فوضيه منشقه لها طموحات دوليه، خرجت من التجزئ الذى حدث فى سبتمبر ١٩٦٩ لتحالف عصابة تروتسكيست. للشيوعيين الثوريين فى طوكيو، وقد رأى أعضاؤها من الطلبة فى أنفسهم أنهم جزء من الكفاح الثورى العالمى والذى من المحتمل أن يشغلوا عن طريق حرب العصابات الحضري الشامل، وقد استهلموا أفكارهم من مظاهرات طلبة باريس فى مايو ١٩٦٨. وكان أول تأثير للجيش الأحمر اليابانى فى آسيا باختطاف احدى طائرات شركه الخطوط الجوية اليابانيه فى

ابريل ١٩٧٠ - وطوال السبعينيات، اتسع مجال عملهم. وفي أغسطس ١٩٧٥ قام الأعضاء المرتدون قلنسوات البرنس السوداء وحاملين مدافع رشاشة بالانغاة على المبنى الحديث فى كوالا لامبور والذي يستوعب مكاتب قنصلية الولايات المتحدة الأمريكية، وألقوا القبض على اثنين وخمسين رهينه، وفازوا باطلاق سراح خمسة من رفاقهم المحتجزين فى السجون اليابانية. وبعد ذلك طار الارهابيون إلى ليبيا - وتلك كانت أول علاقته واضحة مع ارهاب القذافي الدولى.

وفى سبتمبر ١٩٧٤، أُخْتُطِفَ السفير الفرنسى فى لاهاي وأُخْتُجِزَ كرهينه لمدة خمسة أيام بواسطة مجموعة من كوماندوز الجيش الأحمر اليابانى. وقد شاركنا بصورة عميقة فى المجهودات الناجحة فى النهاية لانقاذ السفير الفرنسى، والذي ، طوال فتره أسره، أظهر شجاعه كبيرة. وبسرعة تحققنا من كدرنا فى أنه منذ بضعة اسابيع، قامت السلطات الفرنسية وعن غير قصد بالافراج عن زعيم هذه المجموعة الارهابيه، والذي اعتبرناه من الأفراد الأكثر خطورة. لقد كان محتجزا فى سجن دى لاسانت فى باريس لمخالفة غير خطيرة نسبيا، وبعد ذلك ونظرا للتنسيق السيئ والبيروقراطية الخرقاء، تم الافراج عن الارهابى فجأة دون أى تحذير لـ SDECE . وإذا ما كنا قد اطلقنا على نيا الأفراج عنه، لكنا وبسرعة قد أبلغنا رؤساء الأمن فى كل من جيراننا، ومن بينهم نظراؤنا فان هذا الارهابى اليابانى، استطاع أن يتخذ طريقه إلى الارهابى دون أى اعاقه، حيث شرع وبسرعة فى تدبير مؤامرة للقيام بعمل ثأرى مباشر لما اعتقد أنه معاملة مهنية وجهتها إليه فرنسا. وأكثر من هذا

وباختطاف السفير فقد كان الارهابى يأمل التأثير للافراج عن أحد رفاقه والذي كان باقيا فى أحد السجون فى فرنسا.

وحيث أن الارهابيين المحترفين يقومون بتغيير هويتهم وقفا لرغبتهم وعادة ما يحملون وثائق وجوازات سفر مزورة وخالية من الاخطاء، فإن الحدود والحواجز التى يعترضونها فانها إلى حد بعيد أدنى مفتاح لاكتشاف أو منع النشاط الارهابى عن ذلك النوع من العمل الاستخبارى الذى يتتبع، يوما فى الداخل، ويوما فى الخارج، على جميع الجوانب لتلك الحدود. وكانت أول جماعة ارهابية تحظى بالمساندة الليبية والتى كانت تتآمر لوضع قنبلة ذات تفجير مفاجيء وعال على طائرة بان أمريكان الرحلة ١٠٣ - من نفس النوع الذى دمر فى النهاية الطائرة عند مرورها فوق لوكيربى باسكتلندا، فى وقت متأخر من مساء يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ - وقد تم تصنيع الجهاز فى أحد مصانع القنابل فى إحدى الشقق الصغيرة على أطراف ميونيخ. ومصنع القنابل هذا؟

وقد تم الكشف عنه مؤخرا أغار عليه البوليس الألمانى الغربى. وفى ذلك الوقت فقد اتخذت المعلومات الخطيرة خلال شبكة المخابرات الدولية وكانت مأسوية متأخرة جدا. وكانت شبكات المخابرات من حكومة لحكومة، وفى معظم النواحي مازالت، ببساطة غير ملائمة لعملهم.

هذا ولا يوجد عناصر أساسية كثيرة فى نجاح أى عملية، أو تعطيل أى نشاط ارهابى سوى المعلومات جمعها، وتحليلها، ونشرها، واستخدامها.

وعلى الجانب الآخر، فإن الارهابيين المحترفين يحللون كل عمل بالتدقيق فى التفاصيل، باحثين عن أضعف همزة وصل فى أى سلسلة. وما أن يختاروا أهدافهم. أو ضحاياهم، يقومون بعمل دراسة تفصيلية.

عن حياة وعادات الضحايا، وينعمون النظر، ويتعقبونهم ويلتقون صوراً لهم عن كتب دون معرفتهم، ثم يحددون، جداولهم اليومية والاسبوعية والشهرية ومن الجائز تواجد طبيب لمراقبة الاهداف لاحدى الامسيات ليس بعيدا عن حفل كوكتيل أو مائدة غداء، فاحصا أظافرهم وبشرتهم، ويكتب التشخيص الذى يمكن أن تستفاد منه قيادة الارهاب. وهمزة الوصل ربما تكون مرضا جسمانياً مزمننا، أو ربما تكون مكانا أو زمانا يكون فيه الضحايا تحت حماية أقل على غير العادة.

ولقد أثرت فى احدى تلك العمليات شخصيا بشدة. لقد كانت عملية اغتيال ادميرال البحر الايرل ماونتباتن من بورما عام ١٩٧٩ على يد الجيش الأحمر الايرلندى . لقد كانت لى معرفة بما ونتباتن منذ الحرب العالمية الثانية. وفى يونيو ١٩٦٤، توجهت إلى الصين فى مهمة نيابة عن الجنرال جوان لمقابلة تشيانج كاي شيك، القائد الصينى. وفى ذلك الوقت كان ما ونتباتن الفاسد الأعلى لقوات الحلفاء فى جنوب شرق آسيا.

وعندما كنت عائدا عن طريق الهند الصينية، اضطرت طائرتى للهبوط لاصابتها بعطل فى بورما. هبطنا فى الأدغال، وبقدر علمى فإن الطائرة مازالت هناك. وقد فبحنا فى أن تبقى على الحياة لأن رجال ماونتباتن سمعوا بكارثتنا وأرسل طائرة صغيرة، والتي نقلتنا الواحد تلو الآخر .

ولم أستطع توجيه الشكر اليه حقيقة حتى خمسة وثلاثين عاما فيما بعد وأنا فى باريس - فى حفل غداء تم ترتيبه فى خريف عام ١٩٧٨ فى منزل ابن عمى، الكاتب ورئيس تحرير، تيريز دى سانت تال ولقد عملت كرئيس لقوات

الخدمات السرية الفرنسية . «المخابرات» لفترة من الزمن. كما أن ماونتباتن، الوسيم وابن عم الملكة اليزابيث الثامن البارع، والاب الروحي للامير تشارلز، قد أصبح رمزا كبيرا للملكية البريطانية، وهو الصورة المصغرة لقوتها وعظمتها . وإذا ما تمكن الجيش الأحمر الايرلندي من القضاء عليه، ستكون بمثابة خدمة موجهة إلى قلب النظام الملكي ووجوده في ايرلندا الشمالية، رغم أن قلعه ماونتباتن الفخمة تقع في جمهورية توسيع ايرلندا في كلاسيون مقاطعه سليجو.

وبعد أن شكرته لانقاذى والآخرين من محنتنا في الأدغال، التفت اليه بينما كنا على وشك الانتهاء من غدائنا.

قلت» لقد اكتشفت مخبراتنا أن هناك تهديدا خطيرا موجهاً اليك من جانب الجيش الأحمر الايرلندي ومن القذافي، الاذى يقوم بتمويل العديد من عملياتهم، وأننى أناشدك اتخاذ المزيد من الحيلة، فوق تلك التى تتخذها حالياً.

وقد شرحت له أنه يمكن الأمر خطيرا بالنسبة له إذا ما استمر تعاونه في البقاء مع أولاده واحفاده طوال شهر كامل خلال الصيف في ايرلندا دون حماية.

ضحك الادميرال لورد ماونتباين بصوت عال وقال» ان الرجال حولي في سيلجو مغرمون بى جدا وكذلك أنا ولقد سمعت ذلك من قبل وليس لدى ما أخشاه ، وبعد ذلك اقترح ان نستمر في حديثنا للعودة لزيارة بيته الفخم، برودلاندز، في هامبشير، انجلترا. وكان من مصادر ندمى الكبير إننى لم اكن قادراً على الاطلاق أن البى دعوته تلك.

وقبل أن أتمكن من قبولها فى أقل من عام بعد ذلك، كان قد مات.

وكما كنت أخشى، كان هناك صدع فى الصفائح المعدنية العراقية لسفينة - قارب صغير يستخدمه فى رحلته البحرية خلال الصيف لمنتجعه الايرلندى. لم يكن ذلك القارب تحت المراقبة الدائمة، كما كان يجب أن يكون . وخلال ليلة ٢٧- أغسطس ١٩٧٩، تمكن الارهابيون من زرع المتفجرات داخله بمنتهى السهولة. وقد فجرته القنبلة أشلاء أو معه أحد أحفاده وأصابت أفرادا آخرين من أسرته اصابات خطيرة، وخاصة ابنته، ليدى برايورن.

كان بإمكان المخابرات بل يجب أن تعمل بشكل فعال لكلا الجانبين.

وبالتأكيد فان الارهابيين، وليس هناك ما يدعو للإشارة إلى هؤلاء القادة من الجنوب الذين يمولونهم ويتخذونه أهدافا، يفهمون كيف يمكن ان تعمل المخابرات من أجلهم. وليس هناك من سبب لماذا لا تتمكن الديموقراطية الغربية من ذلك. غير أننا فى أغلب الاحيان متسمون بفقدان الحس بواسطة قوة عضلاتنا العسكرية لكى تدرك كم هو مهم أن نفهم أى موقف بعمق.

وبدلا من هذا، فاننا نستمر فى التعثر وبشكل متكرر داخل مستنقعات متوازية أو نلعب مباشرة فى أيدي هؤلاء الذين يكونون على استعداد لاستغلال ضعفنا أو الافراط الصبباني المحض.

ولفترة قصيرة بعد الغزو الأمريكى لجزيرة جرنادا فى البحر الكاريبى، والتي كانت تطور علاقات وثيقة خطيرة مع كاسترو زعيم كوبا تقابلت مع بيل كيزى مدير المخابرات المركزية. وفى ذلك الوقت، كانت المعلومات ضئيلة من أن النصر بالكاد قد تم انتزاعه من فكى أكثر الهزائم الحقيرة.

وقد قلت دون تحفظ « بيل » لقد قمت بعمل جيد.

ونعم، ولكننا كنا نواجه مصاعب على نحو وثيق.

تساءلت. وما هو نوع تلك المصاعب.

اعترف، لقد اكتشفنا كتيبة من المهندسين الكويتيين المقاتلين عندما وصلنا إلى الجزيرة، ولم نكن حتى نعرف أنهم هناك، وبالتأكيد أنهم على استعداد للقتال. وبكل بساطة لم يكن لدينا المخابرات الملائمة في الجزيرة.

لقد اعتقد أن هذا أمر لا يصدق للقيام، بمخابرات ضئيلة، بأعداد غزو جزيرة معروف أنها تطور علاقاتها الوثيقة بكاسترو زعيم كوبا وهي دولة نادرا ما أظهرت معارضتها لعرض عضلاتها العسكرية. لتكون في خدمة أى صديق أو حليف اخصائى . وكان جهاز مخابراتى والبعض من الوقت يعلم أن الكويتيين يقومون ببناء منشآت لعمليات الانزال فى جرنادا.

نظر إلى كيزى باحتراس واهتمام، وكان من الواضح أنه قادر على قراءة أفكارى. وما الذى كنت ستفعله؟»

وكنت سأضع رجلا على جزيرة، وأجعله متألفا مع المناظر هناك لمدة أسبوع، وهكذا. أو أجلب أحد الفتيان بقارب صغير محلى، وأرسله حول الجزيرة ، ويرسو هنا وهناك. وكما تعلم، فى أماكن مثل بحر الكاريبى، فالقارب الصغير أشبه بالسفارة الأخيرة. أنه يتألف مع الخليفة. أنك لم تشاهد ذلك أبدا. انه ينقل، وبه جهاز لاسلكى، فماذا تحتاج أكثر من ذلك؟»

أول مرة تقابلت فيها مع ويليام وليستر، بفترة زمنية طويلة قبل أن يعينه

الرئيس ريجان مديرا للمخابرات المركزية فى مارس ١٩٨٧ ، كان رئيسا لمكتب المباحث الفيدرالى F.B.I . أخبرته عن أخلاقى فى واشنطن كما تعلم ، لقد ركبت ثلاث عشرة سيارة اجرة خلال الأيام العديدة السابقة. ومن بين سائقى السيارات الأجرة الثلاث عشرة، كان هنالك أمريكى واحد. أما كل الآخرين فكانوا أوكرانيين، باكستانيين، عربا، وحتى كان هناك واحد من ساحل العاج الفرنسى من كافة الأماكن. ألا تعتقد أن ذلك خطر كبير للسماح لهؤلاء الناس لقيادة سيارات الأجرة فى العاصمة دون رقابة أو التعرف عليهم عن كذب؟» وفى باريس فإن أكثر من ثمانين بالمائة من كل سائقى سيارات الأجرة: فرنسيون.

وتساءل وهو يجفل لاحتمال أننى سأعرض للمناقشة مثل تلك التفاهات.

« لماذا يكون ذلك تهديدا أمنياً؟ »

« إن السيارة الأجرة بكل بساطة تماما ما هى إلا سيارة لها صندوق كبير يمكن أن ينقل الناس، والأوراق، والأفكار، والمتفجرات، والاسلحة بالإضافة إلى أن بها جهاز راديو. وهذا مستكمل لكافة الشروط. وإذا كان عليّ أن أنشئ تنظيمًا إرهابيًا فى واشنطن، فإننى سأقوم بتجنيد اثنين من سائقى سيارات الأجرة. انهم مروعون. وهم فى كل مكان . وغير مرتين كلية»

لم يفكر فى ذلك من قبل اطلاقا، رغم أنه فى تلك الايام، فانه كان بإمكان سيارات الاجرة: الدخول إلى مجموعة المباني فى لانجلى، مقر مساكن وكالة المخابرات المركزية، طالما أن الراكب لديه هوية صالحة.

وفى الواقع، فقد اتضح لى من زيارتى المبكرة للولايات المتحدة الأمريكية

أن هناك حادثة كبيرة من المحتمل أن تحدث ذات يوم إن لم نكن حريصين على أنه ليس لديها بطاقة هوية قومية، وبها حدود هائلة مع كل من الشمال والجنوب، وسواحل كثيرة إلى الشرق وإلى الغرب، وأجانب واقلية من كل الطوائف التي تؤمن بمعتقدات معينة وجنون العظمة، البعض منهم يعزز نمو كل مرارة يعرفها الإنسان.

وفي أحد الأيام توجهت إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس ريجان مرة أخرى. ودون توقع دخلت في الحديث مباشرة مع الرئيس.

سيدى الرئيس لديكم فى بلدكم مشكلة أمنية كبرى. ولديكم فيما بين عشرة إلى خمسة عشر مليوناً من البشر من لم يتم تسجيلهم أو ربما يتم تسجيلهم عندما يكون الوقت متأخراً جداً.

وتساءل الرئيس « عزيزى الكونت، ألا تعتقد أن هذا الأمر مبالغ فيه إلى حد ما؟ »

« كلا يا سيدى الرئيس، وأعتقد أن تلك الأعداد محتفظ فيها. انكم لا تعلمون من أين جاء هؤلاء الأجانب غير المسجلين، وما الذى يفعلونه، ولماذا يفعلون ذلك سيدى الرئيس، هل يمكنكم حضور الطابور الخامس الذى يمكنكم تنظيمه من بين هؤلاء الناس، هل لديكم حتى بطاقات هوية. إن كل دولة لديها ذلك.»

وتجهم الرئيس وهو يقول « حسناً، إن هؤلاء الأشخاص سيئو جداً. فلنسال القاضى كلارك». والتقط سماعة التليفون لاستدعائه.

وقد قيل له ان ويليام كلارك، وزير الداخلية، كان موجودا فى البيت الأبيض.» عندئذ أرسلوه إلى مكتبى».

ودخل القاضى، كما كان يشار اليه منذ أيامه التى قضاها فى منصب القضاء فى كاليفورنيا، وزوده الرئيس بتفاصيل محادثتنا إن هؤلاء المتواجدين فى أمريكا بصورة غير شرعية يتراوح عددهم فيما بين العشرة والخمسة ملايين نسمة هذا ما يقوله صديقنا الفرنسى ألا تعتقد أن هذه الأرقام مرتفعة قليلا».

وقال القاضى كلارك» سيدى الرئيس، انه على حق. لكن الرقم يقترب من الخمسة عشر مليوناً بالمقارنة بالعشرة ملايين».

وفى دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يستغرق الوقت فقط خمسة عشر عاماً لكى تصبح مواطناً أمريكياً، فإن معلوماتنا تشير إلى أن أعداداً ضخمة من الروس، بل أيضاً من مهاجرى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. قد استفادوا من القانون. وبعضهم عملاء فى الانتظار. وعند تتبعهم، فإنهم يهاجمون متعقبىهم ويبرهنونهم. ويلي ذلك القضايا القانونية. وحتى مكتب المباحث الفيدرالية ليس لديه الأجهزة للتعامل مع مثل هؤلاء الناس.

وطوال فترة عملى الوظيفية، وكمواطن غير متولٍ منصباً عاماً فى السنوات الأخيرة، بذلت جهوداً للتشاور مع الحكومات الأجنبية بخصوص مظاهر أنظمتنا السياسية، والادارية والاستخبارية والتى تطرح تساؤلات حول الزلات الأمنية التى يمكن للارهابيين استغلالها. ومازال هناك حاجة إلى التقنية الرسمية. ولكن لابد وأن نستهل عملنا.

فضلا عن هذا فان طوال توليتى لمنصبى كرئيس للمخابرات الفرنسية، فى

كثير من الأحيان كان يتم استشارة الفرنسيين- حتى فى أوقات قبل الأمريكیین، وربما بسبب معرفتنا المباشرة والأكثر ودا مع العمليات الارهابیه- من أجل المشورة فى التعامل مع الأزمات وقت وقوعها فى أماكن مختلفة من العالم.

وفى احدى تلك المناسبات كان ذلك الهجوم الشعبى على الكعبة المقدسة فى مكة فى نوفمبر ١٩٧٩. إنها مبنى صغير مربع الشكل به حجرة واحدة تقع بالقرب من وسط الجامع الكبير فى مدينة مكة، والتى بدورها توجد فى وسط المملكة العربية السعودية. وفى الوقت الذى كان يفترض فيه أن يتوجه المسلمون تجاه مكة عندما يصلون، فإنهم فى الحقيقة يتوجهون تجاه الكعبة، وأكثر تحديدا اتجاه الحجر الأسود، وهو حجر مطوق بحلقه فضية، ويقع فى الركن الشرقى للكعبة نفسها. وتقول الأحاديث الدينية الإسلامية أن الحجر الاسود قدمه الملك جبريل إلى إبراهيم وأن إبراهيم وإسماعيل قاما ببناء الكعبة ليكون فى مكان آمن. وفى زمن محمد، قام الكفرة بالاغارة على الحرم المقدس، وأن النبى تخلص من الأوثان التى دنسته. وهكذا أصبح اقدس المقدسات للدين الإسلامى.

فضلا عن هذا فإن الحج، الاتجاه إلى مكة، يتم مرة واحدة على الأقل فى حياة المسلم. وقبل الطائرات، عندما كان المؤمنون يعبرون الصحراء والبحار بصعوبة بالغة، كان عملاً خطراً تماماً كما أن هؤلاء الذين كانوا يتمونه فقد كان مخولاً لهم بإضافة اللقب التشريعى «حاج» إلى اسمائهم بقية حياتهم.

وعندما يصلون إلى مكة، فإن المؤمنين المشاركين فى الحج يمشون أو

يرورون حول الكعبة سبع مرات، مرتلين لأجزاء من القرآن، وينتهي الاحتفال بتقبيل كل حاج للحجر الأسود المقدس. والمؤمنون حقاً، عندما يموتون، يوضعون على نقالات وتحمل سبع مرات حول الكعبة المقدسة بواسطة الاقارب وذلك قبل دفنهم.

والمسجد الكبير والأرض التي توجد عليها الكعبة تشبه قالب جين جراير مضافاً إليها كهوفاً وممرات. ورغم أن المسجد محظور دخوله على الجميع إلا المسلمين، فقد عرفنا قدراً كبيراً عن الموقع والمنطق المحيط به. هذا فقد أصبحت المملكة العربية السعودية هامة بالنسبة لنا، وفي الواقع لمعظم الدول الغربية، وكذلك بالنسبة لايران. وكان كبير ضباط مخابرتنا في المملكة العربية السعودية، الكولونيل سى. ضابط فيلق الجمال الكبير، مستعرب من الطراز الأول والذي قضى سنوات في الصحراء وقد كبر ليعرف ويحب الكثير من القادة السعوديين والذين هم أنفسهم من البدو الرحل. وعلى هذا فإن الفهم العميق لأمرء الصحراء هؤلاء لا يكتسب على مقاعد المدارس أو الجامعة، بل على الراحلة- سرج الجمل العربى- ومن خلال أمسيات طويلة. تقضى فى رشف الشاي داخل خيمة حول نار المخيم التي يتم تزويدها بالوقود بردت الجمال. لقد كان هذا الجزء من العالم ولفترة طويلة حكماً على الانجلو امريكان، بفضل شركة أرامكو، شركة أنابيب النفط والتي كانت شركة تضامن سعودية أمريكية. وفي الواقع، فإن أول زيارتي للمملكة، كان لأبد من نقل الرسائل التي تعد لوصولي إلى العاصمة، لمقابلة صاحب الجلالة وكبار المسئولين السعوديين الآخرين، إلى الحكومة السعودية بواسطة الموظفين الأمريكيين في شركة أرامكو. أنهم يتحكمون في وسائل الاتصالات الوحيدة، وداخل وخارج

البلاد. وفي النهاية أقمنا قنواتنا واتصالاتنا الخاصة الوثيقة بالقيادة العليا للحكومة والمخابرات في المملكة.

ولبعض الوقت، كنا نقوم بتقديم تقارير إلى الحكومة السعودية على أعلى المستويات بأن اسلحه من أصل روسي تدخل المملكة بطرق غير مشروعة من اليمن الجنوبية، الولاية التي يسيطر عليها الشيوعيون في الجنوب. وكانت جزيرة سومطرة، البعيدة عن تواطىء اليمن الجنوبية، التي يسيطر عليها الشيوعيون. أكبر قاعدة سوفيتية خارج حدود الامبراطورية!! لقد كان للسوفييت كل مصلحة في اشاعة عدم الاستقرار في المملكة العربية السعودية بسبب ثروتها النفطية الضخمة، واعتماد الغرب على امدادات البترول السعودي، والوجود الأمريكي الضخم في المملكة. بجانب هذا فان دولا أخرى في الشرق الأوسط قد أصبحت محررة من الوهم السعودي لسيطرتهم وتحكمهم في سوق النفط العالمى وقدرتهم على وضع الاسعار بالتحكم في الامدادات والغيره والحسد من الدوافع القوية في المنطقة السريعة الاستثارة كالشرق الأوسط، ورغم كونهم مضيفين للمناطق المقدسه في الاسلام، فان السعوديين ولفترة طويلة كانوا إلى حد ما محصنين أمام ظهور أكثر العداوات وضوحا.

وكان أول تحذير بالمتاعب في الكعبة في شهر نوفمبر عام ١٩٧٩ يجىء من جانب أحد الحجاج المغاربة والذي كان يؤدي مناسكه عندما سمع طلقات نارية. وكان هنالك العديد من الارهابيين- وكلهم من المتطرفين المتعصبين، والذين يشجعهم الجهاد الاسلامى الايرانى، والمتلهفين لاشاعة عدم الاستقرار وحتى الاطاحة، بما يعتبرونها القيادة السعودية الفاسدة والعلمانية- ينفذون عملية

معدة باحكام ومسلحة تسليحاً ثقيلاً من أجل الاستيلاء عليها والاحتفاظ بالكعبة المقدسة ذاتها. وأندفع بسرعة مفاجئة من الأماكن المقدسة إلى أول تليفون ، طلب الحاج المغربي السفارة المغربية، حيث كان، وبالمصادفة البحتة، الموظف الذى فى الخدمة أحد أفراد فرقة المخابرات المغربية. وفى الحال تعرف هذا النقيب على خطورة الموقف وطلب الرباط تليفونيا. وخلال دقائق، تلقى الملك الحسن الثانى، وهو نفسه من أكثر المسلمين ورعاً وتقوى كما أنه يحمل لقب أمير المؤمنين، الرسالة الشفوية بسرعة والتي تعلن عن انتهاك الأماكن المقدسة. وبالمصادفة، كان فى حضرته الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، رئيس الحرس الأبيض السعودى الخرافى، بصرف النظر عن الجيش والشرطة والذى يشكل درع المملكة السعودية. وقد ثبت فى النهاية أن عقيدا من الوحدة المنشقة هو المنظم الرئيسى لهذه المؤامرة. وباستخدام عدد من الارهابيين المدربين، جميع المؤن للمتمردين المختبئين على عمق فى الأدوار التحتانية ذات المتاهات فى الجامع الكبير بمكة. وكانت الأسلحة الاوتوماتيكية مخبأة فوق النقلات والتي تحمل على نحو عادى الميت أو الحجاج الموتى، ولكنها لم يحملها هذه المرة أفراد العائلة المحيطون بالكعبة المقدسة، بل حملتها قوات الارهاب.

لقد كانت واحدة من أكبر العمليات الارهابية التى تعاظمت فى الشرق الأوسط، ومن المؤكد أنها أكبر واحدة قام بها المسلمون ضد المسلمين. واتجه السعوديون، بمبادرتهم الخاصة، إلينا. لقد كانوا يعلمون أننا كنا نراقب وبحرص مشكلاتهم الأمنية وأنها كنا نقدم لهم وحتى ولو كانت فى كثير من الأحيان يتم إهمالها، معلومات استخبارية قيمة عن المصادر التى يمكن عن طريقها تسلل الأسلحة والمؤثرات الارهابية إلى داخل المملكة.

وأكثر من هذا ، فان السعوديين يدركون وبذكاء أن العمل الدقيق وعلى الأخص الكتوم كان ضرورياً وليس التدخل العسكرى الضخم بمقياس عاصفة الصحراء . وفى الحقيقة ، كانت أول نصيحة لنا أنه لن يكون هناك تدخل عسكرى فرنسى رسمى مباشرا فى العملية لاستئصال الارهابيين . وعلى هذا فلا بد وأن تتدخل قوة اسلامية على نحو صرف فى ضاحية مقدسة مثل الجامع الكبير والكعبة . ورغم أن دورنا كان ولا بد وأن يكون فى الخفاء ، فقد كان فى مقدورنا أن نوفر التخطيط المفصل والذي يمكن السعودية من تنفيذ هذه العملية بنجاح . وعلى هذا قامت قوات الأمن الفرنسية بتوريد القنابل اليدوية الارتجائية وغيرها من الأجهزة التخصصية . وقد استغرقت العملية أياما لاخلاء المتاهات من القوات الارهابية . ورغم هذا وفى النهاية ، تم استعادة الاستقرار . ومع ذلك فان السعوديين يتذكرون الدروس التى تعلموها فى ذلك الحين . فكلما كان بالامكان ، حاولوا الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع جيرانهم ، فانهم لا يثقون مرة أخرى أبدا أن يكون أمنهم فى أيدي أى قوة خارجية ، كما أن علاقاتهم بالغرب تزداد وببساطة لشراء الأسلحة الأكثر حداثة من أجل حمايتهم الخاصة . حتى عملية عاصفة الصحراء لم تكذب هذا الاهتمام . لقد تم إخراج القوات الأمريكية ، ونفوذهم الاجتماعى الفاسد وغير المستقر ، بمجرد ماتم التعامل مع التهديد العسكرى المباشر لصدام حسين ، رئيس العراق .

فضلاً عن هذا فإن بعض السعوديين الذين يرهبون الاجانب ويكرهونهم يعززون تفسير رد الفعل لاقتراح عرضته فى مقابلة رسمية مع الملك فهد بعد فترة قصيرة من عملية الكعبة . وفى ذلك الوقت، تحقق أنه من الاسرة السعودية فى ضربة واحدة بتدنيس الاماكن المقدسة عن اغتيالهم الواحد وراء الآخر، بنفس

الطريقة التى قتل بها الملك فيصل منذ أربع سنوات فى وقت مبكر فى شهر مارس ١٩٧٥ . وكانت كل الاجتماعات التى عقدتها مع الملك فيصل وولى العهد الامير فهد ، وريث العرش ، كانت تسير بمنتهى السرية وقد بدأ الملك فيصل وأنا حديثنا فى مكاتبه الخاصة بالقصر الملكى بالرياض . كان يرتدى رداء أبيض بسيطاً ، وكان يبدو بسيطاً ، متواضعاً جداً ، فى الوقت الذى كان يحرك فيه مسبحة صلاة المسلمين بين أصابعه . وفوق ذلك فقد كان رحالة عالمياً واسع الاطلاع بشكل غير عادى . وعندما بدأنا حديثنا ، طرح على سؤالاً كان يسبب له قلقاً لبعض الوقت: « ما هى رؤيتك لبلادى فى المستقبل ؟ »

« اسمح لى جلالتيكم ، لقد وضعت بعض الافكار فى هذا الشأن . وإن إحساسى هو أنكم ستواجهون مشكلة كبرى بالانتقال فى حبل واحد من الفترة التى كنتم فيها بدواً ، رجال الصحراء إلى ما بعد الحضارة الصناعية حيث وجدتم أنفسكم الآن . وأكبر خطر لكم هو أنكم ستخسرون فضائل الصحراء دون استيعاب ما بعد العالم الصناعى . وستكون هذه الفجوة خطيرة بالنسبة لكم وعدم الاستقرار ، وعلى وجه الخصوص مع جيرانكم المحيطين بكم بخطوات مختلفة وجداول مختلفة كلية . أنه الوقت الذى ستفقدون فيه روحكم ، والكثير .»

نظر إلى جلالته بتركيز وقال . « لقد فهمت . إن أخطر شىء يمكن أن يحدث لأمة ما هو أن تفقد روحها . انها اكثر مشاكل الهامة . وبعد بضع سنوات كان لى حديث آخر مع ولى العهد الأمير فهد الحاكم المستقبلى للمملكة العربية السعودية .

تنهد وهو يقول « كما لكم، لدينا كل المال الذى فى العالم. لدينا النفط وسعر برمىل النفط ثمانية وثلاثين دولارا بوفرة مالية أكثر ما يمكن أن نحتاجه . فوق هذا وعلى أى حال فلدينا عدد كاف من الرجال أو الجنود للدفاع عن أراضينا الشاسعة. »

وبعد بضعة شهور، كررت مع ولى العهد الأمير فهد نفس المشكلة بعد أن قال أن لديهم المال وبعض الأفكار لكن ليس لديهم الطاقة البشرية.

وقد اقترحت « حسنا، يا صاحب السمو، لقد طرحنا فكرة جديدة بالاعتبار لهذه المشكلة أيضا. وعلى هذا فهناك حل واحد ممكن بالنسبة لمشكلتكم.

إن البريطانيين فى الوقت الحالى يقومون بعملية تسريح العديد من كتائب الجورخاس وهؤلاء الجورخاس من أكثر الرجال المحاربين الممتازين فى العالم. أنهم أقوياء جسمانيا أنهم من رجال الجبال من منحدرات الهمالايا. وادراكا لتلك القوة تم توحيدهم بالتدريب البريطانى والغضب والتهذيب إنهم خرافيون. لقد شاهدتهم يعملون فى أفريقيا وفى معركة كاسينو خلال هجوم الحلفاء على ايطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية. أنهم متخصصون فى مكافحة الارهاب إلا أنهم ممتازون، مقاتلون ممتازون. ولو كنت مكانكم، يا صاحب السمو، لكنت استأجرت فرقة من هؤلاء المرتزفة الرخاس جدا - ولا مشكلات دينية - دعهم يتحركون وسط البحر الاحمر، ولنقل فى البحر، ومعهم بضع طائرات هليكوبتر وقوارب سريعة. أننى لا أقول أن هذا وحده سيمنع الجيش السوفيتى بأكمله فى السير من خلال الشرق الأوسط إذا ما فكروا فى عمل ذلك . لكن التعامل مع أى تهديد آخر - فأننى سأضمن لك السلام لمدة عشر سنوات».

ابتسم الأمير فهد ببطء.. « إننى أميل إلى ذلك. انها فكرة عظيمة ».
ثم صمت برهة وقطب حاجبيه. « لكن، يا عزيزى الكونت، هذا مستحيل.
وكما تعلم، فانها مسألة الشرف العربى - انهم ليسوا منا ».

إن الفشل من جانب تلك الدول التى تعارض استخدام الارهاب لكى تتفاعل
ببرود وبدون عاطفة بأى أسلحة أو قوات ستقوم بالعمل بأكثر كفاءة وعلى وجه
الضبط هو السبب فى أن الارهابيين دائما ناجحون.

إن الحقيقة الملحة والرئيسية فى العمليات المضادة للارهاب هى السرعة
والتعاون بجانب هذا فأن فعالية عملية الكعبة هى حجة قوية لقيام والاحتفاظ
بشكل من أشكال قوة الشرطة الدولية والتى يمكنها التفاعل وبسرعة وجراحيا.
وسواء أكانت تلك قدرة استشارية أو على شكل المشاركة النشطة، بغض النظر
عمن يكون عرضة للهجوم، فإن مثل تلك القوة لاغنى عنها فى سمعة أعمال
الارهابيين المعاصرين هذه الأيام وكذلك من يتحكم فيهم. وقد حاولت جماعة
المخابرات الغربية لتوعية هذه الحاجة إلى استجابة قوية، وسريعة ومؤثرة فى
العمليات الارهابية طوال السبعينيات والثمانينيات، كما أننا نوجهها وباستمرار
هذه الايام ولكن هنالك قوى عديدة تعمل ضدنا.

إن العامل الاساسى الذى يعوق جهودنا لتطوير استجابة دائمة ومؤثرة
بالنسبة للارهاب هو غياب العمليات التعاونية بواسطة أى دولتين غريبتين، إذا
ما تجاوزنا الاجراءات المتعددة الجنسيات من أى اهتمام وفى الواقع، فإن المحاولة
الوحيدة وعلى نطاق كبير والتى كان لابد من التعهد بها خلال السنوات
السابقة على عمليه عاصفة الصحراء، والتى كانت إلى حد بعيد خطورة

عسكرية تقليدية عن كونها هجوماً مضادا للارهاب، كانت العملية الفرنسية- البلجيكية- الغربية المشتركة فى زائير فى أواخر السبعينيات.

إن دولة زائير الافريقية الكبيرة، وهى الكونجو البلجيكي سابقاً حجمها يوازي أربع مرات حجم فرنسا. إنها الدولة الوحيدة الغنية فى أفريقيا السوداء وذلك بمصطلح المصادر الطبيعية. ونهر الكونجو يمثل مصدرا للطاقة والصيد وكهربية أبعد من أى مقارنة بانهار أوروبا. إلا أن الدولة ممزقة بسبب التنافس القبلى. والقيادة الوحيدة القوة هو الجنرال موبوتو سيسى سيكو الذى استطاع أن يحافظ على تماسكها عن طريق القوات الشرشة، بجانب هذا فإن انجليم شابا، والذى كانا معروفا باسم كاتانجا، ويكثافته من النحاس، والماس، والكوبلت، والمنجنيز والكادميوم، والرصاص، والقصدير، والنفط، هو المصدر الرئيسى بالامداد بأربعة من الثمانية معادن الاستراتيجية الحساسة لجهود الدفاع الغربية أنه أغنى الاقاليم فى تلك الأمة الثرية ولعدة سنوات حاولت قوى عدة أن تفصل شابا عن زائير- وهى كارثة من وجهة نظرنا حيث أن من المحتمل أن نترك اقليم شابا الغنى بصورة لا تصدق وصراعات، رغم موقع زائير الاستراتيجية. ومثل زائير تلك فانها من المحتمل أن تكون عرضة لهجوم عميق من قبل قوات تتراوح بين الاتحاد السوفيتى وليبيا القذافى.

وفى شهر مايو ١٩٧٨، عاد ٤٠٠٠ من قوة درك كتانجا السابقين من انجولا، حيث كانوا يعملون كمرتزقة لمساعدة حكومة انجولا التى تساندها الشيوعية. وكانت قد صدرت لهم الأوامر من صرافى الروابت الانجوليين بفرض حصار على المناجم الخرافية لكولوىزى فى مجهود آخر لتقرير انتفاضة

تؤدي إلى انفصال اقليم شابا وربما أيضا الاطاحة بالرئيس موبوتو سيسى سيكو وقد ذبح ما يقرب من ١٢٠ اوريا، مع مئات من المواطنين المحليين الآخرين.

وعن طريق مصادر المخابرات علمنا بهذه العملية حتى قبل القيام بها وكان واضحا من مجالها أن هناك بعض الحكومات الخارجية المساندة متورطة فى هذه العملية- ومن المؤكد حكومة انجولا الشيوعية، ومؤيدوها الكوييون، وأيضا بتوسيع مدى الخدمات للاتحاد السوفيتى. وأكثر من هذا فان محاولة الغزو كانت تلقى على أقل تقدير تشجيعا معنويا ليبيا القذافى، التى كانت ملتزمة لتعزيز عدم الاستقرار فى جزء من العالم حيث أن مثل تلك القلاقل ستبرهن على أنها أكبر فرصة لتوسيع النفوذ الليبى. وبكل تلك القوى المصطفة على جانب الغزاة، أصبح وبسرعة واضحا أن هنالك عنصرين يحتمل أن يكونا أساسيين لتحديد العملية بالقيام بعمل لم يكن مألوفاً مع قوات الدرك، واستعادة القانون والنظام. ولتحقيق ذلك، لابد من تجميع قوة متعددة الجنسيات تتضمن أوروبيين وأفريقيين، وبعد ذلك ستكون هناك حاجة للقيام بعملية عسكرية مظللة - وتكون معدة مجهزة مقدما بعمل استخبارى مفصل. ولتجميع القوة البشرية، بدأنا أولا فى اغراء البلجيكيين. فرغم كل شيء فإن زائير كانت فيما مضى الكونجو البلجيكية حجر الزاوية للامبراطورية البلجيكية فيما وراء البحار. ومع ذلك كان علينا أن نتوسل اليهم للمشاركة. كان من الواضح وجود استياء من قيام فرنسا بمثل هذا الدور الرئيسى. وفوق هذا، فان القرار البلجيكى للمشاركة فى التدخل جاء متأخرا جدا ولولا القوات الفرنسية والمغربية لكانت ضاعت أرواح أعداد كبيرة من المدنيين.

وحتى قبل القوة المتعددة الجنسيات فقد أرسلنا عملاء وكانوا أول من وصل إلى اقليم شابا. وكان بعضهم متنكرا كطباخين وحلاقين. وبعضهم ارتدى الزي العسكري الرسمي الفيلق الفرنسي المخيف، الباربهات الارجوانية. وقد هبطوا بالليل، كما تفعل كل عملياتنا الميدانية، وقد انتشروا على شكل المروحة خلال كولويزي. ويسرعة اكتشفنا أن المستشارين الكوبيين الثلاثين المصاحبين لمرتزقة كاتانجا قد تراجعوا على الفور إلى الجانب الآخر لحدود مد كاتانجا التي تتقاسمها مع اقليم شابا.

وفى الوقت الذى كان فيه رجالنا السريون باعداد قاعدة الغزو الشامل الذى ستقوم به فرق مظلاتنا، توجهت إلى المغرب لكى أقنع الملك الحسن لتزويدنا بقوات مشاه مغربية، ويكونون بارعين مثل الجورخاس، للعملية لقد كان ذلك ضروريا. ولقد اعتقدت، بأنه يمكن فهم ذلك على أنه عملية أفريقية فى أفريقيا وأنها عملية متعددة الجنسيات بين حلفائنا الغربيين.

لقد كانت علاقتى بالملك حسن الثانى علاقة لا تستلزم أن أطلب موعدا. لقد كان الأمر يتطلب وصولى فقط. كان بصحبتى مساعدى وأحد جنرالاتى، وسافرنا إلى القائدة Naida خيمة الحسن الكبيرة والتي كثيرا ما تستخدم فى مزرعته خارج فاس. وكانت الرسالة الشفوية الوحيدة التى تسلمها الملك منى كانت لآخباره بوصولى.

وعندما اقتربنا على مشارف القائدة بمسافة خمسين ياردة، ظهر الملك ولف ربع دورة واكتشف ثلاثتنا. وبعدئذ حدث شىء غير عادى تماما، والذى ظل حتى يومنا هذا متعذرا تعليله. رفع يده اليمنى، وحركها، وقال « كلا لن

أذهب». لقد كان يعلم فى ذلك الوقت بالغرض من زيارتنا. ولم يكن لدى فكرة عن الكيفية التى عرف بها. لم أخبر أحدا بخطتى والسبب وراء رغبتى فى مقابلته. ودون أى تساؤلات فإن مخابراته تعادل مخابراتنا فى كافة الأوجه. ولم يكن هناك أى تساؤل فى أن لديه حاسة سادسة، وعينا ثالثة، ونوعا من نفاذ البصر لفهم الأحداث والناس وذلك كان أمر غير عادى تماما- حساسية والتى يمكن أن توضح قوته الكبيرة. وفى تلك اللحظة، كنت فى حاجة إليه، لأنه من هو الشخص الآخر الذى يمكنه تجميع وإرسال قوات لعملية قبل تلك العملية خلال ساعات قليلة؟ ولذا مشيت خمسين ياردة إلى الخيمة.

وبدأت فى القول «يا صاحب الجلالة، أننا فى حاجة اليكم». ولمدة الخمس والعشرين دقيقة التالية، شرحت له استراتيجية الموقف- ضرورة الحفاظ على اقليم شابا وزائير للغرب، وأن مستقبل القارة الأفريقية معرض للخطر فى وسطها إذا ما حدث انهيار فى اعقاب التراخى.

وقد أدرك الملك على الفور أن لديه مسئولية استراتيجية طبيعية فوق العادة، ولم يتردد. وهز يده. وغادر الخيمة الاشخاص الآخرون.

وقال آمرا. «أعطنى الهاتف، اننى موافق».

وتحركت للنهوض والمغادرة لكى يتمكن من التحدث فى سرية لكنه قال آمرا، كلا عمليتك. أنت المسئول. فلتبق.

وخلال دقائق كان أمامه تعهدات من أربعة من رؤساء الدول الأفريقية- من الجابون، والسنغال، وساحل العاج وتوجو. وكل منهم تعهد بإرسال قوة صغيرة بقيادة المغاربة ومساندة الفرنسيين ثم البلجيكيون وفى النهاية التفت إلى

الجنرال وليمي، مساعده الاول تساءل « كم من الوقت يلزم لارسال رجالنا؟ ». وجاء الرد أنها مسألة ساعات. فلا روتينيات، ولا رئاسات ميدان، ولا بيروقراطية.

لقد كان ذلك عملاً لقائد ملتزم ضد عملية ارهابية على مجال واسع ومؤثرة والتي من المحتمل أن يكون من الصعب تفكيكها مع كل لحظة تمر.

لقد استدعينا لتوفير النقل الجوي والذي أوصل أحد عشر الفاً من القوات على أرض شابا في غضون ساعات لقد استخدمنا طائرات التراسال، وهي آخر نوع من الطائرات نحتاجها لمثل هذه العملية، لأنه كان معترفاً بها في تلك اللحظة بأنها السلاح الجوي التابع لـ SDECE وأكثر من هذا، لأنها كانت طائرات مروحية، ولقد كانت معجزة أن أول دفعة من المظليين لم يقطعوا إرباً من طائرات التراتسال التي تلت ذلك. ورغم هذا فقد كانت الطائرات الوحيدة الميسر الحصول عليها خلال لحظات قصيرة. ومع هذا فقد سلكت العملية الطريق المتوقع دون أي مقاطعة، رغم أن رجال مظلات الفرقة الأجنبية الفرنسية كان لديهم باراشوتات جديدة لم يستخدموها من قبل على الإطلاق.

ومن البداية إلى النهاية، كانت العملية نجاحاً كبيراً. وانسحب مرتزقو كاتانجا عائدين إلى أنجولا. وهكذا تم انقاذ مناجم كولويزي وكذلك بقى المئات من الغربيين والزائرين على قيد الحياة.

فضلاً عن هذا فقد سهل نجاح عملية زائير المبكرة الطريق أمام مهام الانقاذ المستقبلية، مؤكدة السلام في هذا الركن الحيوي من أفريقيا وستسمح تلك المهام لنا بضمان أمتنا وأمن المواطنين الغربيين الآخرين - وأكثرها منذ عهد

قريب فى سبتمبر ١٩٩١ ، وذلك عندما ثارت القوات الزائرية التى لم تسلم روايتها لشهور ، وقامت بسلب ونهب العاصمة كاتشاسا وغيرها من المدن الاقليمية . ومن ثم قامت عملية مظلية مشتركة فرنسية بلجيكية بتأمين عملية اجلاء المواطنين الأجانب ومن بينهم عدة آلاف من الامريكيين . وقد ارسلت هذه المهام انذارا إلى القوى الخارجية التى من الجائز أن يكون لديها شهية لامتلاك ثروة تلك الأمة وذلك بأن أى تدخل فى شئون زائير الداخلية سوف يتم التعامل مع سرعة ويجزم .

ومع ذلك فان مثل تلك العمليات المشتركة تعتمد على المشاركة الاستخبارية ؟ وتنفيذها كان ومازال نادرا فى الواقع ، ورغم نمو الادراك بأن الجهود المتحالفة ضرورية . إننا لسنا ولم نكن أبدا منظمين لمحاربة الأنشطة الارهابية أينما حدثت . لابد من التغيير .

الفصل الحادى عشر

التنظيم ضد الكشف

فى الأيام القليلة قبل الحرب العالمية الرابعة، استغلت الكتلة السوفيتية عدم قدرتنا على تنظيم نشاطاتنا الاستخبارية بشكل فعال وكذا ردود فعلها أقصى استغلال. فاليوم يستمر الارهابيون ومناصروهم فى استغلال نقاط الضعف هذه ومهمة جهاز المخابرات الكبير ليست فقط المعرفة الجيدة للطرق التى يعمل بها الآخرون فى بلد الشخص وأى مكان آخر، ولكن الادراك العام والحساسية لما يحدث فى العالم على النظام الواسع. وإحدى نقاط الضعف الأساسية فى الأمم الغربية- فى طرق التنظيم والتحليل- هى أنها غير قادرة على التعامل مع العداوة الدولية بنظرة عالمية يقع مسرح عملياتها فى الكوكب كله.

وغالبا ما نكون سعداء بالنظرة التكتيكية المحلية أو الاقليمية مثل النظرة الفرنسية أو الأمريكية التى تمثل الأمنيات غير الحقيقية . فنحن نتمنى بشدة أن يكون هناك زاوية صغيرة لعالمنا تمثل العالم بأسره. فبدلا من ذلك، ينبغى علينا أن نزرع نظرة عالمية استراتيجية. وحيث لا نمتلك الموارد أو الفهم السليم، ينبغى علينا أن نجهز لوضع أمتنا فى أيدى حلفائنا الذين يمتلكون المقدرة التى نفتقدها.

وكانت هناك حالات متكررة للكوارث وشبه الكوارث تسبب فيها الشك والجهود وعدم التصديق أو ببساطة فشل عمليات الاتصال بين أجهزة المخابرات التى ينبغى- بالايديولوجية والتعاطف- أن تكون متعاونة بشدة.

فعلى سبيل المثال فى مايو ١٩٨١ ، كان من الممكن أن ينجو البابا جون بول الثانى من رصاصات على أجسادها ، لو أن سلطات المخابرات الفاتيكانية والاطالية كانت قد تعاملت مع المعلومات التى أعطتها المخابرات الفرنسية.

وقبل أن تصلنا المعلومات الدقيقة عن محاولة الاغتيال الحقيقية بفترة طويلة، كنا قد تكهننا بقيمة بابا بولندى بالنسبة للسوفييت وحلفائهم. وبدراسة سيناريوهات مختلفة، وباستخدام أفضل خططنا، وقيامنا بوضع أنفسنا مكان زعماء أوربا الشرقية، استنتجنا أنه كانت هناك أربعة أسباب هامة للرغبة فى قتل هذا البابا.

أولاً: لأن البابا كان من الشرق، وكان كبير الأسقف لديه فهم عميق للكيفية التى تعمل بها العقول الشيوعية. ولم يكن هناك شىء يكرهه الشيوعيون أكثر من الشخص الذى يفهم عقولهم وعملياتهم فالملاك لا يمكن أن يتخيل حال الجحيم، إلا أن الشياطين التى كانت هناك تستطيع ذلك.

وقد أدرك هذا البابا ما لم يفهمه أبداً سابقوه القادمون من الغرب.

ألا وهو الاختلافات والتشابهات التى كانت تتواجد معاً فى أديان الكاثوليكية والشيوعية.

والسبب الثانى لمحاولة قتل البابا جون بول الثانى هو المهمة التى أعلنها هذا البابا على الملأ منذ الدقائق الأولى لتوليده المنصب: وهى إرجاع كل عناصر الكنيسة الكاثوليكية. وكان هذا يتضمن كل المطارنة. والقساوسة الكاثوليك فى الشرق الذين اختارهم الأنظمة الشيوعية والذين كانوا يعملون كأدوات للسيطرة على رعاياهم.

والسبب الثالث الذى حددناه هو احتمال أنه إذا تم قتل هذا البابا، فإن من سيتولى بعده سيكون ايطاليا، مطرانا أقل اهتماما بتطور السياسة فى الشرق، وأكثر اهتماما بعمليات الفاتيكان نفسه، وأقل مبالاة بتنمية الحضور الكاثوليكي فى أجزاء العالم حيث كان السوفييت يسعون لغرس دينهم العلماني المؤسس على العقيدة الشيوعية.

والسبب الأخير هو أكثر أهمية. فقد كان البابا هو الرمز المطلق للمقاومة البولندية للشيوعية السوفيتية- وهو العلم والأب والروح الحقيقية للقومية البولندية. فى بولندا- وهى الأمة ذات الأهمية الاستراتيجية القصوى للاتحاد السوفيتى والتى تقع على طول الاتصالات والخطوط الحديدية بين روسيا وألمانيا- نجد هناك ثلاثة أرباع من الجمهور المؤمن الذى يحضر بانتظام إلى الكنيسة بسبب العقيدة الدينية، يحضر الى الكنيسة لأنها ترمز إلى المقاومة لقوات الاحتلال المقيتة وهم الشيوعيون السوفييت- فحتى زعماء الحزب الشيوعى البولندى يسافرون سرا إلى القرى التى تقع على بعد مئات الأميال من منازلهم لتعميد أولادهم وبذلك ينتهكون كل قوانين الشيوعية. ووجود بابا مكرس نفسه لزعزعة النظام الشيوعى سيكون بمثابة السم لحكام الكرملين فى هذه الحقبة.

ولذلك كنا مستعدين لوصول استخبارات دقيقة فى يناير ١٩٩٠ عن أن القيادة السوفيتية قد قررت قتل البابا. وجاء الانذار من معلومات سرية تلقيناها من أوروبا الشرقية. وعلاوة على ذلك فى الوقت الذى أكدت فيه المعلومات السرية تحليلاتنا المتقدمة، كانت هذه المعلومات تبدو أنها حقيقية.

وقد أرسلت إلى الفاتيكان اثنين من مساعدي اللذين اثق فيهما أكثر من أى شخص آخر- وكان بينهما الجنرال موريس بيكو الذى كان طبيبى ومستشارى الخاص، وعضوا مدنيا للقيادة العليا لمكافحة التجسس الفرنسية- وقد قام مطران فرنسى كبير بترتيب المقابلة بينهما وبين مسئولى الفاتيكان، وهذا المطران رجل مخضرم من رجال المقاومة فى الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن الاتيكيت الدبلوماسى ينص على أن البابا وهو رئيس الدولة، ينبغى أن أخبره عن الخطر اللائح، إلا أننى إذا كنت قد ذهبت شخصيا، كان الإرهابيون الذين يقومون بالعملية قد نالوا بعضاً من التحذير، وأصبحوا حذرين فى خططهم .

وقد سافر اثنان من العملاء التابعين لى إلى الفاتيكان واعطا معلوماتهما إلى مساعدي الباب موضع الثقة. وقد قاما بدورهما بتقديم المعلومات إلى الاب المقدس الذى - كما تم اخبارهما- اعترض على اعتقادهما بأن الأمر فى أيديهما. فحياته- كما قال. فى أيدي الله. وقد احترمت كثيرا هذا الاعتقاد على الرغم من أننى اعتقد أنه هناك بعض الأحيان التى لا يجوز فيها أن نعطي الله بعض المساعدة البشرية وعلى هذا فإننا لم نثر الأمر مرة أخرى.

ومن المؤكد أنه مع وجود العلاقة الحميمة بين الأب المقدس والدولة الايطالية، قام مسئولو الأمن فى الفاتيكان بمناقشة تحذيراتنا مع السلطات فى روما. ولم أتوقف أبدا عن السؤال عما إذا كانت السلطات الإيطالية قد اتخذت إجراءات كافية لحماية الأب المقدس.

وكانت هناك زيارات متكررة لى خلال عدة سنوات قام بها المحققون الذين يبحثون فى مسألة محاولة اغتيال الباب جون بول الثانى برمتها.

ومؤخرا، جاء مسئول كبير فى الشرطة الفرنسية الخاصة بالجرائم لمقابلتى، مما يشير إلى أن التحقيق مازال مستمرا إلى الآن. إلا أن الزيارة الأولى قام بها القاضى المحقق ألابيو مارتلا الذى كان يرأس التحقيق الإيطالى فى محاولة الاغتيال بفترة ليست بالكبيرة بعدما حدث هذا الأمر فى ١٣ مايو ١٩٨١. وقد وصل ومعه قائمة بثلاثين سؤالا لم يتمكن من الإجابة عنها نظرا لقيامى بحلف اليمين الخاص بالسرية فى العمل للدولة الفرنسية. غير اننا قد قمنا بمناقشة عدد من القضايا تتضمن إيمانى بأن اجسا لم يكن متعصبا ولا صلة له بأحد، أو حتى شخصا تسانده شبكة متخصصة. لمجرمى وموزعى المخدرات البلغارين. وبعد عشر سنوات من محاولة اغتيال البابا، جاء مارتلا لمقابلتى فى باريس فى اكتوبر ١٩٩١.

وكان الدليل الذى قدمته إلى مارتلا يوضح أن البلغارين ؛ كان يتم استغلالهم دائما لأسوأ الاعمال - أى الاغتيال - . وحيث ان الأمة كانت أكثر ولاء لجيرانهم الروس وأكثر الأمم ترابطا من الناحية العرقية والثقافية معهم، فقد كانت قيادة جهاز المخابرات الروس (الكى جى بى) ترى البلغارين على أنهم أنسب الأشخاص للعديد من المهام الحساسة وعالية الذكاء. وكان هذا سببا رئيسيا لبحثهم المستمر عن البلغارين فى باريس وفى أماكن أخرى.

وكانت بلغاريا أيضا منطقة تستخدم كمحطة هامة جدا لنقل السلاح بين الكتلة السوفيتية والمنظمات الإرهابية الرئيسية. ولأنها تقع على طول طرق النقل الرئيسية بين أوروبا والشرق الأوسط التى تمر عبر تركيا وعبر البوسفور، فإن عملاء الارهابيين كانوا غالبا يتوقفون فى فرنا ببلغاريا لتحميل الأسلحة

والذخيرة، وذلك وهم فى طريقهم إلى ما اتضح أنه المركز الأوربى الرئيسى لهم خلال مدة كبيرة فى السبعينات وإلى الثمانينيات وكان هذا المركز هو باريس.

ولذا خلال السبعينات والثمانينيات ، كنا نراقب عن كثب الحلفاء بأوروبا الشرقية الذين غالبا ما كان يتم الضغط عليهم لعمل خدمات من نوع العمليات الإرهابية والاستخبارية التى لم يرد الكى جى بى القيام بها. وعلاوة على ذلك، كان التعاون بين أجهزة المخابرات السوفيتية وأجهزة المخابرات فى أوروبا الشرقية- والذي كانت تسيطر عليه المراكز الرئيسية لكى جى بى مباشرة من ميدان د زيرزينكى بموسكو- تعاوننا كاملا من البداية للنهاية ويتضمن مجموعة من الاستخبارات والتحليلات وبالطبع العمليات العنيفة، وكان تعاونهم يتناقض تماما مع تعاوننا فى الغرب، الذى كان غالبا منقسما على نفسه وغير متكامل كما وصل إلى حد التنافس المفتوح بين الأجهزة وبعضها. وكان تعاوننا شيئا يحدث فى المناسبات على أحسن الأحوال- وكان يعتمد على الصداقات والصلات الشخصية وعلى أساس قضية بقضية فقط.

واعتمد أعداؤنا على توجيهات مقننة وعلى تقسيمات للعمالة على أسس صارمة وثابتة. وكان يتم استغلال فى أعمال الاستخبارات فى الدول المنتجة للبترو ل ، وبسبب وجود احتياطي من البترول فى بلادهم فى بولستى ، فقد قام بتنمية خبرات فى صناعة البترول مما أدى إلى مساعدتهم فى التسلل إلى هذه الصناعة فى الدول الأخرى. وكانوا أيضا مقيدين فى بعض الدول المتحدثة باللغات الرومانسية لأن اللغة الرومانية هى اللهجة الوحيدة فى شرق أوربا ذات الجذور اللاتينية. وقد شوهذ أيضا ضباط التجسس الرومانيون فى المناطق

المتحدثة بالفرنسية فى افريقيا. وغالبا ما كان يوجد العملاء البولنديون فى شمال فرنسا لأن العديد من مئات الآلاف من عمال استخراج الفحم البولنديين أو أحفاد عمال استخراج الفحم البولنديين توجهوا إلى حقول الفحم الفرنسيين عبر السنين. وبسبب التقارب طول الأمد بين البولنديين والكاثوليكية، أصبح رجال التجسس البولنديون ماهرين فى التسلل إلى الكنيسة فى فرنسا. وكان يتم توجيه هؤلاء العملاء لجمع المعلومات بدءاً من التقارير مفصلة عن حالة احتياطى الفحم وإنهاء بالأهداف الاستراتيجية لما خلف خطوط الهجوم فى حالة حدوث الحرب. وقد أعطيت معلومات لهم بأن يقوم بتتبع المنفيين المتمردين الذين قد يكونون على اتصال ببعض المعارف فى وطنهم، والأكثر أهمية من ذلك المنفيين الذين يعملون كمصادر خارجية ممكنة لتمويل النشاطات الانشقاقية والتدميرية فى داخل الكتلة السوفيتية.

وكان الألمان الشرقيون يتم استغلالهم بشكل موسع على أعلى المستويات فى ألمانيا الغربية لأن من الصعب جدا أن تميز ألمانيا من آخر. وقد كان مستشار ألمانيا ويلي برانت على علاقة شخصية وثيقة مع الكابتن جنذر جويلوم الذى اتضح أنه ضابط فى جهاز المخابرات لألمانيا الشرقية، والذى كان لديه مدخل لكل أسرار جمهورية ألمانيا الفيدرالية. وقد أمضى سنوات يخترق ببطء وبصبر بيروقراطية ألمانيا الغربية، ويزرع الولاء والصداقة مع برانت وهو الرجل الذى كان فى البداية عمدة برلين وفى النهاية مستشار ألمانيا وبعد هروب جويلوم عائدا عبر من كان يسمى فى ذلك الوقت بالحدود بين ألمانيا الشرقية والغربية، تم ترقيته إلى رتبة رائد اعترافا بخدماته المخلصة التى أسداها إلى ألمانيا الشرقية والكرملين.

ولم نكن بالطبع جهاز المخابرات الوحيد الذى يراقب نشاطات رجال المخابرات فى أوروبا الشرقية أو الإرهابيين القادمين من وسط أوروبا ويعملون فى الغرب فكان من المهم لوكالات المخابرات الغربية أن تتعاون بشدة مع الموساد وهو وكالة المخابرات الإسرائيلية، وذلك بسبب خبرته غير العادية فى الشرق الأوسط والعناصر الشرق أو سطية التى تعمل فى الخارج.

ولعدة أسباب، نجد أن جهاز التجسس الاسرائيلى على درجة عالية من الكفاءة. أولاً، مع وجود أعضاء فى الدولة اليهودية قادمين من جميع أنحاء العالم، كان لدى الموساد قدرة واحتياطي لغوي ضخم، بالإضافة إلى معرفة عميقة بالأمم فى كل قارة وعن كل ايدولوجية. ثانياً، كانوا دائماً فى حالة حرب لمدة نصف قرن ولذلك كان ينبغى أن يظلوا بشكل مستمر يقظين. وبعد الشعب الاسرائيلى والامة الاسرائيلية من بين أكثر الأهداف أهمية بالنسبة للعديد من المنظمات الإرهابية. وهذا الشعور بأنهم دائماً محاصرون قد منع أى تعاون سياسى أو عسكرى مع أجهزة المخابرات أو الأجهزة العسكرية الأجنبية.

غير أن هذا الحصار قد أدى إلى ظهور الشعور بالاحترام نحو الأمم التى أدرك الاسرائيليون أنها تقع أيضاً تحت الهجوم الإرهابى. وهذا النوع من التفكير قد اتضح أنه حكيم فى عديد من الحالات فقد كان جهاز التجسس الاسرائيلى من بين أوائل الوكالات التى أدركت أن باريس قد اختارها عدد من الجماعات الإرهابية الكبرى كمركزهم الرئيسى الأوروبى. فبدأ من جورج حبش- الذى سافر بالطائرة على طريق طرابلس- باريس مثلما يسافر رجل أعمال فى رحلات منتظمة بين واشنطن. ونيويورك، وحتى جيش التحرير الشعبى

التركي والجبهة الوطنية الإيرانية والجيش الأحمر الياباني - كل هؤلاء كان لديهم ممثلون في باريس وما يحوطها.

وحتى قبل ظهور آية الله خوميني في نوفل - لو - شاتو، كان الارهابيون الاتراك (الذئاب الرمادية المهابة) والایرانیون يقومون بعملياتهم في باريس جنبا إلى جنب مع الإرهابي ذي السمعة السيئة كارلوس (إليش راميرز سانشيز).

كما كانت جماعة الجيش الأحمر الألمانية والفرقة الحمراء الإيطالية مع الجيش الثوري الأيرلندي، وبالطبع الباسكيين الأسبان يقومون بالدخول والخروج من العاصمة الفرنسية على أساس منظمة. وكان عملاء التجسس التابعون لنا في الداخل يقومون بمراقبة هؤلاء الأشخاص. وكذلك كان يفعل الموساد.

وعلاوة على ذلك، فقد أدرك الموساد تماما كيف أنه من المهم مواجهة الإرهاب في أراضيه عندما يكون الأمر ضروريا وكان عملاؤهم منتشرين في كل مكان . وكان العملاء الإسرائيليون الكبار الذين يظهرون على أنهم صحفيون يعملون في باريس، يقومون بالتعامل مع زملائهم في صحف النيويورك تايمز، والسى بى آى، وواشنطن بوست، ناهيك عن الأكسبريس ولو فيجارو، و«بارى ماتش» .

وكانت المعلومات التي يشاركونها مع زملائهم الغربيين مضبوطة عامة - وكنت تعمل كثقل يقابل العنف الذي استخدمه الزعماء الإرهابيون لتحريك الرأي العالمى. ومن المهم وسيظل من المهم أن يعرف الزعماء الإرهابيون على حالتهم هكذا وليسوا على أنهم محاربون شجعان عن الحرية فيعرفون ببساطة - على الرغم من خطورة ذلك - على أنهم أدوات ووسائل يستخدمها الديكتاتوريون الماكرون.

وعلى الرغم من أن علاقتنا مع الموساد كانت حميمة، فقد حافظنا على علاقة الاستخبارات مع جهاز المخابرات الخارجية البريطانية صميمة ومستمرة وكذلك مع الأم أي ٦ ومع جهاز المراقبة الالكترونية البريطانية فى شلتنهام. وكانت علاقتنا وثيقة خاصة مع العالم الجنوبي حيث كنا ذات مرة نحتفظ بالمستعمرات مع وجود مصالح متداخلة لكن منسجمة، ولذلك استمرينا فى التعاون لفترة طويلة بعد أن انحلت امبراطوريتنا.

وفى فترة ما، فى أثناء غدائنا الدورى، قال لى رئيس المخابرات البريطانية سير موريس أولدفيلد: « انظر، أريد رجلا فى أحد الموانى فى افريقيا وذكر دولة فى غرب افريقيا كانت مستعمرة فرنسية سابقة. » لديكم الرجال هناك، اليس كذلك؟ »

وجاوبت عليه « بالطبع، فنحن لدينا رجال هناك منذ أيام ما كانت تلك الدولة مستعمرة فرنسية. والآن، هى مكان حيث يوجد العديد من نشاطات الاستجمام والراحة للسوفييت فكانوا غالبا ما يحضرون صيادين الأسماك التابعين لهم . وكان صيادوهم يحبون أن ينظروا نظرات غرامية للسائحين الفرنسيين الذين يرتدون المايوهات البكيني.

وضحك كلانا لأننا كنا نعلم أن زوارق الصيد تلك كانت فى الواقع مجهزة من قبل الأسطول البحرى السوفيتى وأن «الصيادين» كانوا ضباط البحرية السوفييت.

وسألنى سيرموريس « ماذا إذا وضعنا أحد رجالى هناك مع رجالكم؟ » واجبته ولم لا تفعل ذلك. خاصة إذا كان لديك عميل فى مكافحة التجسس

يتحدث الروسية بطلاقة ويستطيع العمل بشكل جديد في أفريقيا. لأننى لا أملك مثل هذا الرجل. »

وبعد الغداء، قمنا بفحص الدفاتر الخاصة بثلاثة ضباط بريطانيين قام موريس باحضارها معه. وقمنا باختيار العميل معاً. وكان هذا شيئاً لم يسمع عنه إطلاقاً فى الغرب، وحتى اليوم غير أن تلك كانت هى الطريقة التى كنا نعمل بها دائماً وهذا النوع من العلاقات الشخصية كان مهماً للغاية. فكل ستة أشهر، جعلت شاغلى المخابرات الرئيسية الثلاثة فى أوروبا - جهاز المخابرات البريطانى أم أى ٦ والألمانى الغربى (بوند سنخر شتندايست) بى أن دى والفرنسى أس دى إلى سى إى (وهو الآن يعرف بالمدى أس جى إى). ولم يظل اتحادنا سراً بالنسبة للأمريكيين . وكان الأمريكيون ببساطة خارج الموضوع.

وكان كل جهاز مخابرات أوربى متخصصاً فى منطقة أو أخرى. وفى أى مكان كنا فيه، كنا نتقاسم الاستخبارات سواء كان يعتقد فى صحتها أو يتم العمل فيها أولاً . وكان تخصصنا هو إفريقيا المتحدثة بالفرنسية وشمال أفريقيا والشرق الأوسط وبعض المناطق فى جنوب شرق آسيا حيث كان لنا ذات مرة مصالح استعمارية . وقد تخصص البريطانيون فى مناطقهم فى أفريقيا والشرق الأوسط وكانت مخابراتهم الألكترونية فى أوروبا الشرقية حقيقة لا يضارعها شىء . وكان الألمان الغربيون نشطين خاصة فى ألمانيا الشرقية فى العديد من بقية دول العالم . وظللنا جميعاً نراقب بشدة بأقصى ما يمكننا ما كان أكثر أعدائنا خطورة لكل منا - وهو الامبراطورية السوفيتية .

وكان للدول الأوروبية الأصغر مناطق لخبراتهم الخاصة وثبت أنها مفيدة تماما فى حالات معينة. وكان البلجيكيون ، بجهاز صغير يرأسه قاض ، متخصصين فى المستعمرات البلجيكية السابقة ومن ضمنها الكونغو البلجيكي وهو الآن زائير. ومن بين الاسكندنافيين ، كان النرويجيون بالاحتياطى الهائل فى بحر الشمال متخصصين فى البترول والأوبك. وكانت لهم أيضا وظائف الاستماع عن قرب لقاعدة الأسطول الشمالى السوفيتى فى مورمانسك ، واشتركوا فى عمليات التبادل المنتظمة لعمليات الاعتراض مع البريطانيين فى شيلتنهام. وفى لوكسمبرج ، كانت عمليات الاستخبارات صغيرة غير أنها كانت عالية الكفاءة وكان يديرها ضابط مدرب عن طريق الفرنسيين. وكانت الإمارة الكبيرة مليئة بالاجانب وبالنسبة لأمة فى مثل حجمها كان عدد الدبلوماسيين من أوروبا الشرقية كبيرا. وكان عملاء الكى جى بى الذين يتمركزون فى باريس التى تبعد عنها بالكاد بمقدار ساعة بالسيارة، وغالبا ما وجدوا طريقهم إلى لوكسمبرج لافتتاح مركزهم الكبير الموجود بالفعل هناك. فقد كان هذا هو المكان حيث كان الأشخاص يتقابلون ويتم وضع الخطط .

وكان للايطاليين علاقة وثيقة مع ليبيا ، إلا أنهم لم يحظوا بالثقة الكاملة. وبسبب استثمارات القذافى المالية الكبيرة فى ايطاليا (كان مستثمرا كبيرا فى فيات وفى مشروعات أخرى)، كانت الأموال تتدفق من ليبيا طوال الوقت. وقد حاول القذافى أيضا أن يشتري كل جزيرة فى البحر المتوسط بين شمال أفريقيا وإيطاليا. وعلى جزيرة بانتليريا التى قام موسولبنى بتحسينها بشدة خلال الحرب العالمية الثانية، قام القذافى بشراء كل شىء يستطيع أن يشتريه، ومن ضمن ذلك الماعز.

وعلى جزيرة مالطا، وهى الجزيرة التى ظلت لعدة سنوات جزيرة ذات أهمية استراتيجية فى البحر المتوسط بين ايطاليا وليبيا ، قام القذافى بشراء كل قطعة من الممتلكات المتاحة، فيما عدا القاعدة البريطانية العسكرية. ولذلك أصبحت مالطا منطقة إرهابية كبرى. وفى نوفمبر عام ١٩٨٥، تم إجبار طائرة مصر للطيران بوينج ٧٣٧ التى تم اختطافها أثناء رحلة من أثينا إلى القاهرة على الهبوط هناك، وطلب المختطفون مأوى. وكانت المحاولة ببساطة شديدة وقحة للغاية ، ومع ذلك، لم تملك السلطات بمالطا خياراً غير السماح لقوات الأمن المصرية باقتحام الطائرة. وقد قام الرئيس المصرى حسنى مبارك شخصياً بلوم القذافى لتدبير الهجوم. ولم تكن الحادثة سوى واحدة من الصراعات العديدة بين هاتين الدولتين.

وكان للقذافى نفسه عدد كبير من عملائه الخاصين به فى ايطاليا، وكنا نعرف أن هؤلاء العملاء كانوا يتبادلون المعلومات مع المخابرات الإيطالية. وكانت إيطاليا هى الدولة الأوروبية الوحيدة التى وجد فيها مثل هذه العلاقة، وكانت هذه العلاقة هى التواصل الوحيد الحقيقى بين جهاز مخابرات من الجنوب والشمال.

وكانت المخابرات الأسبانية نشطة خاصة فى الشرق الأوسط، وكانت مهمة خاصة بمراقبة التنمية الاقتصادية فى العالم الجنوبى. وكقوة كبرى فى منطقة البحر المتوسط، بالإضافة إلى كونها الدولة الوحيدة فى أوروبا الغربية التى احتلها قوات الجهاد العربية لمدة تزيد على سبعمئة سنة، قامت اسبانيا دائماً بتوجيه انتباهها بشدة لشمال أفريقيا والشرق الأوسط. ومازال هناك بربر فى

أسبانيا يستطيعون أن يتتبعوا أسلافهم إلى البربر القدماء الذين تم استخدامهم منذ ثلاثة عشر قرناً مضت من قبل القواد العرب في الجزائر وخاصة المغرب.

وكان الهولنديون - وهم قوم جادون - هامين جداً في التعامل مع امبراطوريتهم السابقة في جنوب شرق آسيا - وهي الآن أندونيسيا. والآن أندونيسيا عضو في الأوبك وإحدى دول العالم الأكثر سكاناً والأكثر عدداً من المسلمين. ويعرف الهولنديون - أكثر من أى جهاز مخابرات أخرى - أيضاً عن عمليات شركة شل الهولندية الملكية وهي إحدى الشركات المتعددة الجنسية حقاً. ولم يكن الهولنديون مهتمين بشكل خاص بشركة شل الهولندية الملكية كمؤسسة غير أنه عندما كانت هناك ثورة ستقع في إحدى المناطق التي كانت تحتفظ فيها شل، بمتلكات هامة - مثلما حدث خلال محاولة الانقلاب الشيوعية في أندونيسيا في ١٩٦٥، قامت هذه الشركة - وعن طريق فرع للمخابرات الهولندية - بمراقبة التطورات عن كثب. وكانت سورينام دولة أخرى حيث كان لهولندا وفرنسا مصالح لمدة عدة سنوات. ويتم إطلاق الصواريخ الفرنسية أريان من كورو في الجزيرة المجاورة جونا. وفي أثناء فترة تخلص سورينام من الاحتلال وهي من ١٩٧٣ وحتى حصولها أخيراً على الاستقلال في نوفمبر ١٩٧٥، كنا مهتمين بأن يكون هذا الانتقال إلى الحكم الذاتي سليماً ومستقراً خاصة بدون تدخل الشيوعية الكوبية تحت قيادة فيدال كاسترو. وقد جاء نظيري البريطاني - الذي كانت بلاده أيضاً مهتمة بالكاريبي - إلى باريس من لندن وقام بإثارة قضية احتمال عدم استقرار هذا الجانب من العالم.

وقد سأله خلال الاجتماع « هل تكلمت مباشرة مع الهولنديين بخصوص هذا الشأن ». وقال انه قد فعل.

ومعاً، قمنا نحن الفرنسيون فى جونا المجاورة، والهولنديون فى سورينام نفسها، والبريطانيون فى ركنهم الواقع فى الكاريبى - قمنا - بالتعاون بشدة فى عملية مراقبة الانتقال الكامل للسلطة إلى الحكم الذاتى فى سورينام. وقد تم تنظيم دوريات مشتركة على طول أحد الحدود لمنع التسلل إلى الأعداء المحتمل أن يعرقلوا عملية الاستقلال وخاصة لمنع تسلل العملاء الذين تساندتهم كوبا. وكنتيجة لذلك، أصبحت سورينام دولة مستقلة بطريقة منظمة وهادئة.

ومن الناحية الفعلية، قامت كل وكالات المخابرات الأوروبية الكبرى بالاحتفاظ بتمثيل دائم فى عواصم تلك الدول وبعضها. وكانت المخابرات المراقبة البريطانية نشطة خاصة فى الاتصال بآلات كاتبة عن بعد وسرية. أية استخبارات سرية أو استخبارات الكترونية التى تمكنا من أن نقوموا بأخذها من شبكات المحطات التى قاموا بتشغيلها من تركيا إلى رأس الشمال. وفى ديسمبر ١٩٨١، عندما استخدمت الحكومة الشيوعية البولندية القوة لكسر الإضراب الكبير فى ميناء جدانسك حيث نشأت «جماعة التضامن»، اقترح البريطانيون أننى قد أريد أن أسافر تلك الليلة إلى إحدى محطات المراقبة التابعة لهم فى مكان ما فى أوروبا. وقد وافقت واتجهت إلى هناك فوراً. وعندما وصلت، قام رئيس هذه المنطقة بوضعى فى محطة استقبال. وكان على يسارى مترجم فورى بولندى، وعلى يمينى قائد المحطة. ولعدة ساعات، استمعت وأنا مأسور إلى المحادثات التى تتم بين قائدى الدبابات البولندية الذين كانوا على الطريق فى تلك الليلة.

ويقول أحدهم محذراً « احترس، فهناك تسرب بترولى بعد الشجرة الثانية على اليمين، فالطريق منزلق، استخدم الحذر. »

وعلى الخريطة واسعة النطاق الموجودة أمامنا، كنا نتتبع تقدم صف الدبابات نحو الميناء كما لو أننا كنا هناك. وكان التصنت بهذه الطريقة على الجيش الأحمر وسيلة أيضا لتقدير الروح المعنوية للقوات. وفى وقت متأخر فى مساء عملية التضامن، عندما تركنا ضباطهم وحدنا، بدأ ضباط الصف فى تبادل أطراف الحديث فيما بينهم حول اتصالات الراديو، متأففين بسبب الطقس وسوء المعيشة وظروف العمل ونقص الغذاء والمشاكل العائلية. وكانت تلك هى القوات المصطفاة الذين كانوا من ضمن الوحدات القيادية فى هجوم أمامى على أوروبا الغربية.

ومنذ سنوات قريبة، تم إعطائى فكرة كبيرة عن كيفية أن مثل هذه القدرات الراقبية يمكن استخدامها فى مواقف جديدة فى الحرب العالمية الرابعة ضد هذه الأسلحة مثل الإرهاب والمخدرات. وهناك بالتأكيد بعض الخلافات الحقيقية بين الحربين العالميتين الثالثة والرابعة، خاصة فى طرق قيادتهما والسيطرة عليهما وكذا الاتصالات - أى العقيدة الاستراتيجية التقليدية لثلاثة من حرف السى. . فالارهابيون فى اغلب الاحيان - لا يستخدمون نفس نوع الاتصالات المفصل والذي يصل الى مستوى ميادين المعارك لكى يقوموا بتخطى هذه الهجمات. الا اننا قد اكتشفنا أن مراقبة الاتصالات من السفارات فى الامم الجنوبية التى تساند النشاطات الارهابية - خاصة اللبنانيين والسوريين والاييرانيين - قد أدت الى بعض الاختراقات الرائعة لأجهزتهم . فقد تم مناقشة

نقل العتاد عن طريق الراديو من اجل القيام بتفجير صالة الديسكو فى برلين وفى ليلة ٥ ابريل ١٩٨٦ ، حيث قتلت امرأة تركية وامريكى يعمل فى الحكومة واصيب اكثر من مئتى شخص اخرين من بينهم عدد من الجنود الامريكيين. وقد اظهرت المراقبة الالكترونية لإشارات الراديو بين طرابلس والمكتب الشعبى الليبى أو السفارة فى شرق برلين اشتراك ليبيا فى المؤامرة. كما أدت المراقبة إلى تحديد مصادر التفجير، ولكن للأسف، لم تتم ترجمة المعلومات بسرعة كافية لأن تمنع الكارثة. ومثل هذه الكمية اللامعقولة من «الإشارات» الالكترونية التى تتولد عن المراقبة كبيرة لدرجة أن المعلومات الهامة غالبا ما تظل على شرائط تسجيل المراقبة إلى أن تتسبب بعض الأحداث فى ان تجعل المحلل يشغلهم مرة أخرى . وغالبا ما ترجع بعض مرات النجاح القليلة إلى المصادفات وإلى الخبراء الذين يعملون بكد شديد مثل ناسخى الأسقف فى العصور الوسطى، هذا على الرغم من انه يمكن الآن لأجهزة المراقبة المعقدة التى تنسق الكلمات والعبارات المختارة على أسس معينة أن تحسن احتمالات التقاط المحادثات إلا أن وراء عمليات الاستخبارات، نقوم نحن زعماء أجهزة المخابرات فى أوروبا الغربية بمناقشة عدد من الخطط المحتملة . أثناء مقابلاتنا الدورية على مستوى القيام بالعمليات قبل أن يصلوا إلى المستوى السياسى لرؤساء دولنا وحكوماتنا.

وقد اقترحت فى احد هذه الاجتماعات على الغداء قائلا: «إننا نستطيع أن ندمر القوات المسلحة الليبية وربما حتى نثير انقلابا عسكريا ضد القذافى . ولكننا نحتاج إلى تعاون القوات الجوية المصرية والإسرائيلية. فيقوم المصريون بإجراء عمليات مناوشات على الحدود المشتركة مع ليبيا، فتقوم ليبيا بالرد

بتحريك جزء كبير من قواتها الجوية وسلاح المدرعات لمناطق الحدود .

وعندئذ تقوم القوات الجوية الإسرائيلية - حيث ستكون المقاتلات الإسرائيلية معلمة بالعلامات المصرية - بالوصول عند ظهور الفجر .. ويوم .. ! وإذا كنتم قلقين بشأن الرأى العام ، فيمكنكم أن تأخذوا بعض الدبابات الليبية المدمرة وتنقلوها إلى المناطق المصرية، وبعد ذلك تأخذوا مائة من القوات الليبية وتضعوهم على الأراضى المصرية. »

ولم تحدث العملية قط، بالطبع، هذا على الرغم من أنه كان هناك توتر من أن إلى آخر على طول الحدود المصرية - الليبية التى كانت قد تعطى غطاء مناسباً لها . إلا أن زملائي الأوروبيين أعجبوا بخيال التخطيط وشكله .

وحيث أن أوروبا تتحرك نحو التحول إلى قارة بدون حواجز فى ١٩٩٣ ، فإنه من الواضح انه سيكون هناك حاجة إلى أكثر من الخيال وبعض المشهيات المشتركة لتأسيس نوعى من التعاون الذى سيقوم بحق بإعاقه الإرهابيين وتجار المخدرات والمجرمين الآخرين عن الحصول على الامتيازات الكبرى لهذه القارة الأوربية الجديدة.

وقد كان الزعماء فى الشرق والغرب الذين وضعوا فى نوفمبر ١٩٩٠ توقيعاتهم على الوثيقة ذات الحدود الجلدية الحمراء التى أسموها ميثاق باريس لأوروبا الجديدة - كانوا بدون شك جادين فى إعلانهم بأن « أوروبا تقوم بتحريك نفسها من تركة الماضى » . وقد قاموا بالإشارة بشكل صحيح تماماً إلى الروابط بين هذه الوثيقة والمعاهدة الخاصة بالقوات المصلحة التقليدية فى أوروبا التى قللت بشكل كبير من القوات العسكرية المواجهة لبعضها على حدود ما كان

يسمى فى الماضى بالتقسيم الكبير بين الشرق الشيوعى والغرب الديمقراطى .
إلا أن عدم قيام الدول الأربع والثلاثين - المبتدئة بسان مارينو وليشتنستين
وحتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالإشارة إلى نوع الخطوط الأمامية
للتعاون فى الأمور الاستخباراتية التى من الممكن أن تجعل أوروبا أرض معركة
مستحيلة بالنسبة للإرهابيين وتجار المخدرات الذين يحاربون حروبهم الصغيرة
القدرة ولكنها فى نفس الوقت عنيفة على أرضنا ، مستغلين ضعفنا يوميا بعد
يوم ، ومزعزين استقرار مجتمعنا ومثيرين الفوضى بين مواطنينا .

وبالطبع ، منذ اللحظة التى خطرت فيها فكرة أوروبا الموحدة لأول مرة على
بالسياسيين ورجال الأعمال ، أصبحت الفكرة مثل الكابوس لعملاء المخابرات
 . وقد عبر رئيس الانتربول الذى كان وقتئذ ضابط شرطة متميزا وهو ريموند إى
كنديل - عبر - عن قلقه الشديد من أن نهاية الحدود وجواز السفر الشائع
والحركة المفتوحة عبر الحدود قد يسهل فقط عمل الإرهابيين وتجار المخدرات
وكل أنواع المجرمين .

غير أنه فى الواقع لا تعتبر الحدود هى المكان الذى يلقي فيه القبض على
الإرهابيين فيتم القبض على الهواة غير الحذرين عند وقوع تفتيش عشوائى
لسيارة يُكتشف أنها تحمل حمولة من الأسلحة الاتوماتيكية والمتفجرات
البلاستيكية ويتم القبض على الإرهابيين عن طريق عمل الشرطى المنظم
والمفجر والطويل وعن طريق نوع من الاختراق للخلايا الصغيرة الذى قد
يستغرق سنوات أو عن طريق المعلومات التى يقولها بالمصادفة محبان مستاءان
 . إلا أن أوروبا ووكالات مخابراتها ينبغى أن تكون منظمة بشكل كاف لكى
تستغل كل هذه الفرص .

وفى إحدى الزيارات لكينشاسا عاصمة زائير، قمت بتناول العشاء فى قصر الرئاسة مع الرئيس موبوتو، وكنا نجلس فى التراس الخاص به تحت بدر كامل رائع المنظر. وبعد فترة طويلة من الصمت، انفجر موبوتو ضاحكا ضحكة كبيرة وقال «أتعلم يا عزيزى الكنت أنكم أنتم أيها الأوربيون يمكن أن تكونوا عظماء جداً إذا أنتم نسيتم نظامكم القبائلى.»

وهذا تجد أوروبا نفسها فيه الآن- فهى مازالت غارقة فى وحل نظامها القبائلى، وتكافح بشدة لتخرج منه. ولقد بدأنا العمل بحماس فيما يمكن أن نسميه المرحلة الأولى من «التحول إلى الأوربية» الحقيقى. وقمنا بالاعتراف بأعضاء جدد فى الدائرة الداخلية فقط بعدما قمنا بعملية البحث الروحى العميق.

وكان العديد من الفرنسيين يخشون من أن دولا مثل اليونان والبرتغال بخلفيتهم الاقتصادية يمكن أن تسوق الأعضاء الآخرين فى المجموعة الأوربية إلى القاع. لماذا إذا قامت حشود من عمالهم المخضرمين بأغمار مصانعنا مليون من مواطنينا فى الشوارع؟ ولم يحدث أى من تلك الأشياء بالطبع. فالحشود التى غمرت شمال ووسط أوروبا قدمت ليس من الأمم المعترف بها حديثا فى جنوب أوروبا ولكن بالأصح من المستعمرات السابقة فى أفريقيا والشرق الأوسط.

أن حالة أوروبا الآن ترجع إلى حد كبير إلى رجل واحد - وهو الجنرال جورج مارشل - وإلى كرم ورؤية الأمريكيين. وقد ساعدت خطة مارشال التى تطورت بعد الحرب العالمية الثانية على التقاط أوروبا التى مزقتها الحرب ونفض الغبار

عنها، إلا أنها كانت تتعهد بكل دولة على حدة . وعندما طلبت منى الحكومة الفرنسية أن أوافق الجنرال ايزنهاور كمساعد فى الرحلة التى قام بها لفرنسا فى بداية حقبة خطة مارشال، استطاع إيك أن يرى ان الخطة قد تنجح من وجهة النظر الفرنسية . وكانت نظرة ايزنهاور لكل من الدول الاخرى التى زارها - وهى بريطانيا، وبلجيكا، المانيا وايطاليا - مشوهة بشكل متساو بسبب النظرة العرقية لكل من هذه الامم. فقد كان يلاحظ النتائج الخاصة بالحروب التقليدية الاخيرة التى يمكن ان تكون قد حاربناها. فالحروب التى نقوم بها الآن هى حروب ثورية وهى حروب مختلفة جداً بالطبع..

وكل التنظيم القديم لاوروبا تحت النيتو (حلف شمال الاطلسى) والتنظيم الجديد لاوروبا تحت المجموعة الاوروبية يتقاسما نفس الخصال التى يمكن ان يطلق عليها المرحلة الاولى من اوربا الجديدة وكيفية معالجة المرحلة الثانية هو الاكثر خطورة وحساسية - واننى اخشى مع اننى لا اريد ان اظهر على انى كاشف للغيب ان هذه المرحلة ستحدد نجاح الحضارة الاوروبية او فشلها كما نعلمها. لأننا إذا فشلنا فى المرحلة الثانية، فإن تلك الحضارات الموجودة على الاطراف الجغرافية لحضارتنا مستعدة بالفعل لتدخل عندنا. والارهابيون الذين يستخدمهم اليوم زعماء العالم الجنوبى الاكثر سوءاً كخلفاء لهم يعتبرون مجرد رواد.

ويجب ان تشمل المرحلة الثانية لتطور اوروبا توحيد التكتلات الرئيسية الموجودة والتى كانت موجودة منذ الحرب العالمية الثانية فى شرق وغرب اوروبا وهى الولايات المتحدة فى الغرب عبر الاطلسى وامم الكتلة السوفيتية فى

الشرق والى حتما ، هذه المرحلة الثانية من التكامل بين الشرق - والغرب فى اوروبا قد بدأت بالفعل. فلقد قامت الالمانيتان وقد توحدتا بالفعل لأول مرة منذ خمسة واربعين سنة . وهذا الانقلاب للفرقة التاريخية لشقى اوربا قد بدأ بسبب واحد هام. فقد قام جورباتشوف - الذى كان يحاول جاهداً أن ينقذ اقتصاده المريض فى بلاده - قد حل وفاق أمم اوروبا الشرقية التى كانت تحت السيطرة الشيوعية من قبل والتى اصبحت بعد ذلك دول الامبراطورية السوفيتية. . ويعتبر هذا تحدياً ضخماً. وعلى هذا ، فإن لكل دولة سمات مختلفة جداً واحتياجات مختلفة. وكل يمثل تحدياً مختلفاً ، بالطبع من منظور سياسى واقتصادى، ولكن ايضا من منظور الاستخبارات ايضا.

وتحتاج المانيا الشرقية او ما كانت تسمى جمهورية المانيا الديمقراطية الى مساعدة كل دول الغرب وخاصة مساعدة المانيا الغربية سابقا - لأن المانيا جمهورية واحدة لها لغة واحدة وثقافة واحدة - مشكلين نحو ثمانية ملايين المانى - وتلك كتلة ضخمة فى وسط اوربا . وفى الواقع، بالرغم من أن مستوى معيشتهم واقتصادهم منخفض فى الوقت الحالى - فإن من بين الألمان الشرقيين الساكسونيون والبروسيون - المشهورون بكدهم فى العمل وقدراتهم العسكرية. واما عن الألمان الغربيين فإنهم مسرورون من قلوبهم لعودة الألمان الشرقيين إليهم. ولا يوجد لدى أى دولة اوربية اخرى الموارد او الدوافع لتمرير ما كانت تسمى المانيا الشرقية الى ان تسترد صحتها.

ولا يتم مقاسمة القوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية المؤثرة بأية وسيلة مع الدول الاخرى لاوروبا الشرقية. فسيكون هناك مزيد من الصعوبات.

وليست المجر وتشيكوسلوفاكيا بأقل استعداد من المانيا الشرقية لاستغراق فى النظام الاقتصادى والاجتماعى لاوروبا الغربية. وكلتاها دولتان صغرتان متطورتان بشكل حسن تقريبا مع تقدم المجر الى حد ما عن تشيكوسلوفاكيا غير ان عملية الخصخصة تبشر بتضخم متزايد، وفى المهرادت حركة مشابهة الى نسبة تضخم وصلت الى ٣٠٪ وادت الى مستوى معيشة كان ينخفض، حتى ان واجهات العرض الخاصة بالتاجر كانت تقتط بالبضائع التى لا يستطيع احد ان يشتريها. واضحت المجر مع النمسا وهى واحدة من اكثر الدول تقدما فى الناحية الاقتصادية فى اوربا الغربية جزءا من الامبراطورية المجرية النمساوية القوية التى انحلت بعد الحرب العالمية الاولى، ولذلك ينبغى ان يكون المجرئون مستعدين على الاقل من الناحية النفسية الى ان يصبحوا اعضاء منغمسين تماما فى النظام الاوروبى مرة اخرى. وجب ان نتقبل ذلك ونساعد فى ان يصبح ذلك حقيقة اقتصادية وسياسية واجتماعية.

وبالطبع تعتبر بولندا موقفا مختلفا تماما فهى حالة سلة اقتصادية، يبدو انها راغبة تماما فى الانغماس فى تجربة سياسية ديمقراطية نأمل انها تنجح - وتجعل العقلية البولندية هذا الامر صعبا. فالبولنديون اناس يتميزون بالعناد وقوة الارادة. فدستة من البولنديين سيقدمون العديد من الافكار المختلفة لكيفية حكم بلادهم. ولذلك فى امة كاملة تجد لديك قدرة ضخمة على خلق الفوضى. ووصلت البطالة فى اول مرة الى ٥٥٪، او اكثر من مليون بولندى بدون عمل. ونستطيع فقط ان نأمل أن يميز الهدوء والعقل سياسات من سيأتون بعدهم، لكن بالنسبة للوقت الحالى على الاقل لا يوجد شىء نستطيع نحن فى اوربا الغربية ان نفعله للإسراع بعملية النمو الاقتصادى.

وكان ينبغي ان تكون رومانيا حالة اسهل. لكن فى الواقع نجد انها امة اكثر اضطراباً فتحت حكم شاوشيسكو، اصبحت رومانيا غير صالحة اقتصادياً بالرغم من احتياطياتها فى البترول والاشخاص الذين يتسمون بالدهاء والمهارة والذين يسمون انفسهم بكل فخر جزيرة لاتينية فى بحر الاسلاف. غير ان امتهم مزقتها وشقتها سنوات الديكتاتورية والثورة المريرة التى اطاحت بشاوشيسكو. وقد ارتفعت اسعار العديد من السلع بنحو ٣٠٠٪ فى السنة الاولى تحت حكم النظام الجديد. وفى بوخارست، انتظر الناس فى صفوف لساعات ليشتروا اللحوم والجاز والسلع الاساسية الاخرى. وكانت المياه تقطع بشكل دورى. وسيمر وقت طويل بالطبع قبل ان تستطيع رومانيا ان تعود الى حالة التوازن التى تسمح بالتكامل مع اوربا.

ونفس الشئ ينطبق للاسف على يوغسلافيا التى منذ وفاة تيتو الزعيم والصمغ الذى كان يجمع هذه الامة المتباينة الاصطناعية التى خلقت من بقايا الامبراطورية النمساوية المجرية فقد اصبحت متفككة بشكل عنيف. واليوم تجد يوغوسلافيا نفسها فى موقف مختلف عن موقف رومانيا، فقد تمزقت بالصراعات العرقية العنيفة المريرة التى اثيرت بسبب التناقض بين الثروة النسبية لسلوفانيا وكرواتيا فى الشمال الغربى، والفقر المدقع للصرب ومسدونيا والبوسنة. ويبدو ان الاتحاد الضعيف ينحل تماما.

والتحدى الذى يواجه الوحدة الاوربية والذى تشكله التفككات فى يوغوسلافيا تضعف اهميته بالمقارنة مع التحدى الذى تمثله تفككات بقية اوربا الشرقية والامبراطورية السوفيتية نفسها. وقد توجهت عملية انحلال الاتحاد

السوفيتى الذى تم تجميعه بالدم وتوحيده بالارهاب لمدة ثلاثة ارباع قرن من الزمان والذى تأثر بالضغط الاقتصادي التى لا ترمم من قبل الغرب المستعد لأن يجهد الكرملين فى كل عملية تحول توجهت بارض ماركس ولينين التى كانت من ذى قبل متألفة لاي اتجاهات يبدو ان جورباتشوف لم يتخيلها ابدا عندما بدأ فى اول الامر فى فك اسر الدول التابعة له فقد كان ذلك بمثابة وصيته لمرض النظام السوفيتى واقتصاد بما جعل الكرملين يسمح للامم التى كان يسير عليها ذات مرة خاصة المانيا الشرقية التى كان ايضا يخشاها سمح لها بأن تترك الكتلة السوفيتية . كما ان ذلك سمح بسهولة للكتلة واخيرا لاتحادها ان يتحلل . وكانت هناك - بشكل واضح - قوى محركة متعددة فى العمل هنا ومنها العداوات الهائلة بين الشعوب الواقعة تحت الاسر لثلاثة او اربعة اجيال ، الفشل النهائى للماكنة العسكرية السوفيتية فى مماثلة (النيتو) حلف شمال الاطلسى فى العناصر العسكرية والتكنولوجية التى من بينها برنامج الدفاع الفضائى «حرب النجوم» المهلك . ولقد تجمعت كل هذه القوى لتفتت اتحادا كان يبدو ذات مرة منسجماً ومتلاحماً بشدة الى قطع صغيرة تتزايد بشكل متزايد ، ولقد تتبععت كل من الدول فى اوربا الشرقية عن كثب خلال سنوات عملى كرئيس للمخابرات الفرنسية وفى فترة الاضطرابات التى تلت ذلك . فى الوقت الذى تبدأ فيه المرحلة الثانية للتكامل الاوربى ، تمثل كل من هذه الدول تحدياً ضخماً من منظور المخابرات بمثال ذلك التحدى من اى وجهة النظر اجتماعية او اقتصادية او سياسية.

وهناك العديد من الفوائد التى تحل بشكل عام بوصول نظام ديمقراطى فى اوربا الشرقية فلن يصبح لدى الارهابيين هذا الباب الخلفى لأوربا من خلال بيئة

مرحبة لأي عدو للغرب، وجعل مجتمعاتها من الصعب مراقبة النشاطات المعادية ذلك في أكثر الحالات تفاؤلا . ولن يتمكن الارهابيون من الاعتماد على المداخل الروتينية للأسلحة والذخيرة من الطبقة الاولى التي تنتجها بعض دول الكتلة الشرقية السابقة . ولن يتدرب الارهابيون على ايدي عملاء رسميين لشرطة هذه الدول ولن يكون لهم مدخل لأحدث تقنيات العنف والتشويه المستديم.

ولقد قامت سفارات ليبيا وسوريا وايران في بعض الغواصم مثل برلين الشرقية بإمداد الارهابيين بالمساندة بالعتاد وبوصلات اتصال كاملة وراء حماية الحكومة الشيوعية بالمانيا الشرقية وشرطتها السرية القوية والمهابة وهي الستاس . وكانت الصلات الوثيقة التي كانت موجودة بين المائيتين مفيدة بالنسبة للارهابيين . وقد سمحت اللغة والثقافة المشتركة أكثر انواع التحركات الممكنة تحمرا بين الشرق الشيوعي والغرب الديمقراطي وذلك في الوقت الذي منحت السيطرة على الجانب الشيوعي والغرب الديمقراطي لحائط برلين ما كان يعتبر مرآة فعالة من جانب واحد سمحت لمؤلفي الدمار بالملجأ الذي يرغبونه . وبالتحرك من خلال الحائط، وجد المسافرون ان اوراقهم كانت تفحص بدقة فقط على الجانب الشرقي وهؤلاء الافراد الذين يصطحبون المرافقين أو الاوراق المناسبة يمكن ان يمروا بحرية وبمجرد الوصول الى برلين الغربية ، كانت هناك رحلة بسيطة بالطائرة او القطار تنتظرهم للذهاب لاي مكان في اوربا .

وكنتيجة لذلك استخدمت المجموعات الارهابية القادمة من الشرق الاوسط ومع هذا ايضا الارهابيون الذين تربوا في المانيا الشرقية مثل عصاة

«بادرمينهوف» - استخدمت المانيا الشرقية مثل حفرة الارنب فى اليس فى بلاد العجائب للذهاب للعالم الاخر. فعندما تم القبض على ارهابيين من المانيا الغربية فى باريس فى ١٩٨٠ كشفت المذكرات التى كانوا يحملونها ان لديهم مدخلا لمخزن كبير من المسدسات والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية والمتفجرات فى المانيا الشرقية.

وقد تمتعت الشرطة السرية فى المانيا الشرقية بالعديد من نفس تلك المزايا التى يتمتع بها ضيوفهم الارهابيون فى جزء كبير من الحقبة التالية للحرب العالمية الثانية وبمشاركة نفس اللغة والثقافة مع الاخوة الالمان الغربيين عبر الحدود، تمكن الستاس المهاب من التسلل باطمئنان الى المستويات العليا للحكومة والصناعة الالمانية . وقد عمل جهازهم الاستخبارى الضخم بفاعلية متساوية بشدة على كلا جانبي حائط برلين.

وقد انتهت هذه النشاطات عندما انهار الحائط واصبحت برلين عاصمة لالمانيا واحدة . وقد تم اغلاق سفارات الشرق الاوسط التى كانت فى الماضى تقوم بتمويل النشاطات الارهابية الناشئة فى بلادهم. وتم تكليف وزارة الداخلية بألمانيا الغربية بمهمة سريعة وهى ليس فقط حل جهاز المخابرات والشرطة السرية بألمانيا الشرقية، ولكن أيضا تقفى أثر ضباط الستاسى وجنودهم و أيضا كشف النقاب عن أكثر جرائمهم فظاعة. وعلى هذا مازال هناك العديد من الضباط والمتخصصين فى الإرهاب. - خاصة هؤلاء الذين يسافرون لدول الشرق الأوسط مثل ليبيا - الذين قاموا بإزالة شاراتهم وتحولوا إلى «مستشارين فى الصحافة الحرة». وقد ظل هؤلاء فى اماكنهم اليوم يبادلون خبراتهم فى مقابل

كميات من العملة الصعبة. ومازال أسيادهم الذين يدفعون كما هم - فيتم الدفع لهم من عوائد البترول من ليبيا أو سوريا أو إيران. فتقوم تلك الحكومات بإيداع الشيكات مباشرة ببساطة في حسابات البنوك السويسرية بدلاً من السفر من خلال البيروقراطية في برلين الشرقية.

وكانت هناك حركات مماثلة لحل آلات المخابرات عبر بقية دول أوروبا الشرقية التي أخذت بالديمقراطية حديثاً. ففي تشيكوسلوفاكيا، أدى انتخاب الرئيس فاكلاف هافيل - الذي كان كاتباً مسرحياً وشاعراً منفيًا - إلى الحل الفوري لجهاز الشرطة السري - وخاصة الذراع التي كانت تتعامل مع الجماعات الإرهابية القادمة من الشرق الأوسط أو أوروبا الغربية.

وصارت العلاقات مع الحكومات التي كانت تساندهم علاقات متوترة على السواء، هذا بالرغم من قيام العديد من تلك الدول الجنوبية بكبح غضبهم اهتماماً بالابقاء على المدخل إلى الأسلحة والذخيرة ذات الجودة العالية التي استمرت في التوجه من مصانع السلاح التشيكية.

وعرفت منطقة كارلوفي فاري الهادئة المنعزلة في الماضي باسم كارلسباد عندما كانت تستخدم كمحطة شرب لأجهزه العالم النفاثة. ففي التلال التي كانت تهبط بهذا المكان الراقى، قام بارونات السكر والتجار التشيك وكذا رجال الصناعة في الامبراطورية النمساوية - المجرية - قاموا ببناء قصورهم الفخمة. وبعد استيلاء الشيوعيين على السلطة في عام ١٩٤٨، تحولت كل هذه الضيعات إلى ملكية الدولة. وقد أستخدم بعضها كمعتزل لصفوة الحزب، والبعض الآخر صار اماكن تذيب للإرهابيين بدءاً من الفرق الحمراء الايطالية

وانتهاء بالمقاتلين الفلسطينيين. وخلف الأبواب التي كان يحرسها بحذر أعضاء الشرطة السرية بتشيكو سلوفاكيا كان هؤلاء الإرهابيون يتلقون تدريبات متقدمة فى وسائل الغرب وفى استخدام الأسلحة والمتفجرات المعقدة التشيكية الصنع التى يستخدمونها فى النهاية فى علمياتهم.

وحتى يوغوسلافيا، أقل دول أوروبا الشرقية الشيوعية شيوعية فى الأيام السابقة لسياسة «الجلاسنوست» ، لم تكن محصنة ضد الاشتراك فى النشاطات الإرهابية أو من إعطاء الإرهابيين المأوى. ولقد تخيلت يوغوسلافيا نفسها دولة «من دول «عدم الانحياز» ولذلك كانت تحاول بشكل دائم أن تبحر بين كلتا الكتلتين. وعندئذ توجه العديد من الدول التى كانت يوغوسلافيا تقوم بتدعيم روابطها معها بكبد إلى معسكر أعداء يوغوسلافيا من الجيران فى أوروبا الغربية. وكانت حالة يوغوسلافيا الأكيدة من تأييد حركة عدم الانحياز غالبا تعنى إعطاء المساعدات والمساندة لبعض العناصر الأقل شراسة. فإذا كانت هناك أى بلد فى أوروبا الشرقية قام فيها انحلال ماكينة الشيوعية القديمة فى السنوات الاخيرة بعمل اختلاف أقل فى شروط تسامحها مع مثل هذه النشاطات، فإن يوغوسلافيا ستظهر فى مثل هذا المكان. أولا، تنشغل يوغوسلافيا قل أى شئ بمشاكلها الداخلية التى تقترب من شفا الحرب الأهلية. ثانيا، تمسكها الشديد بمبادئ عدم الانحياز لاتزال ثابتة. وتلك الحركة نفسها لاتزال يفترسها الإرهابيون المتلهفون على التصاريح والمساندات الرسمية.

وفى خلال العقدين الأخيرين، أبقت منظمة التحرير الفلسطينية على بعض من الممثلين فى بلجراد (كما كان لديها فى بقية أنحاء أوروبا الشرقية وباريس

أيضا). لذلك كان لا ينبغي أن يكون الأمر مفاجأة عندما قام أبو العباس بالتوجه إلى يوغوسلافيا، بعدما قام بتدبير عملية الاختطاف القذرة للسفينة الإيطالية أكيل لورو. وكانت تلك حالة تقليدية بالنسبة لكل دولة. وكانت محطة التوقف الأولى بالنسبة للإرهابيين هي إيطاليا حيث قام سفير الولايات المتحدة ماكسويل راب بتقديم طلبات محمومة للحكومة الإيطالية لاحتجاز أبو عباس لتسليمه إلى الولايات المتحدة. وبدلاً من الاصغاء إليه، تجاهلت السلطات الإيطالية الرجاء الأمريكي وقامت فوراً بنقل الزعيم الإرهابي إلى طائرة متجهة إلى يوغوسلافيا حيث أستقبل بالاحضان. وفي خلال ساعات، كان يستريح في منزل آمن تابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بلجراد حيث قام بالاشتراك بمرح في محادثات تليفونية مع المراسلين الغربيين في باريس وتونس حيث تحتفظ المنظمة بمراكز رئيسية. وفي النهاية، عندما صارت الحرارة الدبلوماسية شديدة ولا تحمل حتى بالنسبة لليوغوسلافيين، اختفى أبو عباس مرة أخرى، على طائرة مقاتلة جه إيه تي (يوغوسلافية) توجهت إلى دمشق، وبذلك اختلطت مرة أخرى في سماء الإرهاب حيث يعتبر الآن نجماً فيها.

ولمدة أربعين عاماً، كرسنا كل طاقتنا لمراقبة نشاطات العملاء من كل دولة من الدول الأوروبية الشرقية، ولقد أدركنا كيفية عملهم وحددناهم كأفراد، وتتبعناهم وهم ينتقلون من محطة إلى أخرى. وراقبنا اتصالاتهم، وعندما صارت نشاطاتهم على وجه الخصوص شنيعة أو شبكاتهم خطيرة، كنا نقوم بتجميعهم عندما أمكننا ذلك - ونقوم بطردهم من بلادنا، وملقين القبض على مواطنينا الذين تورطوا بشدة معهم. ومن ثم كيف يمكن لنا فجأة أنه نغير

أجهزة تفكيرنا من اعتبار حكومات أوروبا الشرقية هذه أعداء إلى اعتبارهم كأصدقاء، وننقل تركيزنا على الإرهابيين ومهربى المخدرات الذين سيصيرون أعداءنا فى الأربعين سنة القادمة؟ نستطيع فقط بمساعدة أصدقائنا وحلفائنا.

الفصل الثانى عشر

من العدو إلى الصديق، ومن الصديق إلى الحليف

سيكون التحدى الوحيد بالنسبة لأوروبا فى الجيل القادم وما بعده هو تحويل عدونا الرئيسى منذ الحرب العالمية الثانية إلى صديق، وتحويل صديقنا الرئيسى إلى حليف حقيقى فى أثناء القتال من أجل تحقيق الانتصار - بالطبع من أجل البقاء المشترك فى الحرب العالمية الرابعة.

وفى قلب هذا التحدى هو ما إذا كنا نستطيع أن ندرك الطبيعة الجوهرية لهذين المجتمعين - المجتمع المتحول والمنقسم الذى كان يعرف باسم السوفييت والأمريكان - وكيف يفكرون ويعملون، وكيف تعمل عملياتهم التنموية وأيضاً ما هى القوى التى سببت ثوراتهم. وتنوع هذا التحدى فى تعقيداته بسبب التقسيمات التى حدثت للاتحاد السوفيتى الذى لم يعد له وجود الآن. ويشكل ظهور دسته أو أكثر من الأمم السوفيتية،، بعضها يمثل قوى صغرى، وكل منها لها لغتها وثقافتها وتاريخها وهويتها وخاصة الرؤية العالمية المتفردة جداً - يشكل تحدياً ذا ابعاد مؤقتة بالنسبة لأجهزة المخابرات والأمن فى الغرب ولدبلوماسيينا وساستنا أيضاً.

وفى العقود منذ الحرب العالمية الثانية، قمنا باستثمار وقت وطاعة وقوى بشرية ضخمة فى فهم القوى التى قادت القوتين العظميين والتعامل معهما. غير أننى فى خلال تلك الفترة، كنا نفشل بشدة فى جانبين رئيسيين - أولاً فشلنا فى فهم القوى الداخلية العتية التى تسوق اليوم القوى الناشئة من الاتحاد السوفيتى، ثانياً، فشلنا فى التعامل مع الاتحاد السوفيتى سابقاً

والولايات المتحدة كقوتين عظميين. ولقد فشلنا بسبب واحد رئيسى - لأننا فى معظم الوقت الذى كنا فيه فى حرب مع الامبراطورية السوفيتيه، كنا نعتمد كثيراً على حماية الولايات المتحدة. ولم يقدم كلاهما علاقة صحيحة جوهريه للأوروبيين. ولم نستطع أن نقرب من أى من القوتين سواء صديقنا أو عدونا أو نكون واقفين على أقدامنا. ومع كل من منهما كانت أوروبا أساساً جزءاً فى طلاق مؤلم - فينبغى علينا أن نتعلم كيف نكون بشخصيتنا نحن قبل ما نستطيع أن تكون لنا علاقة صحيحة مع شخص جديد. ومن المهم بالنسبة للأوروبيين أن يفهموا القوتين العظميين أو القوى التى تنشأ من بقايا الامبراطورية السوفيتيه، وأن يفتشوا عن تسوية عميقة معهما. وخاصة يجب أن نبدأ فى إعادة توجيه نظم مخابراتنا المعقدة التى تدرينا عليها لفترة طويلة لمواجهة القوى العظمى نحو العدو الجديد الذى يحوطنا من كل الجوانب - والذى بالطبع يتواجد بيننا الآن.

وقد ولدت الشيوعية مع القرن، وتموت معه. ولكن هذا لايعنى أن الشيوعيين سيكونون ديمقراطيين تماماً عند حلول ١٩٩٩. فالعادات التى تراكت على الأجيال من الصعب كسرها. فما هى القيمة الفورية للصناعة الخاصة عندما ينبغى أن يتم تعليم مفهوم دافع الربح مثلما نعلم قواعد اللغة لطالب فى الصف الثانى؟ > فهؤلاء الذين يتم تعليمهم فى المدارس على مبدأ النظرية الشيوعية وممارساتها، ينبغى أن يتم تعليمهم طبقاً للمفاهيم الأساسية لاقتصاديات السوق والديمقراطية كما نحن نتمتع بها، وكما هم لايفهمونها بداهة. وعلى هذا فإن شعباً ما كان يعرف باسم الاتحاد السوفيتى ينبغى أيضاً أن يعودوا إلى بعض القيم الإسلامية التى كانت غائرة فى الروح الروسية

وليست السوفيتية. أو إلى الروح اللاتيفية أو الليتونية أو الاستونية أو المولد فيه، أو الاوكرانية.

وتتضمن القيم التي تحل محل الشيوعية في الوقت الذي تتمسك فيه روسيا الديمقراطية تلك القيم الخاصة بالكنيسة. فنحن نشهد في روسيا ظاهرة العودة إلى الكنيسة الأرثوذكسية التقليدية،. ففي منظمه هذا القرن، عندما كانت الكنيسة الارثوذكسيته الروسية تحت سيطرة الشيوعية السوفيتيه، قامت الكنيسة بحراسة اسرارها الخاصة وهي ما يمكن أن يسمى غموض الكنيسة وهو ما كان يلجأ إليه الرجال والنساء الروس على أنها طريق سلامة النفس التي ينشرها الرهبان عبر السنين إلى المؤمنين الحقيقيين.

وقد أدرك الشيوعيون مثل هذه الحاجة إلى الغموض. وقد اعتقدتُ دائما أن خطأهم الرئيسي هو أنهم وعدوا أن المكافأة النهائية للمؤمنين بهم ستكون على الأرض وقد أزال ذلك الغموض في وقت قصير، وحكم على الشيوعية بالهلاك. فقد فشلت في الوفاء بوعودها بالرخاء الدنيوى والرفاهية، كما تمكن العالم من أن يراقب هذا الفشل ويسخر منه. وأدرك الرهبان والبطاركة الارثوذكس أنك لاتستطيع أبداً أن تزيل الغموض من الكنيسة وإلا لن يكون لديك شيء. وبالرغم من أن الكنيسة لم تكن أبدا المعارضة للحكم الشيوعى بسبب عناصرها الروحية العميقة وعودها بأن الخلاص - سيحل فيما يلى - من المشاكل والمشقة التي يعانون منها اليوم، فإن الشعب الروسى يعود إلى دينه فى حشود. وبالنسبة المثوية نجد أن هناك عددا من المسيحيين الذين يقومون بالعبادات فعلا وبانتظام أكبر فى الاتحاد السوفيتى منهم فى فرنسا.

وينبغي أن نفهم ميزة أخرى رئيسية واحدة للاتحاد السوفيتى سابقا ستساعدنا للتقدم نحو تعايش ناجح وسلمى. فالروس فى الامبراطورية السوفيتية يشكلون ١٣٧ مليوناً من مجموع ٢٨٨ مليون شخص. فإذا قمت بإضافة الأسلاف الأوروبيين الآخرين مثل الروس البيلو والأوكرانيين - الذين أصبحوا الآن دولاً مستقلة ولهم اهتمامات قد تختلف من اهتمامات الروس أنفسهم - نجد أن عددهم يزيد قليلاً على ٢٠٠ مليون. فبالنسبة للامبراطورية السوفيتية - نجد أن كثيراً من هؤلاء السكان الآن يتمركزون فى غرب الأورال - أى فى روسيا الأوروبية. غير أن جزءاً كبيراً من الأراضي يتواجد خارج أوروبا تماماً حيث يوجد هناك أسرع التوسعات السكانية. ولقد اكتشف السوفييت لأسفهم الشديد خلال غزوهم لافغانستان أن لديهم فى داخل حدودهم فى تلك المنطقة فى وسط آسيا شكلاً جديداً من الصراعات بين أمة أوروبية الا وهى روسيا ومحاربو الحرية الأبطال فى افغانستان الذين يقومون بالدفاع عن أرضهم المقدسة.

ولقد قمنا بمراقبة كل هذه الضغوط والتوجهات بأقصى ما يمكننا. ولم يعمل الروس العرقيون أبداً بشكل حسن فى الظروف الصعبة للأراضي العذراء - وهى السهوب الروسية الآسيوية الخالية الواسعة - وذلك من وقت أن حاولت نيكتيا خورشوف أن تنميتهم. غير أنك إذا قمت بإعطاء تلك الأراضي - فلنقل مثلاً - إلى النساء الأوزبكستانيات، وسيقمن بالعمل على أكمل وجه. فهن ينتعشن على ما يعد بالنسبة للقادمين من الخارج أراضي بعيدة وممنوعة. وتنزايد أعداد هؤلاء الأشخاص غير الأوروبيين بخطوات مخيفة. وليس لدى السكان الأكثر سرعة فى الزيادة على الجانب الآخر من الأورال مكان حقيقى

ليذهبوا إليه. فهم لا يستطيعون التوجه إلى الشرق بسبب المحيط الهادى واليابان ولا إلى الجنوب بسبب وجود الامبراطوريتين الصينيه والهنديه وكذا الأراضى الإسلاميه. ونحو الغرب نجد بالفعل سكانا كثيرين من الروس الأوربيين. ومشكلتنا الأساسية فى المستقبل من المحتمل أن تكون هى ادارة هذه القوى السكانية العاتية.

ومنذ عشرين عاما مضت، قلب لبوتر أبراسيموف الذى كان حينئذ سفير الاتحاد السوفيتى لفرنسا وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى:

« انتم اصبحت الغول - المحارب العظيم ذا السيف الضخم والحلة الحديدية الذى يحمى العالم الأوروبى من حشود المغول. »

فى المناطق الآسيوية الواسعة - وهى جزء مهما كان يسمى بالامبراطورية الروسية وبعد ١٩١٧ أصبحت تسمى الامبراطورية السوفيتية - يعيش أنواع مختلفة من الناس الذين لا ينتمون بالطبع إلى أوروبا الغربية. ومن بين هؤلاء، فى جنوب تلك الأراضى الهائلة، يتواجد ستة ملايين مسلم محررون الآن من الشيوعية ويعودون بسرعة إلى دينهم وثقافتهم القديمة.

وقد حاربت الولايات المتحدة ما قد يكون قد ظهر على أنه صراع بين الشمال والجنوب وخسرت هناك. إلا أنه لم يكن صراعا. فشمال فيتنام، وهو مقاطعة فى مستعمرة فرنسية سابقة، قد سقط فريسة لديكتاتور شيوعى متطرف يسانده السوفييت وتقريبا الشيوعيون الصينيون وكنتيجة لذلك، كانت حكومة حرب باردة. الحرب العالمية الثالثة وكانت عقلية وأيدولوجية يجب عمل توازن ضدها. فكان كهنوتها هو الشيوعية والقوة لا الله والمسيح . وكانت

تلك حرب ذات حدود جغرافية واضحة، تحارب بتكتيكات مرعبة وتكتيكات رجال حرب العصابات فى الغابات التى أجبرنا على أن نتعلمها تقريبا بنجاح، وأيضا حرب بأسلحة كانت مألوفة بالنسبة للغرب حتى ولو أننا لم نعرف أبدا كيف نهزمهم. إلا أن حرب فيتنام كانت لها قيمة واحدة بالنسبة للولايات المتحدة. وقد جعلت الشعب الأمريكى يتعود على الحاجة إلى الذهاب ليحارب ضد ما يبدو وكأنه قوة أقل منهم، أو حتى يخاطروا بالهزيمة على أيدي هؤلاء. وبينما وجد الأمريكيون الحرب إلى حد ما أقل إرضاء من الناحية النفسية، فإن مكانتهم ظلت إلى حد كبير سليمة. ومن ثم أصبح أسهل بكثير بالنسبة لهم أن ينقذوا مناقشات أخرى - تعتبر حتى أكثر خطورة - مؤشراً جداً فى الخليج الفارسى ضد العراق.

وقد علمت الحرب فى افغانستان السوفييت بعض من نفس الاغراض النفسية التى علمتها فيتنام للأمريكان، فقد كانت تلك هى أول حرب يخسرها السوفييت. ولكن كان لها معنى أكبر، كانت بداية عملية التخلص من المستعمرات الخاصة بالامبراطورية السوفيتية التى أدت فى النهاية إلى حل الكثير من نظام أوروبا الشرقية المبني منذ الحرب العالمية الثانية. ومن هذه الناحية، كانت نهاية امبراطورية أوروبا الشرقية التابعة للسوفييت - وهى بالفعل الاتحاد السوفيتى نفسه - هى النفس الأخير فى الحرب العالمية الثالثة ونهاية للقدرة السوفيتية على أسلوب المواجهة بين الشرق والغرب بإسلوب الحرب الباردة القديم.

وفى افغانستان. أدى عاملان خطيران إلى الإعلان السوفيتى العام

بالانسحاب - الأول هو ارتفاع مد الرأي العام فى الوطن، وهذا الرأي تمكن بين أن يحترق فى قلب أمه لم يعرف عنها أبدا السماح للرأى العام أن يؤثر على أى قرار استراتيجى. فالعديد من الشباب وهم زهرة الرجال السوفيت كانوا يعودون إلى الوطن فى صناديق الموتى. والعامل الثانى كان اقتصاديا بحتا. فكانت الحرب تتحول إلى مصرف كبير جداً للاقتصاد السوفيتى الذى كان يتدهور بالفعل. وكان جورباتشوف مستعداً أن يحل وثاق حلفائه المقربين وأن يتخلى عن النطاق الذى يحيط به، ألا وهو دول أوروبا الشرقية التى قام اسلافه بدعمها بتكاليف مالية وبشرية لاتعد منذ الحرب العالمية الثانية. لذا كيف يمكن له أن يبرر لنفسه أو لمسانديه تكلفه حرب للسيطرة على دولة إسلامية بعيدة غير موجودة فى المعسكر الشيوعى التقليدى هذا على الرغم من أن جورباتشوف لا يزال يساند نظام كابول ماديا. وقد انتهى ذلك فى يناير ١٩٩٢.

وفى بداية عقد التسعينيات، صارت الأموال هى المحك للسياسة السوفيتية فى الداخل والخارج.. وأصبحت فاعلية التكلفة هى اختبار عباد الشمس بالنسبة للسوفيت، أى معيار جديد. وعلينا أن نفهم كيف يمكن أن يجهز الكى جى بى للعمل فى ميادين الحرب العالمية الرابعة، مثلما يجب أن ندرك نقاط القوى والضعف فى حلفائنا الأمريكين.

ولا يوجد دليل واضح - على سبيل المثال - على أن جهاز المخابرات أو الجهاز العسكرى السوفيتى قد تم حله عاما وفجأة. لكن أعيد بناؤه.. نعم ويبدو أن كلا من الجمهوريات المنفصلة قد اعطيت السيطرة على جهازها الأمنى الذى أرجأ الكى جى بى التفكير فيه والذى يظل تحت سيطرتها التامة. ولكنه قد

يظهر أيضا أن فى إدارات الكى جى بى والجى آريو المركزية عملاً كبيراً كالعادة يختص بالمخابرات والعمليات الاجنبية. وعلينا أن نطل حذرين تماما من ظهور عملاء المخابرات فى كل من الاثنى عشرة مفوضية أو أكثر التى سيتواجد فى العواصم الغربية والتى تنتج عن الأمم المكونة حديثاً مما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى وفى الوقت نفسه، فى شكل ما أو آخر يظل الكى جى بى والجى آر يو فى كل مكان، ولا يمكن المبالغة بخصوص ما يمكن أن يتوصلوا إليه وبخصوص تأثيرهم فى الداخل والخارج. وعلى الرغم من أن الستائر قد عادت على الواجهة الزجاجية للبعثة السوفيتية للأمم المتحدة فى شرق شارع ٦٨ بنيويورك، إلا أن فى بعض المناطق الحيوية فى العالم يظل العملاء فى أماكنهم، وهؤلاء العملاء اختبأوا منذ سنوات مضت فى كل دولة من الدول المضيفة ولا يزالون ينتظرون اللحظة التى قد يتم استدعاؤهم فيها. ويظل هؤلاء العملاء فى أماكن ووظائف هامة فى العالم النامى الجنوبى وفى الدول الديمقراطية الغربية الشمالية.

وكانت العمليات التى يقوم بها الكى جى بى وجهاز المخابرات الحربى الجى آر يو تسير بسرعة أقل تحت القيادة الجديدة وخاصة فى الولايات المتحدة وذلك بعد عامين من طرد الزعماء الشيوعيين فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الغربية وحتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتى نفسه. وبالطبع هناك دليل على أنه تحت رعاية الكى جى بى، استمر الستاسى المهاب، وهو الشرطة السرية فى ألمانيا الشرقية، فى العمل فى شكل خفى جدا فيما كان يسمى بألمانيا الشرقية قبل الاتحاد. وقام مئات من الأعضاء من أبناء البلد فى جهاز الأمن الذين كانوا يأخذون أوامرهم من شكل مباشر أو غير مباشر من

الكى جى بى قاموا باخفاء انفسهم فى المخابى فى كل دول أوربا الشرقية
مرسلين تقارير فقط إلى عملاء السيطرة فى الكى جى بى. وقام الآخرون
بالهرب إلى بلادهم الأصلية يستمرون فى نشاطاتهم فى وظائف الكرمليين.
ويتركز اهتمام الكى جى بى - وهو صنعة مشتركة مع نظائهم فى المخابرات
فى كل مكان - على مساعدة بعض الأشخاص التابعين لهم والموالين لهم على
البقاء فى السلطة فى كل من أجهزة الأمن وفى الحكومات نفسها. ونسمى مثل
هؤلاء الأشخاص متعاونين أو متعاطفين أو مرافقى سفر، لكن هناك بعض
العملاء الذين يعملون طوال الوقت وهؤلاء يتلقون أجرا طيبا وتدريباً عالياً
وماهرين جداً. وفى عدة جوانب، يستمر هؤلاء الافراد فى أن يكون الوسيلة
التي ينشر بها السوفييت قوتهم فى الخارج - فى الدول الديمقراطية الغربية التي
كانت عدوتهم خلال الحرب الباردة.

وهذا النوع من الألعاب كان يلعب طالما هناك تجسس. وأنظر - على الرغم
من أى شئ - إلى ما حدث للنازيين بعد الحرب العالمية الثانية. فقد بقى المئات
منهم متنكرين وأصبحوا أعضاء فى الستاسى. وكانت تلك الطريقة المثلى
للاستمرار فى نشر القوة النازية. لكن للأسف، ومن أجل خاطرهم، فتحت الحرب
العالمية الثانية الطريق بسرعة للثالثة. فبدلاً من عودة رايخ هتلر، وجدوا
أنفسهم محصورين فى العمل من أجل كل عدو كان يمقتونه بشدة. وقد استغل
النظام الشيوعى بشكل فعال العديد من النازيين الذين قاموا بتغيير الشارة
الموجودة على ذراعهم من اللون الأسود إلى الأحمر، وقاموا بالتأقلم بسهولة
وسرعة مع الحقائق الجديدة. واستفاد الغرب من خبراتهم بقدر أقل. وبينما نحن
ننتقل من الحرب العالمية الثالثة إلى الرابعة؟ سيكون هناك حتماً نقلات

مشابهة فى الولاء. سعى ذلك انتهازية أو بقاء، لكننا ينبغي أن نتأكد أن منظماتنا الاستخبارية الغربية أو الشمالية هى المستفيدة الرئيسية.

ولابد أن يتم الاقتراب من جهاز المخابرات السوفيتى بحذر شديد، كما قد يقترب المرء من دب مجروح ولكنه لا يزال قويا. وعلى المخابرات الغربية أن تستمر فى مراقبة أنشطة المخابرات السوفيتية. ولا تزال معرفة مكان عمل السوفييت وهوية اصدقائهم والإجراءات التى يتخذونها على درجة من الأهمية القصوى.

وانهيار الاقتصادى السوفيتى اليوم يعتبر فى ذاته حكاية تحذيرية من عدم جدوى ضخ مبالغ كبيرة من الأموال السائلة فى اقتصاد غير فعال تماما ولا تسيطر عليه قوى السوق بل بيروقراطيو الحكومات ضيقو أفق فى التفكير وغير أكفاء.

وكان القرار بعدم التشويش على إرسال الاذاعات الغربية خطوة هامة قامت بها الحكومة السوفيتية على طريق فتح المجتمع الروسى على المفاهيم السياسية والاقتصادية الغربية - وهو حادث مصادفة سمح للمواطنين السوفيت وقوادهم بأن يعرفوا كيف كان انقلاب أغسطس ١٩٩١ الذى كاد أن ينهى البيروسترويكاهيا. وأكثر من خمسة عشر عاما مضت، قمت بحث رئيس فرنسا على بدء بث إرسال راديو فرنسا الدولى إلى الجمهوريات الآسيوية فى الاتحاد السوفيتى على أمل أن يرى ذلك على أنه أقل تحديدا إلى حد ما من اذاعة راديو الحرية الذى تدعمه وكالة المخابرات المركزية، ومن ثم تكون لدينا فرصة أكبر فى الوصول إلى مستمعينا المقصودين. وكنا قد قمنا بمراقبة التطورات فى هذه

المناطق لعدة سنوات، وذلك بفترة طويلة قبل غزو أفغانستان ووعينا إلى القوى الثورية التى تبنى فى هذه المناطق التى تبتعد كثيرا عن الكرملين. والآن يُعد الإرسال الإذاعى الفرنسى إلى جوار الطائرة الأمريكية والبريطانية والألمانية الذين يتم استقبالهم بصوت عال ووضوح - نافذة مفتوحة على الغرب بالنسبة لأقصى القرى السوفيتية الآسيوية بعدا. وهذه الخطوة أولى فقط فى العملية الطويلة و المضجرة لإعادة تعريف حضاره كاملة بطريقة حياه جديدة وغريبة.

وكان دائما من الصعب العمل فى داخل الامبراطورية السوفيتية نفسها. بالنسبة للاستخبارات أو الأغراض الأخرى - وكذا أكثر صعوبة فى المناطق الآسيوية. وفى الوقت الذى كان نقيم فيه سفارة وطاقم كبيرين فى موسكو وطاقم قنصلية أصغر فى ليننجراد، كان من الصعب أن نساfer مع الشعب السوفيتى أو نبنى أو نحتفظ بصداقات أو أى اتصالات معهم، ناهيك عن حكاهم. فالموقف كان غير متناسق تماما. ففى الغرب، تمكن السوفييت من تسليل عشرات من العملاء الى مناطق فى فرنسا حيث لم يحتفظوا بأى تمثيل دبلوماسى، كما تمكنوا من العمل فى أجزاء من باريس حيث كان من الصعب - إن لم يكن مستحيلا - السيطرة عليهم.

وكانت المراكز الرئيسية لليونسكو حالة مشهورة فالیونسكو وظيفة استماع غير عادية. فهناك يحتك الدبلوماسيون والجواسيس مع المتخصصين فى العديد من الأنظمة الثقافيه والتعليمية والاجتماعية فى كل قارة. فهى نافذة على كل دولة من دول الأعضاء فى الأمم المتحدة. وكان لدى كل سكرتارية كبرى نصيبها من العملاء السوفيت عبر السنين - العملاء الذين يسافرون

بجوازات سفر دبلوماسية خاصة بالأمم المتحدة ويعملون بحصانة في فرنسا وأى مكان يتم تعيينهم فيه. ولمدة عشر سنوات، كان مدير المستخدمين بالأمم المتحدة فى جنيف روسيا - برتبة كولونيل فى الكى جى بى - وصاحب مدخل كامل لكل الملفات الشخصية لكل موظفى الأمم المتحدة. وأنت لاحتاج إلى العديد من العملاء مثله.

وفى اليونسكو بباريس، كان أحد الأعضاء الكبار فى قسم الصحافة روسيا أيضا وعميلاً لكى جى بى. وفى أثناء الثمانينيات، خدم كأحد المراقبين الكبار. للمصحفين الغربيين وأطعم التليفزيون الذين قاموا بزيارة المراكز الرئيسية لليونسكو - مراقباً كل زاوية للكاميرات ومستمعاً لكل سؤال. ولم يكن للسلطات الفرنسية سيطرة على نشاطات مثل هؤلاء الأفراد. كل ما كنا نستطيع فى النهاية أن نقوله هو «إننا لانريد هذا الشخص فى بلادنا أكثر من ذلك،» إلا أن هذه الكلمات لم تكن تنطق أبداً. لأن كل فرد من هؤلاء نقوم بتحريكه، كان يقابله تحريك أحد رجالنا. بالاضافة إلى أننا كنا نواجه آنذاك بالمهمة الفظيعة ألا وهى اكتشاف أى من السوفييت قد تولى وظائف المرء الذى طردناه.

ورجوعاً إل عصر بيتر العظيم، أثناء حكم الرومانيين، قبل وصول الشيوعيين للسلطة بفترة طويلة، كان الروس يكرسون طاقات ضخمة لفهم الغرب. ولقد حاولنا نحن الأوروبيون أن نفعل نفس الشئ مع الشرق. وقد نجحنا على عديد من المستويات فى تعميق فهمنا - فنحن، بالرغم من كل شئ، ننتمى إلى قارة واحدة، ونتقاسم العديد من الأعراق الواحدة هذا إذا لم نتقاسم الخلفيات السياسية أو الثقافية.

وعبر السنين، عندما كان ليوند برزهنف يسيطر على الساحة السياسية السوفيتية وفي أثناء ذلك كانت صحته تتدهور - كان جزءاً متزايد بين اهتمامنا وطاقتنا قد تم توجيهه لفهم مقدار مرضه. وفي يوم ما، قام برزهنف بزيارة للدنمارك وقمنا بترتيب عملية تعاون مثيرة مع المخابرات المحلية. ووجدنا أننا بمساعدتهم استطعنا أن نكون في الشقة التي تتواجد أسفل تلك التي كان يسكن فيها برزهنف مباشرة. ويعمل وصلات على المواسير التي تؤدي إلى حمامه الخاص، تمكنا من أن نجمع كل شيء يخرج من جسمه لكي يتم تحليله. واكتشفنا، ولم يدهش ذلك أحداً - أنه مدمنا للخمر - إلا أنه كان مدمنا شديدا للخمر.

بوضع ذلك في اعتبارنا، قام المكتب الفرنسي للبرتوكول عند قيامه بزيارة رسمية إلى باريس - بالتأكد من أن البارات في جناحه في قصر ترينون في فرساي حيث سيقوم وفي قصر الاليزيه حيث ستعقد اجتماعاته الرسمية مليئة تماما. وفي الزيارة التي ظهر بعد ذلك أنها آخر زيارة رسمية له لفرنسا، عُقد أول اجتماع في الساعة الرابعة تماما بعد الظهر، وعندها تأكد قصر الاليزيه من أن كل نوع من أنواع المشروبات في العالم في متناول يده. فكان هناك ثلاثون نوعاً مختلفاً من الويسكى - وكذا الاسكتش من كل نوع - الروم والكندى والايRLندي ولو حتى قال: «الساكي» كنا سألناه أي ماركه. وقد طلب برزهنف الشراب الوحيد الذي لم يكن متوافرا - القهوة! فقد أراد فنجان من القهوة واللبن. غير أن المطبخ في الاليزيه قد اتضح أنه كان مغلقاً، فالطهاة الذين أعدوا الغداء - قد ذهبوا للتمشية ولم يعودوا بعد لينبدأوا العمل في العشاء. وقمنا في النهاية بعملها ارتجاليا.

وفى أثناء زيارة برزهنف، قامت المخابرات الفرنسية بمراقبة كل حركة من حركاته - ماذا أكل، كيف كان يتصرف، كيف كانت حالته وهو يتناول الغداء وإذا كان وجهه يحمر. وكان لدينا متخصصون قاموا بالنظر إليه بدقة وكذا الكاميرات، وفى يوم الزيارة الأول بعد الظهر، كنا بالفعل نقوم بمراقبته. وكان برزهنف رجلاً بديناً للغاية، يعرج فى مشيته، وكان يقف مستقيماً بمساعدة اثنين من مساعديه. وبعد الجلسة عاد إلى يبتون وخرج من سيارته وسار بهدوء نحو المدخل. إلا أنه فى اللحظة التى أغلق فيها باب شقته، أسرع فى خطواته وكان يجرى تقريبا نحو البار. وقام بسكب كميته قاتلة من الفودكا أو بواقي لنفسه وهى فودكا بالفلفل. وقد تنقلب معدة أى شخص عدا الروسى بسبب هذا النوع.

وقمنا بمجهودات كبيرة لجمع هذا النوع من المعلومات - فهم العدو - وهذا يُعد مهارة أساسية لمعارك المخابرات. ولذلك لم يكن الأمر مفاجأة عندما أصابنا إحباط شديد حين لم تهتم القيادة السياسية لهذا النوع من المعلومات التى تمكنا من أن ندهم بها - أى عندما يذهب الرئيس جيسكار ديستان لعقد قمة فى وارسو مع الرئيس برزهنف دون حتى أن يعرف المعلومات الأساسية من وكالة مخابراته. ومثل هذه المواقف لم تكن منحطة فقط ولكنها كانت خطيرة أيضا. ولقد تقاسمنا على الأقل بعض هذه المميزات مع نظرائنا الأمريكين - فلم يمر زملاؤنا الروس بتجربة الاحباط ابدا - حيث وجدوا أن استخباراتهم كانت دائما تؤخذ بجدية مطلقة، وكان يُسعى فى كل فرصة وعلى أعلى المستويات. وعلى هذا، فإنه عندما كان يتم طلب نصيحتنا، كان يتم قهرها ووضعها فى الاعتبار بكل اهتمام.

ولا يحدث هذا كثيرا بين حلفائنا الأمريكيين الذين تقوم قيادتهم السياسية وحتى قيادة مخابراتهم فى العديد من المناسبات بالتنازل عن مسئوليتها لدى شخص ناهيك عن حلفائها. وعلى الولايات المتحدة أن تدرك أخطاء طرقهم القديمة. وإذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تثبت كفاءتها فى الوقت الذى ينتقل مركز اهتمامنا إلى القضايا الأكثر تعقيداً ودهاء فى الحرب بين الجنوب - والشمال التى بدأت بالفعل، وعلى القيادة السياسية الأمريكية أن تقوم بنفسها أيضا بالذهاب إلى مدرسة فن الدهاء كما يمارسه إعداؤنا الجدد.

ومنذ الأيام الأولى لى فى التعامل مع مؤسسة المخابرات الأمريكية، كان من الواضح للأسف أن هناك خطأ خطيراً ونظامياً فى تنظيم جمع الاستخبارات وتحليلها والتصرف طبقاً لها . وقد أثر ذلك العيب على قدرة الأمريكان على العمل ضد الإمبراطورية السوفيتية وحلفائها الشرقيين فى الحرب العالمية الثالثة.

كما أنها تمنع المخابرات الأمريكية من العمل بكفاءة فى العالم الجنوبي، وفى قلب ذلك الفشل نجد عدم قدرة القيادة العليا لحكومة الولايات المتحدة على فهم ما يقوم مجتمع المخابرات بعمل التقارير عنه - ما يعنيه كل هذا الأمر. فينبغى أن يسبق إدراك للهدف أى تصرف يتم عمله على أمل نجاح نتائجه والأخطر من ذلك هو المحاولات المتكررة لاستغلال المخابرات للأهداف السياسية للميل بجدول الأعمال الدبلوماسى أو السياسى نحو آراء خاصة وذلك نتيجة لأسباب الموالاة والمناصرة. ولا يمكن تقديم تقديرات موضوعية وحيادية تماماً عن المواقف الدولية وزعماء العالم فى مثل هذا الجو.

وفى احد الأوقات أثناء لقائى الأول مع الرئيس ريجان فى كاليفورنيا، سألتى الرئيس المنتخب « كيف يعمل هؤلاء الرجال مثل آيات الله كيف يفكرون »

فقلت لنفسى بسرعة أنه من الأفضل عدم الخوض بعمق فى تاريخ أولاد الله وكيف أن بشيعتهم صاروا شيعة والبعض الآخر سنيين.

وبدأت أقول « الشئ الوحيد الذى أحب أن أركز عليه ياسيد ريجان هو أن هؤلاء ليسوا بنوع الأشخاص الذين تريدون أن تقيموا معهم عملاً دبلوماسياً طبيعياً مفتوحاً فهم لا يرون كما نفعل نحن، فنظامهم الداخلى ومحيطهم ليسا كنظامنا ومحيطنا. هل لى أن أصف كيف أراهم بإخبارى إياك لقصة غريبة حدثت فى فرنسا فى القرن الثالث عشر؟ »

وأوما السيد ريجان. ولذا أخبرته عن حصار بزيار. فقلت له « قبل أن تبدأ المعركة قال ممثلو البابا الصلاة من أجل القوات وقدموا لهم البركات، وانتهوا بهذه العبارة: «ياجنود اقتلوهم جميعا، فإن الله سيعرف جنوده».

وتلك جملة يعلمها كل تلميذ فرنسى. ولذا قاموا بذبح كل سكان مدينة بزيار بأيديهم. وقاموا بسقوط الحوامل حتى لا يبقى أحد من المنشقين عن العقيدة. وكان هذا مثل قتل عشرين ألفا من الغنم..

وأدرك الرئيس ريجان مغزى القصة - إن الحياه الإنسانية ببساطة معنى آخر عن معناها عندنا بالنسبة للعديد من أعدائنا الجدد الذين يعتبرون متدينين متعصبين يعملون كجنود الله تماما مثلما كانت تنفذ قوات البزيار رغبة الباب. ولكنى لم أقتنع أبدا أنه هو أو أى من المديرين الستة للمخابرات المركزية الذين

تعاملت معهم خلال فترة عملى كرئيس للأمن الفرنسى قد فهموا تماما كيف تفكر الدول الإسلامية - أو كيف يفكر السوفييت. فليس من السهل الوصول الى ذلك الإدراك فى العاميين أو الثلاثة التى يتولى فيها معظم مديرى المخابرات المركزيه المنصب.

وقد تضاعفت الأخطاء العميقة فى الفهم التى ميزت قيادة مجتمع المخابرات المحترفين بشدة أكثر من وجود القيادة المدنية للولايات المتحدة.

وفى احدى زيارتى لواشنطن، قمت بزيارة رئيس لجنة المخابرات المشتركة بالكونجرس، عازما على تعريف رجال الكونجرس وبعض أعضاء لجنة الكبار على التطورات الأخيرة التى كنا نتتبعها خاصة فى الشرق الأوسط. وطلبت منه خريطة للشرق الأوسط كى استطيع أن اشرح بتوضيح أكبر بعض النقاط التى أبينها. فبجوار مكتبى تماما فى باريس يوجد رسام خرائط لايهتم بعمل شئ سوى الخرائط. وعلى هذا، فإن الأمر قد استغرق عشرين دقيقة فى واشنطن كى يقوم رئيس هذه اللجنة التى كانت مهمتها البحث فى مؤسسة المخابرات الامريكية كلها لإيجاد خريطة الشرق الأوسط - وقام مساعد وهو أحد أعضاء اللجنة ١٠٨ أخيرا بالعودة بخريطة رئيسية بحجم صفحة كتاب صغير. فكيف يمكن أن نفهم العالم إذا لم تكن تعلم شكله؟

ومن سنوات اتصالى بالنظرء المدنيين والعسكريين فى الولايات المتحدة، من الصعب أن اختار الدليل القاطع على الهوة الساحقة فى الفهم التى تفرق بين الأوروبيين والأمريكيين فى التعامل مع التحليلات العسكرية والاستراتيجية والاستخبارية خاصة من العالم الثالث.

غير أنه لا يوجد مقابلة واحدة يمكن تذكرها في باريس على مستوى حرب فيتنام في ١٩٦٨ التي كنت فيها مع الجنرال وليم وستمورلاند. فقد كنا في حجرة المعيشة في شقة بيارداملون الذي كان موظفاً مدنياً فرنسياً كبيراً جداً وصديقاً حميماً. وكان الجنرال في طريق عودته إلى سيجون ليستأنف مهام منصبه كقائد أعلى للقوات الأمريكية في فيتنام. وقمنا بعمل محادثته في ذلك المساء.

وبدا قائلاً: «حسنًا، تسير الأمور؟»

فأجاب بخفة: «آه، بشكل حسن جداً»

وابتسمت «عظيم جداً - لأنني بالنسبة لي شخصياً، لا أرى أن لدى نفس الانطباع من الخارج».

فرد قائلاً: «سأريك لماذا. وسحب من جيبه بطاقة ٣ X ٥ بوصه بها بعض الأرقام مطبوعة بالآلة الكاتبة.» «أخرجنا خمسمائة ألف فيتنامي من الحرب أما للوفاة أو للأسر والآن مارأيك في ذلك.»

فأجبت «معذرة ياسيدي الجنرال، ولكنني لم أتأثر»، فمرت سحابة على وجه الجنرال، وقلت «سأشرح لك. أنت القائد الأعلى، وقد فقدت خمسمائة ألف بندقيه. فماذا ستفعل؟»

«سأرسل رسالة طلب امداد إلى واشنطن: «أرسلوا خمسمائة ألف بندقيه.»

فقلت «أهذا كل ما في الأمر.» ولكنني لم أكن متأكداً من أنه قد فهم ما أعنى. فالجنرال وستمورلاند - مثل زملائه - لا يبذل أي مجهود أبداً لفهم عقليه

عدوه. فبالنسبة للفيتناميين الشماليين، لا يعنى خمسمائة ألف رجل سوى خمسمائة ألف سلاح بديل. فالكثير من السلاح يتم مصادرته، وبعد ذلك المزيد والمزيد مرة أخرى. ومع هذا أنا متأكد أن الجنرال كان يفكر، «هذا المتحذلق يجلس على حماره الصغير فى باريس وأنا أحارب فى تلك الحرب.»

وسألنى أخيرا : «حسنا، ماذا كنت ستفعل؟»

وبدأت أقول: «ينبغى عليك أن تلعب بقوتك وليس بقوه عدوك وأحد مجالات قوتك - بسبب قواتك الجوية والبحرية - هى مكتب الأحوال الجوية. أجل، الأرصاد الجوية.»

وسألنى مستفهماً: «وماذا عن مكتب الأحوال الجوية؟»

«أنا شخصيا سأنتظر اليوم الذى تكون فيه الرياح الموسمية على أشدها فى هذا العام. وانتم تملكون الوسائل التكنولوجية لمعرفة ذلك. وفى هذا اليوم أقوم بقصف كل الحواجز فى كل نهر فى فيتنام الشمالية.»

فقال: «لكن هذا قد يقتل اثنين أو ثلاثة ملايين شخص.»

فسألت: «ما هو هدف الحرب يا جنرال؟ - فلم يكن انقاذ المدنيين هو ما تفكرون فيه فى هيروشيما ونجازاكي، لكنكم نسيتم هذا الدرس؟»

فأدار وستمورلاند ظهره لى ومشى متفاخرا. وقد فشل أحد قواد أمريكا العسكريين الكبار أن يتعلم اثنين من أهم الدروس فى الحرب العالمية الثالثة، وذلك أخذ الدروس القليلة الذى يمكن تطبيقها مباشرة على الحرب الرابعة. لقد فشل أولا وقبل أى شئ لأن يدخل فى عقول أعدائه. ولم يفهم ما الشئ الذى

لا يمكن الاستغناء عنه والذي يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لهؤلاء الذين يحارب معهم. فالقوة البشرية يمكن الاستغناء عنها كلها طالما يمكن الإحلال بشئ محلها. لكن الأرض والبنية الأساسية التي تحمى تلك الأرض كانت الشئ الذي لا يمكن الاستغناء عنه ولا يمكن الاحتلال بشئ محله.

ويتشابه وستمورلاند فى أشياء عديدة موجودة فى الكثير من جيله من القواد العسكريين فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، فهو لا يزال يحارب الحرب العالمية الثالثة - التى يأتى فيها العدو بتصرفات من تفكيره هو - بالقيم التى هى جزء من شخصيتهم، والأمر الذى يعد على نفس مستوى الخطورة هو أنهم يحاربون بالعديد من التكتيكات فى الدفاع والاستخبارات التى لاحظت أنهم كانوا يستخدمونها نفسها فى الحرب العالمية الثانية. وكان من الواضح أن فيتنام كان من الممكن أن تكون المكان المثالى لتجريب تكتيكات جديده ومفاهيم جديدة كان من الممكن أن تكون قيمة بالنسبة لمواجهة عدو لم يفهمه أحد منا بحق. وعلى هذا، فقد كانت العقلية العسكرية والاستخبارية الأندر وجودا فقط هى التى حاولت أن تعرف العدو بشكل أكثر عمقا مما قد تعرفه عنه.

وعلى هذا، كان هناك بعض الأمريكان الفرادى عبر تلك السنين الذين حاولوا أن يفهموا الحاجة للدخول فى عقول العدو. وفى أواخر ١٩٥٣، وبعد فترة قصيرة من تولى الأدميرال أثر رادفورد منصب رئيس الرئيس الأعلى للقواد العسكريين، تحدثنا فى واشنطن عن اندونيسيا حيث كنا نحن الفرنسيون نقوم بعملية ارتكاب العديد من نفس الأخطاء التى كان الأمريكيون

سيرتكبونها فيما بعد. فسألنى ماذا ينبغي عليه أن يعرف من معلومات إذا حدث وتورطت قواته العسكرية فى فيتنام.

فأجبت: «لكل أمة مشكلتها، من الناحية التاريخية، نجد أن أمريكا دائما قلقه بخصوص قوتها البشرية. ولهذا قمتم باختراع الحصاده الدراسة الميكانيكية لحصد محصولكم، لكن نحن الفرنسيين نستطيع أن نحسر مائتى رجل، فالأمر ليس مهما جدا، لكنكم أيها الأمريكيون لا تستطيعون. فإذا قتل جندى أمريكى واحد، فسيكون ذلك مأساة وطنية. ولقد تسلمت شيئا واحداً هو الا تذهب إلى القارة الآسيوية بجيش، فالعدو يستطيع أن يتحمل أى عدد من القتلى، لكننا لانستطيع فإبق دائما فى عرض البحر وفى الجو حيث نكون أقوياء. وعندما يقومون ببناء كوبرى، دمره. وعند بناء آخر، دمره. وإذا بنوا كوبرى خامس دمره أيضا. وهذا درس جوهرى حارب دائما حريك أنت، وليس حرب العدو.»

والواقع أن كلتا القوتين العظميين لم تنظم بحق لتحارب الحرب العالمية الرابعة كما نعلمها نحن - غير أن الأمريكيين، فى رأى، هم أقل القوى المستعدة لذلك. فقليل من رؤساء المخابرات الامريكية الذين اتصلت بهم اتصالا وثيقا خلال سنوات تولى منصبى أدرك بشكل كلى بعض هذه الحكم الأساسية للحرب أو التجسس أو الجغرافية السياسية فى عصر الصراع بين الجنوب والشمال.

ربما كان الشخص الذى اقترب من ذلك هو جورج بوش الذى كانت مهمته فى الاثنى عشر شهرا التى تولى فيها منصب مدير المخابرات المركزية فى سنه

١٩٧٦، ١٩٧٧ هي إعادة تنظيم مجتمع المخابرات الأمريكية وإعادة بعض الاحترام الذي فقدته نتيجة لسلسلة من الفشل الذريع، وكذلك احياء بعض فعالية المخابرات كلاعب فيما كان حينئذ بالحرب الباردة.

فأى نجاح بالطبع سيكون له معان ضخمة طويلة الأجل بالنسبة لقدرة الأمريكيين على العمل فى بيئة المخابرات.

وقد قدم السفير الفرنسى للولايات المتحدة السيد بوش لى مذكرة مكتوبة بخط اليد. «هو رجل مهذب حقاً، ولد فى عائلة عريقة فى نيوانجلند ويحترم منذ ميلاده انواع القيم الاخلاقية الأساسية التى نشترك بالايمان بها.

وبعد وقت قصير عن وصول المذكرة، ظهر بوش فى باريس. وكان ذلك فى مارس ١٩٧٦. ومن اللحظة الأولى حدث توافق بيننا. وقد كان اجتماعنا الأول فى مكتبى فى المركز الرئيسى، وكان هناك غداء رائع أعد رئيس طهارة البحرية الفرنسية. ولازلت اذكر «السوفليه». واصطحب بوش معه مساعده الرئيس الجنرال فيرنون والترز الذى كان ولايزال واحداً من أغرب الدبلوماسيين ومحلى الاستخبارات فى الغرب. وللأسف كانت أيديهم معقودة بسبب العمليات الفاشلة المنتظمة لنظام المخابرات الأمريكية وكانت مناقشتنا فى الاجتماع الأول حول النظرة العامة للموقف العالمى وخاصة فى اعقاب الهزيمة الأمريكية فى فيتنام وتولى الشيوعيون السلطة، الأمر الذى حدث منذ عام مضى. وكنت مهتما على وجه الخصوص بتأسيس نظام مشترك للتعاون مع الأمريكان يتشابه لترتيبات العمل التى نقوم بها مع حلفائنا الأوروبيين. غير أن بوش كان حذراً، فلقد تولى مهامه الجديدة فى وقت قريب، وكان مدركاً لحقائق السلطة فى واشنطن.

فقلت له: «لا يستطيع أحد أن يكون قويا بمفرده»، محاولاً اقناع رجل أكن له بالفعل احتراماً ضخماً. «إذا استمرينا فى العمل فرادى - مفككين - لن نكون ابداً أقوياء بالدرجة الكافية. لكننا معاً، سيكون الأمر مختلفاً. ونحن أقوياء جداً.»

ومع هذا، احتفظ بوش بالحكم. وبعد يومين من لقائنا، اتجه بوش الى بقيه أول رحلة أوروبية له - إلى ميونخ وبروكسل ولندن. وعند عودته إلى واشنطن، تلقيت بسرعة رسالة جميلة مكتوبة بخط اليد.

صديقى العزيز:

ربما هذا شئ رسمى جداً، لكن هذا ما أشعر به. أشكر على كرمك البالغ - لقد عدت إلى الوطن شاعراً بأهمية علاقتنا وهدفنا المشترك. وكان اللنشون رائعاً، لكن المحادثة معروفة آراؤك المؤثرة عن العالم المضطرب فاقت حتى السوفليه اللذيذ. وأضف إلى هذا شعور باربرا بالترحيب من زوجتك الساحرة. أرجو أن تأتى لزيارتنا فى وقت قريب حتى نستطيع أن نستمر ما آمل أن يكون علاقة رائعة. وأرسل لك والى قومك جزيل شكرى.

المخلص

جورج. بى

للأسف كانت هناك فجوة عميقة بين الشعور الصادق بالهدف المشترك وتنفيذ العمليات المشتركة. وبالطبع لم يرد بوش على اقتراحاتى حتى يوليو عندما تلقيت خطاباً ثانياً مكتوباً بخط اليد:

لقد وجدت الاقتراح الذى نقلته إلى مثيرا للغاية، وأقدر جدا الروح التى أثارت لكى تعرضه. وكما نعمل فإن الاقتراح يثير عذراً من المشاكل السياسية التى يجب أن توضع فى الاعتبار. وعلى هذا أرجو أن تتأكد أن أراءك حول التعاون المستقبلى بيننا يتم دارستها بدقه شديدة.

وكان من الواضح أن جورج بوش قد اكتشف انه لا يستطيع أن يتناول كل مشكلة فى الحال. أولاً، كان عليه أن يحل المشكلات الموجودة فى وكالة المخابرات المركزيه قبل أن يستطيع حتى أن يفكر فى فتح مناقشات حول الأعمال المنسقة مع حلفاء أمريكا. ومع توليه السلطة لمدة عام بالكاد، تمكن فقط من أن يأخذ الخطوات الأولى نحو حل المشكلات التى تبتلى قدرات أمريكا فى الاستخبارات.

ويرجع العديد من المشكلات إلى الطريقة التى يتم بها تنظيم المخابرات الأمريكية والاشراف عليها. المشكلة السرية تجد اهتمامات قصوى. فتعيش عمليات المخابرات وتموت بالسرية. ولم يكن الاهتمام العام مؤدياً ابداً إلى عمل تصرفات تتطلب المفاجأة والدهاء أو الاختراعات التأميرية. علاوة على ذلك، عندما تكون هناك أكثر من دولة مشتركة، فإنه غالبا من الضرورى أن يتم ضمان أكثر من المستويات التقليدية للسرية لمنع النتائج الدولية والمحلية المحرجة التى تظهر بسبب الكشف عن الإجراءات. وتبدأ المشكلة مع وكالة المخابرات المركزية مع عملية تخطيط العملية نفسها.

فعدد اللجان الداخلية والخارجية التى تشترك فى عملية صنع القرار بالنسبة لكل عملية مريبك جدا. فيشارك على الأقل مائة شخص فى مثل هذه اللجان

المخصصة لكل مشروع، مما يعنى أن الصحافة والجمهور من المحتمل أن يدركوا تصرفاً ما حتى قبل أن ينتهى التخطيط. وتعتبر عملية المراقبة أيضاً شيئاً صعباً مستمراً ومفتوحاً. وحيث أن لجنة المراقبة الاستخبارية الخاصة بالكونجرس تتضمن أعضاء ورجال كل من الحزبين الديمقراطى والجمهورى، فإننا من المحتمل أن نجد جانبا أو الآخر غير موافق على أى عملية مقترحة وأن يستخدم الاعلام لنسفها قبل أن تقلع من على الأرض. وهذا يفترض أن مدير وكالة المخابرات الأمريكية لم يقتلها بنفسه من البداية.

وكان للادميرال ستا سفيلد تونر مدير المخابرات المركزية تحت رئاسة الرئيس جيمى كارتر أكثر التأثيرات تدميراً على الوكالة فى هذا الموضوع. فهو لم يتوقف أبداً من إذهالى. وفى قمة الحرب الباردة، ومع قيام السوفييت بغزو افغانستان واستهداف البابا لاغتياله ودعم العديد من العمليات الارهابية الأكثر خطورة، قام أدميرال ترنر بعمل زيارته الأولى لى فى باريس:

وبداً المحادثة بقوله «نادنى باسم ستان». فانكمشت. واستطرد «فى عالم اليوم، هل تعتقد أن الشيوعية لاتزال شيئاً يخشى منه؟» وكان من الممكن أن يسأل أيضاً عن الخطورة الحقيقية لجماعة ابوعباس الإرهابية وهل آيات الله فى إيران متعصبون ذوى أهداف.

ولذا قهقهت. ولكنه كان جادا، جاداً جداً - وأما من ناحيتى، فقد بدأت محادثتنا وانتهت هناك. وفكرت «ياإلهى إن هذا الرجل هو الذى يعمل فى مجلس الأمن القومى والذى يساعد على تكوين الرأى فى الشئون العالمية لرئيس الولايات المتحدة، وعلى هذا فإنه يسأل رئيس وكالة مخابرات من الحلفاء

عما اذا كانت الشيوعية تحت حكم برزهنوف أو شرنينكو أو أندروبوف تشكل تهديداً للغرب؟ وإذا بدأ رئيس وكالة المخابرات المركزية بالسؤال عن قوة، وتماسك عدو بلاده الرئيسى فى الخمسة والثلاثين سنة الماضية فى مقابل تراجع جدول الأعمال العام فى أمريكا فى السبعينيات الخاص بعدم الثقة العام فى مجتمع الاستخبارات، فيكون هنا أمل بسيط فى تماسك الوكالة وعملياتها وتحليلاتها. وعندما سئلت عن الادميرال ستاسفيلد ترنر رئيس وكالة المخابرات المركزية الجديد، اجبت قائلاً «حسناً، اعتقد أنه بحار جيد.»

وليس من المدهش أن ادارة كارتر لم تنجح إلا فى تدمير قدرة أمريكا الاستخباريه البشريه. فمن ناحية، كان هذا رد فعل لتورط العديد من مصادر وكالة المخابرات المركزية فى عملية ووترجيت - هذه المحاولة التعسة اثناء ادارة نيسكون لاصلاح النظام السياسى الأمريكى عن طريق الحيل. وبعد الكشف عن ووترجيت ووصول جيمى كارتر إلى الحكم، إزداد عمق وقدرة أزمة المخابرات الأمريكية. ومما لاشك فيه أن قطاعات عريضة من الجمهور الأمريكى بدأ يسأل عما إذا كانت وكالات المخابرات الأمريكية من الممكن أن تعمل فى الخارج وألا تتدخل فى الشؤون السياسية الداخلية.

ولقد اعتقدت لفترة طويلة، فى الواقع. أن استغلال مصادر المخابرات الأجنبية لأهداف سياسية داخلية يمكن فقط أن يلغى الثقة فى النظام الأمنى القومى ويدمره تماماً. ولقد خدمت الأحداث فى الولايات المتحدة من وسط إلى أواخر السبعينيات فى تأكيد اعتقادى.

وتتضمن المخابرات فرعين أساسيين - «الهيونت» أو المخابرات البشرية «إينت»

وسيجيننت» أو المخابرات الإلكترونية والاشارية. وكل من هذه المخابرات هام للغاية. فبدون الأخير، تصبح اكفاء وصماً وبدون الأول نصير بكمأ. وقد قامت إدارة كارتر بتشتيت جهاز المخابرات الأمريكى ولكنها تركت التكنولوجيا سليمة. وفى هذا المجال - تجسس الأقمار الصناعية والمراقبة الالكترونية من خلال وكالة الأمن القومى - كان لدى الأمريكىين قدرة لاتقارن. وعلى هذا فإننى بانتزاع المصادر البشرية صارت الولايات المتحدة غير قادرة على التفسير الصحيح لما تلتقطه المراقبه وفى ذات الوقت القدرة على العمل على اساسه. وقد شعر كارتر دائماً - وهو الحاكم الفنى البارع- أنه مرتع أكثر من الأجهزة أكثر من البشر.

وقد يكون هذا التركيز على جمع المعلومات الالكترونى ذا قيمة فى الحقائق العسكرية والاستخبارية فى الحرب العالمية الثالثه إلا وهى الصراع بين الشرق والغرب. غير أنه فى الحرب بين الجنوب والشمال، تلعب المخابرات البشرية دوراً أكثر أهمية. فأعداؤنا الجدد أمم متأخره، واتصالاتهم غالباً بدائية. وعمليات التفكير معقدة وتتضمن قوى محركه شخصية مهمه للفهم والاختراق. ويتم نقل القرارات ونداءات العمل فى غاية الكتمان. فلا دور هناك بالنسبة للمخابرات الالكترونية حتى يقع القتل - حتى تبدأ القوات فى التحرك أو بالفعل فى طريقها للهدف، وحتى يتم إطلاق الإزهاى بلا عودة، وحتى يكون الرسول قد أرسل متفجراته البلستيكية فى الهدف غير المشكوك فيه. فالمخابرات الالكترونية يمكن لها فقط أن تلاحظ جرس تنبيه - وغالباً فى وقت متأخر جداً. وقد فشل كارتر فى أن يدرك أن المخابرات الدولية ليست هى فقط الوسائل

التكنولوجية لجمع المعلومات، كما فشل ايضا فى أن يفهم أننى فى نهاية الطرف الآخر - على عكس الرأى الشائع - لاتعتبر المخابرات مجرد عملية الكذب طوال الوقت وعملية احتيال وحيل قذرة. فهى ببساطة مسألة الصلة بين الناس - سواء حصلت على ثقتهم أم لا، على الرغم من هذه العلاقات تسهل بالثقة أكثر من الشك وتكافؤ الأضداد.

وينبع أملى بالنسبة لتنوير الأمريكيين فى المستقبل من مصدرين: أولاً، تأكدى من أن الارهاب الدولى سيجد فى النهاية طريقه إلى شواطئهم وهذا شئ لا اتمناه إلى أكثر أعدائى خطراً، وناهيك عن صديقى. إلا أنه إذا كان للتهديد الإرهابى أثر ايقاظ الشعب الأمريكى وخاصة قيادتهم، عندئذ فإنه من المحتمل أن يكون لهذا قيمة ما. ولقد عاش الامريكيون حتى الآن وجوداً محمياً وساحراً إلى حدما. وكل الحوادث الإرهابية التى تورط فيها الامريكيون أو الممتلكات الأمريكية كلها حدثت بعيداً عن أراضى الولايات المتحدة. والتفسير الوحيد هو الحذر الغرب لمكتب التحقيقات الفيدرالى، فضلا عن الخوف من ضرباته الاسطورية لقلب الإرهابيين فى كل مكان. وتفسير آخر هو الصعوبة المادية للعمل والولايات المتحدة، حيث انها بعيدة جداً عن قواعد بلاد الارهابيين فى الشرق الأوسط وكذا السهولة النسبية للعمل فى أوربا حيث يمكن تحقيق أهداف على نفس الدرجة من العنف وجذب الانتباه بتكلفة ومخاطرة أقل.

والعديد من تلك الظروف يمكن أن تتغير على الرغم من هذا. فمع مرور عقدين الآن على الإرهاب الدولى، فإن قواده أصبح مهيين وفخورين بالعمل فى أى نوع من أنواع البيئات.، وبدأ مكتب التحقيقات الفيدرالى الا يبدو

أكثر تهديداً من الذى اس تى بفرنسا أو الإلم آى فى بريطانيا العظمى. وقد تبدو الولايات المتحدة لاحقاً على أنها علامة سهلة ومثيرة. ولن يتكلف الأمر أكثر من عملية إرهابية ناجحة هناك لاقناع الإرهاب الدولى أن الولايات المتحدة هدف واعد جديد وغير محكم تماماً أمام عنفهم.

المصدر الثانى لتفاؤلى فى أن الامريكيين قد يصبحوا حلفاء مخبرات حقيقيين هو التوسع والتنويل المستمر لتجارة المخدرات. فالمخدرات - التى تعتبر جزءاً كبيراً من انتاجها موجوداً فى العالم الثالث الذى يجد اسواقه فى الشمال - تعد مجرد شكل آخر من أشكال الإرهاب، وسلاحاً آخر فى الحرب العالمية الرابعة. وقد تكون تجارة المخدرات بالطبع أكثر تدميراً وأدى فى النهاية إلى بقاء مجتمعا الغربى من أى نشاطات إرهابية. وفى الوقت الذى قد يقوم الإرهابيون فيه بتشويه المئات وقتلهم فى حادثة واحدة، يمكن للمخدرات أن تخرق روح الملايين وتجعل من فرد شخصاً آخر مجرداً من مؤهلاته أو مؤهلاتها وكذا القدرة على العمل.

ولقد استهدفت جماعات المخدرات الولايات المتحدة منذ فترة طويلة على أنها أرض المعركة الرئيسية. وفى نفس الوقت الذى تُعد فيه أوروبا من نواحي عديدة الأرض المربية الغربية الممتازة للإرهابيين، فإن فى أمريكا البيئة الممتازة لنمو تجارة المخدرات والعمل فيها. فلدى الولايات المتحدة الثروة لتمويل انتاج المخدرات وتوزيعها، وكذا لديها طبقة سفلى مضطربة بشدة وعنيفة وليس لديها شىء لتخسر، ودائماً تحتاج إلى مهرب من التعاسة اليومية. ومنذ أمد، أدرك زعماء جماعات المخدرات أن طريقهم الى الاغنياء هو عملية بسيطة وهى الوقف على ركن كل شارع أمريكى والهروب الفورى.

وأدرك الأمريكيون أن المخدرات يمكن أن تصل على شواطئهم من كل مكان تقريباً - كما أنها تشكل تحدياً - للمخابرات - واقعياً، وهو بالفعل تحدٍ أكثر واقعية - على أساس يومي - من الإرهاب الدولي. والتعاون الحقيقي المتعدد فى المخابرات - بمعنى جمع المعلومات وتحليلها وفوق كل شئ التصرف طبقاً لها - هو الطريقة الوحيدة القابلة للتطبيق لاستهداف جماعات المخدرات الدولية الكبرى.

وقيادة تلك الجماعات مهياة تماماً مثل أكثر الإرهابيين صلابة فى الممارك وفى مجالات فنون النصب وتهريب الشحنات غير القانونية ونقل طرق المواصلات وأيضاً فى استخدام العنف.. وسيشهد أى عميل فى مجال المخدرات - مثلما سيشهد نظيره عميل مكافحة الإرهاب والمخابرات أن معظم عمليات القبض والمصادرة الكبرى لا تحدث نتيجة لعمليات تفتيش عشوائية على الحدود أو المطارات ولكن تدبير تلك العمليات، يتطلب الأمر جمع الاستخبارات واختراقات سرية وصبراً ومهارة واتصالات.

والآن يتجه الأمريكيون إلى ادراك أنهم قد ارتكبوا العديد من الأخطاء فى استهداف مهربي المخدرات والإرهابيين طول هذه السنين. وهذا يرجع من ناحية إلى نفاذ صبرهم - وهى مشكلة ظلت موجودة منذ مدة طويلة فى عملياتهم الاستخبارية - وكما يرجع اختيارهم غير الموفق للأصدقاء والحلفاء. وقد أدت المحاولات المتكررة المضللة لإيجاد طريق مختصرة ثابتة لاختراق اسرار العالم الثالث إلى جعل واشنطن تقوم باختيار حلفاء غير مناسبين تماماً مثل مانويل نوريجا.

ولقد ثبت أن نوريجا كان فى قوائم موظفى الولايات المتحدة، وبعد ذلك أصبح ذلك خطأ مخجلاً. وعلى أية حال، من أفضل فى مراقبة نشاطات جماعات المخدرات الدولية من زميل مرافق فى السفر؟ وفى الواقع يشبه الأمر القيام بسؤال الثعلب أن يراقب الدجاج. وباله من موقع ممتاز يمكن منه أن يختار الثعلب الأسمن فى الدجاج والأكثر غضاضة لوجبته فى العشاء. وذلك مع مباركة المزارع وبالطبع تستره على الجريمة ! فلا تستخدم أبدا شخصيات مشبوّهة.

وينبغى علينا أن نكون حذرين جداً بخصوص الشخص الذى نستأجره حيث ان مثل تلك القرارات تنعكس مباشرة واحيانا بشكل دائم على الشخص الذى يقوم بالاستخبار وكانت تلك هى فلسفتى، فإنه عندما يكون هناك شئ قذر يجب عمله، فإنك تؤجر له رجلاً مهذباً لعمله. وإذا تم إقناع رجل مهذب بأن ما نفكر فيه هو إجراء من إجراءات الحرب، وبعد مثل هذا الإجراء يكون الأمر مسألة وطنية، عندئذ ستجد بعض من الأشخاص الممتازين ليعملوا لحسابنا. وفى المقابل، إذا قمنا باستئجار سفاح أو قاطع طرق، فسنضطر فى النهاية أن نقتل السفاح بطريقة أو بأخرى لأننا سنبتز . وسيكون ذلك المبدأ بالتأكيد صحيحاً مع أى من هذه النشاطات التى تتضمن عمليات استخبارية بين الشمال - والجنوب حيث سيكون الاختراق للثقافات والنظم الأجنبية أكثر تعقيدا وحساسية من أى من العمليات التى قمنا بتجريبها خلال الصراعات العالمية السابقة.

وفى احد اجتماعاتنا التى وقعت فى البداية، صرحت بهذه الفلسفة لجورج

بوش دون أى إشارة مباشرة إلى استئجار فوري. والآن بعد مضى السنوات، ابتلى الامريكيون بأسوأ كابوس - وهو محاكمة بمحلفين مطولة وفوضوية عقت عملية عسكرية خطيرة ومخرجة فى بنما - وكل هذا تم تخطيطه للتخلص من الفأر الذى لم يجب أبدا أن يقوم باستئجاره منذ البداية. فكانت عملية نوريجا كلها عبارة عن فشل ذريع واحد تلو الآخر. وإذا قمت - على الرغم من ذلك - باستئجار فأر، وصرت مجبرا فى النهاية على التخلص منه، فإنك تقوم بذلك بسرعة وبشكل دائم بأى شكل من الأشكال. والقيام بإحضار نوريجا لمواجهة القضاء، فى الولايات المتحدة تعتبر فكرة امريكيه واهية. فمثل هذا المفهوم الخاص بالعدالة لا مكان فى مثل هذا العالم الثالث. وقد فسدت عملية بنما منذ البداية - حيث هرب نوريجا فى الوقت الذى هبطت القوات الأمريكية فى أرضه، وقامت واشنطن بوضع مليون دولار أمريكى مكافأة للقبض عليه. اعرض ١٠ ملايين دولار أمريكى لاحضار نوريجا حيا أو ميتا، وسيهتم شخص آخر رأى فأراً أظع - بمشكلة الأمريكين تماما. وفى حالة مثل هذه، تعد حادثة منظمة أرخص تكلفة.

وعلى هذا فإنه على عدة وجوه، ربما تعد عمليات التفكير فى عمل تحالف مع نوريجا أكثر خطرا من عملية الاختيار نفسها. فعلى مر السنين، أراد الامريكيون بشدة، كما احتاجوا جدا أن يكونوا محبوبين لدرجة أن هذا قد أثر على قرارهم مما أدى إلى عمل تحالف مع هؤلاء الذين يتقنون الولاء والوفاء الأبدى، غير أن لهم دوافع أكثر فسادا. وهذا الميل إلى أن يكون المرء محبوباً وأكثر نقاط الضعف خطورة فى نظام المخابرات الأمريكى - وربما فى الشخصية. وعندما يقابلك امريكى مرتين، فإنه مستعد تماما إلى أن يسميك

«صديقى القديم» أو «صديقى الحميم»، بينما قد لا يريد هذا الصديق شيئاً أكثر من أن يدمرك. فكن حذراً من مثل هؤلاء الأشخاص. فدعوتك إلى غداء ظريف وسيجار لا يجعلك أبداً صديقاً حميماً أو حليفاً قوياً. فمثل هذه الصداقة قد يثبت أنها متقلبة بالتأكيد.

ولا يشترك السوفييت - وخاصة عملاءهم فى هذه الميزة الأمريكية. وإحدى مميزات عميل المخابرات السوفيتية كانت دائماً هى ارتباطه الشديد بروسيا الأم نفسها. فمثل الكثير من الروس الوطنيين، نجد عند العميل شعوراً عميقاً بقوة بلاده وعظمتها، وشعور بأن الشعب الروسى سيعيش أكثر من الزمان وسيعيش أكثر من الحرب، وفوق كل هذا ستعود بالمسئولية النهائية لفهم عدوه قبل أن يستطيع عدوه أن يغزوه. فليس من الضرورى أن تحب هذا العدو أو تكون محبوباً منه أو منها - فكل ما هو مطلوب هو الفهم. لكل ما يريده العميل الروسى هو أن يكون مهاباً مثله قبل إرهابى العالم الثالث ومعلميهم. وطوال المدة التى تعاملت فيها معهم - كان الروس، مثل الإرهابيين، رغبة متشوقه للانتصار والتفوق على أعدائهم الغربيين فى الحرب العالمية الثالثة وضد قوى الإرهاب والمخدرات والتعصب الدينى الذين يعتبرون أعداءنا فى الحرب العالمية الرابعة.

وبدأ الروس فى المرور بتجربة مشكلة المخدرات فى الداخل، وعلى الرغم من أنهم لم يصادفوا بعد مخاوف الإرهاب على أرضهم. وقد اخترقت نوعاً من «المافيا الحمراء» كل مستوى من مستويات الحياة السوفيتية، كما تشكل قوى وتأثيراً ضخماً.. وأى نوع من أنواع القيود التى قد تظل مفروضة على حريتها

فى العمل تعتبر هى نفس القيود التى تمنع الإرهابيين من استهداف الاتحاد السوفيتى مثلما استهدفوا أوروبا الغربية. ولم يتفاخر السوفييت بعد بالحدود المفتوحة حقا والتى تسمح للإرهابيين بنوع المداخل السهلة التى يتمتعون بها للمراكز السكانية الكبرى فى الغرب. فلا يزال هناك الكى جى بى الأكثر قوة وفاعلية وتأثيرا والتى تقتضى أثر كل أجنبى، حتى لو أنها قد قامت بتهدة عملية المسح والترويع الصارمة التى تقوم بها مع مواطنيها. إلا أنه ينبغي أن يُعرف أن الشيوعيين المتحفظين قد نحوا جانبا بلايين الدولارات ليستمروا فى حريهم السرية مثلما فعلوا بين الحربين العالمية الأولى والثانية.

ومن ناحية الإرهابيين، هناك قيود أكثر وهى ميراث سنين زراعة حقول النشاط الخاصة بالإرهاب. وتستمر عمليات الدعم للدول الإرهابية وعمليات تعليم الزعماء الإرهابيين فى الامداد بتسهيلات لحماية المصالح الروسية، غير أن الإرهابيين الأكبر سنا - الذين يتذكرون إلى أى حد هم مديونون إلى زملائهم السوفييت فى الناحية المالية والمادية والتدريبات والدعم المعنوى - قد بدأوا فى السقوط من الساحة. فلا حقوقهم الجدد لا يشعرون بتلك المشاعر. فلا ولاء لهم نحو أسيادهم الذين يتواجدون فى أماكن بعيدة فى شرق برلين وموسكو. وولاؤهم الآن يتجه نحو أسيادهم الذين يدفعون لهم، ويقطن هؤلاء فى دمشق أو طرابلس أو بغداد أو طهران. ولم تعد الشيوعية جزءا من قلب المنهج.

ولوردات المخدرات هم الذين قاموا بالاستفادة بشكل مربح من البقايا المريعة للحرب الأولى التى خسرها السوفييت. وكان الميراث الحقيقى لافغانستان، إلى

جانب التوابيت والأراميل الحزينة، هو بائعو المخدرات. ولأول مرة تذوق صفوة الرجال السوفييت الكوكايين والهرويين. وكما فعل اسلافهم الأمريكيون في فيتنام، أصبح الجنود السوفييت بالآلاف الزبائن الجدد للمخدرات وكان ذلك بالطبع عنصراً هاماً لخطتي المقترحة لكسب الحرب الافغانية التي قدمتها في وقت سابق للرئيس ريجان والتي غرقت في بيروقراطية الجهاز الأمنى الأمريكى. وكان المقصود من اغراق الثكنات السوفيتية بالمخدرات هو اهلاك روحهم المعنوية وقوتهم كما كينة محاربة فى «افغانستان». وبهذا قام تجار المخدرات الذى كانوا يقومون بتحقيق اهدافهم هم بتنفيذ عملنا بالنيابة عنا وبشكل فعال.

وعندما عاد الجنود إلى أوطانهم فى موسكو وكيف وليننجراد، قام الآلاف باحضار العادة معهم - فالرغبة الجسمية التى نموها فى محاولة فاشلة للهروب من الرعب الذى مروا به فى التلال والوديان الافغانية البعيدة. فعندما غادروا الى وطنهم، أصبحت المخدرات وسيلة للهروب من الحرمان الذى وجدوه فى الاتحاد السوفيتى والذى كانوا قد تركوه وراءهم، وفى الوقت نفسه، سمحت المخدرات لهم أن يمحووا ذكريات الفظائع التى مارسوها فى حربهم المنتهية منذ زمن. وبينما أصبح المجتمع السوفيتى أكثر انفتاحاً، بدأ توافر المخدرات فى تعذية الطلب إليها. وصار الطلب يزداد فى خطواته مع وجود العرض.

ولا يدرك الكى جى بى حالياً العمليات المعقدة الخاصة بجماعات المخدرات الدولية. والعكس بالطبع يمكن قوله عن جماعات المخدرات نفسها - فهم فقط يبلبلون أقدامهم فى بيئة العمل المختلفة جداً فى الاتحاد السوفيتى.

فطرق التعليم بالنسبة لعميل مكافحة المخدرات طويلة فى هذا العالم المعقد. علاوة على ذلك، فإن قدرات الكى جى بى على العمل فى هذا الحقل الجديد قد استهلكت بسبب الاضطرابات والفوضى المتفشية فى جميع أنحاء الامبراطورية السوفيتية. وخاصة مولدوفيا وجورجيا وجمهوريات البلطيق بالاضافة إلى الجمهوريات الآسوية التى كانت صعبه جداً فى علميات العمق الداخلى.

وعلى هذا، فإن الروس فى طريقهم إلى استيعاب الحقيقة الجوهرية هى أن القيادة السياسية فى الغرب قد بدأت فى تقبل هذا مؤخراً. والوسيلة الحقيقية الوحيدة القابلة لتنفيذ عملية تدمير جماعات المخدرات الكبرى وجماعات الإرهاب الأكثر خطورة هى تدويل الحرب ضدهم - بالإضافة إلى النشاطات الاستخبارية التى تراقبهم - وايضا هى استهداف الأمم التى تأويهم، وحكومات العالم الثالث التى تقدر فائدتهم كأسلحة فى الحرب الحالية والقادمة بين الجنوب والشمال.

فالخطوة الأولى لاتختلف عن أى من العمليات الاستخبارية. فبارونات المخدرات ليسوا بالإرهابيين الذين ينتمون الى نوع الفدائيين اليابانيين. وكمقاولين مستقلين، يعيش هؤلاء حياة مريحة للغاية، وشكراً جزيلاً لك، فهم يحبون المال وكل شئ يستطيع المال أن يشتريه، ولا يرغبون فى الاستغناء عن اسلوب حياتهم بسهولة، وبالطبع هدفهم ليس زعزعة الأمن فى الدول الديمقراطية الغربية أو النظام السوفيتى اهتماماً بأى دين أو تعصب عرقى. فهدفهم هو بوضوح وسهولة هو كسب المال، الكثير من المال لإنفاقه بسخاء على أنفسهم. فإذا قاموا ايضا بتحقيق أهداف الحكومات التى ترعاهاهم أو تأويهم، فإن هذا يُعد مجرد عامل إضافى.

وبمجرد أن نفهم دوافعهم، صارت أكثر التكتيكات فعالية لآبادتهم واضحة تماماً، وتماثراً كما اقترحت على الرئيس جيسكار ديستان بأن تستهدف الإرهابيين كورسيكان بقائمة ضرب مختارة، فنصيبهم واحداً واحداً حتى تصل إليهم الرسالة، وهكذا يجب أن نتصرف مع زعماء جماعات المخدرات. ولن يمكن إنكار العمليات تلك بسيطاً. أولاً، سيكون هناك مؤسسة لما سيبدو وكأنه منظمة حذرة للقوى الغربية والتمويل غير المحدود. وستكون منظمته متعددة الجنسيات وتؤديها سرا رؤساء عمليات مكافحة المخدرات في دول الاستهلاك الكبرى، وكما ستعمل تحت اسم مستعار.

وسيكون من الضروري وجود تعاون البوليس الدولي وأعمال الاستخبارات العليا من أجل نجاح مثل هذه العملية. وكذا يُعد الجواسيس في داخل الجماعات الرئيسية والمعرفة الدقيقة لحركات زعمائهم ونقاط ضعفهم على أساس لحظه بلحظه عن الأشياء الحيوية. وعلاوة على ذلك، كل عملية فاشلة ستساعد في تقوية الاحساس بصلابة هؤلاء الزعماء بين تابعيهم وبين هؤلاء الذين يحاولون اصطيادهم.

وإذا كان عندنا أى أمل فى كسب الحرب العالمية الرابعة، فعلىنا أن ندرك بينما يعتبر التعاون أكثر الأسلحة تعقداً، إلا أنه أكثر إهلاكا.

خاتمة

منتدى القوم المحترمين

تشهد ما نسميه الحرب العالمية الرابعة عودة إلى بعض من أكثر اصولنا بدائية وذلك فى العديد من الجوانب، وتحدد عقلية القرون الوسطى الايرانية بشكل فعال المفاهيم الاستراتيجية للقرن الحادى والعشرين. وعلينا أن نستعد تماما لتقبل القواعد الجديدة للاشتباك وللوصول إلى ميزان جديد للقوة أو الارهاب لكى نضمن السلام. ويجب أن يسود مفهوم «التدمير المعين» الذى سيحدد الاستقرار الجديد فى عصر ما بعد العصر النووى بسرعة وذلك إلى جانب مفهوم «التدمير المؤكد المشترك» الذى ضمن السلام من إرهاب التوازن النووى. والتدمير المعين» هو المفهوم الاستراتيجى الجديد الذى سيمنع الدمار العالمى فى الحرب العالمية الرابعة، فالتهديد رهيب حقا فى مبلغه ومداه، ويتطلب نظاما استراتيجياً جديدا كلية للتخاطب والتوافق معه - وهو نظام من الأنظمة التقليدية والتكتيكات غير التقليدية القادرة على تأكيد السلام بالطريقة التى أكد بها التوازن النووى السلام لمدة النصف قرن الماضى. وأصبح العالم الآن مكانا مختلفاً عما كان عليه حتى من خمس سنوات مضت. وتقوم انحيازات سياسية وعسكرية جديدة بتغيير ميزان القوة وميزان الارهاب ايضا. وينبغى أن تواكب كل مؤسساتنا - السياسية والعسكرية وخاصة الاستخبارية - هذه التغييرات أو خدعنا. وفوق كل هذا، فإن تحديد الحرب العالمية الرابعة هو سبب حاجتنا إلى منتدى.

وربما يمكن أن يطلق عليه اسم منتدى القوم المحترمين - ويكون أعضاؤه دولاً مثل تلك الدول التي تعتقد في احترام الفرد وحق كل منا في عيش حياتنا كما تحب وأن نحق الثراء أو الفشل طبقاً لمواهبنا ورغباتنا والتي فوق كل شيء تؤكد أن جيرانهم سيتركون في حالهم ليحققوا مصائرهم واقدارهم. وينبغي أن يصبح هذا المنتدى شرطى العالم. لأنه في الوقت الذي ينفجر فيه العالم الآن من خمسة بلايين شخص ليصبح ٨٠ بليون شخص كما هو مقدر بحلول عام ٢٠٢٥، سيحتاج كل فرد بشدة إلى بعض الضمانات بأنه يمكن أن يكون هناك على الأقل القليل من الخلاص من الفوضى والعنف غير المتوقع الذي يجهز له الدكتاتوريون المتعصبون وبارونات المخدرات على السواء.

وينبغي أن يكون لمنتدانا حق حماية الحياة الانسانية وأماننا أساساً بقاء الحضارة كما علمناها. وسيكون أعضاء المنتدى من القوى الحقيقية للعالم الشمالى- الولايات المتحدة وأوروبا واليابان- بالإضافة إلى أصدقائنا المحترمين من الجنوب ويتعهد كل عضو بإعطاء قوة متميزة قوامها مائة ألف رجل وكل الأجهزة الأساسية فى البر والجو والبحر ومساندة بالمؤن وأى تمويل قد يطلب لأى عملية مقترحة . وسيتم تصميم قيادة مركزية عمل أعضاء ومراكز رئيسية دائمين وتأسيس إدارة منظمة حلف شمال الأطلسى- لكن بدون شمال الأطلسى.

وسيقوم كل الأعضاء فى المنتدى بالتعهد بتنفيذ أى إجراء ترى القيادة أنه ضرورى ومناسب، وذلك تحت معاهدة ملزمة تشبه اتفاق الحلفاء الذى أسس النيتو ويصدق عليه الهيئة المناسبة فى كل دولة. وفى الغالب، سيكون زعماء

المنتدى مستعدين للتصرف بسرعة البرق وبسرعة تامة فلن يكون هناك وقت للمشاورات مع اللجان البرلمانية، ولا حتى دقيقة نوفرها للأصوات السياسية وانتخابات الثقة. وبالطبع قد لا تعرف نتائج أكثر العمليات نجاحاً أبداً. إلا أن أقل تردد يحدث قد يسبب فى نتائج مروعة بالنسبة لمستقبل الحضارة.

وقد بدأت النيتو بالطبع- وخاصة الإدارة الأمريكية التى اخذت زمام القيادة فى التحرك نحو رد الفعل السريع الذى يعد الأساس التكتيكى لمنتدى القوم المحترمين. وعملية إعادة بناء النيتو التى تجرى حالياً مصممة لتؤسس وحدة فى حجم اللواء متحركة ولها ردود فعل سريعة وتتكون قواتها من خمسة آلاف شخص يمكن لهم أن يتواجدوا على الساحة فى حالة الطوارئ بأجهزة كاملة فى خلال ٧٢ ساعة، كما تتم مؤازرتهم بسلاح ذى ردود فعل عاجلة يتكون من ألف إلى ٧٠ ألف جندي يتوفرون خلال خمسة إلى سبعة أيام ويقعون تحت القيادة البريطانية. وستكون الوحدة من فرقة مدرعات ثقيلة بريطانية متمركزة فى ألمانيا، وفرقة بريطانية ثانية من المدرعات الخفيفة والمظلات والعمليات الخاصة والبحرية، وأيضاً فرقتين من الفرق متعددة الجنسيات، علاوة على فرقة أمريكية ستقوم بالامداد بالطائرات والهليكوبترات وقدرات للشحن الجوى للسلاح بأكمله. لكن فى الواقع تعد حركة النيتو الخطوة المترددة الأولى فقط نحو نوع من القدرة العسكرية والسياسية الموحدة التى تستطيع أن تضمن السلام الدائم أو المدعم. ولا تزال فرنسا تعزل نفسها من النيتو حيث أنها ليست بعضو فى القيادة العسكرية للمنظمة. وقد استمرت الادارة الفرنسية فى الضغط من أجل البديل غير العملى لقوة أوربية خالصة تحت قيادة أوربية، ومن ثم متجاهلين متطلبات حرب الجنوب والشمال التى تحاربها الآن.

ولابد أن تتوسع النيتو، لا أن تقلص، النطاق القانونى لنشاطاتها التى لا تزال حتى زمن الكتابة محددة تماما بأوربا وشمال الأطلنطى. غير أنها يجب أن توسع أيضا إرادتها السياسية للتدخل فى الأزمات عندما تتعرض المصالح الشمالية للخطر.

وكان قرار إدارة بوش فى سبتمبر ١٩٩١ بحل الترسانة الأمريكية النووية قصيرة المدى وبالتوجه نحو نوع التسليح النووى يعد بوضوح حركة استراتيجية هامة فى عملية إعادة استهداف القوى النووية. وكانت الإشارة واضحة- ستحتفظ الدول الشمالية فى المستقبل بقدرة نووية كافية فقط على العمل كقوة ردع ضد العدوان من قبل أى أعداء غير متوقعين أو متهورين- وبدلا من ذلك، سيعاد توجيه المصادر نحو انواع القوى القادرة على تدعيم عقيدة التدمير المعين- وهو ضربات جراحية سريعة تستأصل السرطان قبل أن يكون لديه فرصه للانتشار بسرعة.

وكما اكتشفنا تكرار خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الرابعة أنه عندما نتردد نضيع. ولن تجدى الخطوات التجريبية والاجراءات الجزئية فى البيئة العالمية الجديدة. ولابد أن تمتلك القوات العسكرية المنشورة وسائل ساحقة. فعليهم أن يزرعوا الخوف فى قلوب الطغاة الذين لم يعرفوا الهزيمة أبدا، وعليهم ليس فقط أن يبدو أنهم لا يقهرون أبدا، بل يجب ألا يقهروا أبدا فعلا.

ومنتدى القوم المحترمين ليس بجهاز لتجميد بعض القوى، وليس بمجهود متخف بمهارة لإهلاك أعداء دولها الأعضاء- فالاهتزازات والتوازنات الخاصة بالمقتضيات السياسية المتنافسة فى العديد من الأمم ستؤكد أنها لن تتحول

إلى منتدى للانتقام. كما لا ينبغي أن يتم تضييع وقت أو مجهود على المناقشة حول اختيار قائد من دولة أو أخرى. ففي أثناء حرب الخليج، لم تعترض واحدة من الدول المشاركة بقواتها ولو للحظة واحدة على قيادة الجنرال نورمان شوارسكوف.

ولن يكون المنتدى مجتمعا ومقيداً ومغلقة كلية. ومن المحتمل أن يتم استدعاء العديد من الدول الأخرى المحترمة للمساعدات المتخصصة حين تجعلهم قدراتهم العسكرية والاستخبارية خياراً واضحاً في أزمة أو أخرى. وسيكون المنتدى ببساطة ووضوح وسيلة للتأكد من أن أحد الديكتاتورين المخبولين أو إحدى الأمم المنشقة لن تدمر بقية الكوكب.

وعلى هذا فلن يكون هدف منتدانا أي فرد واحد - على سبيل المثال، لاصدام حسين ولا كيم الثاني سونج، ولا معمر القذافي ولا حافظ الأسد. فسيكون هدفه ببساطة هو التأكد أن لا أحد ولا دولة تستطيع أن تكون تهديداً لبقية العالم وخاصة تهديداً نووياً. فإذا أصبح مثل هذا التهديد حقيقة، فسي تدخل المنتدى بقوة عسكرية لتستأصله في ضربة جراحية بسيطة للحصص الواضحة والضخمة.

وفي كل حالة بالطبع، سيتم وزن نتائج التدخل بعناية وسيرتکز قرار التحرك على أفضل استخبارات ممكنة. فقبل القيام بعملية عاصفة الصحراء، ضللت إدارة الولايات المتحدة بشدة ليس فقط من قبل حلفائها في العرب والعالم العربي، ولكن أيضاً من قبل متخصصيها في المخابرات. فالجميع توقعوا الفناء - السريع لاصدام حسين وجهازه العسكري - السياسي بأكمله. غير أن

الانتفاضة المتوقعة لم تتحقق أبداً. واستمر صدام حسين كسرطان فى بلاده والمنطقة بأسرها - سرطان بدأ فى النمو مرة ثانية حتى قبل أن تتم الجراحة.

وما نناقشه هنا هو التهديدات التى تتخطى الحدود الفردية. فنحن لا نقترح أن العالم ينبغى أن يعاد تشكيله طبقاً لتصورنا الغربى. ولن يكون المنتدى بأى شكل من الأشكال محاولة لتأسيس نظام عالمى جديد. ونأمل أنه فى الوقت الذى تصبح فيه الرغبة فى خفض التهديدات جزءاً من النظام الدولى المقام، تصير العمليات العسكرية أقل وأقل ضرورة وعددا ومتباعدة فيما بينها.

فكل ما نريده هو إعطاء كل دولة الحرية فى خلق مصيرها طالما لا تسعى إلى فرض مصيرها هذا على جيرانها. وعلى زعماء كل الأمم أن تدرك أنه إذا قاموا بتكديس الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية وقاموا بالتهديد باستخدامها بشكل صار كتحذد للنظام المقام وللحضارة وراء حدودهم، فإن هذه الأسلحة والقدرة على استخدامها سيتم تدميرها تماماً بالتأكد.

وسيكون منتدى القوم المحترمين الرادع النهائى. فإذا تم تكوينه ونشره بشكل صحيح، فإنه سيتضمن تنفيذ التوازن الاستراتيجى بسياسة التدمير المعين، التى سيمنع من ظهور جهنم عالمية من الحرب العالمية الرابعة - أو توازن الرعب - مثلما منعت سياسة «التدمير المؤكد المشترك» جهنم من النمو فى الحرب العالمية الثالثة.

دعونا نفترض أننى فى العام القادم، علمنا أن ديكثاتوراً غريب الاطوار على بعد ستة أشهر من أكمال قنبلة ذرية. ماذا ستفعل؟ هل نجعله يوقع معاهدة عدم نشر الأسلحة النووية؟ ومن ثم فى هذه الحالة، سيتم تدمير

الكوكب وقدراته الكلية على انتاج سلاح نووى تماما فى الحال بسبب منتدى القوم المحترمين فعندما قصفت الطائرات الأمريكية طرابلس فى ١٩٨٦ ، كان لهذا تأثير بسيط أو لا تأثير على الاطلاق على قدرة القذافى على إجراء عمليات هجوم إرهابية. وبالطبع فشلت المهمة حتى فى أن تعد القذافى نفسه وتدمره. وبدلا من ذلك، سقوط القنابل على مساكن بعمق المجاورين وقتلت بعض النساء العجائز والأطفال- وهو ما استغله القذافى بشكل فعال لأهداف للدعاية. لكن حتى هذا التصرف المضلل وغير فعال بشكل واضح لم يكن له نتائج هامة- فقد أعطى القذافى مهلة. ولعدة سنوات بعد عملية القصف، صار القذافى إلى حد ما مقيدا فى استخدامة للإرهاب وتوزيعه للدعم على الجماعات الإرهابية وفى نطاق تعاملاته الكلى مع الإرهاب الدولى. وباختصار لم تؤثر المهمة على إرادته، إذا لم تؤثر على قدرته، على إثارة السلاح الإرهابى. فحرب حقول بتروله وإزالة مصادر التمويل للعمليات الإرهابية كان من الممكن أن يدمر قدرته على إثارة الإرهاب أيضا.

ومثل هذا التصرف هو بدقة ما حاولت الولايات المتحدة وحلفاؤها أن يتخذوه ضد صدام حسين فى الخليج الفارسى. وعلى هذا انتقد الحلفاء فى بعض الاجزاء لاستهدافهم زعيماً من المحتمل أن يكون لغته فى الغرب (والشمال)ولكنه يعتبر بطلا فى العديد من مناطق العالم الثالث. وبالتأكيد كان صحيحا أن صدام حسين شخصية لها شعبيتها فى بلاده وفى بعض الأماكن. ونحن أعضاء المنتدى لم يكن ليصبح لدينا مشكلة فى ذلك. فكان يمكن له أن يفعل ما يريد فى داخل حدوده- طالما أن شعبه يتحملة. فكان يستطيع أن يتوج نفسه امبراطورا مدى الحياة، وأن يعلن تحويل شعبه إلى الشنتوية أو الشيعة،

ولكنه لم يكن يستطيع أن يبني مصانع لانتاج الأسلحة .الكيمائية والبيولوجية والذرية، ولا أن يستولى على أرض أمه مجاورة مسالمة دون أى إثارة قامت بها، ولا أن يهدد لحظة واحدة العالم خارج حدوده.

فى الواقع، ما حدث فى الخليج الفارسى كان هو أول عملية لمنتدى القوم المحترمين والعملية تكشف كل من نقاط القوى والضعف فى الخطة أولا، سيحتاج المنتدى إلى التحرك بسرعة- وهو سبب رئيسى لتقيد العضوية وفرص العمل دون مشاورات. وكان عدد الدول التى ساهمت بالقوات والمواد أو ببساطة بالمساندة المعنوية فى عملية عاصفة الصحراء كبيرا جدا لدرجة أنه قيد أى مناورات عسكرية أو دبلوماسية ذكية. وفى النهاية، كان الهجوم الأمامى هو البديل الوحيد المتاح رغم قصر مدته، إلا أنه ترك بقايا مميّزة ألا وهى برنامج الأسلحة النووية العراقى الذى لا يزال يجب محوه.

ثانيا ستحتاج قوى المنتدى إلى التحرك إلى مكان ممكن فى السر مستخدمة قوى ضرب جراحية صغيرة لاقتلاع التهديد المعين. فاجبار صدام حسين على القيام علنا بمواجهة القوة العسكرية الكلية للشمال واجزاء من العالم الجنوبى اجبر فقط على أن يحفر باقدامه بعمق أكثر ويوسع من الصراع. فانقاذ ماء الوجه دافع قوى لآى ديكتاتور أو بالطبع لآى حاكم لآى قطعة.

وعلاوة على ذلك سيحتاج المنتدى إلى مخابرات من الدرجة الأولى، متوافرة فورا لقيادته المدنية والعسكرية. ففى أثناء حرب الخليج، أدت التقديرات الاستخبارية المتضاربة لو كالة المخابرات المركزية ووكالة مخابرات الدفاع ووحدات المخابرات بالمعارك- وخاصة بخصوص تقديرات خسائر القصف- إلى

الارتباك على مستوى العمليات - وهو ما كان المحل الرئيسى لشكوى الجنرال شوارسكوف.

وقد تكون المرحلة الأولى فى تكوين منتدى القوم المحترمين مجهوداً استخبارياً عالمياً يتم تنسيقه عن طريق إدارات المخابرات لأعضاء المنتدى. وقد تصبح وحدات العمليات لأجهزة المخابرات هذه ذراعاً عسكرية مؤقتة للمنتدى - فتخيلوا ضربة جراحية مفاجئة تقوم بها وحدة مثل الجهاز الجوى المتخصص ببريطانيا ضد أكثر حقول ليبيا انتاجاً أو أماكن التدريب الإرهابية التى تسيطر عليها سوريا فى وادى البقاع بلبنان؟

فيستطيع المنتدى أن ينجز الكثير بدون أن يطلق حتى طلقة واحدة. وإضافة هامة واحدة إلى المنتدى هى تأسيس محكمة دولية لمحاكمة الإرهابيين ومؤازريهم يحدد أعضاؤها المنتدى. وسيتم محاكمة كل إرهابى أمام محكمة متخصصة يكون مكانها - على سبيل الجدل - فى نومبرج بألمانيا حيث وقعت محاكمات جرائم الحرب لاتباع هتلر. وسيتم محاكمة المتهم شخصياً إذا تم إلغاء القبض عليهم ، أو غيابياً إذا لم يقبض عليه، وتذاع النتائج عالمياً فى البى بى سى وصوت أمريكا والديوتش فيلى والراديو الفرنسى الدولى.

«السيد فلان، لقد تمت محاكمتك وإدانتك بالقيام بالأعمال الإرهابية.

أنت مسجل فى الدفاتر الآن، ونحن سنلاحقك طول عمرك، ويوما ما سنقبض عليك.

مثل هذه الجملة سيكون لها تأثير رادع كبير، خاصة بعد أن يتم تحديد أول مجرم، ويلقى القبض عليه ويتم إعدامه أو سجنه.

وسيبداً زميله أو زميلاته فى التفكير.» مازال أمامى أربعون أو خمسون سنة أخرى لأعيشها وهذه المنظمة القوية ستطاردنى بقية حياتى. لابد أن هناك طريقة أفضل من الهروب لقضاء بقية أيامى.

وعلىنا أن نثبت لهؤلاء الخارجين على القانون الدوليين أننا جادون- وأن لدينا الإرادة والتصميم على أن نصمد أكثر منهم. ولن تتجمع التهديدات مع المتعصبين ولكنها ستنتج مع هؤلاء الذين يتلقون الأموال من الحكومات التى تسيطر على المتعصبين وتوجههم. وقد حدد المحققون فى قضية تفجير الطائرة بان أمريكان ١٠٣ فوق لوكيرى باسكتلندا التى كانت وراءها سوريا وليبيا هؤلاء المحترفون الذين قاموا بالعملية الذين استخدمهم القذافى الذى كان يقود عملاء مخابراته وأعضاء القيادة العامة بجهة التحرير الفلسطينية.

وكل أسماء هؤلاء ينبغى أن تكون فى قائمة المراقبة طول الحياة التابعة للمنتدى.

وسيكون نوع قوى الحرب التى سيحاربها المنتدى مختلفاً جداً عن أى قوى حرب فى الماضى. وهناك عدد من الأسباب لذلك- وهى الطبيعة المختلفة للعدو واستراتيجياته وتكتيكاته الأكثر تعصبا. وغالبا ما يكون من الصعب كشف قوى الإرهاب التى يشنونها ضدنا فى هذه الأرض التى قاموا فيها بتمويه انفسهم. وفى المقابل، عندما نصل إلى عواصمهم، ترمقنا فى الحال أقل العيون تدريباً. نحن لا نستطيع أن نتنكر فى وسطهم، مما يجعل الانتقام وتنفيذ التدمير المعين، صعباً جداً.

كان هناك مكتشف فرنسى فى القرن الماضى هو رينيه كيليه، وقد أمضى

سنوات متنكرا فى شمال افريقيا. ولم يكتشف أبدا. حتى جاء يوم كان فيه فى الصحراء، واعتقد أنه بمفرده، ومن ثم تبول وهو واقف، والمسلمون لا يفعلون ذلك أبدا، فهم ينحنون. وكان مراقبا، وقام بقطع رأسه. فغلطة واحدة بسيطة جدا مثل هذه - وتفقد رأسك.

وفى الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة يوجد نفس احتمال القلاقل مجتمعات أسبانية وإسلامية قادرة على إخفاء قوى من الممكن أن تنفجر وقد فشلت عدة حكومات أمريكية متتالية ببساطة تامة فى أن تواجه المشكلة.

إنه غرورنا وإهمالنا فى هذه الأمور الذى سيكون فى النهاية سقوطنا عندما تطلق الطلقات الأولى من الحرب العالمية الرابعة بغضب فى أوروبا وأمريكا. فال فشل الزرع فى احتراق هذه المجتمعات الجديدة القادمة سيكون له أسوأ العواقب.

وبالتأكيد تفهم كل أجهزة المخابرات الحاجة إلى التسلل وقيمته وصعوباته. وقد استغل الحلفاء التسلل كثيرا فى أوروبا فى الحرب العالمية الثانية.

وقد كان هو حجر الزاوية لحركة المقاومة فى فرنسا. وفى نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع قدوم الثالثة بهدوء، قام ستالين بتحريك التسلل إلى رقبه أكبر، فتسلل إلى الغرب بعملاء متنكرين على أنهم مهاجرون منشقون أو مجردون من الحصانة غير أن متسللى اليوم الذين صاروا أكثر من مجرد عملاء لجمع الاستخبارات أصبحوا وسائل التدمير والعراك أيضا وستكون الحرب العالمية الرابعة حربا إرهابية.

وفى الواقع، يمكن أن يصبح بعض هؤلاء الأجانب الموجودين بيننا - أولئك

الذين يمارسون الإرهاب ويناصرونه- الصواريخ التى كان يمكن لها فى أثناء الحرب العالمية الثالثة أن تدمر بلادنا، لكن بسبب السيناريو الاستراتيجى لمفهوم التدمير المؤكد المشترك، ضمت ميزان الرعب. ولاختلاف اليوم هو أنى لا يوجد خمس دقائق تأخير، فالصواريخ البشرية للحرب العالمية الرابعة موجودة هنا بالفعل! ولا غلك دفاعا مضادا للصواريخ لهم، ولا حتى حروب النجوم أو الصواريخ الباتريوتية لاستهدافهم. وعلاوة على ذلك، ليس لدينا القدرة الانتقامية لنضمن التدمير المعين الذى تمنعه الحرب العالمية الرابعة وحقائقها الاستراتيجية الجديدة.

وعلىنا أن نتطور بقدرة للانتقام إذا تم إطلاق تلك الصواريخ البشرية عن طريق ضرب قواعدها وتدميرها. ومع وجود القدرات الاستخبارية المحسنة، علينا أن نطور أنواع أنظمة الانذار المبكر عن بعد التى ستنبهنا إلى انطلاقهم. وستستخدم بعض الدول الإرهاب بشكل أكثر فاعلية من دول أخرى كوسيلة للحرب أو سياسة الأمة أو الجيش. ومن الواضح اليوم أن ليبيا وسوريا وإيران وكوريا الشمالية والعراق من بين الدول الإرهابية الرئيسية. علاوة على ذلك، هناك تقاليد فى كل بلد- وهى قوى تاريخية عميقة- تجعلهم أكثر ميلا من الآخرين إلى التوجه للارهاب كسلاح ضد الشمال.

والأسلحة الإرهابية اليوم صارت مجرد ترجمة أكثر تعقيدا للخنجر. ولم يعد الإرهاب اليوم مجرد إلقاء قنبلة يدوية فى سينما مزدوجة فى عاصمة كبرى أو اغتيال سيناتور أمريكى. فهو يمكن أن يتضمن وضع السم فى مراكز إمداد المياه فى باريس أو نيويورك أو زرع جهاز نووى فى قلب مدينه كبرى فى أوروبا أو أمريكا.

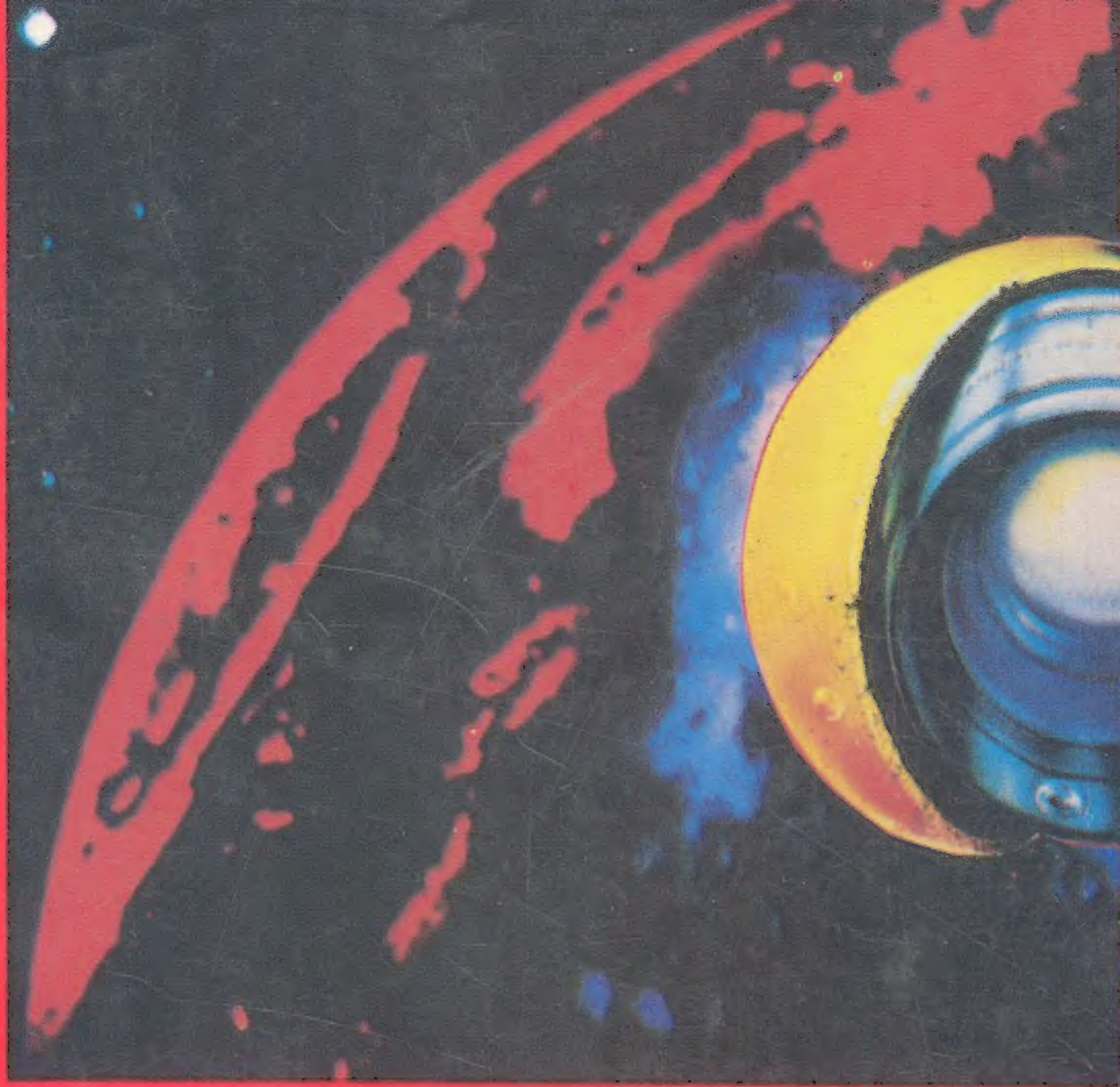
ولازلنا حتى الآن محظوظين. وحتى الآن لا يزال الارهابيون والمتعصبون من كل نوع ماهرين جدا. أى أنهم منظمون جدا فهناك احتمال ضعيف أو لا فرصة على الإطلاق كى يتم القبض عليهم. غير أنه لم يكن هناك أهداف دقيقة حددها. الراعون لهم لأسباب سياسية. فيتم إعطاء زعماء الإرهابيين كميات من المال والمعدات ويقال لهم: « أفعلوا ما تشاؤون، فقط اجعلوا الحياة صعبة لاعدائكم هناك بأى طريقة تختارونها. »

ولكن حظنا السعيد لن يظل معنا للأبد فى الوقت الذى بدأت فيه الحرب العالمية الرابعة. فالمرحلة التالية هى المرحلة التى نحن بصدد دخولها الآن. وهى المرحلة التى يصبح فيها الارهابيون الأسلحة الدولية المستهدفة بدقة والتى يمكن أن تحولهم إلى أدوات عاتقة لقوة الدولة أو للقوة العسكرية. ونحن بصدد الدخول فى فترة سيعطى فيها زعماء الارهابيين من قبل الحكومات التى تأمرهم وتقودهم كل شىء من الكميات غير المحدودة من الأموال والأسلحة بالاضافة إلى التعليمات التالية:

«الآن انتم منظمون- أنتم جيش، وستجعلون الحياة صعبة للغاية بالنسبة للعدو بهذه الطريقة وفى هذا الوقت وهذا المكان بالتحديد. وهذه هى الأهداف التى اخترناها، وأنتم ستدمرونها. »

وستكون الحرب دهاء، ولكنها ستكون أكثر هلاكا وخطرا فرجاؤنا اليوم هو نداء عاجل للعمل . فالיום الشىء الذى يراهن عليه هو النظام العالمى كما نعرفه.

رقم الإيداع ١٠٣٨٩ / ١٩٩٢
I.S.B.N 977 - 208 - 099 - 0



THE **FOURTH WORLD WAR**

DIPLOMACY AND
ESPIONAGE IN
THE AGE OF
TERRORISM

COUNT DE MARENCHES
AND DAVID A. ANDELMAN